مكي أبو قرجة

صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية

(سيرة عائلة سودانية ما بين قرنين)

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مكي أبو قرجة/صحفي وكاتب من مواليد مدينة كوستي بالسودان وتلقى دراسته الأولية والوسطى في مدارسها ثم المؤتمر الثانوية بأم درمان. تخرج في كلية الحقوق بجامعة القاهرة – فرع الخرطوم. وصدر له «اليهود في السودان» (طبعتان)، «أصوات في الثقافة السودانية» (طبعتان)، «الأمل والقنوط في بلاد الأرناؤوط»، «صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية». وله مجموعة شعرية تحت الطبع.

....

صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية
مكي أبو قرجة
الطبعة الاولى يناير 2015
رقم الإيـــــداع: 2014/25317
الترقيم الدولي:978-977-5154-35-4

الناشر
محمد البعلي

اخراج فني
علاء النويهي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
elbaaly@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

صولة بني عثمان في ملاحم الثورة المهدية

(سيرة عائلة سودانية ما بين قرنين)

الفهرس

إهداء 5
مقدمة 7
عثمان العربي 17
الإمام المهدي 45
تجربة بحارة 77
أبوقرجة مدبر المهدية 99
حملة هكس 107
عبد الله ود سلمان 121
من فداسي إلى حصار الخرطوم 129
نصر ومصطفى عثمان العربي 147
تحرير الخرطوم 161
الأميران شيخ فضلو وشايب 173
الحسن عثمان العربي........................ 185
أبوقرجة في شرق السودان 211
أبوقرجة ونكبة الأشراف 227
حسين عثمان العربي........................ 267
الاستدراج إلى الفخ 277
المنفى.. جزيرة الموت 297
علي عثمان العربي 315
أبوقرجة في سنواته الأخيرة 321
زكريا عثمان العربي 339
حسن الحسن عثمان العربي........................ 347
كنتبـــاي أبوقـــرجة 389
مأساة آل سنادة 439
ابن كاشات 447
المبارك 455
سواقي عثمان العربي تطل في القرن الثالث 465

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أرواح أجدادي الغر السوابق

الذين لم يفلتوا سانحة التاريخ

فاقتحموا أبوابه ظافرين

وإلى روح والدي التي ما زالت تطوف

حولنا فتمنحنا العزم والإقدام

وإلى روح والدتي التي لولاها

لما اغتنت الروح واتقد الفؤاد

المقدمة

«يا حليل أولاد عثمان

الكلهـــــم فرسان»

حتى نهاية العقد الأول من القرن العشرين إعتاد أهالي القطينة على رؤية إعرابي كهل يطوف دروب بلدتهم ثملاً. يعود من الحانة مساءً محتقباً عصاه، وتبرز سكين طويلة من ذراعه العاري. كان يردد لازمة تتخلل حديثه الصاخب بين الفينة والأخرى «يا حليل أولاد عثمان الكلهم فرسان» حتى انقضاء الثلث الأول من الليل. كان يعدد مآثرهم ويذكر مقاتلهم بكثير من التفجع والإنفعال. ويجأر أحياناً بالبكاء. ثم لا يلبث أن يتحدث عن وقائع الثورة المهدية وبطولة الرجال ويتحسر على تبدل الأحوال.

لقد شهدت بلدة القطينة طفولة أولاد عثمان العربي ويفاعتهم ومن ثم صباهم الذي وسمته الرجولة ونبوغ مبكر وصفات نادرة عز أن تجتمع في الرجال. كانوا نسيجاً مختلفاً في ضروب السعي والنشاط. كانوا أصحاب ثروة ورخاء إلا أنهم كانوا أهل سطوة وإقدام، وأهل حرب وعناء. إقتحموا المجاهل وما كان لهم من دليل سوى النجوم. عركتهم الأسفار الطويلة الشاقة فخبروا الدنيا وذاقوا مرارتها. فازدادوا بتلك الخبرات جوداً بالماعون وسبقاً لنصرة المظلوم. وباتوا كالمصابيح للسارين في ليل الدجى.

كان المؤرخ محمد عبد الرحيم منفعلاً بهم يغمره الحماس حين قال «ربما كان أولاد عثمان العربي من أنجب الرجال الذين عرفهم السودان». لم يكن ذلك المؤرخ الفذ بعيداً عنهم حين قال. ولم تأت إليه أخبارهم عن طريق الرواة. فقد رآهم رأي العين واتصل بهم منذ أن كان مجاهداً شاباً في صفوف الأنصار. صحب أباه الذي كان قيادياً شارك في حصار الخرطوم. واستمر في علاقته بأولاد عثمان وثابر على ذلك حتى نهاية الدولة

وقيام عهد جديد. كان كثير الإعجاب بالأمير أبوقرجة فتابع مراحل حياته حتى اللحظات الأخيرة حين حضرته الوفاة في عام 1916م.

كان يزوره مريضاً في فراش الموت. فوصف حضوره وبسالته متألقاً ومتحدثاً إلى زواره - وهو في الرمق الأخير- بكل طلاقة وثبات.. مستخفاً بالردى الذي ظل ينازله منذ غضارة الصبا.. رابط الجأش حتى أسلم الروح. وروى محمد عبد الرحيم كيف شارك في موكب تشييع جنازته الرهيب الذي خرجت فيه أمدرمان عن بكرة أبيها تودعه. العلماء والفضلاء والأعيان والرجال شيباً وشباباً. وصلى على جثمانه الطاهر السيد عبد الرحمن المهدي ودفن في مقابر الشهداء.

كنا شباباً في العشرين حين توجهنا إلى مكتب الشرطة بمدينة كوستي لاستخراج بطاقات الجنسية التي تمهد لاستخراج جوازات السفر في الخرطوم. كان الضابط المسؤول فظاً، متعالياً مدلاً بدبورتيه الإثنتين. إستقبلنا بفتور وقصور همة. عاملنا بخشونة لا مبرر لها فلم نحتملها. فبادلنا معاملته بكلمات أشاعت مزيداً من التوتر. قذف نحونا باستمارات الجنسية لنملأها. كانت هي المرة الأولى التي نراها. قصدت إستفزازه والثأر لأنفسنا حين وجدت عبارة «أين كان يقيم أسلافك من جهة الأب؟» فكتبت «كانوا يقيمون على صهوات الجياد يحررون البلاد شبراً، شبراً». فجن جنونه وأراد أن يخوض حرباً ما إليها سبيل. ولكنه تراجع وكظم غيظه واكتفى بأن رفض أن يعتمد تلك العبارة وطالب بتغييرها فرفضت وأدرت ظهري خارجاً من مكتبه. كنت صادقاً فيما زعمت وكنت ممتلئاً فخراً بأولئك «الجنرالات» العظام الذين حفروا عميقاً في تاريخ الوطن. كما كان هو غارقاً في أوهامه بالبطولة في كسوته الكئيبة.

وحينما أكتب الآن عنهم فليغفر لي القارئ إفراطي في محبتهم — وهم جديرون بما هو أكثر – فلقد نشأت عليها منذ الفطام. وقد ظلت أرواحهم تلازمني منذ ذلك الزمن المبكر. فحين كنت طفلاً في أوائل سني عمري كنت نحيلاً أعاف الطعام. فتحاول أمي

أن تطعمني بلا جدوى. حتى تأخذ في إعداد اللقمة وتضعها في فمي وتقول «هذا سيف جدك» ثم تتلوها بأخرى وتقول «هذا فرس جدك»، ثم درعه فخوذته وحربته حتى تلقمني كل آلته الحربية وأنا أازدرد الطعام ببسالة ولا أقاوم. ثم نشأت على حكاياتها المدهشة عن هؤلاء الرجال. أستمع إليها مساء كل يوم بشغف وانفعال دون كلل أو ملل. تظل تروي وتروي ليتدفق هذا التاريخ حاراً في شراييني حاضراً في حياتي.

كانت تبتدر أحاديثها بقولها «حدثتنا أمي ختمة وقالت. وروت أمي أم العوض. وقالت أمي أم يوسف. فالحرم بت حمزة والحرم بت طه إلى آخر الجدات زوجات وأمهات أولاد الأمير أبوقرجة اللائي عاش بعضهن حتى سنوات الخمسين من القرن العشرين. وكان جدنا زكريا عثمان حاضراً حتى زمن قريب حين بلغ المائة من عمره وتوفاه الله – عليه الرحمة – في عام 1946. عاش يحمل تجربته وتجربة إخوته والعائلة بأكملها من لدن والده عثمان العربي وهجرته من حفير مشو وأخبار آبائه الأقدمين. كان يتحدث عن طفولته مع إخوته في القطينة وعن صباهم الذي وسمته كثرة الأسفار والرحلات والمغامرات في تيه سودان القرن التاسع عشر. ثم اللقاء الأسطوري بالإمام المهدي الذي أفضى بهذه العائلة إلى تاريخ مختلف. وكان له حس توثيقي مرهف. كان يطلب من الفتية طلاب المدارس من العائلة عهدذاك أن يأتوا إليه بدفاتر وأقلام ليملي عليهم فينصاعوا لأوقات وينفضوا دون أن يكملوا كتابة ما يقول. وهكذا ضاع منا تاريخ ثمين.

ما كنا نحتاج لإعمال الخيال لما ترويه الوالدة من حكايات التاريخ فقد كان ماثلاً أمامنا يجسده الوالد مظهراً ومخبراً. فكنا نرى فيه جميع القيم والأخلاق وتجليات البطولة في أسطع صورها. في الإستقامة وشدة البأس وقوة العارضة والجهر بالحق والشجاعة التي لا تعرف التوقي والحذر. ذلك بالإضافة إلى هيبة الزعامة التي يجللها التواضع الجم والكرم والأريحية ونبل الخصال. (وترد ترجمته في سياق هذه الكتابة ممثلاً للجيل الثاني لهؤلاء الرجال).

في سنواته الأخيرة قبل رحيله كان البروفيسور محمد إبراهيم أبو سليم يستقبلني في مكتبه. كان مستشاراً لدار الوثائق بعد أن أحيل إلى المعاش. وكنت أعود في عطلتي السنوية من أبوظبي. أقتنص لحظات من أيام الإجازة فأزوره. أحاول أن أجد بعض الوثائق التي تعين على الكتابة. نشأت بيني وبينه مودة وإخاء ظاهر. فكان يمازحني والوثائق أمامه وهو يقول. «شوف أهلك عملوا شنو» ثم يقرأ قليلاً ويضحك. كنت أقاطعه بقولي «نحن أحفاد قادة الثورة وشهدائها.. وما كان لنا في الدولة من نصيب غير المنافي والعذاب». يظل لا يأبه لما أقول ويروي كثيراً من الطرائف التي صادفته أثناء عمله في مجال الوثائق منذ عام 1954م. وفي ذات يوم ونحن مستغرقان في الحديث إكتشفت أنه كان حتى وقت قريب لا يعلم بالصلة ما بين محمد عثمان أبوقرجة (أمير البرين والبحرين) وشقيقه الشهيد الحسن عثمان (أمير رآية الدناقلة)[1] وبقية إخوته. وعندما حدثته بصورة موجزة ووافية أبدى دهشة وإحساساً بالقصور في كتابة تاريخ السودان. وبدا له الأمر غريباً أن يكون هؤلاء الإخوة السبعة قد إندفعوا بلا إستثناء لنصرة الدعوة المهدية قادة وشهداء، ولم ينتبه لذلك المؤرخون.

ظل المؤرخون مأخوذين بالدور الكبير للأمير أبوقرجة وإستمراره قائداً ورجل دولة لسنوات بعد رحيل الإمام المهدي. ولكنهم لم يلتفتوا حوله بإمعان ليربطوا ما بينه وبين إخوته الذين لعبوا أدواراً مهمة وخطيرة في الثورة المهدية. وأستشهد ثلاثة منهم إستشهاداً أسطورياً في أهم معارك التحرير - من الركاب إلى التراب – حقيقة لا مجازاً. أخبارهم متناثرة في المراجع والكتب والوثائق والروايات الشفاهية التي أدلى بها معاصروهم. ولن تتخذ الصورة أبعادها الملحمية العظيمة إذا لم يلتئم شملهم في نص تاريخي موحد.

ظل تاريخ السودان بمثابة خبزنا اليومي. قرأنا ما تيسر لنا منه من لدن كوش بن كنعان.

1. الجد المباشر للمؤلف. وقد حمل لقب شقيقه أبوقرجة. وكان الإمام المهدي يدعوه في رسائله إليه بالحسن عثمان، وكذلك المؤرخ السيد علي المهدي أما المؤرخون الآخرون كنعوم شقير ومحمد عبد الرحيم فيكتبون اسمه مع اللقب. والناس في دنقلا يعرفونه بالحسن أبوقرجة حيث قبره لا يزال يزار في قرية جنس. وقد إرتبط اللقب بإبنه وأحفاده أيضاً.

وهو تاريخ طويل عميق وبلا ضفاف. يعود إلى نشأة الخليقة الأولى. لم نمسك بتلابيبه بعد. عصي كالمهر الشموس. ينازعنا فيه ذوو غرض. نفثوا علينا ريادتنا في الحضارة الإنسانية. يرومون انتزاعها والأيام حبلى. فالعلم في تسارعه المذهل هذا خليق بأن يكشف المستور ويضع الحصان أمام العربة. أما تاريخنا المعاصر فقد شابته روح الانتقام وثارات غردون وأحقاد المؤرخين الغربيين وتصفية الحسابات توطئة للهجوم الدموي الرهيب. كتب الأسرى الأوربيون أمثال سلاطين وأورهولدر والمصري إبراهيم فوزي الذين احتجزوا بالسودان يصورونه مكاناً لكائنات جديرة بالتدمير. انساق بعضنا وراء نزوات هولت وونجت وثيوبولد ومن لف لفهم من المحدثين. لم يمعنوا النظر في ما كتب مؤرخونا الوطنيون، محمد عبد الرحيم وإسماعيل عبد القادر الكردفاني وعلي المهدي وبابكر بدري. مؤرخونا هؤلاء كانوا أقرب إلى الحقائق. حسبهم شاركوا في الأحداث. محَص الثقات منا أعمالهم فامتدحوا سعيهم. وجدوهم محققين مقتدرين أولي صدق ونصفة. كأنهم درسوا مناهج البحث في أرقى الجامعات. واستخدموا نفس الوسائل السائدة الآن في هذا المجال. في مؤلفاتهم عن تاريخ المهدية كانوا مبدعين. ليتنا عدنا إليهم وإلى الوثائق المتراكمة التي علاها الغبار.. فعكفنا عليها وأشبعناها بحثاً وتنقيباً فتوسعت مداركنا. لتأكيد هويتنا التي تحتدم حولها المعارك. ولحسم الفجاجة الفكرية واللجاجة السياسية الناجمتين عن ضعف معرفتنا بتاريخنا وبثقافتنا الوطنية. رحم الله محمد المهدي المجذوب حين أعلن قوله "إن سبب الفوضى في السودان هو جهل الناس بالتاريخ" فالضرورة تقتضينا أن نعيد النظر بدقة وروية في ما كتب الباحثون والمؤرخون الغربيون بمختلف دوافعهم حتى ننتزع منه الحقائق الخالية من الكيد والغرض ونؤسس لرؤية جديدة يستقيم بها تاريخنا. وبذلك نكون قد أعدنا كتابته بمساهماتنا المستمرة وبتجديد نظرتنا بالبحث الوافي العميق.

هتف وينجت محبوراً بعد مصرع الخليفة عبد الله بأم دبيكرات – تتملكه هستيريا الظفر – وقال: (يا للغبطة والسرور لقد إنتهت المهدية إلى الأبد). ورغم تلك العداوة التي

لا تعين على الإبصار أنصف وينجت الخليفة في وقفته البطولية الأخيرة وهو يواجه الموت. وشأن العقل الأوروبي المستريب رأى في ثورة الإمام المهدي لغزاً وأمراً محيراً لن يعلمه الناس إلا بعد مرور قرنين من الزمان على الأقل. وهذا كثير منه فما كان يستطيع أن يسبر غوراً لذلك الرجل أو يدرك له كنهاً.

ثابر وينجت ورهطه الظافرون – من بعده – على محو آثار المهدية. ما ادخروا في سبيل ذلك وسعاً.. لتحلو لهم الإقامة ويطيب الإحتلال. درّسوا طلاب الكلية تاريخ بابل وآشور واليونان والرومان. أفسحوا مجالاً أوسع لعصر النهضة والتاريخ الأوروبي. وأسدلوا ستاراً من الصمت على تاريخنا. رأوا في كوش خطراً يمثل العظمة والتفوق الحضاري. كما رأوا في المهدية ضراوة غير معهودة في الدفاع عن الأوطان.. ضراوة لا تحتملها كرامة بريطانيا العظمى المعتدية والمنتصرة في شتى بقاع الأرض. ظلت الطلائع الأولى من خريجي الكلية في غياب تام عن تاريخها. لا يعرفون عنه سوى ما تردده الجدات عن عسف وجور الجهادية!! أما مذكرات غردون فقد قرأوها حتى كادوا أن يحفظوها عن ظهر قلب.

وحين تلفت المؤرخ الراحل محمد سعيد القدال في مكتبة جامعة الخرطوم باحثاً عن كتاب حول الإمام المهدي خاب ظنه. ولكنه لم يلبث أن امتلأت عيناه بفيض من الكتب.. تربو على الثلاثين مؤلفاً. جميعها تمجد الجنرال غردون. فكتب كتابه (لوحة لثائر سوداني) الذي لا يزال وحيداً في نوعه.

إخترق جدار الجهل طالب بكلية الخرطوم الجامعية[1]. كان يدرس الطب وعينه على تاريخ بلاده وثقافتها. قدم محاضرة أضحت إختراقاً في التاريخ المعاصر.. وتحولاً عميقاً في أفهام المثقفين المغيبين. عثر على مجلة يسارية مصرية[2] تحدثت عن عظمة الثورة المهدية فاستلهم أفكارها.. والقى حجراً على ساكن الماء. فتقافز المثقفون يتدافعون ويكتبون. كان

1. الطبيب الراحل الدكتور مصطفى السيد اخصائي العيون وكان عهدذاك رئيساً لإتحاد الطلاب .
2. مجلة الايسكرا (الشرارة).

ذلك في حوالي عام 1948م. وانبثق وعي جديد، جوهره الاعتداد بالروح القومي – وهدفه توظيف العظمة الثورية للإمام المهدي في شحذ الوعي وتعبئة الجموع في سبيل طلب الحق والعدل بردع العدوان وانتزاع الحرية والكرامة.

محمد عبد الرحيم لا تزال مخطوطاته عن تاريخ المهدية قابعة في دار الوثائق لا يتم الدخول إليها إلا بإذن خاص. وقد تكرم الأستاذ بدر الدين محمد عبد الرحيم عميد الأسرة – أمد الله في أيامه – بتفويضي كتابةً بالإطلاع عليها فله مني شكر ما عليه مزيد.

الدكتور علي عمر علي أحمد أكاديمي ذو مثابرة وجهد دؤوب. قدم رسالته للدكتوراة حول «دور الأمير محمد عثمان أبوقرجة في الثورة المهدية» في جامعة الجزيرة فاستحق من شعبنا كل تقدير وثناء. فقد قام بتفكيك الوثائق الخاصة ببحثه وانتفع بها وأفاد. وفر لي زمناً وأتاح لي من المعلومات ما كنت في حاجة إليه. أتمنى أن تجد رسالته الممتازة طريقها إلى النشر ليقرأها الناس.

كتب مؤرخ قديم يحاول تبرير قصور إرتآه فيما كتب. ربما فعل ذلك بدافع التواضع، الذي هو ديدن العالم، لا يدعي الكمال. يترك الإحتمالات مفتوحة أمامه. وأنا لا أملك إلا أن استعير كلماته هذه. إنها تجد هوى في نفسي وقبولاً، وتعبر عن هذا الكتاب.

يقول الرجل «**كتابي هذا أبعد ما يكون عن الكمال. يضطرب بعضه وبعضه الأخر لا يتماسك. لكني أدعو الله مخلصاً أن يعين من يتصدون لهذا التاريخ.. يكتبونه متأملين متدبرين، كما ينبغي أن يكتب تاريخ.. لا كما فعلت. لهؤلاء أرجو أن يكون في عملي هذا بعض عون**»[1].

وأنا لست مؤرخاً، ولكني أكتب ودافعي كان ما أفدته من معلومات مستمدة من أفراد عائلتي أحياءً وأمواتاً - لهم الرحمة. ذلك مع القراءة التي لم تنقطع. وسيكون صمتي ضرباً من القعود والتقصير. حاولت تفادي النمطية في الكتابة. سيرة أن أردنا التدقيق

1. جيوفاني باتستا راموسيو – عام 1653م ، من كتاب أفريقيا تحت أضواء جديدة – ترجمة جمال محمد أحمد.

وليست عملاً أكاديمياً.. وبالأحرى فهو نص من جنس السرديات ويلامس الرواية- وما التاريخ إلا الرواية- إعتمدت في كتابته على الوثائق ومراجع شتى وثبتها في مواضعها. أما الروايات الشفاهية فقد وجدت مني إهتماماً وتقديراً فأعطت اللون والنكهة ووشياً زخرف النص وأبرز خصوصيته.

أزجي شكري الجزيل لجميع الذين وقفوا إلى جانبي خلال الفترة التي كتبت فيها هذا العمل والمراحل المختلفة التي تم فيها إعداد الكتاب. فعلوا ذلك بكل تجرد ونكران ذات. لا أود حصرهم فأقصر في حق آخرين. ولا التوسع في ذكر الأسماء فأذهب مذاهب قد تدعو إلى الملل. ولكن فلتسمحوا لي أن استثني منهم أخي وصديقي البروفيسور خالد حسن إدريس لمتابعته و إهتمامه وملاحظاته الثاقبة الذكية والمهندس أسامة أبوقرجة وسكرتيرته السيدة أميرة عبد العزيز المهدي لما قدماه من مساعدات تزري بشكري وتحيله إلى هباءٍ منثور. والشكر للفنان التشكيلي معمر مكي عمر الأمين لقيامه بالإعداد الفني للكتاب وتصميم الغلاف ولصبره وبذله ومثابرته التي لا يكافئها ثواب.

مازال مركز عبدالكريم ميرغني الثقافي يوالينا برعايته ويسبغ علينا كرمه الجموم فله الشكر عند كل مقام وفي كل سانحة وستظل الأيام التي إستضافنا فيها أثناء إعداد الكتابين "الأمير أبوقرجة واخوته الشهداء" و"أصوات في الثقافة السودانية" جزءاً من الذكريات الغالية العزيزة فليدم في عليائه ومقامه السامي الرفيع.

المؤلف

2014/6/11م

سنام العـــائلة

عِثمان العربي

من حفير مشو إلى القطينة

سنام العـائلة
عِتـمان العربي
من حفير مشو إلى القطينة

قال رسول الله (ص) في خطبته بعد غزوة حنين.

(والذي نفسي بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار. ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصـار شعباً لسلكت شعب الأنصـــار. اللهم أرحم الأنصـار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار)[1].

خرج الفتى عتمان من داره في أقصى شمال السودان مهاجراً ولم يعد. وكأصحاب الرسالات مضى – صوب الجنوب – ثابت الجنان والخطى. ربما توقف قليلاً في بعض الأماكن قبل أن يغذ السير من جديد. ولا بد أن يكون قد صحبته جماعة من الفتيان عند بداية رحلته إلاَ أنهم تفرقوا فيما بعد ولم يعرفوا.. هو وحده الذي سيصبح مصدر إهتمامنا. فبعد حوالي ستين عاماً من رحلته هذه تفجرت في السودان أعظم ثورات التحرير في القرن التاسع عشر. تميزت بإنتصارات عسكرية سريعة متلاحقة. واستخدمت وسائل في الحرب الشعبية والنظامية لم يشهدها التاريخ حتى القرن العشرين؛ حين برزت أسماء الجنرال جياب وماوتسي تونج وهوشي منه وكاسترو وجيفارا ورهطهم الثوريون. وبرزت نظرياتهم في الحرب الشعبية. كان لأبناء الفتى عتمان في تلك المعارك و الإنتصارات حظهم الأوفر ومبادراتهم الجريئة. حسبهم كسروا المربع الانجليزي – لأول مرة في التاريخ – واخترقوا خاصرته متمثلاً في قلعة هكس. واستشهد ثلاثة منهم

1. الخزرج أسلاف عتمان العربي هم القبيلة الأساسية من بين الأنصار.

في معارك التحرير الأولى. وكان تحرير الخرطوم ذروة عطائهم العسكري الفذ.

ويقول باحث سوداني "ونحن عندما نربط ثورة المهدي بالثورات المعاصرة لها في العالم لا نفتعل ذلك الربط. فقد كان الاستعماريون يعتبرون الثورة المهدية حلقة جديدة في سلسلة الثورات الشعبية التي شهدها العالم ضد الاستعمار البريطاني"[1].

تحرك الفتى عثمان من مسقط رأسه حفير مشو التي كانت محطة رئيسية في طريق القوافل الوافدة من مصر في طريقها إلى سنار. وحفير مشو تقع على شاطئ النيل الغربي بين جزيرتي بدين وأرقو. وكانت تمثل أهم نقطة على حدود مملكة الفونج الشمالية حيث تجبى الرسوم الجمركية. وقد وصفها الرحالة الفرنسي بونسيه في أكتوبر 1698م أثناء رحلته إلى مملكة الفونج. وقد ذكرت المصادر[2] نقلاً عن المخطوطات التي تناولت سير المبشرين والمبعوثين والأطباء والرحالة أنه منذ عام 1700م كانت القوافل تفارق النيل في منفلوط بمقاطعة أسيوط في مصر باتجاه الواحات. وعندما تصل إلى واحة سليمة تنقسم إلى قسمين. فتتجه قوافل دارفور نحو الجنوب الغربي بينما تتجه قوافل سنار إلى الجنوب الشرقي لتلتقي بالنيل في منطقة حفير مشو. ثم تواصل سيرها حتى شندي ومن ثم تصل إلى سنار.

وقالت المصادر أن حفير مشو كانت قبلة للعديدين من الدعاة والتجار الذين سكنوها وعمروها. وما زالت قباب علمائها وأوليائها تزين أطرافها. ومن بينهم الشيخ موسى الذي تنتمي إليه كثير من الأسر في الحفير. وكذلك الحاج قريش والحاج جودة والشيخ فرحان[3] – والأخير يقال أن نسبته تعود إلى الحاكماب بأرقو. وكان مسيده قائماً حتى وقت قريب. وهناك عائلات أخرى من سلالة تجارها القدامي ما زالت موجودة. وقد هاجرت منها عائلات عديدة نحو مناطق السودان المختلفة..

1. دراسات في التاريخ الإجتماعي للثورة المهدية ، تاج السر عثمان الحاج.
2. إرهاصات الثورة المهدية –تأليف اندراس بوركيلو ترجمة د. عبد المطلب صديق – صحيفة السوداني 2012/12/14م.
3. هذه الأسماء تتردد كثيراً في عائلات الجوابرة بالقطينة والكاملين والهلالية.

وبوجه خاص إلى منطقة القطينة الواقعة جنوب الخرطوم[1].

كان الفتى عتمان بن محمد بن الحاج الشيخ إدريس الجابري الخزرجي الذي عرف في وقت لاحق بمهجره الجديد بعتمان العربي طويل القامة على نحو مفرط، قوي العضل، خفيف اللحم، ضخم العظام، مهيباً، قوي الشكيمة، زعيماً يهابه الناس. (وقد أورث معظم سلالته تلك السمات الجسدية). كانت كلمته مسموعة وسط أهله الدناقلة وأمره نافذ. وذلك لما تمتع به من قوة الشخصية والحكمة والثراء العريض.

ظلت قبائل الشمال متصلة بمختلف مناطق السودان منذ أزمان موغلة في القدم. ومنذ القرن السادس عشر الميلادي بسطت مملكة الفونج سيطرتها عليها. تقوى وتضعف إلا أنها لم تنقطع تماماً. وتبادل الطرفان أنماطاً من الثقافة والعادات والسلوك الإجتماعي. ونقلت قبائل الشمال إلى الفونج معارفها في اللغة العربية والدين الإسلامي. كما اتصلت تلك القبائل بمناطق كردفان ودارفور وجنوب النيل الأزرق والمناطق الحدودية مع أثيوبيا. كما اقتحمت في أوقات سابقة منطقة الجزيرة التي أغلقها العنج في وجه الوافدين العرب ردحاً من الزمان. هاجر هؤلاء الشماليون تجاراً ومقيمين ومحاربين. غزلوا خيوطاً أضحت نسيج الأمة السودانية. وقد ذكرت المصادر أنه ما بين عامي 1770م – 1780م قاتل الجعليون «السعداب» بقيادة الملك سعد ود إدريس الثاني في كردفان إلى جانب الهمج.[2] كما لم يخل جيش المسبعات من مقاتلين دناقلة وجعليين. وذكر ناختيقال أنه أحصى ما استطاع من منازل الجلابة في دارفور في القرن التاسع عشر فبلغت خمسة آلاف بيت على الأقل. وكثيرون منهم استقروا في تلك المملكة منذ قرون. وأشار إلى أن الدناقلة الذين وصفهم بالكرم وحسن الضيافة يكون دائماً منهم الخبير (رئيس الجلابة) ويليهم الجعليون ويسمون

1. الجوابرة والأنصار الخزرج بالسودان.– تأليف: جابر الأنصاري عبد الله معروف.

2. المصدر السابق.

في بعض الأقاليم أولاد البحر. ويخرج الجلابة يجوبون دونما كلل مناطق الغرب حتى ودَاي. وبعضهم عبروا إلى برنو وباقرمي حتى وصلوا إلى دويلات الهوسا.[1]

وأوضحت المصادر أن ملامح المجتمع السوداني الحالي تأسست بوجود القبائل الشمالية في مناطق السافنا بسبب الهجرات التجارية القديمة لقبائل الشمال في تلك المناطق وساهم ذلك في دخول الإسلام إلى أفريقيا[2].

لقد كان الدناقلة موجودين في كل مدن السودان ويليهم الجعليون. وبما أنهم كانوا يتمتعون بالحرية في تحركاتهم إلا أن الأتراك كانوا كثيراً ما يجبرونهم على الرحيل إلى الغرب والجنوب[3].

وهناك من يتهم الشايقية على نطاق واسع بأنهم كانوا السبب في هجرة الدناقلة والجعليين من مناطقهم بالشمال والنزوح إلى الداخل وذلك بشن الغارات عليهم ومحاولات السيطرة خلال القرن الثامن عشر. كما كان لحملات الدفتردار الانتقامية دور كبير في تدفق الجعليين على الحدود الأثيوبية. ومنذ طفولته يتعلم الصبي الجعلي أن له أهلاً في ديار الغربة. وأصبح رحيل الشاب لفترة تطول أو تقصر خارج الديار عادة متبعة لدى قبائل الجعليين[4].

وذكرت المصادر أن الملك آدم أم دبالو الذي تمتع باستقلال نسبي في جبال تقلي كانت له قوة عسكرية كونها من جلابة بحر الغزال وشكا[5]. وذكر ناختيقال أن عبد الله ود النو الدنقلاوي كان مستشاراً واسع النفوذ للسلطان محمد الفضل في دارفور[6]. أما قاسم عتمان نور فقد أشار في مؤلفه «الكوة» إلى أن حمد ود سندلوبة

1. مملكة دارفور – ناختيقال ص124.
2. إرهاصات الثورة المهدية – تأليف أندراس بوركيلو – ترجمة د. عبد المطلب صديق.
3. نفس المصدر.
4. نفس المصدر.
5. القدال – لوحة لثائر سوداني ص109.
6. نفس المصدر ص79.

وهو من أهالي دنقلا (البديرية) كان مقرباً في بلاط سنار. وقد إحتكم إليه أهالي الكوة في نزاعهم مع عرب المنطقة حول أيلولة أراضي ود بطة الزراعية، الواقعة شرق بلدتهم، بعد تفويضه من قبل سلطان الفونج.

ومنذ إحتلال الأتراك لمصر وبداية عصر الحكام الكشاف أخذت وتائر الهجرة تتسارع. أخذت الضرائب التي تجري جبايتها بكثير من التعسف والتنكيل تثقل على الأهالي. ذلك بالإضافة إلى ضيق الرقعة الزراعية التي لا يمكن أن توفر عيشاً رغيداً لعائلة ممتدة. وهناك نماذج لعائلات هاجر مؤسسوها من دنقلا ليلعب أبناؤها بعد سنوات دوراً بارزاً في تاريخ البلاد وتشكيل مستقبلها. وقد أشار أبو سليم لبعض هؤلاء الذين سماهم أبناء المهاجرين وفي مقدمتهم الإمام المهدي والأمير أبوقرجة.

راقت مدينة شندي للفتى عثمان عند وصوله إليها ولا بد أن تكون تلك المصادر التي أشارت إلى توقفه فيها فترة من الزمن صحيحة. فقد كانت تقع في منطقة خصبة ممرعة. وكانت نقطة إلتقاء للقوافل التجارية وتسكنها أعراق مختلفة. ويؤكد الرحالة الاسكتلندي بروس أن شندي في ذلك الوقت (1772م) كانت تتمتع بوفرة السلع ورخص أسعارها وجودتها بما هو أفضل من الحال في سنار عاصمة مملكة الفونج. وظلت بهذه الصورة حتى العقد الثاني من القرن التاسع عشر. وحتى انتفاضة الملك نمر ضد المحتلين الأتراك المصريين ربما كانت شندي لا تزال تحتفظ بألقها وبريقها. وذلك هو الوقت الذي نرجح فيه وصول الفتى عثمان وإقامته المؤقتة فيها قبل أن يواصل رحلته.

لا بد أن رحلة عثمان بن محمد بدأت في أولى سنوات العقد الثالث في القرن التاسع عشر لأنها ترافقت مع أحداث شندي الدامية التي وقعت في عام 1823م. وقد حاولت جماعة من مقاتلي الملك نمر أن تصطحبه إلى حيث قرروا التوجه. إلا أنه لم يجد دافعاً قوياً لتلك الصحبة فاتجه إلى النيل الأبيض. ومن الواضح أن هدفه كان محدداً.

وهو اللحاق بأهله الذين أقاموا في النيل الأبيض. وبالتحديد في قرية ود شلعي.

لم يفت تلك الروايات الشفاهية أن تضيف بعداً رومانسياً للقصة حين أشارت إلى أن والدته (مصرية بنت إدريس) زودته بعقد من اللولي ليخفيه داخل ثيابه ويستخرجه عند الحاجة القصوى فينتفع ببيع قطعة منه. وذلك الأمر يشير بوضوح إلى أن أهله كانوا مدركين لمرامي رحلته وراضين عنها. وذلك يؤكد وجود أقرباء له في الصعيد يطمئن إليهم ذووه رغم الأخطار التي كانت تنطوي على أي رحلة مهما قصرت في سودان تلك الأزمان.

رددت بعض المصادر أن عتمان توقف قليلاً في البجراوية حيث كان يقيم أهل له وفدوا في وقت سابق. وأشارت هذه المصادر إلى إهتمام النسابة عثمان حمد الله بنسب هذه الأسرة في مؤلفاته، لأن جذوره تنحدر من نفس جذورها. كما أن أسلافه كانوا قد أقاموا بالبجراوية.

ويذكر التاريخ أن المهاجرين نحو الجنوب كانوا كثيراً ما يتوقفون لفترات قصيرة في محطات بعينها يقيم فيها بعض الأقارب. فوالد الإمام المهدي أقام فترة من الزمن عند قدومه من جزيرة لبب في قرية كرري حتى توفاه الله (عليه الرحمة). وكان يقيم فيها بعض من أهله كعائلة شجر الخيري وعلي ود تنير.

إتخذ عتمان طريقه إلى النيل الأبيض في تلك المنطقة التي وصفها سليم قبودان في كتابه «رحلة في النيل الأبيض» بعد سنوات قليلة مشيراً إلى طبيعتها الأمازونية الشرسة التي تغص بالكواسر والغابات الكثيفة الملتفة. وهناك في ود شلعي بدأ حياته إلى جانب أهله آل سنادة[1] -الذي كان زوجا لشقيقته- وغيرهم من الدناقلة الذين قدموا من حفيرمشو في وقت سابق. ولم يلبث أن تزوج من جدتنا آمنة بنت سلمان. وسلمان هو شقيق سنادة ود بلال وهما من الدناقلة البديرية الذين هاجروا

1. ومن أحفاده المسرحي البارز مكي محمد سنادة.

إلى المسلمية قبل الإقامة في ود شلعي؛ وقد ظل اسم البلدة يتردد كثيرا في تاريخ عائلة عثمان. وربما لا يزال. وقد أسفرت تلك المصاهرة عن ميلاد محمد (أبوقرجة) وحسن وزكريا ومصرية. وربما لا يزال هناك بعض من اقارب امنه بنت سلمان موجودين فى المسلمية وود الحداد. وقد رأيت في طفولتنا علي ود سلمان «وهو حفيد جدتنا دارة بنت سلمان شقيقة آمنة وقد جاءنا زائراً بمدينة كوستي. ولكن أخبارهم إنقطعت بعد ذلك وحتى اليوم. وقد روى المرحوم عبد الوهاب عثمان حاج موسى وزير المالية الأسبق أن جدته هي فاطمة بنت سلمان شقيقة جدتنا آمنة وهي من بقية العائلة التي ظلت مقيمة في الحفير. ولم نكن على علم بذلك. كما أن بعض المصادر العائلية أشارت إلى شقيقة أخرى تدعى حفصة بنت سلمان وإلى أن سلالتها ظلت تقيم بالحفير وربما حتى الآن. وربما كان هناك كثير من المعلومات عن تلك الصلات التي ضاعت بعد أن تبعثر هؤلاء المهاجرون في أنحاء السودان. وبمرور الزمن الطويل ضعفت العلاقات. ولم تلبث أن إنقطعت بعد أن إرتبطوا بمهاجرهم الجديدة وبرزت عائلات وعشائر جديدة إكتفت بذواتها وانكفأت عليها. وقد ظلت عائلة سنادة جزءاً من عائلة عثمان حتى بعد هجرتها إلى أب حراز بكردفان. وقد وحدت بينهما مجدداً تلك الأحداث التي عصفت بآل سنادة في بداية الثورة المهدية.

لم تتوفر معلومات حول وصول الفتى عتمان بن محمد وإقامته في ود شلعي. إلاَ أنه يبدو أنها كانت فترة طويلة نسبياً (إمتدت منذ أواسط العشرينات حتى منتصف الأربعينات في القرن التاسع عشر). فقد ولد ابنه البكر محمد (أبوقرجة) في عام 1839. ولما بلغ الخامسة أو السادسة من عمره حتى رأى ضرورة إلحاقه بالخلوة. وقد إهتم بالأمر إهتماماً عميقاً إلاَ أنه لم يجد خلوة مناسبة إلاَ في منطقة القطينة. ومن ثم فقد إتخذ قراراً حاسماً بالإنتقال إلى تلك المنطقة. كان في ذلك الوقت قد أصبح رجلاً

ثرياً يملك قطعاناً من الماشية ومزارع مطرية وأخرى قرب النهر (جروفاً وسواقي[1]). لم يجد صعوبة في إتخاذ القرار حيث أن منطقة القطينة لا تبعد كثيراً عن ود شلعي وربما كان هناك أهل له قد سبقوه إليها.

وفي أغلب الظن تكون هذه الخلوة للشيخ العالم الواصل شقتي موسى بن إبراهيم الذي نزح إلى تلك المنطقة من حفير مشو بعد أن إصطدم بالحكام هناك. وكان قد عاد من الأزهر الشريف. وهو من الجوابرة الخزرج أقرباء الفتى عتمان[2].

أشار كثير من المؤرخين إلى أن أبوقرجة ولد بالقطينة ولكن المؤكد أنه ولد في ود شلعي. حيث أكد ذلك المؤرخ محمد عبد الرحيم في مخطوطه. وأشار إلى أن مؤسس القطينة هو الشيخ عتمان الذي أقام سكناً له أطلق عليه الأهالي اسم عمارة عتمان.

في كتابه رحلة إلى أعالي النيل الأبيض (1839–1840) لم يستطع البكباشي سليم قبودان أن يرصد أسماء الأماكن والمناطق التي مرَ عليها في النيل الأبيض متجهاً من الخرطوم إلى الجنوب بحثاً عن منابع النيل فأورد أسماء لمناطق وقبائل وجزر وجبال لم يستطع المحقق أن يتعرف عليها نتيجة للتغيرات التي طرأت على المنطقة ونزوح القبائل وتنقلها من مكان إلى آخر. كما أن قبودان الذي كتب كتابه باللغة التركية ثم تمت ترجمته إلى الفرنسية فالعربية لم يتمكن من كتابة الأسماء بصورة سليمة. وفي تتبعنا لموقع القطينة في كتابه لم نظفر بطائل حيث أنها في أرجح الإحتمالات لم تكن موجودة في تلك الفترة. إلا أنه ليس من المستبعد أن تكون هناك بعض القرى الصغيرة ومن بينها – كما أشار – المؤرخ محمد عبد الرحيم الى حلة محمد ود تبيدي، التي ربما تكون تلك المنطقة التي أشار إليها قبودان حيث ركَب أعواداً للرماح في منجرة أو ورشة للحدادة. خاصة وأن التبيداب كانوا يعملون

1. ما زالت تلك الأراضي موجودة ومسجلة على الشيوع.
2. ومن أحفاده الدرديري أحمد إسماعيل الزعيم السياسي البارز في الحركة الوطنية.

في الحدادة وصياغة الذهب.

وفد عتمان العربي من منطقة دنقلا المستنيرة التي ظلت تهتم بالتعليم بشكل عميق. وقد تضمنت مشاهدات الرحالة الإنجليزي وادنجتون[1] الحياة الروحية لأهل دنقلا والإهتمام بالتعليم الديني في هذا الإقليم. فقد أشار إلى ظاهرة إنتشار أماكن تعليم القرآن الكريم في أجزاء الإقليم المختلفة. وإلى ما يقوم به الوعاظ المتجولون من الكبابيش بصفة خاصة في هذا السبيل. كما أشار إلى وجود مدارس يتعلم فيها الأطفال مبادئ القراءة والكتابة إلى جانب حفظ القرآن الكريم، وهي الخلاوي. وقد تحدث عن السادة الشيوخ الذين يقومون بوظيفة التعليم وما يتمتع به هؤلاء من مكانة سامية في المجتمع. كما تحدث عن أساليب تعليم الأطفال وطرق تأديبهم، وأنواع الأخطاء التي كانوا يعاقبون عليها عادة. وأشار إلى الأضرحة التي تقام لمن اشتهر من الفقهاء وشيوخ الإسلام بالصلاح والتقوى في حياتهم الدنيا، لتضم رفاتهم الطاهرة حيث يتبرك الناس بزيارتها. وينعمون بالأمن والسلام في ظلها عندما تهددهم بادرة خطر. وقد أشاد بصفة عامة بما يتحلى به هؤلاء الشيوخ والفقهاء في دنقلا من الخصال والصفات الحميدة التي زادت من تعلق المواطنين بهم وتقديرهم لهم». «كتب وادنجتون عن الحياة الإجتماعية والثقافية لإقليم دنقلا بحصافة واستفاضة، إلاَ أن إهتمامه بالجانب الديني كان واضحاً لأنه كان أسقفاً لمدينة درم Durham الانجليزية قبل أن يشتهر كرحالة).

وكان لعائلة عتمان نصيبيها من الوعي الديني فخاله هو الولي العارف شيخ منور ود إدريس شقيق والدته مصرية بنت إدريس. وتواترت أخبار شيخ منور ود إدريس في أحاديث سلالته التي هاجرت إلى القطينة. ووصفت مسيده الكبير الذي كان يأوي الحيران القادمين من جميع أنحاء دنقلا وغيرها بمن في ذلك الوافدين من غرب

1. الرحالة الأجانب بالسودان – نسيم مقار.

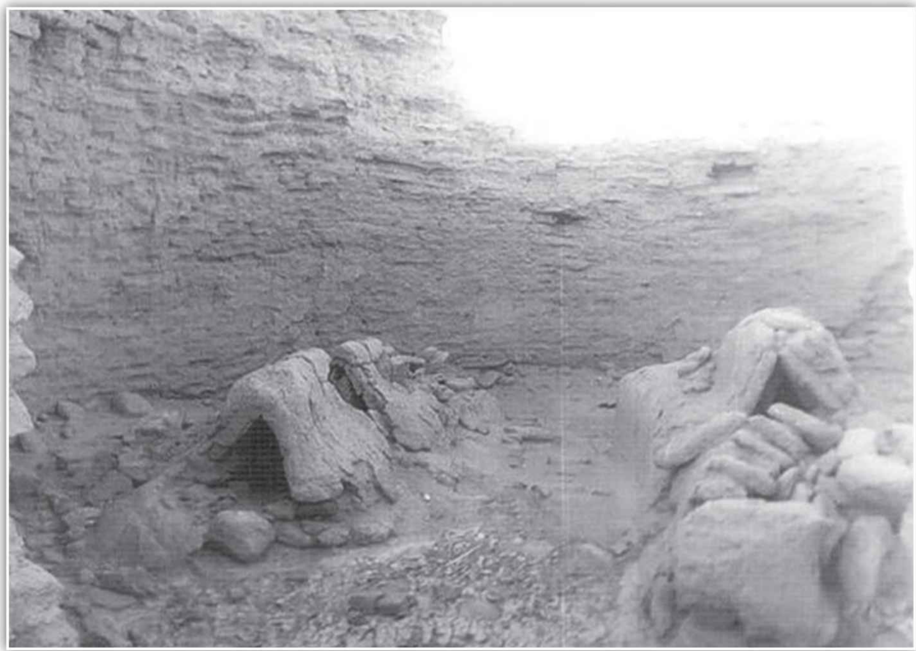
أفريقيا. وكان له دور في تعليم المرأة حيث أفرد قسماً من المسيد لتعليم الفتيات والنساء مبادئ القراءة والكتابة والقرآن الكريم وفقه العبادات. والإحتمال الأرجح أن شيخ منور ود إدريس هو أحد أحفاد شيخ منور الكبير، الولي الذي تلقى علماً ومدداً من الشيخ حسن ود حسونة[1] في القرن الحادي عشر الهجري. وقد وردت سيرة شيخ منور الجد ضمن سيرة ود حسونة في «طبقات ود ضيف الله». ولا بد أن الفتي عثمان قد نال حظاً من التعليم الديني في خلوة خاله هذا قبل أن يتوجه إلى مهجره الجديد.

وقد روى لي أحد أحفاد شيخ منور «وهو مولانا الأستاذ رضا محمد محمود شايقي» أن جده الذي كان أحد أعيان الشايقية تزوج جدته وهي من سلالة شيخ منور فأنجبت له ولداً. ولما كبر قليلاً مات والده فأقبل رهط من أهله الشايقية يريدون أن يعودوا به إلى ديارهم. فترجاهم أهل حفير مشو أن يتركوه حتى يشب عن الطوق قليلاً. ولكنهم تمسكوا بموقفهم وسافروا. فكانوا كلما تقدموا وجدوا حفير مشو أمامهم. فأدركوا السطوة الروحية لهؤلاء القوم. فأعادوا الصغير إليهم بعد أن فصدوا خديه بشلوخهم الأفقية المعروفة. فأطلق عليه أهله الدناقلة اسم شايقي. ومن أقارب هذا الفتى أسلاف الأستاذ أحمد خير المحامي، أحد زعماء الحركة الوطنية المعروفين وهم الشايقية الذين أقاموا في الحلفايا في أوائل الحكم التركي.

وأبناء شيخ منور – شقيق جدتنا مصرية – هم ساتي عيسى ود منور – والد عثمان وعبد الكريم وكدودة.. التي هي والدة محمود شايقي. وحاج محمود ود منور– والد محمد ونقد وعبد الله بأمدرمان. وسادة بنت منور والدة نقد ود منور وسلالتهم ما زالت تقيم ما بين القطينة وأمدرمان.

---

1. وفي مخطوط المؤرخ محمد عبد الرحيم جاء أن الشيخ منور بن إدريس (ابن محمد ميرف – جد الميرفاب)– ولد في جزيرة بنارتي في غرب أرقو ثم حفظ القرآن على يد الشيخ حامد اب عصا والطريقة على الشيخ حسن ودحسونة.كان ميلاده حوالي 1050 هـ ودفن شرق جزيرة أرقو، شمال كرمة بدنقلا. والآن نجد صعوبة في الوصول إلى حقيقة هذه الرواية التي نتحفظ عليها حتى تجد باحثاً يدقق فيها.



ضريح شيخ منور على الضفة الشرقية من النيل. وقد تهدم بفعل الفيضانات.

لقد إلتحق الطفل محمد بالخلوة بالفعل ونال قدراً من التعليم وحفظ شيئاً من القرآن. إلاَ أنه لم يلبث أن إتجه نحو الكسب ورعاية أموال والده الطائلة. ولما رأى بعض الشباب والرجال الأقوياء ذوي البأس يتجهون نحو الجنوب.. تاقت نفسه للسفر إلى تلك المنطقة التي باتت واعدة بالمال والرزق الوفير بعد أن سلكت الملاحة النهرية وأخذت السفن تروح وتجيء فيها.

كان قد أطل عصر البندقية وما تمنحه من حماية وأمان لصاحبها الذي كان يشارك عدداً من التجار ليكون له نصيب في الأرباح ولبندقيته نصيب مساوٍ. ذلك بالإضافة إلى إستخدام المراكب الشراعية الكبيرة التي تبلغ سعتها أكثر من ألف جوال من الذرة بعد أن أدخلها الحكام الأتراك.

قال محمد عبد الرحيم في مخطوطه (القطينة أسبق الناس إليها التبيداب والذي عمرها والد أبوقرجة في أواسط القرن الثالث عشر الهجري) والواضح أن «عمارة عتمان» ظلت آخذة في التوسع والازدهار حيث قدم إليها كثير من أهالي دنقلا وخاصة من حفير مشو ومقاصر والخندق وبدين والأكد وسوري وغيرها من قرى دنقلا. ولم تلبث أن أصبحت القطينة تعرف باسم «قطينة عتمان» حتى سنوات قريبة في القرن العشرين وربما لا يزال بعض المسنين الأحياء يذكرون هذا الاسم.

أقام الجعليون في تلك المنطقة منذ فترات باكرة منذ نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وتوافدت أعداد من قبيلة الشايقية في أوقات لاحقة. كما أن قبيلة الحسانية كانت ممتدة على طول النيل الأبيض منذ عقود طويلة. كما تردد أن الشيخ محمود العركي أقام فيها وشيد قصراً. وقد ذكرت مصادر آثارية أنه تم رصد مجموعة من المناطق الأثرية في القطينة وتم العثور على مبنى كنيسة كما تأكد أن الطوب المستخدم في ضريح ود العركي يعود إلى الفترة المروية. وأشارت إلى أنه عند إنحسار النيل يبحث الأهالي عن الذهب الذي يعود إلى عهد مملكتي مروي ونبتة. وقالت إنه

تم العثور على تماثيل صغيرة جداً وصليب من الذهب يعود إلى الفترة المروية. وفي منطقة الكوة (جنوب القطينة) وجد الصيادون مصوغات ذهبية في شكل عقرب ومجموعة من الأسورة يعود تاريخها إلى عام 1525 قبل الميلاد. ويتضح من ذلك أن منطقة القطينة كانت جزءاً من مملكة مروي أو جزءاً من مملكة علوة أيضاً، وهي الأقرب من الناحية الجغرافية. إلاَ أنها ربما تكون قد توقفت عن الازدهار بسقوط المملكتين وانتشار الإسلام الذي قضى على الديانة المسيحية وران عليها انقطاع حضاري طويل ظلت خلاله قفراً خلاء إلا من تجمعات سكنية صغيرة لا ترقي لمستوى الاستيطان البشري الواسع. والمعروف أن براري الجزيرة قد شهدت نمو شجرة القطن منذ أوقات بعيدة. وقد تردد أن بذورها قد وصلت إلى مصر من السودان. وحتى أوقات ليست بعيدة كان القطن البري ينمو في منطقة القطينة. وقد أطلق الأهالي اسم القطينة على تلك القرية التي أقامها الشيخ عتمان الذي أضحى معروفاً بلقب العربي الذي أطلقه عليه أهله الدناقلة الوافدون عليه حيث فوجئوا بقطعان الماشية ومظاهر البداوة التي إتخذها.

البيئة الطبيعية لمنطقة القطينة
في القرن التاسع عشر

في الخامس والعشرين من فبراير 1848 إنطلقت ذهبية بالرحالة الألماني بريم من الخرطوم في طريقها إلى إحدى قرى النيل الأبيض. وقد سجل أخبار تلك الرحلة في كتابه «السودان 1847 – 1852» الذي ترجمه الشاعر الراحل النور عتمان أبكر من الألمانية ونشرته دار مدارك للنشر عام 2010م. قال بريم:

(كنا مبحرين والريح مواتية. وفي صباح اليوم التالي وجدنا أنفسنا حيث النهر قد إتسع لأكثر من ثلاثة آلاف خطوة عرضاً. وحيث تبرز الجزر الرملية والضفاف الطينية كلما قل عمقها. كانت هناك أعداد لا تحصى من أنواع الطيور المختلفة رأينا بينها الآلاف من الإوز النيلي والرهو والسمبر والكركي والغرانيق وطيور الشاطئ والماء. وكانت غابات أشجار السنط تمتد على مدى البصر على الضفتين والتي تشبه الغابات الإستوائية. وكان الجزء الأكبر منها في الماء الذي يبلغ عمقه عشرة أقدام. وحيث تبعد هذه الغابات عن الشاطئ يمكن للناظر أن يبصر أرضاً منبسطة ذات تلال جرداء هنا وهناك. وكانت القرى تخفيها الغابات لكن القطعان الكثيرة تدل على وجودها، إذ كانت هناك ثروة حيوانية وفيرة من الضان والأبقار والجمال ترعى العشب القصير على الشاطئ الطيني، أو تقطف من أغصان الأشجار غنية الأوراق. ورأينا على الشاطئ أخاديد عميقة شقتها أفراس النهر- القرنتي — في الطين عند خروجها للرعي ليلاً بعيداً عن النهر. وهناك أعداد كبيرة منها تخرج من النهر فتلحق أضراراً بحقول الذرة. وحيثما وجدت كان مرافقها الدائم التمساح. وقد رأينا التماسيح متمددة كجذوع الأشجار في صفوف طويلة على الشاطئ

الرملي، لكنها كانت تنسحب إلى الماء كلما أحست بدنو المركب. وكانت تعيش على ضفتي النهر قبيلة من القبائل شبه الرحل مستقرة وإن كانت تمارس نفس الحياة البدوية، هي قبيلة الحسانية. وثروتهم الوحيدة هي قطعان الماشية. ويقومون بالزراعة. غير أن قوام حياتهم هو تربية الحيوان. وكان النيل الأبيض يبدو أكثر عرضاً كلما اقتربنا من قرية «أليس»[1]. وهي آخر نقطة تحت الحكم التركي. وربما بلغ عرضه أيام إرتفاع منسوبه لقمته قرابة الميل الألماني إتساعاً عند قرية بيوضة[2] وتصبح الغابات كثيفة وبها نباتات متسلقة ذات جذوع غليظة سمكها ست بوصات. وفي داخل هذه الأجام حياة استوائية مثل تلك التي بالبرازيل، من قرود ذات أذناب طويلة تأتي في أعداد كبيرة للشرب من النهر. والببغاوات التي تنتقل من شجرة إلى أخرى وفي كل خطوة يرى الصياد أشياء جديدة).

كان هدف رحلة بريم إلى السودان هو صيد الطيور الذي كان مولعاً به لأسباب علمية. وكان يقوم بتحنيطها وحشوها بالقش لذا كانت كتابته تتركز حول البيئة الطبيعية والغابات التي أجاد وصفها في مناطق النيلين الأبيض والأزرق وكردفان. إلاَ أن ما يهمنا فيما كتب هي تلك البيئة التي عاش الأمير أبوقرجة وإخوته طفولتهم فيها وتفتحت أعينهم. فقد كان الطفل محمد بن عتمان العربي في حوالي التاسعة من عمره في ذلك العام يعيش في كنف والديه بقرية القطينة. وكان لعتمان العربي نصيب وافر من تلك القطعان التي رآها بريم حين مر بمراعيها. وكانت تلك الأعداد الوفيرة من الماشية تثير المتاعب للشيخ عتمان فقد كانت هدفاً للصوص الماشية الذين كانوا يدركون عجز الرعاة عن تتبعها لكثرتها. وكانوا لا يبالون ببيعها للجزارين الذين يقومون بذبحها وعرض لحومها في الأسواق دون توجس لعلمهم أنه لن يتم اكتشافها بالسرعة المطلوبة. وقيل إنه ذات عام نفق له أكثر من ألف ثور بسبب مرض «الحاروق» فلم يؤثر ذلك كثيراً في قطعان البقر التي كان يمتلكها.

1. الكوة.
2. غير معروفة.

ولما شب الفتى محمد عن الطوق أخذ يتربص باللصوص ويستعيد ما ساقوه. لم يكتف بذلك بل كان يغزوهم في مراعيهم ويسوق أمامه قطعانهم إمعاناً في التشفي مما كانوا يفعلون وتخويفاً لهم.

كانت مجموعات الدناقلة التي سكنت منذ عقود في تلك المنطقة من ذلك التاريخ قليلة العدد، إلاَ أنها أبدت ضروباً من البسالة أمام تحديات المجموعات السكانية الأخرى التي أقامت في وقت سابق. لم يكونوا يتهيبون أعدادهم الغفيرة. كانوا يدركون أن قلة عددهم تستدعي قدراً من القوة والإقدام. وقد ترددت روايات عن أن بعض الأعراب من لصوص الأبقار تربصوا بالفتى محمد. وكان قد اشتهر بجسارته ومضاء عزيمته – وألقوا عليه القبض وأخذوه إلى مضارب حيهم حيث طلبوا من فتياتهم التجمع لرؤية البطل وهو يتعرض للتعذيب. وقف أمامهن وهو مقيد بالحبال وتحمل صنوفاً من الضرب والتعذيب حتى جاءوا بنار يشوون بها جلده فلم يرف له جفن. وبدلاً من أن تعيره البنات لجبنه كما تصور اللصوص- شرعن يغنين له معجبات وقلن:

البقـــــر وردن صعيـــد جفـــرة

ولاقاهـــن ولـداً ما بخــــاف واالله

ختولــــه الجمـر في وركه ما زحاه

وكان جرى ود عتمان بتخنق القمره[1]

قال من رأى أبوقرجة في تلك السن المبكرة – دون العشرين – أنه كان طويل

1. وهناك رواية تقول أن الذي تعرض لهذه التجربة هو أخوه الأصغر علي بن عثمان العربي. وبذلك تكون هذه الحادثة قد وقعت في وقت لاحق في أواخر سبعينات القرن التاسع عشر. وعلي لم يتجاوز العشرين من عمره. كما أشارت الرواية إلى صيغة أخرى للأغنية:

الليلة البــقر وردن صعـيد جبـــره
وجــاهن ولـــداً درب الله ما بـخبره
ختوله الجــمر في وركــه ما حتــه
وكان جرى ود عتمان بتخنق القمره

القامة ممشوق القوام، قوي العضل، يرسل شعره حتى تبدو لمته كالهدندوي. بل كان يضع فيها خلالاً كما تفعل بعض قبائل البجا في شرق السودان. وقد ذكر بريم نفسه في كتابه «المشار إليه» أنه رأى رجالاً من وسط السودان في ذلك الزمن يرسلون شعورهم ويضعون الخلال. وكان الأمر بالطبع لا يخلو من مظاهر للفتوة والبطولة. ومن المؤكد أن أبوقرجة قد أكد ذاته – وهو لا يزال فتى غض الإهاب كأحد أبطال المنطقة حتى حدثته نفسه بالسفر إلى بحارة. ولعل ريتشارد هل في موسوعته «معجم الشخصيات» أشار إلى تلك الفترة في ترجمته لأبوقرجة. ومن الواضح أن مصادره لم تكن تخلو من الغرض.

●●●

ولد عتمان العربي في حفيرمشو في أوائل القرن التاسع عشر لأن نزوحه كما ورد في الروايات تزامن مع دخول الأتراك السودان في عام 1821. ومن الراجح أيضاً أن يكون قد توفى حوالي عام 1881، قبيل إعلان الدعوة المهدية بقليل. وقد يتفق ذلك مع القول بأن أبوقرجة توجه إلى الأراضي المقدسة – للمرة الثانية - لأداء فريضة الحج في ذلك العام. وكان قد أدى الفريضة للمرة الأولى في موسم سابق لم نستطع تحديده. ولا بد أن يكون قد سافر بإذن من الشيخ محمد أحمد (المهدي) وذلك بعيد البيعة السرية بأم غنيم والقطينة. ويؤكد ذلك أن المهدي لم يُكَلَف وقتذاك بإعلان الدعوة التي سرعان ما انبثقت وتطورت أحداثها. لقد أذن الشيخ محمد أحمد بالسفر لأبوقرجة الذي غادر قبل وقت كاف من ذي الحجة. فالسفر كان يستغرق وقتاً طويلاً على ظهور الإبل.

وقد جاء في روايات متواترة أن الشيخ عتمان كان قد كبر وشاخ حين أقدم

ابنه محمد علي الحج. وأنه كان مريضاً يحتضر عندما كان أهله من شيوخ الدناقلة يطلبون منه أن يوصي فكان يرد عليهم بقوله «العنده أُمحمد ما بوصي». وهذه العبارة أصبحت كالمثل السائر وربما تكون قد أطلقت من قبل ورددها الشيخ أثناء إحتضاره. ويبدو أن الشيخ عتمان العربي قد توفاه الله قبل عودة ابنه من الحج وانخراطه في النشاط الثوري العسكري للدعوة المهدية.

والمعروف أن الإمام المهدي قد عرض الدعوة على أولاد عتمان في أم غنيم بحضور ابن عمهم وصديقهم شيخ فضلو أحمد. وتقول مصادر أهل القطينة أن المهدي بايع رجال القطينة بحضور أولاد عتمان وشيخ فضلو وشايب وآخرين. والواضح أنهم لم يدركوا أن الأمر سيكون وشيك الوقوع كما حدث. والدليل على ذلك هو سفر أبوقرجة إلى الأراضي المقدسة. وقد جاء في مؤلف السيد علي المهدي «جهاد في سبيل الله» أن أبا السعود صحب من أم غنيم إلى الجزيرة أبا كلا من أبوقرجة وشيخ فضلو كدليلين للحملة. ولم يتردد ذلك الأمر في مصادر أخرى. بالإضافة إلى أن هؤلاء الرجال كانوا قد بايعوا بيعة سرية حاسمة، يدركون مراميها. ومن المحال أن ينصاع بعضهم لأبو السعود ويتطوع كدليل لحملته. ولكن بعض المصادر العائلية تكهنت بأنه إذا كانت رواية السيد علي المهدي صحيحة فقد يكون أبوقرجة وشيخ فضلو قد ضللا الحملة وجعلا الباخرة التي تقلها ترسو بعيداً عن مشرع الجزيرة وفي مكان موحل عرقل إنزال الجنود فاضطربت أحوالها منذ البداية. ويستتبع ذلك ضرورة مشاركتهما في المعركة، الأمر الذي لم يرد في المصادر التاريخية. ولا بد من إعادة التأكيد بأن رجال أم غنيم لم يكونوا موجودين فيها حين تطورت الأحداث خلال يومين أو ثلاثة واندلعت المعركة المباغتة.

وقال المؤرخ إسماعيل الكردفاني[1] "إن الإمام المهدي أرسل إلى القبائل الذين

1. سعادة المستهدي، ص123.

هم حول الجزيرة أبا بالجهة الغربية يستنفرهم ويدعوهم إلى الحرب. فأرسل مهلة ود محمد من قبيلة دغيم ومن ساداتهم، ومحمد ود بلال كذلك، لأهاليهم. وقال لهما قولا لقومكما من أراد الله والدار الآخرة فليحضر عندنا بدون تأخير. وأرسل رحمة ود عمر لقبيلة الحسنات بمثل ذلك. وأرسل عبد الله ود السماني بمثل ذلك. فحضر الجميع قبل حصول الواقعة امتثالاً لأمره عليه السلام".

وبما أن أهالي أم غنيم (وهم أبوقرجة وإخوته وشيخ فضلو ودناقلة آخرون) لم تكن إقامتهم دائمة في القرية، فعائلاتهم كانت تقيم في القطينة. ولا أحد يستطيع أن يجزم بوجودهم قرب مسرح الأحداث في تلك الأيام. والمهدي كان على علم تام بتحركاتهم في غدوهم ورواحهم. ولو كان يعلم بوجودهم بأم غنيم لبعث إليهم مستنفراً قبل الجميع. إلا أن إحدى الروايات أشارت إلى أن نصر بن عثمان العربي (كاشات) أطلق النار على سفينة الترك التي كانت تمر بأم غنيم. ولم يكن يعرف وجهتها، ولكنه توجس شراً حين رآها محملة بالجند. وساوره الشك في أنها تعتزم الهجوم على الجزيرة أبا.

وقد ذكرت المصادر إن عبد الرحمن النجومي والحسين إبراهيم الزهراء عبرا إلى الجزيرة أبا غداة المعركة – خلال ساعات – مما يعني أنهما كانا قريبين من موقعها.. ربما في الفشاشوية[1].

ينتمي الشيخ عثمان العربي لقبيلة الجوابرة الخزرج التي وصفها هارولد مكمايكل بأنها «القبيلة النهرية التي تقطن أقصى شمال السودان وينطبق عليها وصف عرب بكل الأبعاد والمعاني». وتتمركز زعامتهم في جزيرة بدين على مقربة من حدود مديرية دنقلا وديار المحس. ويبدأ عمق مواطنهم من شلال حنك حتى تيتي بما في ذلك

1. قرية قريبة جداً من أم غنيم وتواجه الجزيرة أبا من جهة الغرب.

جزيرة أرقو ومقاصر[1].

قال الرحالة بوركهاردت إن قبيلتي الجوابرة والغربية – والأخيرة هي فرع من زناتة- إستولتا على الإقليم من أسوان إلى وادي حلفا وفرض بعد ذلك عرب القبيلتين سلطانهم على كثير من العشائر الصغيرة التي استقرت على ضفاف النيل بعيد الفتح. ومن بين هذه العشائر الكنوز وأصلهم من نجد والعراق. واحتلت قبيلة الجعافرة الكبيرة ضفاف النيل من إسنا إلى أسوان. وإستقرت في بطن الحجر أسر قليلة من الأشراف. واستولت واحدة من عشائر قريش على المحس. وظلَ هؤلاء العرب يحتلون النوبة قروناً تخللتها الحروب والمناوشات. ولم يلبث ملوك دنقلا أن فرضوا عليهم سلطانهم وأجبروهم على دفع الجزية. وكاد الجوابرة أن يهزموا الغربية ويخضعونهم إلا أن الأخيرين إستغاثوا بالسلطان سليم الأول بالقسطنطينية عام 1520م. فأرسل إليهم كتيبة من الجنود البوشناق – البوسنيين – بقيادة حسن قوصي الذي أجبر الجوابرة على الجلاء من النوبة والانسحاب إلى دنقلا. ويؤكد بوركهاردت في كتابه الصادر عام 1819م أن سراة دنقلا – عهدذاك – أصلهم من قبيلة الجوابرة وأشار إلى أن بعض عائلات الجوابرة لا تزال تعيش في مواطنها السابقة في سلام. وما زال أسلافهم الذين أقاموا في الدر ووادي حلفا يحملون اسم قبيلتهم. وأشار إلى أن الجوابرة القادمين من جنوب مصر استوطنوا في مملكة أرقو التي حكمها أبناء عمومتهم الحاكماب. وقد ساعدوهم على الإحتفاظ بهذه المملكة مما حدا بالمؤرخين بوصفهم بالحلفاء لأمراء أرقو[2].

وقد توافدت عائلات الجوابرة بالهجرة إلى مناطق أواسط السودان وغربه منذ أزمان بعيدة. وذكرت مصادرهم أنهم هاجروا إلى كردفان منذ بداية القرن الثامن

1. تاريخ العرب في السودان هارولد مكمايكل، ترجمة سيد ديدان.
2. رحلات في بلاد النوبة – جون لويس بوركهاردت.

عشر وأن معظمهم ينتسبون إلى جدهم السابع إدريس بن محمد بن إدريس بن عبد الحفيظ «توريق الحديد». وقالت المصادر أن جماعة من أعيانهم توجهوا إلى الفاشر عام 1785م لمقابلة السلطان محمد الفضل ليقطعهم منطقة بارا والخيران بكردفان. وقد حملوا معهم الأجربة (الجربان) المصنوعة من جلد الغزال والمملؤة بالذهب الخالص لشراء الأرض. وأضافت تلك المصادر أن الفقيه الشيخ عيسى ود محمد النور الأنصاري – وهو من الجوابرة الخزرج- إستضافهم في داره. وكان عالماً وقاضياً وربما وزيراً بسلطنة الفور وزوجاً لشقيقة السلطان. وما زالت سلالته موجودة. وهناك بعض حفدة الجوابرة ما زالت تقيم في الفاشر ومعروفة باسم الخزرجية[3].

والمعروف أن الجوابرة مركزهم الرئيسي جزيرة بدين في دنقلا ويسمونهم جبركي (الجبركد كما هو معروف لدينا) وهم حسب زعمهم ينتسبون إلى جابر بن عبد الله الصحابي الجليل راوي الحديث الثقة الثبت. ويقول الشيخ النسابة عثمان حمد الله في كتابه «دليل المعارف» أن أول من دخل من الجوابرة دنقلا هو الإمام نقيع ابن عامر الذي تزوج بنت ملك النوبة (قبل 725هـ- 1327م) وأنجب ثلاثة أولاد هم ملوك الجوابرة.

ويقول (ومن ذريتهم الملك الصالح محمد قرجة، أبو خمسة من النوبة الدنقلاوية، ملك عموم الجوابرة. وهو من أقارب الأمير محمد عتمان أبوقرجة قائد من أمراء المهدية المشهورين. وهناك من الجوابرة من دخلوا وادي حلفا بعد أن إتخذوا بلدة توماس وعافية بالنوبة السفلى مستقراً لهم) [4].

قد يكون لقب قرجة الذي لازم اسم ذلك الملك مماثلاً للقب الأمير محمد عثمان إلاَ أن مصادرنا العائلية وما ورد في مخطوط المؤرخ محمد عبد الرحيم تؤكد أن لقب أبوقرجة أطلق على الفتى محمد بن عثمان في مناطق جنوب السودان في بدء رحلاته

3. الجوابرة والأنصار الخزرج بالسودان، جابر الأنصاري عبد الله معروف، ص116.
4. دليل المعارف ص60-61 ، الشيخ النسابة عثمان حمد الله، (والد المرحوم الرائد فاروق حمد الله)

التجارية إلى هناك. وترد مناسبة إطلاق اللقب عليه في موضع آخر من هذا الكتاب.

كان الأمير أبوقرجة يمتلك وثيقة نسبه المتصل بالصحابي الخزرجي أبو عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاري. وكان مكتوباً على رق الغزال حتى تم تدوينه على الورق في أخريات القرن التاسع عشر. وقد رأيت هذه الوثيقة الورقية تتداولها أيدي بعض إخوتنا حتى اختفت نهائياً ولم يعرف لها مكان. كانت تلك الوثيقة ممهورة بتوقيعات ثلاثة من الرجال المعروفين الذين وضعوا أختامهم عليها وهم الشيخ محمد البدوي والأمير عثمان أزرق وجدنا الفكي عبد الله ود الأمين الذين حضروا تدوينها على الورق وشهدوا بصحتها. وظلت في حوزة عمنا حسين أبوقرجة حتى وفاته فتسلمها ابن عمنا محمد إسماعيل أبوقرجة.

وقد أشار سبولدنق[1] إلى أن القبائل العربية الحديثة في السودان إستندت على الأوهام الخاصة بالنسب العربي وتسلسله إلى أن يصل إلى جد عربي معروف. وقال أن الأمر يعود إلى تفكك الدولة المركزية السنارية في أخريات القرن الثامن عشر ومحاولة القبائل التماسك الإجتماعي في إطارها الخاص المستقل. ولا أدري ما إذا كان النسب الخاص بهذه العائلة يخضع للشروط التاريخية التي أشار إليها سبولدنق أم لا[2].

كان الوالد يثمن دور أسلافه الأنصار في نصرة الدعوة الإسلامية. وأذكر أنني حين تعلمت القراءة كنت أقرأ عليه السيرة النبوية. وعندما أتعرض لأسلافه الخزرج هؤلاء كانت أساريره تنبسط ويتألق وجهه الشائخ الصبوح. كان يؤكد الصلة دون أي تردد بين أنصار النبي وأنصار المهدي. ويرى أنهم نصروا النبي ثم انثنوا ونصروا مهدي الله بعد كل هذا الزمان الطويل.

1. عصر البطولة، ص 333.
2. ومن المفارقات أن الصديق الروائي محسن خالد أبلغني عن تقارير حديثة لبعض الدوائر العلمية الخاصة بالأنثروبولجي أفادت بالصلة «الجينية» الوثيقة بين خزرج المدينة والخزرج السودانيين في الشمال.

كان آباونا يعتزون بأسلافهم الخزرج، لا لأنهم عرب بل لأنهم كانوا أصحاب رسول الله الذين آووه ونصروه. كانوا يفضلون الحديث عن علاقاتهم بالدناقلة والمحس أكثر من الحديث عن أسلافهم العرب. كانوا يدركون أن دنقلا منطقة جمعت أشتاتاً من الأعراق التي انتسبت إليها كمنطقة جغرافية.

"ففي الواقع لم يعد من السهل التفريق أو التمييز بين أصول هذه المجموعات، عرباً ونوبة. فقد ظل المجتمع النوبي مستقراً متسامحاً شأن المجتمعات الزراعية. تقبل العرب بصدر رحب. أفسح لهم مكاناً ليندمجوا ويأخذوا من ثقافته التي تقوم على المرتكزات الإنسانية الرافضة بشكل تلقائي للعنصرية. من ثم ظل النسب للمكان وليس للعنصر. فهناك الحافري، المنسوب إلى الحفير، ومشاوي إلى مشو، ودمباوي إلى الدمبو[1]. فكل هذه العناصر تتحدث عن نسبها الأكبر دنقلا. وأشارت عدة مصادر إلى أن كل القادمين من إقليم دنقلا كان يعرفهم الناس بالدناقلة. وهم الدناقلة والمحس والجوابرة والبديرية والركابية والجابرية وغيرهم من العناصر التي اختلطت بالنوبة وظلت تتحدث اللغات النوبية من أقصى شمال السودان وحتى ما بعد انحناءة النيل. وقال كثير من الرحالة الأجانب إنه ابتداءً من ذلك الشمال القصي وحتى موقع الخرطوم كان أغلبية السكان لا يتحدثون سوى اللغات النوبية. وذلك قبل حوالي مائتي عام. في الوقت الذي إنداحت فيه موجات من القبائل العربية في المناطق السودانية الشاسعة.

هذا النسب المكتوب أدناه ظلت تتداوله أجيال وأجيال من هذه العائلة.. وننشره هنا للفائدة التاريخية وليس لأي سبب آخر. وكما قال الشيخ محمد البدوي إنه تكليف وليس تشريفاً. وقد تم العثور على هذه النسخة في محفوظات المرحوم مصطفى حسن الحسن عثمان. وهي منسوخة من الوثيقة الأصلية التي أشرنا إليها.

1. دنقلا والدناقلة "الدكتور عوض أحمد حسين" "شبة".

عثمان بن محمد بن الحاج الشيخ إدريس بن أحمد بن شاويش بن محمد بن عثمان بن محمد بن سكر بن داؤود بن جابر بن سعيد بن الشيخ بخيت بن الشيخ عامر بن الشيخ النور بن الشيخ أبي بكر بن الشيخ عثمان بن الشيخ الزين ابن الشيخ داؤود بن الشيخ موسى بن الشيخ سعيد بن الشيخ إدريس بن الشيخ محمود بن الشيخ إسماعيل بن محمود بن نصر بن مكين بن موسى بن الشيخ أبو ليلى بن الشيخ موسى بن عبد الجبار بن موسى بن ضبيان بن الشيخ نجم الدين بن الشيخ أبو المجد بن الشيخ جابر بن عبد الرحمن الذبيح بن جابر بن عبد الله الأنصاري الصحابي رضي الله عنه نقيب النبي (ص) بن عمر بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن ساردة بن تزيدة بن جشم بن الخزرج بن حارثة بن امروء القيس بن ثعلبة بن مازد بن الأسد بن الغوث بن ثابت بن مالك بن يزيد بن كهلان بن سبأ.

•••

ظل عتمان العربي مرتبطاً بأهله في الشمال. فبعد استقراره في القطينة ونجاحه الباهر في أعماله وفد عليه نفر غير قليل من أقاربه من حفيرمشو وأقاموا إلى جانبه يعملون في الزراعة وتربية الحيوان. كما وفدت عليهم أعداد غفيرة من أهلهم الدناقلة من مختلف المناطق (كما أشرنا في موضع آخر). فجميع أهل القطينة من الدناقلة تربطهم أواصر القربى في مواطنهم السابقة، ثم أواصر النسب التي تواصلت في المهجر الجديد. وكان أكثر أقربائه الوافدين عليه من أبناء وأحفاد خاله شيخ منور ود إدريس، الذين لا تزال سلالاتهم تقيم ما بين أمدرمان والقطينة. وكذلك من أقرباء والده من الجوابرة الخزرج الذين يقيم أحفادهم حالياً في نفس المنطقتين بالإضافة إلى الكاملين والهلالية والمسلمية وغيرها من مناطق أخرى في النيل الأزرق حيث صاهر أبوقرجة أهله آل عيسى الأنصاري بالمسيد. وذلك حين تزوج بكريمة الشيخ محمد بن عيسى الأنصاري، قبيل الثورة المهدية بسنوات قليلة. ومضى زمان كان فيه جميع الدناقلة في السودان يؤكدون صلة القربى التي تجمعهم بالأمير أبوقرجة وخاصة في أيام المهدية التي كان لهم فيها سنداً وملاذاً. وبعد أن اشترى بيت مال المهدية وإتخذه سكناً له هرع إليه أهله وأقاموا حوله في الحي المعروف حالياً بيت المال.

ويظل من أهم الناس الذين وفدوا على عثمان العربي ابن عمه أحمد فضلو الذي صحب معه ابنه شيخ فضلو، وكان لا يزال حدثاً صغير السن. وقد قدر لهذا الفتى ولأخيه شايب الذي ولد في المهجر الجديد أن يلعبا دوراً مهماً في الثورة المهدية (ويأتي ذكرهما في موضع آخر من الكتاب).

وجاء في كتاب «القطينة عبر الأجيال» أن أول من وفد إليها – أي القطينة – النور بوبا — وهو من الأكد — وأسرته المكونة من عبد الله وعلي الكرار وابنته آمنة التي تزوجها عثمان العربي وأنجب منها نصر «كاشات» ومصطفى، الشهيدين في معركة الجريف. وابنته فانة (فاطمة) التي تزوجها أحمد فضلو وأنجب منها شايب وأروى ومريم.

وربما يكون هناك أفراد نزحوا إلى هذا المكان في أوقات سابقة واستوطنوا إلا أنهم لم يلفتوا نظر معاصريهم ولم ينبه لهم ذكر. فقد كان ذيوع الصيت مرتبطاً بالثراء والمكانة الإجتماعية (زعماء المجموعات السكانية والقبائل وكبار المتصوفة) وعمارة عثمان تعني أن الرجل شيَد بناء – ربما بالطوب الأخضر أو الجالوص – خلافاً للناس الذين كانوا يشيدون منازلهم بالحطب والقش وأحياناً بالجلود أو شعر الحيوان. وكانت القطاطي تشيد بالقش حتى دخل الأتراك فجعلوا جدرانها من الطين وسقفها المخروطي من القش.

وقد أشار الكتاب إلى القبائل الرئيسية التي استوطنت القطينة كالجعليين (وفروعهم الأبيضاب والفراحين والقريداب). وجاء فيه أن الشايقية وفدوا من نوري. وقال إن الدناقلة والمحس وفد منهم الجبركد (الجوابرة) من بدين وحفير مشو وسور من سوري والفونج من قوشابي والبديرية من الدبة والخنادقة من خندق بشير، والأكداب من أكد. كما لم يفت الكتاب أن يشير إلى القبائل التي استوطنت في تلك المنطقة. فبالإضافة إلى الحسانية استطونت قبيلتا المسلمية والحسنات.

إمــام الهدى
ما بيـــن
الجزيرة أبا وأم غنيم

إمام الهدى
ما بيــن
الجزيرة أبا وأم غنيم

أعلن الشيخ التوم ود بانقا قائلاً:

«تاالله سحابتـه أظلتنا»

ثم قال:

جــاء يـقـدل صـقـر الـشـامـيـة
المــن قـومـتـه لـيـه المزيــــــة
الـحـس الـلـيـل قــاد الـســريـة
دا خـلـيـفـة الـنـبـي دخـريَـا

كانت قرية أم غنيم الوادعة غارقة في خضرة عميقة آسرة [1]. تظلها أشجار السنط الشائخة العملاقة. ويحيط بها الهدوء إلا من أسراب الطيور.. تروح وتجييء في تناغم وانسجام فوق النهر. يندفع بعضها مخترقاً الماء بمناقيره ليصطاد صغار السمك.. والسعادين تتواثب في أعالي الشجر. بينما يخور ثور أو ينهق حمار من بعيد. وتبدو الحملان والعجول ترعى وتتقافز من مكان إلى آخر في نشاط إستمدته من وفرة الحشائش في ذلك الشاطئ الممرع. ثم لا يلبث أن يتراءى قارب من بعيد.. متجهاً نحو الشمال. يتفادى الجزيرة التي تبدو ككائن خرافي كسول يرقد مستلقياً على صفحة الماء. ثم لا يلبث القارب أن ينعطف نحو اليسار. يسرع الرجل المكلف بمراقبته نحو القرية. يعود يتبعه عدد من الرجال في هيئة حسنة وملابس نظيفة. فقد أعدوا أنفسهم لهذا اليوم.

1. رواية جدنا زكريا عثمان للبرعي عثمان إدريس (من الكاملين) في أواسط اربعينات القرن العشرين.

يرسو القارب ويدفع إليه الرجال بجذوع أشجار ليعتليها الزوار مروراً إلى اليابسة. يتراجع القادمون يفسحون المكان لشيخهم الشاب الذي يترجل بسمته المهيب وقوامه السمهري الفارع. يتقدم نحو المستقبلين يلفه الخشوع والسكينة. فيهللون ويكبرون. يتبادلون التحايا فرحين مستبشرين. فأينما يحل الشيخ محمد أحمد (المهدي) تحل البركات وتنشرح النفوس وتغتبط. يتحد الزمان والمكان في حالة من الوجد الخالص. يدب النشاط في الناس.. يتدفقون حيوية. ذلك بعد أن أعدوا عنقريب القد[1] الخاص، المنسوج بعناية، والمفروش بالبرش الأبيض في وسط الكرنك[2]. ذلك المبلط بالرمل والمرشوش بالماء، وجرار الماء مملوءة منذ مساء البارحة. وقدح الدبكر[3] والقرع الجديد النظيف يتم إحضارها من «القطيع»[4]. هذه المتعلقات والأواني لا يستخدمها أحد بعد مغادرة الشيخ محمد أحمد.. وحتى يعود في زيارته القادمة. يعدون كل ذلك دون علمه فالرجل لم يكن يميز نفسه عن أقل الناس شأناً.. يؤاكل المساكين والبسطاء ويجلس معهم على الأرض مطاطئاً رأسه يكسوه التواضع والوقار.

كان الإمام المهدي قبل إعلان الدعوة كثيراً ما يعبر النيل يصحبه جماعة من تلاميذه لزيارة أبناء عمه بأم غنيم – كما كان يعبر لمريديه. يقيم بينهم أياماً ويتحدث إليهم كثيراً عن أمور الدين وينصت إليهم كثيراً يتحدثون عن تجاربهم وأحوالهم. ولا تزال الحكايات التي تروى عن زياراته وما صاحبها من أحداث صغيرة رطبة على ألسنة أهل تلك المنطقة يتناقلونها جيلاً بعد جيل. أما الخليفة عبد الله بن محمد فقد زارها حينما قدم من الغرب باحثاً عن الشيخ محمد أحمد فأرشده أبوقرجة[5] إلى مكانه، ثم عاد إليها بعد أيام قليلة بصحبة الإمام المهدي لدى عودته من مهمة بناء قبة الشيخ القرشي ود الزين. وعند

1. شرائط من الجلد كانت تنسج بها العناقريب.
2. غرفة مستطيلة مائلة السقف من الجانبين.
3. نوع من الخشب النادر كان يستخدم في صناعة أقداح الطعام.
4. القطيع: المخزن المنزلي في الدارجة السودانية القديمة.
5. عصمت زلفو – "الخليفة عبد الله".

هجرته من أمدرمان عقب سقوطها في يد الإحتلال البريطاني دلف الخليفة إلى أم غنيم حيث كان أخوه يعقوب قد أودع فيها جمالاً يرعاها جماعة من عرب الماهرية.

لم تكن العلاقة التي جمعت بين الشيخ محمد أحمد وأولاد عثمان العربي قد نشأت بأم غنيم بعد إختيار أبوقرجة لها منطقة زراعية خاصة بهم. كانت أبعد من ذلك. ومن المؤكد أنها نشأت بالقطينة التي كان يتردد عليها الشيخ محمد أحمد كثيراً. فقاطنوها هم أهله وعشيرته من الدناقلة وإن اختلفت المناطق التي هاجروا منها في دنقلا. وقد كان فيها كثير من أبناء عمومته الأشراف. وقد تزوج ثلاثاً من نسائه من القطينة وهن: بخيتة بنت الفكي علي، وحرم بنت النور ود حسين بصير وأم سلمة بنت عبد الله شوش. وقيل إنه حين بدأ دعوته سراً إجتمع برجال القطينة ومن بينهم أبوقرجة وإخوته وابن عمهم شيخ فضلو أحمد. ويتحدث أهل القطينة أيضاً عن سفر أبوقرجة إلى الحجاز – الذي تضاربت الأقوال في موعده وقالوا إنه تم بعد ذلك الإجتماع.

ولكن من الواضح أن الشيخ محمد أحمد كان ملتصقاً بأهله الدناقلة المهاجرين في وسط السودان، وفي الجزيرة على وجه الخصوص. وليس بعيداً أن يكون الشيخ محمد أحمد قد أشار إلى أبوقرجة باستصلاح أراضي أم غنيم والإقامة فيها. فهجرة الطرفين تزامنت فكانت في أوائل سنوات السبعين من القرن التاسع عشر.

كان الشيخ عثمان العربي لا يزال حياً مقيماً بالقطينة حين أشار على ابنه أبوقرجة باقتطاع مساحات من أراضيه بشاطئ أم غنيم ومنحها لأقاربه الدناقلة الذين صحبوه إلى هناك حتى يرغبوا في الإقامة الدائمة فيشدون من أزره. وربما كان معه بعض الأشراف من قرابة الإمام المهدي. فهناك قبر الشيخ محمد شرفي لا يزال ثاوياً في مقابر ود مدرع.

وفي إحدى رسائله التحذيرية الحاسمة كتب الإمام المهدي للشيخ عساكر أبو كلام رسالة غاضبة يحذره فيها من التعرض بسوء للأنصار القادمين من أم غنيم خلال توجههم للحاق به في قدير عبر مضارب قبيلة الجمع. ويوضح له بأن «هؤلاء الرجال

تلاميذنا من قديم وقد وصل إلينا البعض ولا يزال البعض منهم هناك». وبالطبع فإنه يشير إلى أنهم تلاميذه في الطريقة السمانية. كانت الثورة لحظتذاك قد بلغت منعطفاً خطيراً وتجمعت نذرها في جميع آفاق البلاد بعد أن أحرزت إنتصارات سريعة باهرة وأنصارها يهرعون خفافاً لنصرة المهدي المنتظر منطلقين من نقاط تجمع تلقائية في أواسط البلاد.

كان الشلك يقيمون في مكان قرية أم غنيم حتى عام 1840م حين تراجعوا جنوباً لأسباب متضاربة. كما كانوا يقيمون في الجزيرة أبا حتى وقت وصول هؤلاء الدناقلة والأشراف. وقد تصاهروا مع البعض منهم كما حدث في مناطق مجاورة على النيل الأبيض. وقد ظلت مجموعات قليلة منهم مقيمة حتى سنوات الثلاثين من القرن العشرين.

بعد رحلاته المتعددة إلى مناطق الجنوب لأغراض التجارة قرر أبوقرجة الإستقرار في ذلك المكان الذي وصفه البعض بالكبانية – أي الزريبة التي كان يقيمها التجار في بحر الغزال. إلا أن طابع قرية أم غنيم كان زراعياً أكثر من أن يكون مستودعاً للرقيق كما توحي كلمة كبانية أو زريبة.

إلا أنه من المعروف أن إعتماده كان على الرقيق في عمليات الزراعة. كما أنه من المرجح أن يكون أبوقرجة قد إختار ذلك المكان الذي أعجبه موقعه خلال تردده مسافراً على النيل الأبيض. وذلك بعد أن هجر التجارة في إقليم بحارة كثيرون مثله بسبب السياسات الحكومية التي أثقلت كاهلهم بالضرائب وضيقت عليهم الخناق بدعوى محاربة تجارة الرقيق. كما أن الأمر الذي أغراه حقاً هو الجزيرة التي حملت اسم أم غنيم والتي كان الشلك يقيمون فيها معظم شهور السنة. وهكذا جاور أولاد عثمان شيخهم. هم من الناحية الغربية وهو من الناحية الشرقية لا يفصل بينهم سوى بحر أبيض.

توسع أبوقرجة وإخوته في الزراعة بأم غنيم. زرعوا القمح والذرة الشامية والذرة البيضاء والبصل والبقول. كانوا يحصدون منتجاتهم ويتجهون بها إلى القطينة حيث

كانت عائلاتهم لا تزال تقيم. وأخذ الناس يفدون إليهم من كل حدب وصوب ينشدون رفدهم وكرمهم. وكانوا لا يردونهم خائبين. وخلال تلك السنوات القصيرة اشتهر المكان وكثر زواره.

حين استقر أبوقرجة بأم غنيم لم يكن قد تجاوز الثلاثين بكثير.وكان هو الأكبر سناً بين إخوته الذين ربما كان بعضهم لا يزال في مدارج الطفولة في بلدة القطينة في كنف والدهم.

وذكر الرواة أن شيخ محمد أحمد أقبل ذات يوم إلى أم غنيم واتجه ببصره نحو الزراعة الممتدة على الشاطئ. فاستبشر بالخضرة واندفع يقترب منها حتى أخذ يتحسس بأنامله أوراق شجرة عميقة الاخضرار فسأل عنها. وحين أجابوه بأنه التبغ حتى استعاذ بالله وألقى بجسده على الماء بكامل ثيابه. وأخذ يغطس ويطفو مرات ومرات. واتجه إلى أهل أم غنيم الذين كانوا يزرعون التبغ من بين محصولات شتى وحذرهم من زراعته. ولم يترددوا فاقتلعوا نبات التبغ من جذوره وما عادوا يزرعونه البتة.

وقال الرواة أيضاً إن الشيخ محمد أحمد عندما كان يترجل من القارب ويسلم على جميع الرجال الذين يستقبلونه يتجه نحو ضريح الشيخ محمد ود مِدْرِع الذي لا يبعد كثيراً عن موقع القرية ويدخل إليه في زيارة تستغرق وقتاً غير قصير ثم يعود إلى الناس الذين يظلون بإنتظاره. ويقولون إن الشيخ محمد أحمد كان يخاطب ساكن الضريح. وإنه أبلغه بأمر المهدية فانتدب له أبناءه السبعة يقاتلون إلى جانبه في سبيل الدعوة. وقد شاركوا بالفعل واستشهدوا جميعاً، حتى بات يلقب بأبي الشهداء. لم أجد من يدلني على تاريخ وفاة هذا الرجل الصالح. وكل ما علمت عنه أنه من قبيلة الحسنات. إلا أن بعض المصادر أشارت إلى أنه من العركيين الذين صاهروا عرب الحسنات. وأشاروا إلى أن الإمام المهدي التقى بود مِدْرِع حياً وبعد وفاته أخذ يزور ضريحه كما ورد.

لا يزال أهالي أم غنيم يؤكدون أنهم ظلوا يسمعون تلاوة القرآن الكريم تنبعث من

ضريح ود مِدْرِع في أوقات مختلفة من الليل، وخاصة الثلث الأخير منه ويتحدثون كثيراً عن مرضى تم شفاؤهم بعد زيارتهم للضريح ونساء باحثات عن الولد أنجبن بعد طول إنتظار.

ما انفكت كرامات الشيخ الباهرة تترى وتتجلى حتى يومنا هذا. فبعد أن فرغت من كتابة هذا الفصل عثرت زوجتي على وثيقة نادرة ما كانت تخطر على البال. فبينما كانت تقلب في أوراق خاصة بوالدها الراحل حسن كنتباي أبوقرجة وجدت ورقة منقولة عن وثيقة أصلية تضمنت أسماء الشهداء السبعة أبناء الشيخ محمد ود مِدْرِع والمواقع التي سقطوا فيها شهداء من أجل إعلاء كلمة الدين وتحرير الوطن. وهم يوسف الذي استشهد في معركة الجزيرة أبا. والسماني الذي سقط في موقعة الأبيض والنيل في معركة شيكان، والأمير عبد القادر في معركة تحرير الخرطوم، وهجو وعلي اللذان سقطا شهيدين في موقعة القلابات، والرفاعي الذي استشهد في معركة كرري.

ومن عجب أن نلاحظ أن عدداً من قيادات الثورة المهدية كانوا يقيمون في منطقة النيل الأبيض غير بعيد عن الجزيرة أبا. فأبوقرجة وإخوته وشيخ فضلو وشايب كانوا بأم غنيم. وعبد الرحمن النجومي والحسين بن إبراهيم الزهراء كانا يقيمان في الفشاشوية في أغلب الظن حيث للنجومي أرض بتلك المنطقة يطلق الناس عليها حتى اليوم بلاد ود النجومي. أما الشريف محمود عبد القادر فقد كان يقيم في الشوال. ولا تبعد أغسل- قرية الخليفة علي ود حلو – على الشاطئ الغربي بكثير. ذلك فضلاً عن الأشراف وإخوة الإمام المهدي الذين كانوا يقيمون في الجزيرة أبا



الإمام المهدي

الإنذار المبكر

في لحظة تاريخية نادرة في ليلة السابع والعشرين من مارس 1874م مر شارلس غردون من هناك. كان لا يدري أنه يتوسط نقطتين خطرتين حددتا مصيره بعد أحد عشر عاماً وشهرين.. وذلك خلال مهمته الأولى في السودان. لقد مرَ ما بين الجزيرة أبا وأم غنيم. كان الشيخ محمد أحمد (المهدي) مستغرقاً في عباداته الشاقة العميقة بالجزيرة. بينما كان أبوقرجة وإخوته يحصدون المحاصيل الشتوية بأم غنيم في تلك الأيام.

كانت الباخرة تتهادى في النيل الأبيض في تلك الليلة في طريقها إلى غندكرو[1]. والشاطيء يبدو مقفراً، قاحلاً، موحشاً تلفه الظلمة. كان غردون يقرأ ويكتب ويذرع الغرفة جيئة وذهاباً ليبدد إحساسه بالوحشة. وأحياناً كان يضع منظاره المكبر على عينيه كأنه يتوقع أن يرى شيئاً على الرغم من أنه لم يبتعد عن الخرطوم بأكثر من مائتي ميل. وفجأة اندفع سرب من طيور اللقلق (السمبر) وصاح في وجهه مقهقهاً واختفى.

إرتاع غردون وخاف وارتجف وارتمى على مقعده متخاذلاً. وتناول الكتاب المقدس من المنضدة وبمجرد أن فتحه حتى وقعت عيناه على كلمات في سفر أشعياء، الإصحاح الثامن، تقول:

«اللقلق في السماء يعرف مواقيته»

فانتابه قلق عظيم وأحسَ كأن هناك رسالة موجهة إليه. وأخذ يقلب في صفحات الكتاب حتى فاجأته تلك السطور في أشعياء الإصحاح الثامن عشر والتي تقول:

---

1. من كتاب صور من البطولة، محمد سليمان.

«يا أرض حفيف الأجنحة التي عبر أنهار كوش[1] المرسلة رسلاً في البحر، وفي قوارب البردي على وجه الماء. أذهبوا أيها الرسل السريعون إلى أمة طويلة جرداء.. قد خرقت الأنهار أرضها. يا جميع سكان المسكونة وقاطني الأرض عندما ترتفع الراية على الجبال تنظرون. وعندما يضرب البوق تسمعون. لأن هكذا قال لي الرب إنى أهدأ وأنظر في مسكني كالحر الصافي على البقل.. كغيم الندى في حر الحصاد. فإنه قبل الحصاد عند تمام الزهر وعندما يصير الزهر حصرماً نضيجاً يقطع القضبان بالمناجل وينزل الأفنان ويطرحها. في ذلك اليوم تقدم هدية لرب الجنود من شعب طويل وأجرد.. ومن شعب مخوف منذ كان فصاعداً.. من أمة ذات شدة وقوة ودوس قد خرقت الأنهار أرضها إلى موضع اسم رب الجنود».

غرق غردون في تأملاته تتملكه الحيرة مما رآه في الكتاب المقدس عن مواقيت اللقلق (السمبر) والأمة الطويلة الجرداء. غفا قليلاً ونهض يكتب لأخته أوغستا رسالة جاء فيها:

«في الليلة الماضية كانت تقلنا الباخرة على النيل وكانت تطوف بذاكرتي شخصياتكم جميعاً وشخصية نوبار باشا[2].. وفجأة ترامت إلى مسمعي وأمام ناظري أصوات ضاحكة ساخرة أُرتج عليَ بعدها. إنبعثت تلك الأصوات من طيور اللقلق. كانت تكمن وراء الشجيرات. إنها سرب من الطيور كانت كأنها في انسجام تفكر وتضحك على كل شخص ينوي السفر إلى غندكرو بأي هدف ولأي هدف ».

غردون 27/3/1874م

كان الكولونيل شارلس غردون قد وصل إلى الخرطوم لأول مرة في 12/ مارس/1874م بعد تعيينه من قبل الخديوي والياً على مناطق خط الاستواء.. خلفاً

1. كل أراضي السودان المعروفة، قبل انفصال الجنوب.
2. كان رئيساً للوزارة المصرية في ذلك العهد.

للسير صموئيل بيكر. وعندما وصل إليها إتخذ من اللادو عاصمة له.وقام بإنشاء ديوان خاص بأعمال تلك المناطق منفصلة عن حكمدارية الخرطوم. وذلك لتنفيذ سياسات الخديوي إسماعيل بتوسيع إمبراطوريته الأفريقية. ثم لم يلبث أن تم تعيين غردون حكمداراً على عموم السودان في عام 1877م وبقي في هذا المنصب حتى عام 1879م. أما مهمته الأخيرة التي لقي فيها مصرعه فقد إستدعته القاهرة مرة أخرى لعام 1884م للقيام بإخلاء السودان من الحاميات المصرية بعد تفاقم الأوضاع في السودان باندلاع الثورة المهدية.

ملامح من شخصية الإمام

إكسير[1] الزمــان يا لمستقيم حالك

جردات الألـوف ما بشغلــــن بالك

واالله العظيـــم معــدومة أمثـالك

مكتوب النصر فوق رقعتك وشالك

بت مسيمس[2]

كان الليل قد إدلهم واستطال حتى بلغ ستين عاماً. والظلم والجور تعديا الحدود. وأحذية الترك على الرقاب. والعيون جاحظة تحملق في المجهول تبحث عن خلاص. ولا بريق. وقد وصف الشيخ الحسين الزهراء الحال بقوله إنه لو قيل لك أن فلاناً خرج عن طاعة السلطان وتبعه إخوته وبنوه لما صدقت. وفجأة برز فتى كالمستحيل، كالمذنب في مغاور الفضاء وفلوات السديم، فأعلن بجلاء لا يعتريه غموض أو إلتباس أنه ولي الأمر في ذلك الزمان. وأنه قد تقرر في الحضرة النبوية أنه المهدي المنتظر وظل يحدث دون وجل أو تردد في كل منعطف في مسيرته الظافرة بأنه يرى سيد الوجود (صلى الله عليه وسلم) فيكلمه وهو خال من الموانع الشرعية. يراه بالعين الشحمية دون حجاب. وقد قال الرسول (ص) من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي.

ولا شك في أن الرسول بطاقته الروحية الكبرى موجود بيننا، والله يفعل ما يريد.

---

1. شجرة الإكسير جاء ذكرها في روايات الأقدمين. وقيل إن غصناً صغيراً منها يستطيع تحويل التراب والمعادن الخسيسة إلى الذهب الخالص. وقد بلغت بت مسيمس بهذا المطلع الشعري ذروة الإبداع في وصف الإمام المهدي.

2. في قصيدة للشاعرة تمدح فيها الإمام المهدي (عم).

ولا جدال في صدق الفتى الذي لم يتجرأ على غش الحيتان في بحرها ورعاً دع عنك غشه لأمة الإسلام. وما كان في مقدوره أن يخسر نفساً أماتها ثم أحياها في كدحه الشاق الدءوب، حتى غدا قاب قوسين أو أدنى.

وقد نسب الشيخ عبد المحمود ود نور الدائم للإمام المهدي نفسه قوله «كنت إذا زرت قبر سيدي الشيخ أحمد الطيب – رضي الله عنه – أطرح نفسي على عتبة ضريحه وأطلب من الزوار أن يطأوا على ظهري عند دخولهم إليه وقاية للعتبة.. من ضحى اليوم إلى ظهره». يفعل ذلك إمعاناً في هضم النفس والتخلص من أي ذرة من كبر أو حب للذات أو من عجب وخيلاء.

لم يكن كلفاً بالحياة باحثاً عن عزها بل كان متجدد الأحزان كثير الإنتحاب محيطاً بكثير من أسرار الوجود. ألم يقل المعصوم « لو رأيتم ما أرى وسمعتم ما أسمع لضحتكم قليلاً وبكيتم كثيراً وخرجتم إلى الفلوات تجأرون بالبكاء، يا ليتني شجرة تعضد، يا ليتني شجرة تعضد". أو كما قال.

أما العارفون من الأولياء فقد ذكروا أن الدعوة التي أعلنها محمد أحمد ينبغي ألا يخوض فيها إلا الراسخون في العلم. قالوا بعبارات أكثر دقة باللغة العامية السودانية «لا يجوز ذلك إلا للعلم الذي يغرق الدانة ويطفح المسحانة، ويفلق الشعرة. والدانة هي القرعة والمسحانة هي حجر الرحاة الذي يطحن الحبوب. ومعنى ذلك اجتراح المستحيل[1].

ولكن الكثيرين – ممن أعمى الله بصيرتهم – خاضوا في هذا الأمر العسير دون أهلية أو ؟إستحقاق. واندفعوا في غفلة ماحقة وتبسيط كليل ينكرون هذه الدعوة

1. هذا القول سمعته من الجمهوريين قبل سنوات منسوباً للأستاذ الراحل محمود محمد طه "عليه الرحمة". وقد تجدد في كتاب الدكتورة بتول مختار محمد طه – ابنة أخيه – "محمود الإنسان" ص109 . وقد أشارت فيه إلى أنها صحبت الأستاذ في زيارة لقبة الإمام المهدي. وقالت إنه وقف طويلاً في هدوء أمام الضريح كأن هناك سراً بينه وبين صاحبه. ثم أسرَ إليها بأن المكان ليس خالياً.

ويكذبون صاحبها. لم يستغرقوا في الإمعان ولم تعتريهم دهشة المفكرين العارفين إزاء ذلك الأمر الاستثنائي فجوزوا لأنفسهم الخوض في ذلك البحر العميق. كانوا أيفاع فكر وصغار أحلام. وظلوا هكذا في غيهم سادرين تغذى عقولهم لواحق السياسة ومعتركاتها الفجة، ومرارات تاريخية ظلت تجترها الجدات عن جور وعسف الجهادية في أخريات الدولة المهدية. كانت دوافعهم في معظم الأحوال شخصية أو سياسية[1]. ولكن جلهم لم يملكوا إلا أن يقفوا مأخوذين أمام تلك الإستقامة والعظمة الإنسانية الفريدة والزعامة التي عز نظيرها وتلك الإنتصارات الساحقة المتلاحقة وتلك البصيرة النافذة التي تسيجها الحكمة وفصل الخطاب.

كان أبرز وأخطر ما تجلى في خطاب الدعوة المهدية أن صاحبها أعلن بقول غير ملتبس أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحتمع به يقظة ويحدثه وهو خال من الموانع الشرعية. ولم يسبق لكثير من الأولياء أن أفصحوا عن رؤيتهم للمعصوم يقظة. ولكن كثيراً منهم تحدث عن رؤى منامية. فالرؤية في حالة اليقظة لا تحدث إلا لمقامات لا يعلمها إلا الله. والذين لم يستبعدوا مثل تلك الرؤية استدلوا بقوله (ص): «من رآني فقد رآني.....»

وقد أشار الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي إلى عدد من الأدلة والوقائع التي تثبت إمكانية رؤية النبي (ص) يقظة، فقال «فحصل من مجموع ذلك أن النبي (ص) حي بجسده وروحه وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض في هيئته الأولى دون تغيير. ولكن الأبصار لا تراه إلا التي رفع الله الحجاب عنها وأكرمها». أما الإمام أبو حامد الغزالي فقد أشار إلى «أن الرؤية ليست لروح المصطفى ولا لجسده بل هو مثال له على التحقيق». ونسب الفقهاء للألوسي قوله «إنها رؤية قلبية ولقوتها

1. نشر أحد الكاتبين من الجمهوريين مقالات تبسيطية ساذجة ركيكة. خلت من المعاني الرفيعة وافتقرت إلى اللياقة وأدب الحديث. ظلم نفسه حين تطاول على الإمام المهدي ودعوته بغير جدارة وأهلية. كانت نفسه تنطوي على ضغينة لا تعين على الإبصار. وقد ترفع العقلاء العارفون عن الرد عليه. وحسبه ما آل إليه من حال لا يسر.

تماثل البصرية[1]». وبما أن أمر المهدية – كما أسلفنا دقيق واستثنائي، فلا يستبعد المؤمن العاقل حدوث ذلك فأمر الله غالب وهو على كل شيء قدير.

قال بعض المؤرخين إن إسماعيل عبد القادر الكردفاني كان يصف الإمام المهدي- الذي رآه رأي العين – وعينه على صفات النبي صلى الله عليه وسلم. أرادوا بذلك أن يستكثروا على المهدي تلك الصفات المحمدية. ألم يقل المهدي بصدقه وتجرده أن سيد الوجود أبلغه بأنه مخلوق من نور عنان قلبه. وصفه الكردفاني فقال «إنه عليه السلام كان أجلى الجبهة، أقنى الأنف، ووجهه كالكوكب الدري، ولونه يميل إلى السمرة. وما جالسه أحد وماشاه، إلا أطال عليه (عليه السلام). وهذا ما شاهده الجمع الغفير من الأمة (السودانية) الذين سعدوا برؤية ذاته الشريفة وتمتعوا بمطالع طلعته المنيفة. وهم عدد يربو على ما يثبت به التواتر».

ألم يذكر عصمت زلفو[2] في كتابه «شيكان» (أن الناس الذين رأوا المهدي كانوا يندفعون في وصفه وفجأة يتوقفون ويقولون «ما بتوصف». وجاء في كتاب زلفو أيضاً «أجمع كل من عاصر المهدي في تلك الأيام على أنه كان يتمتع بقدر كبير من المغناطيسية أو القدرة على التأثير على الجموع. يعززها قدر كبير من الوسامة الجسدية تحيطه بهالة من الجلال والمهابة».

وفي كتابه (النيل الأبيض[3]) قال آلان مورهيد إن المهدي إكتسب منذ صباه الباكر شهرة بين الناس بتقواه العظيمة وقدرته الخطابية الفذة مع جاذبية شخصية لا مثيل لها. وتحدث عن ما وصفه البعض بقوى غيبية كانت تحيط به. ونسب إلى استراتشي وصفه للمهدي بأنه كان في محضره مهابة عجيبة وفي حديثه حرارة دافقة مذهلة. لم يكن

1. بروفيسور شوقي بشير عبد المجبد
صحيفة السوداني 27/أغسطس/2014م.
2. شيكان ص32.
3. النيل الأبيض – ترجمة محمد بدرالدين خليل الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص233.

مورهيد بثقافته الغربية وديانته المختلفة على إستعداد لتقدير مدى اللياقة الروحية العالية للإمام المهدي التي إكتسبها بالعبادة الشاقة وبالكدح الصوفي الكثيف الذي لم يلبث أن أفضى به إلى تلك المنزلة الرفيعة وذلك التكليف الاستثنائي الفريد.

أما يوسف ميخائيل القبطي فقد رآه في الأبيض وقال «كان الشيخ محمد أحمد جميل الصورة، حلو اللسان فصيح في الكلام له جاذبية»[1].

وقال الكردفاني في كتابه إنه (المهدي) ملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد ما ملئت جوراً وظلماً من الأتراك الذين إنتهكوا حرمات الدين، وضربوا الجزية على المسلمين وفشا فيهم الزور والبهتان، وأطاعوا الشيطان وعصوا الرحمن وتسارعوا إلى محو رسوم الإسلام. ولم يراقبوا الله في أمة سيد الأنام. إلى أن أظهر الله هذا الإمام المرتضى، وسيف الله المنتضى، فأباد الظلم وأهله وأقلع الباطل أصله وفصله. فطابت البلاد واستراحت العباد. وألقى الإسلام بجرانه على الأرض. وعمَ العدل طولاً والعرض. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتقال يوم الهول الأكبر العثرات».

وقال مكي شبيكة إنه «قد عرف عن محمد أحمد، زيادة على انكبابه على العلم والتحصيل زهداً وتقشفاً وابتعاداً عما يدنس الروح والجسد. أما ضرار صالح فقد أشار إلى ما عرف عنه من إحترام لشيوخه وحب أقرانه له. وقد ذكر بعضهم حتى في ذلك الوقت المبكر أنه كانت له كرامات. ولا جدال في أن كل ذلك لم يذهب بعقله وأنه ظل العابد الزاهد. ولم يعرف عنه حين خلافه مع أستاذه محمد شريف أنه ادعى معرفة فائقة أو تفرداً بين رصفائه من الحيران».

ويقول البروفيسور أبو سليم «ثم أن شهرته قد بلغت شأواً عظيماً، لا لكونه داعية من دعاة السمانية فقط، وإنما لإعتقاد الناس فيه شخصياً. وقد جاء فيما كتب نعوم شقير وشبيكة وهولت نقلاً عن كاساتي «أن المراكب والبواخر النيلية كانت تقف عند الجزيرة

1. مذكرات يوسف ميخائيل ص42.

أبا تبركاً بزيارة هذا الفقيه الصالح. ويذكر آخرون أن السفن كانت تطلق صافراتها تحية له»[1].

«وبذلك جعل المهدي لنفسه رصيداً من السيرة الحسنة منذ صباه نفي عنه فيما بعد كل تهمة أو عيب بالقدر الذي تلجلج فيه شيخه محمد شريف بين الهجاء والمدح في قصيدته الشهيرة التي كتبها بتكليف من عبد القادر باشا حلمي – الحكمدار وقتذاك – سنة 1882م. ولم يستطع أن يطعن في شخصه بل أطنب في مدحه ولم يعب عليه سوى إعلانه لدعوته. وقد سارت سيرته الحسنة خير دعاية له وكانت واقياً له من الدعاية المضادة وحارساً عند العامة. ولم يعرف عنه أبداً وحتى لقي وجه ربه ما يدنس تلك السيرة الحسنة أو ما ينتقص منها»[2].

حدق باحث حاذق[3] وأمعن نظراً حصيفاً بروية وأناة في المجموعة الكاملة لأعمال الإمام المهدي – التي حققها البروفيسور الراحل أبو سليم – فتراءت له شخصية الإمام الفذة تتألق متوهجة ما بين السطور. برز قائداً ثورياً نبيلاً واسع الآفاق جديراً بأن يفجر إحدى أعظم الثورات على مر العصور. كما لاحظ ميله الواضح وانحيازه التام للضعفاء والمظلومين وسلوكه المتسامح الرافض للعنف.

وقال إن تلك الأعمال ترسم لوحة قريبة من الواقع للدعوة المهدية في منطلقاتها ودروبها ومنعطفاتها المختلفة. وتجسد مبدئية الإمام المهدي في إطار مرونته الواسعة التي كان يبديها مع الأعداء والأصدقاء إلى حد سواء. فقد كان حاسماً مع الأعداء، رؤوفاً رحيماً بأبناء أمته. ويوضح ذلك الأدب عمق فهم الإمام المهدي للقرآن والسنة ومعرفته الوثيقة الدقيقة للتصوف الذي قاده إلى تلك الدروب الوعرة. كما أنه لم يكن منعزلاً عن الواقع السوداني وخصائصه.. بل كان منغمساً فيه حتى مشاش العظم. يعرف

1. من كتاب دراسات في تاريخ المهدية.
2. نفس المصدر السابق.
3. تاج السر عثمان الحاج. دراسات في التاريخ الإجتماعي للمهدية

تفاصيله ويضرب الأمثال المنطلقة منه.. بما يتناسب وقدرات أبناء شعبه الذين كان جلهم من الأميين. إلا أنه استطاع أن ينفذ إلى عقولهم وقلوبهم بلغته البسيطة المعبرة وبأسلوبه الرائع الأخاذ.

وقال المحللون «إن مثل هذه الشخصية القيادية التي تسبق واقعها لا تستطيع الإنفصال عنه كلية لان ذلك من شأنه أن ينزع عنها الصفة البشرية.. الأمر الذي لم يتوفر حتى للأنبياء». وأشاروا إلى أن الإمام المهدي أثبت جدارته في استقطاب الدعم الجماهيري من خلال التعبير بالقول والفعل عن الوجدان الشعبي والاستجابة لمتطلباته المحددة في مرحلة تاريخية معينة. وقالوا إن المهدي الذي كان أعظم تلاميذ الصوفية في السودان ظل قادراً على رؤية سلبياتها المتمثلة في الفصل بين النظرية والتطبيق وفي تعقيد الموضوع الديني بجمله وأن يتجه مباشرة إلى مواجهة النظام السياسي والإجتماعي القائم»[1]. ولا غرو فقد كان متخلقاً بأخلاق النبوة وسننها – بعد أن نحَى جانباً كل ما عداها وإستطاع أن يقفو آثار الرسول محمد (ص) في حركاته وسكناته وفي كل ما يحاول من أمر. وقد سعى سعياً دؤوباً لترسيخ قيم التواضع والزهد في الدنيا والشجاعة والثبات عند المكاره والملمات وحين يحتدم الوغى. وحتى بعد أن أعلن دعوته ظل دائماً وأبداً ملتصقاً بأنصاره – فهو يخطب فيهم ويصلي بهم قبل قتال أبو السعود وراشد بك والشلالي وفي كل المواقع التي تلت ذلك. يستعرض جيشه بوحداته – ثم يصلي بهم ويقاتل معهم. كما كان يدعوهم دائماً للإرتقاء إلى منزلة الأحرار الكرام الذين لا تكون الدنيا غاية همهم وإنما الآخرة التي وعد الله بها عباده المتقين. أبرزت تلك الأدبيات صفات الزعامة الحقة. فهو يدعو أمراءه وأنصاره على الدوام للإمساك بزمام المبادرة ويمنحهم حقهم كبشر للوقوع في الخطأ والعمل على تصحيحه من خلال الممارسة. فهو لم يتدخل قط في تفاصيل شئون عماله. وبذلك إستطاع تنمية وتوسيع دائرة القيادة

1. الثورة المهدية – مشروع رؤية جديدة. عبد العزيز الصاوي ومحمد علي جادين.

بالخطاب المتواضع والتوجيهات السديدة والشحنات الروحية. الأمر الذي أسفر عن بروز قادة ثوريين ومبدعين أفذاذ في مختلف المجالات العسكرية والإدارية.

لم يكن يستبد برأيه ولم يدع العصمة ولم يضع نفسه فوق المحاسبة. كان يستشير من هم حوله ويتقبل وجهات النظر والمقترحات المناسبة التي ترد من عماله وأنصاره ويدعو للعمل بها. ولعل من أغرب الوقائع التي تدل على تواضعه وتقديره لرأي الآخرين جاءت حين قال (إن الترك شكوه إلى الله تعالى بأنه قتلهم دون إنذارهم إلا أنه أكد أنه أنذرهم وقال إن شاهده كان سيد الوجود (ﷺ). ويتجلى ذلك التواضع في خطاباته المرسلة إلى قادة الثورة على اختلاف درجاتهم، ولا يصدر فيها أحكاماً نهائية. ويترك لهم الهوامش للإضافة والتعديل في أعماله وقراراته.

لقد كان للمرأة نصيب وافر من إهتمام الإمام المهدي. فكان ينتصر لها وينحاز إليها حين تستجير به من عسف الرجال وجورهم في ذلك المجتمع الممعن في ذكورته. وكان يرفض إكراههن على ما لا يرغبن فيه. وكثيراً ما كان يردد بأن «البنت تلد الفارس» ويتمنى أن يكون له «مائة بنت ليفدي بهن القبائل» في إشارة واضحة لمشروعه في الوحدة الوطنية وإنصهار الأمة. صدق من رأوه وقالوا (ما بتوصف!).

تبرز تلك الأدبيات لغة الإمام المهدي ناصعة غنية متفجرة. تكاد تند عن سطورها من فرط شحناتها الدلالية وجمالها البديع الأخاذ في صياغة المعاني الجديدة والطرح المغاير. وكأن الفلاسفة الذين أشاروا إلى الفكر الجديد الذي يفرض لغته الجديدة يعنونها هي لا غيرها. وقد وصفها مفكر معاصر[1] بأنها «تصل صليل الجرس.» كما اعتبر حسين مؤنس الإمام المهدي أفضل كتاب العربية في أواخر القرن التاسع عشر. ولعله من المناسب أن نقدم للقارئ نصاً يكشف عن القدرات الإبداعية للإمام المهدي في استخدام اللغة التي تنثال من قلمه إنثيالاً كشلال من نور. وكأنها تكفي لأن تكون وجه الإقناع الوحيد

1. محمد إبراهيم نقد.

بصحة دعوته. ويقول المحللون[1] «إن المهدي كقيادة تاريخية فذة استطاع أن يتميز بالحصول على أعلى درجة في الثقافة العربية والإسلامية. كما إستطاع أن يجمع تلك الثقافة العالية مع حرارة الإحساس بظروف الواقع ومتطلباته من خلال إلتصاقه بحياة البسطاء. وقد نجح في ذلك بتكوين ذات تتميز بالحنكة القيادية والإستعداد لتحمل المسئولية.

يخاطب هذا النص علماء السلطة التركية الذين أشبعهم فيه تقريعاً منطلقاً من رؤيته الباطنية العميقة الثاقبة وموقفه الثوري النبيل.

يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون وتدرسون ما لا تفعلون فما سوء ما تحكمون تتوبون بالقول والأماني وتعملون بالهوى ما يغني عنكم أن تتقوا وجلودكم وقلوبكم دنسة.. يا علماء السوء كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع عنها رغبته. بحق أقول لكم أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم.. ويلكم حين تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلات المتحيرين. كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم.. مهلاً مهلاً يا عبيد الدنيا. لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام. توشك الدنيا أن تعلقكم من أصولكم وتكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم إلى الملك الديان حفاة عراة فيجزيكم بسوء أعمالكم

1. ا"لثورة المهدية – مشروع رؤية جديدة". عبد العزيز الصاوي ومحمد علي جادين، ص 22.

المهدي في رؤى
الأولياء والعارفين

لم يأت محمد أحمد من مكان بعيد غامض أو مستتر. بل ولد ونشأ وعاش وسط هذه الأمة. فرآه الناس طفلاً منذوراً للخير والصلاح وصبياً منجذباً للعلم والمثل العليا حتى غدا فتى نادر المثال، محمود السيرة نقي السريرة. فمالت نفسه للتصوف باحثاً عن طوق نجاته في هذا الوجود. أمعن في العبادة والزهد حتى كسر حظ نفسه وبدد رغائبها وغدا من كبار الأولياء في سن جد باكرة. وفي مخطوط نادر للشيخ أحمد الطيب البشير كتبه بخط يده، قال «المهدي منا وقد أطلعني عليه ربي حتى كأني أنظر إلى جلال هيبته وحسن شمائله وزهرة أسنانه». جاء ذلك قبل أكثر من خمسين عاماً من ميلاد محمد أحمد المهدي. وقد جاء أيضاً في مخطوط المؤرخ الشيخ محمد عبد الرحيم أن السيد الحسن بن السيد محمد عثمان الميرغني كان في زيارة لقرية كرري فرأى محمد أحمد طفلاً في خلوة أنشأها السيد أحمد شجر الخيري فأبلغه أن هذا الطفل الذي دخل عليه مع مجموعة من الصبية هو المهدي المنتظر. ومن المرجح أن يكون ذلك قد حدث في أوائل خمسينات القرن التاسع عشر الميلادي. عاش هذا الطفل تحت رعاية إخوته بعد وفاة والده فرأوا فيه ما رأوا من بشائر الخير لذا كانوا أول من آمن بدعوته واستشهدوا في معارك الثورة الأولى. صدقوه لأنهم رأوا فيه ما لم يره كثير من الناس وصدقه أهله الأقربون ونصروه. كما صدقه الشيوخ الذين نهل العلم على أيديهم – أمثال الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلي الغبشاوي والأستاذ محمد شريف ود نور الدائم الذي أتاه مهرولاً في الطريق وهو يقود الزحف البشري الهائل نحو الخرطوم. كما صدقه الشيوخ الذين عاصروه في الخلاوي طلاباً مثله كالحسين الزهراء والحسن سعد العبادي وعبد الرحمن النجومي. ومن بين هؤلاء الناس صدقه

أولاد عثمان العربي – أبوقرجة وإخوته – مدوا أيديهم مبايعين منذ الوهلة الأولى، وسقط ثلاثة منهم شهداء في المعارك الباكرة وبقى الأربعة الآخرون إلى أن توفاهم الله وما بدلوا تبديلا. كان شيخهم في الطريقة الذي عرفوه منذ سنين قبيل إعلانه الدعوة. وقيل إن الفتى نصر (كاشات) بن عثمان العربي حين مد يده مبايعاً أخذته العزة بعصبية دنقلا فقال «نحن نبايعك حتى إذا لم تكن أنت المهدي المنتظر. وسيوفنا لن تعود إلى أغمادها في سبيل الأمر الذي أعلنته. فليقل الناس "شقة شقوها الدناقلة".

كان الناس يترقبون ظهور المهدي في السودان. وفي كثير من بلاد العالم الإسلامي. وكان هو نفسه – كما ذكر– يترقب الإمام المصلح الذي قدر أن يكون أحد أتباعه. فقد ذكر عصمت زلفو في كتابه «الخليفة» أن أجداد الخليفة عبد الله وفدوا من غرب أفريقيا إلى السودان مترقبين ظهوره ليندرجوا في زمرة أعوانه (ولقد كان لهم في ذلك رؤية أو ميعاد). وقد أقاموا في دار التعايشة حتى أحسوا بأن زمانه قد أزف فتحرك السيد محمد وأبناؤه وعشيرته صوب النيل حتى استقروا في دار الجمع. وقال إنهم كانوا قبل تحركهم يخرجون إلى الفلوات في أوقات معينة يتكرفون الريح (يستنشقونها) ليجدوا فيها رائحة الإمام المهدي. وما سؤال السيد عبد الله (الخليفة) للزبير باشا بعد إنتصاره على الرزيقات «هل أنت المهدي؟» إلا دليل بحثهم عن المهدي المنتظر.

وجاء في كتاب «الإمام المهدي» لمحمد سعيد القدال أن بابو نمر ناظر المسيرية السابق روى عن جده على الجلة أن رجلاً جاءهم من الغرب واتصل بهم قبل ظهور محمد أحمد بسنوات. وكان ذلك الرجل يخرج إلى العراء ويأخذ في استنشاق الهواء. وعند سؤاله قال إنه يستنشق رائحة المهدي القادم.

كتب المؤرخون يحللون الثورة المهدية وأسباب انفجارها المدوي الذي إهتز له عالم القرن التاسع عشر.. وما زالت أصداؤه تتجاوب رغم مرور عشرات السنين. تأمل المؤرخون في الظروف الموضوعية التي إحتضنت الثورة ومن ثم أدت إلى انفجارها.

فانحصر كدحهم في الأسباب السياسية والاقتصادية وربما الإجتماعية. فكانوا غير ملومين. ولكنهم تفادوا العامل الأساسي. وهو الذي أعلنه قائد الثورة وأخذ يردده في خطابه. ما خلا منه منشور أو رسالة أو خطبة قط. قال إنه أمر باطني وتكليف لم يملك إلا أن ينصاع إليه ويستجيب. وقد حاول بعض الأدعياء دحض تلك الدعوة فخاب مسعاهم. فالأمر كان عسيراً يتطلب تأهيلاً عالياً وقدرات إستثنائية لا سبيل إليها، إن لم تكن مستحيلة. ولا يزال أمر المهدية سراً غامضاً. ولحسن الطالع أتيحت لنا فرصة الاطلاع على رؤى باطنية وأقوال منسوبة لكبار الأولياء الذين يثق فيهم السودانيون. وذلك حين أطل زمان الإمام المهدي في أخريات القرن الثالث عشر الهجري. وقد قام بجمعها المؤرخ الشيخ محمد عبد الرحيم فأحسن بذلك صنيعاً. فربما يستفيد الخلف بتأسيس نظرة جديدة في الدعوة المهدية. وذلك بشحذ الوعي للتخلي عن المسلمات الموروثة والنظرة الكسولة المتوانية لذلك التاريخ العظيم. ولا مناص من أن العلم الحديث سيوفر من المعارف المتقدمة التي من شأنها أن تجعلهم يهتدون لسبر أغوار ما نراه غيبياً (أو ميتافيزيقياً) في زماننا الراهن.

ومن بين ما جمعه قال إنه «عندما احتل الأتراك السودان وعاثوا فساداً في أرجائه أجاب الشيخ الواصل أحمد الطيب البشير عن سؤال حول زوال ملكهم- وذلك قبل خمسة وخمسين عاماً من ظهور المهدي فأجاب بقوله مرتجلاً على الفور.

سيزول ملك الترك هذا بالذي رفعت مكانتــــه على كيــوان

ذاك الإمام محمد المهدي من يهدي لكل العرب والعجمـــان

من نسل فاطمة البتول وحيدرا فرد الجلالة سر أهل الشـأن

يقفو لآثــار النبـــي محمد ويعـم أهـل الأرض بالإحسـان

ويزيل كل سفاهـــة وضلالة بصوارم هنـــدية وسنـــان

وسيخرجن من غير شك يا فتى بجزيرة تعــزى إلى الســودان

ويعيش في الدنيا على ما شمته في اللوح خمساً يا أخا الإذعان

ويموت في وشـل فيـا طوبى لمن يهـواه في سـر وفي إعلان

فاحفظ كلام محقـق في كشفـه ومطالع للغيب بالإيقـان[1]

وقال محمد عبد الرحيم المؤرخ إن الشيخ محمد توم ود بانقا أجاب عن سؤال حول وقت ظهور المهدي بقوله «تالله سحابته أظلتنا. ثم أردف ذلك بكلام مسجوع:

حـبابـه سـيـد الـبـنـيـة الـبـاع طـويـل والـيـد قـويـة

الحس الليـل قـاد السرية المـن بـرق طلب الفـرية

كم جـايب شال كم كاسب كوفية بندقهم تضرب رومية

حربتـهم بـالـنـور مجلـيـة جـاء يـقـدل صـقـر الشامية

المـن قومـتـه لـيـه المـزيـة دا خليفة الـنـبـي دخـريـا

الـعـنـد الله لـيـه المـزيـة

وجاء في المخطوط أيضاً أن الأمير خالد بن الملك نمر قال إنه سمع من حاج أحمد المكي الغبشاوي أنه لما أتى علاء الدين باشا مرافقاً لحملة محمد راتب باشا سردار الجيش المصري أثناء غزوة الحبشة 1292هـ 1876م توجه معه إلى الأستاذ محمد ولد نفوتاي بمنزله بالحباب. وهناك قال علاء الدين للأستاذ « إني خائف أن أقتل في حرب الحبشة فأجابه الأستاذ بقوله «لا يصيبك منه أذى بل يقتلك المهدي المنتظر بكردفان». وكان هذا اللقاء قبل مقتله في معركة شيكان بسبع سنين.

وقال محمد عبد الرحيم في مخطوطه «**إن السودانيين لما سئموا حكم الترك أخذوا يسألون الأولياء عن ظهور المهدي ليجاهدوا الترك تحت لوائه. فسأل الخليفة علي الكتيابي الأستاذ السيد الحسن الميرغني، «أفهل أنا أحضر ظهور المهدي المنتظر؟ فأجابه بأي نعم، وهذه أم قمبور «ذؤابه» تحضره مشيراً بسبابته إلى ابنته السيدة**

1. وجاء في حاشية المخطوط أن وشل بالجمل 336 وعدد حروف أمدرمان 336. وقيل وشل اسم لملك من ملوك النوبة كان يقيم في مرج البحرين. وبعد موته آل الملك إلى زوجته أمدرمان التي كانت لها آثار في موضع المدينة الحالي. وبعد توالي الزمان اطلق اسم الملكة على الموضع.

فاطمة التي كانت صغيرة تلعب إلى جانبه أثناء تلك المحادثة. وفعلاً حضر كلاهما ظهور المهدي. وروي أن الأستاذ الحسن الميرغني قال ذات يوم في محادثاته: واحد من وزراء المهدي يدعى عثمان بن أبي بكر – أي عثمان دقنه.

وسأل جماعة الأستاذ الشيخ محمد المجذوب بقولهم «كل ولي يطعن فيه أهل زمانه فهل المهدي إذا ظهر يطعنون فيه، فأجابهم بقوله «لا يجدون فيه مطعناً إلا أن يقولوا دنقلاوي وهو شريف».

وقال العلامة الشيخ الطاهر المجذوب – ابن أخيه - أنه لما أعلنت الحكومة بأن رجلاً دنقلاوي الأصل زعم أنه المهدي المنتظر تذكرت قول الأستاذ وصدقت بمهديته، وقوضت خيامي ونقلتها من سواكن إلى البرور وراسلت المهدي ودعوت إلى طاعته.

والمعروف أن الشيخ الطاهر المجذوب هو شيخ عثمان دقنه وصهره الذي التقى به بمجرد وصوله من كردفان حاملاً رسائل الإمام المهدي ومناشيره.

وألف الأستاذ الشيخ الحسين إبراهيم الزهراء رسالة في إثبات حقيقة مهدية محمد أحمد المهدي فقال:

وأحـــذر تـقـول ذي اعـتــداء جــائر
كـــذبٌ أتــــي مـنــهــم وعـــنــاداً
فـأخـبر بنفسك خـلَ أخـبــار الـورى
والــــزاد خـــلَ ولا يـعـقــك بـعــاد
أقـصـــى المـقـــالـة فـيـه حـــق كـلـه
أنــقـــى نـقـــي مـــا عـلــيـه ســـواد

وقال الزهراء «قد سبرنا أحواله عليه السلام فوجدناه ليس له استغراق إلا في الله إما بصلاة أو ذكر أو نشر عظة أو قراءة ورد أو إبتهال إلى الله تعالى بدعاء. لا يخرج عن الله في حال من الأحوال، كما هو حاله من النشأة وقال:

دعوه لا تلوموه دعــوه قد علـــــم الذي لم تعلموه



الشريفة فاطمة بنت السيد الحسن الميرغني في حوالي عام 1903

رأى علـم الهـدى فسما إليه وطالـب مطلباً لم تطلبوه

ومما اعتبره السودانيون كرامة للشريف أحمد ود طه أنه كان يقول قبل «ظهور المهدي» ظهر سلطان الدهر في جزيرة بين البحر». ولما أعلن المهدي دعوته رفع الشريف أحمد طه راية الثورة في الجزيرة حتى سقط شهيداً.

وأشار المخطوط إلى ما جاء في الفتوحات المكية للإمام الأكبر محي الدين بن العربي من قوله «يبيد الظلم وأهله ويقيم الدين وينفخ الروح في الإسلام ويعزه بعد ذله ويحييه بعد موته. يمسي الرجل في زمانه جاهلاً بخيلاً جباناً فيصبح أعلم الناس وأكرمهم وأشجعهم. ويدعو إلى الله بالسيف ومن نازعه خذله. ويظهر من الدين ما هو الدين. ما لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجوداً لحكم به. يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى في أيامه إلا الدين الخالص. أعداؤه مقلدة العلماء أهل الإجتهاد. ولما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهب إليه أئمتهم فيدخلون كرهاً تحت حكمه خوفاً من سيفه وسطوته ورغبة فيما لديه من المال. فليس له عدو مبين إلا الفقهاء، خاصة فإنه لا يبقى لهم رئاسة ولا تمييزاً عن العامة. ويرتفع الخلاف من العالم في الأحكام بوجود هذا الإمام. ولولا أن السيف بيده لأفتى الفقهاء بقتله. ولكن الله يظهره بالسيف والكرم فيطمعون ويخافون فيقبلون حكمه من غير إيمان بل يضمرون خلافه. يفرح به عامة المسلمين أكثر من خواصهم.

«وللأستاذ محي الدين بن العربي أقوال منثورة في مؤلفاته ذكر فيها ظهور المهدي، من بينها «أن علم المهدي كعلم الساعة ولا يعلم الساعة إلا الله». وصرح في بعض كتبه بأنه يظهر في عام 1299هـ وقد كان. وهذا ما جعل كثيراً من الناس يؤمنون بدعوة المهدي في السودان.

وقال الجلال السيوطي في بعض مؤلفاته «إن المهدي المنتظر أول من تحاربه الدولة التركية المصرية. وقال «إن المهدي يقسم بين المسلمين فيئهم الذي استولى عليه ولاة

الترك وأكلوه واستبدوا به دونهم».

«وقال الأستاذ الوانشر يسي في بعض مؤلفاته «إن المهدي في أول واقعة من مواقعه يجرح في منكبه الأيسر» ولما جرح المهدي في الواقعة الأولى بجزيرة أبا كان ذلك من بواعث الإعتقاد بمهديته.

وقال الوانشر يسي أيضاً «المهدي وزيره الأكبر به عرج خفيف وفي وجهه آثار الجدري». وكان في وجه الخليفة عبد الله بعض آثار الجدري. ولما سقط من الحصان بالأبيض وانكسرت رجله وظهر له عرج كان ذلك برهاناً آخر على تصديق دعوة المهدية.

وفي المخطوط حديث جدير بالتأمل للغته الصوفية المكثفة وإشاراته الغرائبية. إلا أن اسم صاحب الحديث قد سقط من النسخة المصورة التي حصلت عليها. فيقول «وكان ذلك الإمام من قبل كنزاً لا يعرف في روحانية متجسدة وفردانية متعددة اسمه «جيم صبص». أبوه من العجم لا من العرب. آدم اللون أصهب. من القصر إلى الطول أقرب. وجهه كأنه البدر الأزهر. على خده الخال المربع الأخضر تحت الأديم الأنور. وإن شئت أوضحه لك في هذا العدد وأقسم لك برب هذا البلد أنه للسيد الصمد. فأنظره في ثلثي عدد. وكن لشيطان جهلك شهاباً رصدا. نسبه السني شريف والصديق الأكبر تحت لوائه المتبقي فإذا بلغ الأمر منتهاه فالخليفة عبد الله. فقواه الظاهرية هي العدد والباطنية عين المدد. فإن لم تعرف الضمير ولم تقف على التفسير فسوف يأتيك بقميصه البشير. فهنالك تكشف كروبك ويرتد بصيراً يعقوبك فإذا ظهرت العلامات وحل ذلك الميقات فأحرم بميم موسى وأشرب بعين عيسى. ولا تحل من إحرامك حتى تكمل معدودات أيامك. وتيقن أن ذلك هو الإمام القائل عليه الصلاة والسلام في حق أصحابه الكرام. دعوني عنكم فإن للعامل منهم أجر سبعين منكم. قالوا بل منهم. قال بل منكم بل منكم. فإياك إياك أن تقذف في اليم عاصف هواك فيحيل

بينك وبين بلوغ مناك فتخسر دنياك وأخراك. فلا تطع المكذبين ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم. فإنه والله سيوسم إذ ذاك بخرطومه وتحل به بلية شؤمه. فمن خالف حرض ومن نازع طرد ومن فرط ندم ومن سلم فاز وسلم. وقلت مشيراً إلى تلك الأوقات بلسان هذه الأبيات.

ولما حل غبني حل غيني على قلبي فصيره سليما
ولما كنت مختاراً خبيا وكان براق سيري لي لزيما
ولما فاح زهر هب نشري على نوري فصيره هشيما

وتنبأ الأستاذ الشيخ حبيب إمام المسلاتي تلميذ الشيخ أحمد الطيب البشير بتاريخ ميلاد المهدي قبل حدوثه فقال:

ويل النظام وويل الترك هالكهم
ويل لكل فقيه يوم يأتيها
ويل لكل شريف عند مظهره
للشيب ويل لهم واحذر تدانيها
بقسم ولد المهدي في بلد
تسمى بأرقو بقرب في نواحيها
من بعد غين وراء صح مولده
بثالث العشر فأفهم مبانيها

وقال الشيخ محمد عبد الرحمن الرازقي توجهت من الخرطوم إلى حوش بانقا في شعبان 1298هـ ونزلت عند الأستاذ الحاج حسن ود بلول تلميذ الأستاذ الأكبر سيدي أحمد بن إدريس في قرَي فسألني بقوله «هل سمعت خبراً من جهة بحر أبيض». فقلت له نعم، الناس الذين جاءوا بالرقيق من كردفان قبض عليهم الترك وسجنوهم. فأطرق هنيهة ثم أعاد إلىَ السؤال. فأجبته كما قلت أولاً. فقال لي «ما سمعت خبراً من جهة المهدي. فأجبته بقولي «أين المهدي؟» فتلا قوله تعالى: «إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً». وفي رمضان بلغنا خبر دعوة المهدي بالجزيرة أبا وإنشغال

الحكومة بأمره.

وجاء في المخطوط «أن جماعة من أعيان التجار دخلوا على الأستاذ الشيخ إبراهيم عبد الدافع الذي كان من كبار العلماء الأعلام. وكان قد أقعده الكبر ولا يسمع إلا قليلاً. وكان ذلك في حوالي 1242هـ. فقال لهم «العرب حملة الرماح الطوال راكبون البقر ما جاءوا بأمدرمان مع المهدي المنتظر» فأعتبر زواره أن كلامه ضرب من ضروب التخريف لأن أمدرمان كانت عهد ذاك عبارة عن غابة كثيفة تسطوا فيها الذئاب نهاراً.

ومن الطرائف المدهشة التي جاءت في المخطوط أنه كان في الخرطوم رجل مجذوب يدعي الفكي دقيس يتجول بين الأزقة والطرق وهو يقول بأعلى صوته:

صاحب الدعوى جاكم أخذ المال والرجال يتم جناكم

استعان بالبقارة لا خلا برمة ولا خمارة

وأسود على أهل السجارة

ويعلق الشيخ محمد عبد الرحيم بقوله :

«كانت الدولة التركية عندئذ في إبَان قوتها ولم يسمع أحد بمحمد أحمد ولم يتحدث أحد بحرمة الدخان. إلا ما كان في الكتب. ولما سأله أحد المقربين إليه عمن يقصد في القول قال «المهدي». وقد توفى الفكي دقيس عام 1884م ولم يحضر المهدي إلاَ أن الناس أخذوا يتذكرون تلك الأقوال بعد ظهور الدعوة.

أما المجذوب عبد الله ضيف الله فكانت له أقوال مماثلة قبيل اندلاع الثورة، فكان يقول :

الليلة الكون أصبح متحرك واحد مقتول وواحد مدرك

أركب عديل لا تبقى مورك أنا لامع البحاحي ولا البشرك

وبدوره لم يشهد أحداث الثورة كما أشار في قوله «أنا لامع البحاحي ولا البشرك».

«وكان بالخرطوم أيضاً رجل مجذوب يرتدي أسمالاً بالية ويحمل عصاً يومئ بها

يميناً ويساراً ويطوف بالطرق والأزقة وهو يقول بأعلى صوته «يا غريب عزَل» في ديوان الحضرة سلم الأمر لمحمد أحمد المهدي. فضبط وقدم للحكمدار محمد رؤوف باشا الذي سأله عن كلامه فأعاده عليه غير مكترث» فنظر الحكمدار إليه طويلاً ثم أمره بالانصراف.

هذه الأقوال والمواقف والروايات تعكس تلك الأجواء التي سبقت ظهور الدعوة المهدية واندلاع الثورة. كما أنها ترسم صورة مهمة لمجتمع الخرطوم ورؤى ومشاهدات الأولياء والمجذوبين في السودان وغيرهم وحاجة الناس الملحة للخلاص من حكم الأتراك. كما لا يخفي البعد الباطني في كل ذلك.

وقال المخطوط إن الشريف محمد الأمين الهندي كان يقول قبل ظهور المهدي بنحو خمس سنين «والله لا أموت إلا في جهاد مع المهدي». بالفعل هاجر إلى المهدي بعد ظهوره والتقى به في الرهد. ثم ما لبث أن توفى بعد وقت قصير قبيل تحرك الإمام المهدي نحو الخرطوم في عام 1301هـ - 1884م.

وقد تولى المهدي أمر ابنه الشريف يوسف الذي أردفه على هجينه في الطريق. وروي الأستاذ الصحافي موسى مهدي عن الشريف حسين عن والده الذي ركب خلف الإمام أنه كان يرى أمامه كل شيء بكل وضوح. فالرجل كان في أعلى درجات شفافيته ونورانيته، كأنه لوح من زجاج.

تجـــــربة بحــارة

تجــربة بحارة

يـا مـســافـرين بالـنجــم
وفـوقـكـــم أنــا مــا بـهـم
•••
بـتـغـــنـي لـيـك نـفــريـن
يــا الـطـابـق أم روحـــين
حــاج أمـحـمـد أخــو الحسين

نفرين بت مياسة[1]

مع خيوط الفجر الأولى وصياح الديكة غير المتناغم علا صفير حاد شقت أصداؤه السكون وترددت عبر شاطئ النهر فاضطربت له البهائم في زرائبها وعوت الكلاب وطارت من أعشاشها الطيور مذعورة وهرع الرجال من داخل بيوتهم الصغيرة يدعكون أعينهم طاردين أثر النعاس. وأخذوا يتطلعون عبر الجذوع الضخمة لأشجار السنط والحشائش الطويلة التي كانت تشكل حاجزاً بينهم وبين النهر. كانت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها سكان قرية ود شلعي بواخر نيلية تبدو من قريب سوداء بيضاء تتهادى فوق الماء وتطلق صافراتها عند مرورها بالقرى إحتفاءً بأول رحلة من نوعها في التاريخ[2] تدشن فتح مسالك النيل الأبيض للملاحة في ذات يوم من عام 1839م. كان قاطنو القرية قد شاهدوا في أوقات سابقة قوارب حديدية تمر على

1. شاعرة القطينة الأولى التي أضحت إحدى شاعرات الثورة المهدية. وهنا مقطع من قصيدة تمدح فيها أبوقرجة – وهو حاج أُمحمد.
2. رحلة في النيل الأبيض، سليم قبودان..

النيل مسرعة متجهة نحو الجنوب يقودها ملاحون بيض تصحبهم جماعة من الجند. إلا أن مثل هذه السفن لم تكن تراود خيالهم. فأخذوا يتبادلون الأحاديث الساذجة عن تلك الكتلة المتحركة التي كانت تغيب في الأفق وتطلق دخاناً يتلاشى في الفضاء بدداً. في تلك اللحظات كان محمد بن عثمان العربي طفلاً في مهده بتلك القرية لم يتجاوز عامه الأول عندما انفتحت صفحة في غاية الأهمية في تاريخ البلاد ساهمت بشكل حاسم في تشكيل حياته..

كانت مناطق النيل الأبيض لا تزال تعج بمجموعات من قبيلة الشلك تمددت من الدويم حتى فشودة وظلت جيوب منها مستمرة في التواجد حتى العقود الأولى من القرن العشرين. وفي معظم الأحوال كانوا يحتلون مناطق الشاطئ والجزر ويدخلون في معارك مكشوفة ضد القبائل العربية التي كانت تحاول إختراق تلك المناطق. وبمرور الزمن أصبح هناك نوع من التعايش والتجاور بين القرى والمجموعات لا يخلو من الإحتكاك. وقد روي المؤرخ محمد عبد الرحيم في مخطوطه رواية ظل بعض منها تردده السنة أحفاد سكان النيل الأبيض عن ذلك الرجل المدعو بمحمد خير الأرقاوي أو (الخيري) منسوباً إلى جزيرة أرقو التي قدم منها باحثاً عن الثروة والمغامرة. وقد قدر له أن يلعب دوراً في غاية الأهمية خلال ستينات القرن التاسع عشر. فعندما وصل إلى بلدة الكوة في بداية أربعينات ذلك القرن صادرت مجموعة من الشلك تجارته المكونة من البلح فعاد إلى الخرطوم مستنجداً بحكومة الأتراك التي لم تعر شكواه أذناً صاغية باعتبار أن تلك المنطقة لا تقع ضمن سلطات الخرطوم رغم إدعائه بأن الشلك ضيقوا على العرب وحاصروهم ومنعوهم من حرية الحركة حتى أخذوا يلجأون في معظم الأحوال إلى الغابات. أضمر الخيري أمراً وقرر الإنتقام لنفسه مستغلاً تخلي الحكومة عن مسؤولياتها الأمنية فاستنفر عدداً من أقاربه الذين كانوا يقطنون في مناطق الخرطوم والقطينة والكاملين. وعندما إنضم إليه حوالي 500 منهم مسلحين

بالسيوف والرماح إستغلوا مراكب شراعية من الخرطوم حتى بلدة القراصة. ورسم خطة للهجوم على الشلك في الكوة وباغتهم بالفعل فقاوموه ببسالة إلاَ أنهم إنهزموا في نهاية المعركة وأسر عدداً منهم وقادهم إلى سوق النخاسة في الخرطوم واشترى بثمنهم أسلحة نارية عززت قواته التي اندفعت جنوباً في مناطق الشلك الذين أخذوا يتقهقرون إلى الجنوب حتى بلغ عاصمتهم فشودة حيث قابلهم الملك أجانه بالتسليم والإذعان. إتخذ الخيرى فشودة عاصمة له وأنشأ محطات عسكرية سماها الزرائب. عبارة عن حاميات صغيرة في الكويك والسوباط وفشودة وبحر الزراف. وجعل على كل زريبة قائداً سماه (السنجك) حسب النظام التركي. وانطلق يغزو مناطق الدينكا والنوير. وفي تلك الأثناء زارته وفود من قبائل الحوازمة والهبانية والأحامدة العربية يستنجدون به من غارات النوبة التي شكلت خطراً على أرواحهم وأموالهم فاستجاب على الفور وتقدم نحو جبال النوبة لإخضاعها فاستولى على الليري وتلودي وكادقلي والدلنج. فتصدى له النوبة وخاصة الملك جراد مك جبل السما القريب من كادقلي الذي جمع فلول النوبة المنهزمين وضمهم إلى قواته وقاتل قوات الخيري. إلاَ أن الملك جراد إنهزم وتبعثرت فلول جيشه في الجبال والكهوف. وقاد حرب عصابات يائسة ما لبثت أن إنتهت فتم إخضاعهم وفرضت عليهم الضرائب. وفي جبل قدير استبسل الملك بادي إلاَ أنه إنهزم بعد أن حارب مستميتاً وانتهى الأمر باستسلامه فتزوج الخيري ابنته نمرة[1] وأقام في جبل قدير الذي انطلق منه لإخضاع سكان جبل الجرادة وقبيلة كجين (وهم جزء من السقارنجة مقيمين بالجهة الشمالية من جبل قدير) وفرض عليهم الضرائب وسبى أعداداً كبيرة منهم واقتادهم إلى الخرطوم في مشهد أسطوري وصفه محمد عبد الرحيم بأن المنطقة لم تشهد مثله منذ عصورها

1. تحدثت بعض المصادر عن سلالة للأرقاوي مازالت تقيم في مناطق جبال النوبة ولديها صلات ببعض عائلات الدناقلة في تلك النواحي.

الغابرة. لم يبتلع سكان الجبال هزيمتهم فدبروا مكيدة لاغتيال الخيري نفذها تيفرا زعيم جبل فنقر[1] الذي وثب عليه مع مجموعة في خيمته التي استضافهم فيها وهشموا رأسه بسفاريق الحديد[2]. وبعد مقتله حاول وكيله وأبرز أعوانه إدريس ابتر أن يعيد سطوة الخيري إلى تلك المناطق إلاَ أن مساعيه ذهبت أدراج الرياح حيث تباينت أهواء الجند وتفرقوا عدا شيعته الدناقلة الذين التفوا حوله. إستغلت الحكومة الموقف بسد الفراغ الذي نشأ بسقوط إمبراطورية الخيري التي لم يستمتع بها طويلاً فبعثت مديراً وموظفين وجنداً ليشكلوا جهازاً للسلطة في تلك المناطق. لم تكن تجربة الخيري هذه مصادفة حيث أن البلاد بعد الحكم التركي أصبحت ترتبط بالعالم الخارجي والأسواق العالمية وما يتطلب ذلك من نشاط يستوجب هذه الحركة.

تفرق أعوان الخيري وعادوا إلى الخرطوم عاقدين العزم على التوغل في الجنوب لإنشاء الزرائب على النحو الذي سلكه الخيري. ولما كانت تلك المناطق وعرة الدروب صعبة المسالك تقطنها قبائل تميزت بشدة البأس إستعانوا بالشركات الأجنبية التي رحبت بهم كوكلاء تجاريين. فعقد إدريس أبتر إتفاقاً مع أحمد العقاد صاحب «شركة العقاد» على أن تزوده الشركة بالأسلحة والذخيرة مقابل السلع التي يبعث بها من هناك وأهمها سن الفيل وريش النعام والرقيق. وفي الوقت نفسه عقد بعض سناجك الخيري إتفاقاً آخر مع الحاج علي أبوعموري (المصري الأصل) التاجر المعروف بالخرطوم واندفعوا نحو بحر الغزال. وتقدم إدريس أبتر على وكلاء أبو عموري حتى اختار بقعة لزريبته سماها ديم إدريس وبنى بها قصراً من الطوب الأحمر أصبح مقراً لمديرية بحر الغزال في أوقات لاحقة.

---

1. أشار محمد عبد الرحيم إلى أن تيفرا عاش حتى 1908م..

2. ووصف محمد عبد الرحيم في مخطوطه محمد خير الأرقاوي (الخيري) بأنه كان رجلاً طويل القامة ممتلئ الجسم فاتح السمرة، سبط الشعر، كث اللحية.

قدم جاي سبولدنق صورة أخرى لتجربة المهاجرين الجلابة[1] وقبيلة الشلك في إطار التحولات التي طرأت على العلاقات الاقتصادية والسياسية. وذلك بعد إحتلال الأتراك للسودان. كما تناول تجربة محمد خير الأرقاوي المثيرة وقال (وكما كان يحدث في المناطق المجاورة لجنوب سنار بات الوصول صعباً إلى مملكة الشلك خلال مدة طويلة. إلا أنه اقتصر على عدد قليل ومختار من التجار الشماليين تحت شروط فرضها الحاكم المحلي «رث الشلك»، والذي كان شأنه شأن معاصريه من سلاطين الفونج.. يهيمن شخصياً على منطقته ويضبط تجارتها الخارجية. ولما كانت المعرفة بثقافة الشلك نسبية، فضلاً عن نجاح رث الشلك في المحافظة على أرضه بعيداً عن هيمنة الأتراك.. فقد صارت المنطقة وجهة جاذبة لمهاجري القرن التاسع عشر من الشماليين. وإلى ذلك كان حكام الشلك في العقود الأولى من الحكم التركي أقوياء إلى درجة لم يشعروا بالتهديد أو الخوف من القادمين الجدد. وخلافاً للحكام المتوجسين من سادات الفونج والقمز أو الإنقسنا رحب زعماء الشلك بالمهاجرين الجدد. وكانت تلك هي الغلطة القاتلة)[2].

(وحتى وقت متأخر عام 1843م كانت مجموعة المهاجرين في مملكة الشلك صغيرة تتجمع قرب العاصمة، تحت مراقبة الرث. ثم لم تلبث أن تضخمت هذه المجموعة، خاصة في المنطقة الواقعة أقصى شمال المملكة. واستمر التجار التقليديون في معاملاتهم التي تحظى بالموافقة الرسمية مع وكلاء الرث مستغلين إزدهار تجارة العاج في ذلك الوقت. كان النمو الأبرز في التجارة هو صيد الرقيق خاصة بين أبناء الدينكا المجاورين. وأدى إدخال الأسلحة النارية والتوسع الكبير في سوق الرقيق في

1. دروس أخوي صـــدره كر
متل الدود النتـــــر
وفي فشـــــوده بينو خبـــر
نفرين بت مياسة (المؤلف)

2. عصر البطولة في سنار. جاي سبولدنق، ترجمة أحمد المعتصم الشيخ، ص256-257.

الشمال إلى انفجار غير مسبوق في تجارة الرقيق. وهي تجارة قد يكون الرث إستفاد منها في جوانب عديدة، ولكنه كان عاجزاً عن الهيمنة عليها أو تنظيمها.

وعند وفاة الرث نيدوك في عام 1859م صعد قوات كير إلى عرش المملكة وأخذ يحرض مؤيديه على الهجوم في عام 1860م على مجموعة الشلك المتحالفة مع التجار الشماليين. ولم يلبث أن احتل المركز التجاري في كاكا وأنزل بهم هزيمة ساحقة. وتجمع المهاجرون وأنصارهم من الشلك تحت قيادة الأرباب محمد خير[1] وهو دنقلاوي من الشخصيات المحلية البارزة. كان قد عمل ضابطاً وأضحى من كبار الشخصيات قبل أن يوطن نفسه تاجراً في كاكا. واستعد هذا الفريق بشراء البنادق وإستخدام المرتزقة. وشنَ هجمة مضادة في العام التالي وهزم قوات كير. فسقطت المملكة في يد الجلابة. «لم يكن إنتصار محمد خير غزواً أجنبياً بمعنى الكلمة». ولكن ما حدث في الحقيقة أن مجموعة الشلك المتحالفة مع الأرقاوي تقدمت بالتماس إلى حكومة الخرطوم لاعتماده مكاً على الشلك. وانتهز الأتراك الفرصة وأرسلوا جيشاً فرَ أمامه الأرباب محمد خير وتشتت قواته. وبنهاية عام 1863م كانت حكومة الإحتلال التركي قد استولت على بلاد الشلك).

من الضروري أن نستعرض موجزاً لتاريخ الشلك هؤلاء. فهم يعتقدون أنهم من نسل نايكانق.. زعيمهم وقائدهم في عصر البطولة الذي عاشوه قبل زمان عرفوا فيه الحديد واستخدموه في صنع أسلحتهم. وقالت المصادر أن نايكانق قادهم إلى شواطئ النيل الأبيض التي إغتصبها إغتصاباً من أهليها القدامى ووزعها بين أتباعه الذين صحبوه تحت إمرته. ولم تتحدث المصادر عن هؤلاء الأقوام الذين إغتصبت أرضهم. وقال برتشارد إيفانز أن نايكانق غدا روحاً تحل في كل ملك تولى الأمر بعده. وتنتقل من واحد لآخر. وبالتعبير الحديث «تشخيص أسطوري للملوكية الإلهية» التي تمثل

1. هو نفس محمد خير الارقاوي أو (الخيري).



رث الشلك فاديت ود كوادكر (1903-1913) ويبدو إلى جانبه سري باشا وزير الأشغال العامة المصرية في زيارة له للمنطقة في عام 1910

هي نفسها التركيب القومي للشلك. وهو نظام إجتماعي باق لا يزول. ويقول إيفانز إن ملكهم داك فاديت الذي انتخب في عام 1945م لا يعدو أن يكون الحادي والثلاثين في سلسلة ملوكهم. الأمر الذي يدل على أن قائدهم الأول نايكانق الذي جاء بهم إلى شواطئ النيل الأبيض عاش في القرن السابع عشر أو الثامن عشر. ويقول الشيخ خوجلي[1] إنه كانت هناك سبعة عشرة مدرسة (خلوة) على طول النيل الأبيض ما بين الخرطوم والليس (الكوة) دمرتها مجاعة أم لحم ثم أتى على ما تبقى منها الشلك. وهذا مما يؤكد أن قبيلة الشلك قد أقامت في منطقة النيل الأبيض بعد قرن أو قرنين من قيام دولة الفونج. ويشير إيفانز إلى طقس قتل الملك لدى الشلك. وذلك إذا أحست القبيلة بمرضه وتردي صحته فتدفع الأذى عنها - من جوع وأوبئة - بقتله. وقارن ذلك الطقس بآخر يماثله لدى زنج سفالا بالجنوب الشرقي لأفريقيا، والذي تحدث عنه المسعودي قبل أكثر من ألف عام[2].

وهذه القرينة تؤكد ما ذهبت إليه بعض المصادر إلى أن القبائل النيلية الثلاث وهي، الدينكا والشلك والنوير هاجرت من منطقة البحيرات قبل حوالي ألف سنة لتستقر في مناطق جنوب السودان.

وتقول مصادر أخرى إن هذا التقليد المتمثل في إقصاء الملك عندما تضمحل قواه الحيوية بشكل ملحوظ ينبع من نفس المعتقدات الحيوية المنتشرة في كل العالم الأسود. ووفقاً لتلك المعتقدات فإن خصوبة الأرض ووفرة المحاصيل وصحة الشعب والقطعان وسير الأحداث بشكل طبيعي وكافة مظاهر الحياة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوة الملك الحيوية الكامنة[3].

1. تاريخ العرب في السودان – الجزء الثاني ص225.، هارولد ماكمايكل – ترجمة سيد ديدان.
2. أفريقيا تحت أضواء جديدة ، بازل ديفيد سون ، ترجمة جمال محمد أحمد
3. الجذور الزنجية للحضارة المصرية. شيخ أنتا ديوب

ويتضح مما سبق أن إقامة قبيلة الشلك على شواطئ النيل الأبيض - وخاصة الشمالية منها - لم تتجاوز القرنين. وذلك بعد أن تكاثرت هجمات القبائل العربية عليهم ومن ثم تقهقروا نحو الجنوب في حوالي منتصف القرن التاسع عشر. وأقاموا ليس بعيداً عن حاضرتهم فشودة. وإذا كانوا بالفعل قد شاركوا في تكوين إثنية الفونج، فربما كان ذلك قبيل نزوحهم نحو الشمال. فقد ذكرت بعض المصادر أنهم قدموا على قواربهم واختلطوا بمجموعات سكانية أخرى على ضفاف النيل الأبيض لتبرز إثنية الفونج التي أقامت لها دولة في أوائل القرن السادس عشر.

لم تلبث أن تدفقت مجموعات كبيرة من التجار الأوروبيين والأتراك الشرقيين بالإضافة إلى شوام ومصريين وسودانيين نحو تلك الأقاليم القصية للاتجار في سن الفيل وريش النعام وقرن الخرتيت وقط الزباد والمطاط والحديد والنحاس. كانت تلك المناطق السافنية الإستوائية قطعاً من الفردوس وعالماً من الخضرة الحارة الرائعة النضيرة. يلفها الغمام والندى وتغمرها مياه المزن التي تهمي في كل حين. وتعبق برائحة الخليقة الأولى. وتعج بأنواع الحيوانات الوحشية والطيور الغريبة والأفاعي الزاهية الألوان. كانت الذئاب تعوي في رائعة النهار وتختال الأسود غير عابئة بما حولها. وتتمرغ أفراس النهر في الوحول وترضع صغارها. وخلف كل أجمة أو دغل تجد فهداً يتربص أو وعلاً يرهف سمعه ويرفع منخاريه يتشمم أو ثعلباً يقعي لاهثاً بعد طراد مثير للأرانب أو سلاحف تحتمي بدروعها لإحساسها بالخطر أو سرباً من النحل أفزعه طائر فتلاشى جموعاً أو فيلاً غاضباً يشرع أذنيه ويركض.

وفي لقائه مع الصحفية البريطانية فلورا شو في منفاه بجبل طارق عام 1885 وصف الزبير باشا إقليم بحر الغزال بتأثر عميق وتحدث عن أشجاره وأنواع ثماره وحيواناته وطيوره والمجموعات البشرية التي كانت تقيم فيه ولم تزل في فطرتها الأولى. وتحدث عن وفرة المياه وسخاء الطبيعة وغرابة الموجودات وعن تجارب مذهلة أقرب إلى الخيال.

شكل التجار الأجانب شركات في تلك المناطق وأقاموا مستوطنات عرفت بالزرائب أو الكبانيات وأنشأوا علاقات تجارية مع المجموعات المحلية للسيطرة على الموارد الهامة وخاصة سن الفيل الذي كان يجد رواجاً منقطع النظير في الأسواق الأوروبية. وإستطاعت تلك الشركات التحكم بالمناطق المحيطة بتلك الزرائب وتحالفت مع الحكام المحليين وعقدت معهم إتفاقيات لتزويد الزرائب بالحبوب ومنتجات أخرى مقابل سلع تجارية ودعم معنوي وعسكري لهؤلاء الحكام الذين إستفادوا بتعزيز سلطاتهم المحلية.

باتت بحر الغزال ميداناً لنشاط عسكري مكثف بعد أن كون التجار والشركات جيوشاً منظمة سلحوا أفرادها بالأسلحة النارية التي تدفقت نحو الإقليم وغمرته، وذلك للقيام بمرافقة القوافل التجارية وحراسة الزرائب. وكانت الجيوش المكونة أساساً من العناصر المحلية والرجال الأشداء تُقَسَم إلى رايات يقودها ضابط شمالي أو آخر جنوبي تدرج في مختلف مراتب الجندية حتى حصل على ثقة التجار. أدرك التجار الجدد بعد حين أن تجارة سن الفيل لم تكن كافية لتغطية نفقات الفرق العسكرية التي كونوها بالإضافة إلى عبء الضرائب التي فرضتها الحكومة فاقبلوا على تجارة الرقيق واندفعوا جنوباً في الإقليم بعيداً عن سيطرة الحكومة. كما التفوا حول قراراتها بتأسيس المعابر على النيل الأبيض وفرض الضرائب، وذلك بتفادي المواصلات النهرية والاعتماد على الطرق القديمة التي تمر بكردفان ودارفور منذ عام 1860م، كما استولوا على المحطات التي هجرها التجار الأوربيون الذين تأثرت شركاتهم بهذه السياسات الحكومية.

أورد محمد عبد الرحيم في مخطوطه قائمة بأسماء الكبانيات أو الزرائب التي أنشئت في مناطق بحر الغزال والكبرى منها هي:

كبانية الحاج علي أبو عموري التي اضطلع بأعبائها أخوه قناوي بك أبو عموري

ومركزها في الجور، ثم ابن أخيه قناوي عليوه الذي قتل في حملة هكس 1884م.

كبانية إدريس أبتر ومقرها ديم إدريس بمنطقة الزاندي.

كبانية كشك على مركزها بجنوب واو.

كبانية الأرباب الزبير ود الفحل ومقرها وسط نهر بنقو.

كبانية غطاس ومركزها جور غطاس بالتونج.

كبانية الزبير رحمة ومقرها ديم الزبير على شاطئ نهر كوجو.

أما الكبانيات الصغرى فهي:

كبانية ضرار أبوقرون.

كبانية محمد عبد الصمد.

كبانية البصيلي ومقرها في قتي وكيانقو وقرنزو.

كبانية الشريف عثمان.

كبانية أحمد عواض ومقرها جبل لفي بين راجا وقوشي.

كبانية العقاد ومقرها واو.

ولما كانت واو تقع على الضفة الغربية لنهر الجور جعل منها أصحاب الكبانيات ميناء حرة لا تدخل في نفوذ أي منها حتى يتم تجنب فرص الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات وتم تقسيم المناطق بالحدود الطبيعية كالجبال والأنهار. وتجاوز نفوذ تلك الكبانيات منطقة بحر الغزال وشمل الكونقو البلجيكي وأفريقيا الوسطى والإستوائية عدا المنطقة الواقعة ما بين زنجبار والبحيرات.

كان النظام الإجتماعي والاقتصادي للزرائب متفاوتاً على الصعيد الطبقي حيث يأتي أصحاب الزرائب في أعلى السلم، وهم إما أوربيون أو شرقيون من مصر والشام أو من شمال السودان. ويأتي بعدهم الوكلاء أو الأعوان الذين أظهروا ملكات تنظيمية وعسكرية بارزة. وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك مجموعة من فقهاء الدين

الذين وفدوا للاستقرار في تلك الزرائب حيث كانوا يرافقون الحملات ويقومون بحل المنازعات وتقديم النصح في الأمور الدينية والتبشير بالإسلام وسط السكان المحليين وينالون أجوراً وأعطيات مقابل ذلك النشاط. كان التجار السودانيون مثل الزبير رحمة وإدريس أبتر وأعوانهم مثل النور عنقرة ورابح فضل الله قد ابدوا حنكة وقدرات بارعة في الميدان العسكري وتعبئة الجيوش في داخل ذلك المجتمع الذي بات يعج بكافة أنواع التناقضات والصراعات. ما كان الحكم التركي بعيداً عما يعتمل في تلك المنطقة وما تبلور فيها من وعي قومي جنيني لم يستطع الذين خالجهم أن يعبروا عنه بوضوح لغياب الرؤية الوطنية والبعد عن المؤثرات العالمية المتصلة بمعاني الوطنية والحرية[1].

في الوقت الذي تعاظمت فيه التجارة في تلك المناطق وأثرت الشركات ثراء فاحشاً إتجه الزبير رحمة إلى الفتح وتأسيس نوع من الحكم بات مؤشراً على انبثاق شكل جديد من النشاط. ويتضح من مذكرات الزبير أنه كان يكن وداً وتقديراً للحكم التركي حال دونه والتفكير في إتخاذ مواقف ضد وجوده. كما أن دراسته بمدرسة الخرطوم في أربعينات القرن التاسع عشر لا بد أن تكون قد أتاحت له فرصة الوقوف على مظاهر سلطة الأتراك في العاصمة التي أصبحت مدينة تحتشد بأشكال العمران. ذلك بالإضافة إلى الإستقرار النسبي للأحوال بعد سنوات طويلة من الفتح. إلاَ أن ذلك لا يعني قدحاً في شخصية الزبير التي ناء بها وعي مختلف عن التفكير في التمرد محتفظاً بكل سجايا الأمة السودانية المتمثلة في البسالة والمروءة. وقد أصبح بعد حملاته المظفرة في بحر الغزال ومحاولاته تأسيس سلطة وطنية محط أنظار الأمة فتبارى في مدحه الشعراء وسار بذكره الركبان. ولعل في محاولاته تلك – كما يقول في مذكراته «تأسيس قواعد العدل وتيسير سبل التعامل التجاري» بوقوفه ضد قوات

1. دراسات تاريخية – ميراث العبودية وتجارة الرق في غرب بحر الغزال – مجلة كتابات سودانية العدد الخامس أغسطس1994.

حكومية وشنه الحرب ضد قبائل اعترضت مشروعه دليلاً ساطعاً على رغبة دفينة في أن يمتلك أهل البلاد ناصية أمورها.

كانت لتلك التطورات في تلك المناطق القصية صداها العميق في وجدان الأمة السودانية التي كانت تبحث عن زعامتها. وليس سؤال عبد الله بن السيد محمد تورشين (الخليفة) الذي وجهه للزبير عند التقائه به بعد هزيمة الرزيقات «هل أنت المهدي؟» سوى تعبير عن ذلك التعطش.. وان كان هذا السؤال بالذات لم يخل من أبعاده الباطنية. حيث ظل آباء السيد عبد الله في حالة من الترقب والإنتظار لموعد ظهور المهدي الأمر الذي دفع بهم إلى الترحال حتى شارفوا بحر النيل بعد فترة قليلة لاحقة. إلاَ أن المفارقة الطريفة حقاً أن تعبر الشاعرة الحاجة بت مسيمس عما يختلج في وجدان الأمة المحتلة بما هو أشبه بالمانفستو» السياسي بثلاثة أبيات من الشعر أغنت عن تعبئة سياسية كاملة واستنفار مكثف للوعي بقولها:

جنك تلات ورقات جيب ردهن

صقور الجو حلقن قوم غدهن

يا مقنع الكاشفات لي حـــدهن

يقف المرء مذهولاً يكاد لا يصدق صدور هذا البيان السياسي القومي من سيدة سودانية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تحمّل رجلاً دفعت به الظروف ليصبح رجل البلاد الأول إنجاز برنامج يدفع بالأمور إلى اتجاهات جديدة في الواقع السياسي للبلاد فتطالبه بحسم الصراعات الدائرة ومن بينها ورقة الأتراك الحاكمين – حيث أن الورقتين الاخريين كانتا تصفية الحساب مع عرب الرزيقات الذين عرقلوا طرق التجارة ثم سلطنة الفور التي رأت في حربه للرزيقات تدخلاً في أراضيها فدفعتها الكرامة الشخصية لمواجهته. إلاّ أن الزبير بوعيه المنحاز لسلطة الإحتلال وخديوي مصر لم يشأ أن يدفع بالأمور إلى درجة قطف ثمار إنتصاراته وإعلان تلك المناطق دولة وطنية

خاضعة له فقدمها لمصر في طبق من ذهب في حالة من الغفلة السياسية دفع ثمنها غالياً باحتجازه في القاهرة منفياً لأكثر من ربع قرن.

شهد التاريخ السوداني قيادات عسكرية فذة نالت تدريبها في خضم معارك بحر الغزال في إطار التشكيلات الحربية التي أنشأتها الشركات ثم التجار حتى بلغت الأمور ذروتها في حرب الزبير ضد قبيلة الرزيقات ثم معاركه الدموية ضد سلطنة دارفور والتي إنتهت بزوالها. ومن أبرز تلك القيادات رابح فضل الله الذي أصبح القائد العسكري الفعلي لقوات الزبير والذي رفض الإستسلام للحكومة عقب مقتل سليمان بن الزبير وأعاد تنظيم بقية الجيش وتوجه نحو الغرب رافعاً راية الثورة المهدية فاجتاح إقليم تشاد والمستنقعات الشرقية لأراضي الهوسا ومملكة البرنو ودوخ الفرنسيين وأقام دولة حتى لقي مصرعه على ضفاف نهر شاري في ملاحم عسكرية لم تجد حتى الآن من يتابع تفاصيلها من المؤرخين السودانيين. وقدمت تجربة بحر الغزال رجالاً مثل حمدان أبوعنجة الذي بات من أشهر القادة العسكريين ولعب دوراً أساسياً في إنتصارات الثورة المهدية. وكذلك أخاه لأمه فضل المولى صابون والنور عنقره والزاكي طمل وكرم الله كركساوي وأخاه محمداً وغيرهم ممن أبلوا بلاءً مقدراً في معارك الثورة كما كان للجنود الذين عملوا في بحر الغزال دور بارز بعد أن استوعبت الحكومة أعداداً منهم بعد تدمير الزرائب – خلال حملات مكافحة الرق – عام 1870. كما أن كثيراً منهم إنضم للثورة المهدية وشكلوا قواتها الحديثة التي وصفها المؤرخون بأنها كانت تجيد إستخدام الأسلحة النارية بصورة أفضل من الجيوش الأوروبية.

كانت لتلك التجربة آثارها العميقة الغور في حركة الثورة المهدية التي حمل معظم عبئها الرجال الذين صهرتهم بوتقة بحر الغزال فتعلموا من حروبها فنون القتال والصبر على المكاره.

وكان من بين هؤلاء الرجال – بل أبرزهم الأمير أبوقرجة وإخوته الذين عادوا بعد

ذلك إلى النيل الأبيض ليلتقوا بالشيخ محمد أحمد في السنوات القليلة التي سبقت فجر الدعوة. ولا بد أنه قد استمع إليهم كثيراً خلال زياراته المتكررة لأم غنيم يتحدثون عن بحر الغزال وتجربتهم العسكرية فيها. حتى أنه عندما شرع في الأعمال العسكرية للثورة فكر في الهجرة إلى بحر الغزال لتفجير المعارك من هناك.

فعندما بلغ العشرين من عمره حوالي عام 1860 قُدَر لأبوقرجة أن يتوجه إلى إقليم بحر الغزال بحثاً عن الثراء وحباً في المغامرة وإبداء ضروب البسالة التي وسمت صباه الأول في منطقة القطينة وأضحى يتميز عن سائر أقرانه بعلو الهمة وشدة البأس.

تقلب أبوقرجة في طفولته وصباه في رغد من العيش حيث كان والده عثمان العربي في عداد الرجال الأثرياء بمقاييس تلك الأيام. فقطعان الماشية التي كان رعاتها لا يكادون يميزونها إلا بصعوبة بالغة لكثرتها إضطرته لأن يغادر ود شلعي وينعزل بأسرته في المكان الذي عرف باسم «عمارة عتمان» ثم «قطينة عتمان» التي أنشأها بالقرب مما كان يعرف بعمارة ود تبيدي وشكلت فيما بعد القطينة القديمة التي إنتقلت إلى موقعها الحالي في عام 1939م بعد إنشاء خزان جبل أولياء. ويقال إن مراعي ماشيته كانت في منطقة العزازي.

منع عثمان العربي ابنه من السفر بسبب حاجته إليه في الإشراف على زراعة السواقي التي أقامها على النيل وثروته من الماشية خاصة وأنه كان الابن البكر - وإخوته ما زالوا إيفاعاً صغار. وبعد أن رأى الحاحه الشديد سمح له بالسفر في تجارة إلى ذلك الإقليم الذي بات منطقة أسطورية وحلماً لا يداعب أحلام كل الرجال إلاَ من وطن نفسه على مقارعة الأهوال.

وصل محمد بن عثمان العربي إلى إقليم بحارة شاباً غض الإهاب إلاَ أنه كان مفتول العضل صارم القسمات تهابه النظرات قبل القلوب، فإستقبله بعض معارفه وقدموه إلى شركة العقاد التي عينته وكيلاً لها على الفور لما لمسته فيه من مضاء العزيمة والإقدام. فأبدى منذ الوهلة الأولى قدرات فذة ورجاحة عقل وافر وإستعداداً للقيادة. ومن

الروايات التي تواترت عن فترة وصوله تلك وعن سبب لقبه الذي لازمه واشتهر به (أبوقرجة) هي أن زعيماً محلياً كان كثيراً ما يحاول إستفزاز التجار الجلابة ويدمغهم بالجبن بأن وسيلتهم للشجاعة والنصر هي البندقية التي لا تترك مجالاً لمواجهة الرجل للرجل. وكان يدعوهم للنزال والمصارعة متميزاً بجسد كالكتلة الصماء فيتوارى عنه الجميع يخشون عاقبة البروز فخرج إليه الشاب الوافد الجديد يوماً ليواجه تحديه وتجمهر خلق كثيرون. ولكن لم تمض لحظات حتى كان قد صرعه. ولم يكتف بذلك لما أن أحس أن منازله يحاول الغدر به فلوى عنقه وكسرها وأسكت صوته إلى الأبد. كان أهل وشيعة الزعيم الصريع أول من هتف للشاب محمد تقديراً لقوته وبسالته وأطلقوا عليه لقب «قرجة» وهو الفيل في لغتهم. وتغير اللقب بمرور الأيام ليصبح أبوقرجة. وجاء فيما كتب المؤرخ محمد عبد الرحيم «كني بأبي قرجة تشبيهاً له على الفيل لقوة عضله وشدة بأسه، والأصل في هذه الكنية للفيل الذي يقال عنه قرجة أبو عوة ومن المرجح أن يكون قد أطلق عليه هذا اللقب جماعة من البقارة كانوا موجودين هناك في ذلك الوقت، إعجاباً بقوته وشجاعته. والهبانية والرزيقات والمسيرية يطلقون على الفيل اسم قرجة عوه، وقال قائل يمدح أبوقرجة:

أب قرجة فشق الفيل

العاداه عمـــره قليل

عاد أبوقرجة من الجنوب بعد أن أصاب ثروة ليست بالقليلة وشهرة ظلت تلازمه كأحد الأعيان والأبطال المعدودين. وأخذ يتردد بعد ذلك بين بحارة والشمال مصطحباً إخوته الذين اكتسبوا خبرات عميقة في السفر وإستخدام الأسلحة النارية واشتهروا بدقة التصويب التي كانت من علامات التميز لدى الذين عملوا في الجنوب. وقد كانت بحر الغزال بالنسبة لهم مدرسة كبرى تجسدت دروسها في عطائهم العسكري والبطولي إبان الثورة المهدية. كما كانت مركزاً إجتماعياً التقوا

فيه بأهم الشخصيات السودانية والأجنبية في ذلك الزمن. وقد قدر لهم في مقبل أيامهم التي خاضوا فيها معارك الثورة أن يلتقوا بالكثيرين منهم في مواجهات حصار الخرطوم وخلال الإضطرابات التي سادت البلاد في ذلك الوقت.

نظمت شاعرة القطينة نفرين بنت مياسة أبياتاً موحية من الشعر. وذلك في مدح الأمير أبوقرجة. لم يكن ذلك إعتباطاً إذ تصدرت هذا الفصل من الكتاب. فهي تشير بوضوح إلى رحلات أبوقرجة التجارية إلى بحارة. وما يكتنف ذلك من مغامرات واقتحام للمجاهل. فهم يهتدون في الدياجي بالنجوم.. يحتقبون بنادقهم (أم روحين). أي ذات الماسورتين التي كانت أحدث أنواع البنادق عهدذاك. يعرضون ذواتهم للموت المتربص في كل حين وسط الأدغال والمستنقعات والآجام. يعودون ظافرين تكلل هاماتهم البطولة وحسن الأحدوثة فيشبعون رغباتهم في بذل العطاء وقرى الضيف.

كتب كثيرون عن تجارة الرق في السودان. ولكن بعضهم يحاذرون.. يشيرون إليها بالمسكوت عنه ومسئولية التاريخ أن يرصد الأحداث والتجارب التي مرت بها الشعوب. وإذا شاء يربطها بظروفها الموضوعية وشروطها التاريخية. حتى وإن كانت تلك التجربة تثير من الحساسيات ما ينعكس سلباً على السلام الإجتماعي وانسجام الأمة. فالشعوب الحية تتجاوز جراحها ومراراتها بالشفافية والمصارحة وتستأنف مسيرتها الإنسانية. والسودان كان في حاجة لمثل ذلك السلوك الحضاري قبل أن يقع المحذور.

عملية الاسترقاق في السودان لم تكن وليدة النصف الثاني من القرن التاسع عشر. كانت أبعد من ذلك بكثير. وقد كانت له تجارة رائجة تتوجه إلى أسواق الجزيرة العربية ومصر وتركيا وبلاد فارس. أما دولتا الفونج والفور فقد ظلتا نموذجين صارخين للاعتماد على العبيد بتجنيدهم في الجيوش وتسخيرهم للعمل في الزراعة والرعي.

ذلك النشاط الإنتاجي الأقرب إلى البدائي منه إلى ذلك الإنتاج الزراعي والصناعي الكبير الذي شهدته الأراضي الجديدة. وقد مارس الأوربيون البيض عنفاً لا مثيل له في عمليات اقتناص الرقيق واقتلاعهم من مواطنهم حتى كادوا يفرغون القارة الأفريقية من إنسانها. وقارفوا من الشرور والآثام التي ما زالت وصمة في جبين الإنسانية.

بدأ الرق في المجتمعات البشرية البدائية الأولى بأسرى الحروب. فالمنتصرون كانوا يقتلون أسراهم.. ثم لم يلبثوا أن أدركوا أهمية الإستفادة منهم في الأعمال الإنتاجية والمنزلية. تطور ذلك النظام ليبرز العصر العبودي الذي أضحت فيه قلة من الناس تستأثر بخدمة الكثيرين المستعبدين. وبتطور الظروف تحول ذلك العصر إلى النظام الإقطاعي الذي حصل فيه الأقنان على بعض الحرية. ولم يلبث أن دمرت ذلك النظام القوى البرجوازية الصاعدة وأخذ النظام الرأسمالي يمارس إستغلاله للطبقة العاملة على النحو الذي شهدته الحضارة الغربية المعاصرة.

قال سلاطين في كتابه «النار والسيف في السودان» إنه حين وصل إلى السودان في سبعينات القرن التاسع عشر وجد تسعين بالمائة من السكان يسترقهم عشرة بالمائة. ربما يكون قد جنح للمبالغة إلا أن ذلك يؤكد إتساع نطاق العبودية في المجتمع السوداني. رآها الناس عادية في زمانها. وكما أوضح سبولدنق أن بعض هؤلاء المسترقين كانوا يفخرون بوضعهم الإجتماعي ذاك.. فيقول الواحد منهم «ألا تعرفني أنا عبد[1]». وذلك كما يفعل اللورد الإنجليزي حين يقدم نفسه للذين يجهلون وضعه فيقول أنا اللورد فلان[2]. ولكن كتاباً آخرين زاروا السودان تحدثوا عن الوضع المزري الذي كان يعيشه المسترقون والانتهاكات التي يتعرضون لها.

1. وكان كثير من الأرقاء – رجالاً ونساء يقسمون بأسيادهم ويفخرون بقولهم "أنا عبدك يا فلان".

2. وكان ضو الجماعة ود مرجان حين يواجه خصومه الفلاتة العتالة في زريبة المحصول بمدينة كوستي يرفع عصاه الغليظة المضببة ويصرخ في وجوههم قائلاً "أنا عبدك يا أب قرجة". فيفرون جميعاً ولا يبقى أمامه أحد.

بعد إحتلال الأتراك المصريين للسودان وجهوا قواتهم لاصطياد رجال القبائل الجنوبية وخاصة النيلية منها. فقد كان هدف محمد علي الرئيسي هو تصديرهم إلى مصر لتجنيدهم في الخدمة العسكرية. فقد كان أمله كبيراً في إقامة إمبراطورية عظمى، إلا أن القوى الأوروبية لم تسمح له بذلك. فأتاح الإحتلال بأهدافه هذه الفرصة لرواج تجارة الرقيق وتشجيع المشتغلين بها. وذلك قبل أن ينقلب عليها في سنواته الأخيرة ويشرع في محاربتها إثر ضغوط الضمير العالمي وصحوة أوروبا التي أتخمت وأحلت الآلة مكان عمالة العبيد.

بإحتلال السودان إنفتحت صفحة مهمة في تاريخه وذلك عندما إرتبط بالسوق التجاري العالمي. إلا أن المكتوب والمتاح من المعلومات والوثائق لم تيسر لنا إمكانية معرفة دور تجارة الرقيق في التجربة الاقتصادية الجديدة للبلاد. نجح محمد علي نجاحاً محدوداً في تدعيم جيشه بالجنود السودانيين الذين باتوا يمثلون قوة نوعية فيه. تميزت بالجرأة والثبات والشجاعة المنقطعة النظير. حارب بعضهم في المكسيك فسماهم التاريخ بالفراعنة السود.. وهل كان الفراعنة غير ذلك؟!!

ما كانت القبائل السودانية وخاصة النيلية منها سلسة القياد مطواعة. كانت شرسةً تنتفض عند غارات صائدي الرقيق وتطاردهم بالأيام حتى تظفر بهم في معظم الأحيان وتستخلص الضحايا منهم عنوة واقتداراً. ولكن البندقية جاءت لتحسم الأمر فأضحت الغلبة في جانب هؤلاء المعتدين، ولكن المقاومة لم تتوقف.

إرتبط أبوقرجة بالزرائب التي أقامها تجار وطنيون وأجانب.. أبو عموري والعقاد والزبير باشا. إلا أنه لم يمعن في تجارة الرقيق بالشكل الذي يلفت نظر المؤرخين. ويبدو أن تجارته قد تنوعت حتى تكونت لديه ثروة مكنته من ممارسة الزراعة بشكل واسع بمقاييس تلك الأيام في الأراضي التي إستصلحها بأم غنيم.

وأكدت مصادر أجنبية أن نجاح التجار السودانيين في القرن التاسع عشر لم يكن

مرتبطاً بتجارة الرقيق، بل أن معظم التجار الذين حققوا نجاحاً لم يرتبطوا بهذا النوع من التجارة، وحتى الجلابة الذين عملوا كوكلاء صغار في تجارة الرقيق لم يحققوا شيئاً يذكر بسبب الضرائب الفادحة المفروضة عليهم والمخاطر العديدة المتعلقة بهذه التجارة. خاصة وأن العمل بتجارة الرقيق في الجنوب كان بحاجة إلى قوة عسكرية خاصة[1]

1. إرهاصات الثورة المهدية، صحيفة السوداني 2013/3/8م.

أبوقرجـــــــة

مُـــــــدَبِّرالمهدية

أبوقرجــة
مُــدَبِّر المهدية

«فقد كان إنسان عين المهدية
وعصاها التي تتوكأ عليها»

المورخ محمد عبد الرحيم

أجمع مؤرخو الأمير أبوقرجة ومعاصروه على أنه كان شخصية إستثنائية فذة بكل ما تعني الكلمة. وظل هكذا متفرداً منذ يفاعته حتى أدركته المنية. وقد أجمل المؤرخ محمد عبد الرحيم وصفه بقوله "قضى محمد أبوقرجة حياته في مقارعة الأهوال ومصارعة الخطوب بقلب زكي وجنان ثابت. وقد مثلت الأيام في شخصه من ضروب المحن وآيات الصبر ما يحير العقل حيث رفعته إلى أوج السعادة وبوأته مقاعد الرئاسة ونهجت به مناهج السؤدد وعادت فتنكرت وقلبت له ظهر المجن وهوت به إلى حضيض التعاسة فأذاقته بعد الحلو المر وألبسته الخشف بعد الدر. ومن الغريب أنه لم يهز أعطافه عجباً بالأولى ولم ترتخ أعصابه جبناً للثانية بل كان في كلا الحالتين مثالاً للروية والشجاعة الأدبية. فما وجد ناقدوه مجالاً للطعن فيه".

فمنذ أن وطأت قدمه بحر الغزال وهو في مقتبل الشباب حتى علا صيته وتم تطويبه فارساً وقائداً خطيراً الأمر الذي حقق له النجاح في تجارته التي كانت تحفها المخاطر وبات من الأثرياء.. وكان لبحر الغزال الفضل الكبير في صقل ملكاته وإبراز قدراته وتقديمه لمجتمع ذلك العصر ليلعب الدور الذي كأنما قد أعده له القدر إعداداً. وقال محمد عبد الرحيم إن "الإمام المهدي وجد في أبوقرجة ما كان يتوسمه فيه من الذكاء

والولاء والحزم وقوة الإرادة. وقد حقق الله ظنه به حيث وجد فيه قائداً محنكاً عركته الأيام وصقلته التجارب فكان ولا غرو إنسان عين المهدية وعصاها التي تتوكأ عليها"[1].

لا يجد المرء وصفاً دقيقاً لشخصية أبوقرجة سوى أنه كان عُمرياً في خلقه وخلقه. تحيطه المهابة في كل وقت ولا تخطئ العين سيماء العظمة فيه. وقد كان فارع القامة جسيماً صلباً جهوري الصوت. وفي معرض وصفه له قال محمد عبد الرحيم إنه كان «طويل القامة، عريض الهامة، ضخم الكراديس، حسن الهيئة عربي الملامح، كث اللحية جهوري الصوت مهاباً»[2].

وعلى الرغم من قوته وبطشه ومظهر الصرامة الذي تميز به إلاَ أنه كان عادلاً ورحيماً يتدفق مروءة في كل حين . وصف ذلك إبراهيم فوزي باشا في كتابه «السودان بين يدي غردون وكتشنر» وأفاض في الحديث عن شخصية أبوقرجة عندما ساقوه إليه أو إلى الموت بالأحرى، ضحى يوم النصر وفتح الخرطوم فعفا عنه وأمنه في موقف لا يتكرر كثيراً.

لقبه الإمام المهدي بمُدَبّر المهدية منذ مراحلها الأولى واعتمد عليه في الرأي فكان مستشاره العسكري الأول الذي اعتمد عليه في اللحظات العصيبة فهو الذي أشار بحصر الخرطوم ورفض فكرة رفع الحصار عنها عندما اقتربت جحافل حملة الإنقاذ. وهو الذي أجمعت القيادة العليا المكونة من المهدي وخلفائه وأمرائه الكبار بقيادته لقوة التصدي للحملة. وقبل ذلك هو مهندس استدراج حملة هكس وإقتيادها عبر براري كردفان لتسقط لقمة سائغة في يد الثوار. قالت الشاعرة الحاجة بت مسيمس:

شوف أب قرجـــة وأفعالـــــــــه

ولافين ليه النصر فوق عمته وشاله

1. "أبطال التاريخ" مخطوط – محمد عبد الرحيم.
2. نفس المصدر.

وقد كان أبوقرجة عميق الإيمان بدعوة الإمام المهدي. وكان له الحظ الوافر في الإتصال بالشيخ محمد أحمد – الذي كان شيخهم في الطريقة السمانية – واكتملت العلاقة بالجوار الذي نشأ بينهما في الجزيرة أبا وأم غنيم، اللتين ما كان يفصل بينهما سوى النهر. وكان كثيراً ما يعبر الشيخ محمد أحمد إلى الناحية الغربية ليلتقي بمن كان يدعوهم بأبناء عمه – أولاد عثمان العربي – فكانوا يستقبلونه بما هو جدير به من حفاوة وتكريم. يقيم معهم الأيام والليالي يقضونها في الذكر والصلاة ويستمعون خلالها إلى أحاديثه العذبة ومواعظه البليغة. وذلك عندما عادوا من بحر الغزال نهائياً وأقاموا بأم غنيم. لذا تمسك أبوقرجة ببيعته للإمام المهدي وما غيرته الأيام واضطراب الأحوال. وكان أبرز آيات وفائه حرصه على الإمتثال للخليفة عبد الله بن السيد محمد الذي بايعه بحياة الإمام وظل مخلصاً لهذه البيعة في أحلك الظروف حين إحتدم الصراع بين الخليفة والأشراف الذين تطلعوا لنصرته ولكنه ظل ملتزماً بإخلاصه للدولة التي كرس حياته لإقامتها والدفاع عنها وفقد أعز إخوته الذين إستشهدوا في معاركها. واستمر في وفائه حتى بعد سجنه الشهير الذي أنفق فيه سنوات من النفي والتعذيب لا يجري على لسانه ما يسيء للخليفة أو ينتقص من قدره. إلاَ أنه والحال هذه كان يتميز بالموضوعية التامة والمواقف الجهيرة حين يقتضي الأمر. ولا يزال أهل بربر[1] يذكرون ذلك الرجل الذي صدر الحكم عليه بالإعدام – وقد كان من أعيان البلد – وجيء به ليجثو على النطع لا أحد يجرؤ على إنقاذه وهو «ضوء القبيلة» الذي قد يثير قتله من الفتن ما يصعب درؤه. فاستنجد القوم بأبوقرجة الذي كان ببربر لحظتذاك.

فأسرع ممتطياً فرسه يحيط به كوكبة من الفرسان من ملازميه وخاطب الشيخ محمد الخير بقوله:(يا شيخ محمد الخير.. انت ما أُمحمد الضكير.. قبل ما يغيَر

1. رواية الطيب بابكر من أهالي رفاعة – الجعليين القريداب – وقد كان جده أحمد النيلة وكيلاً لأبوقرجة في رفاعة.

المهدي اسمك لي محمد الخير.. المهدية فيها عليّ الطلاق؟ أها أنا عليَ الطلاق هذا الرجل ما بِنكَتِل). وأمر ملازميه أن يترجلوا ويحملوا الرجل حملاً ويمضوا مسرعين. إتخذ أبوقرجة هذا الموقف الذي كان ربما يعرضه لغضب الخليفة وبطشه.. إلاَ أن مروءته أبت عليه أن يقف مكتوف اليدين إزاء هذا الموقف الذي رآه عادلاً. ويذكر محمد عبد الرحيم في مخطوطه أنه عندما أصبح عاملاً على بربر(«أظهر من الجدارة وكرم الأخلاق- ما أطلق عليه لسان الأهالي بالإطراء).

أما موقفه من بشير بك كمبال الذي بعث به الخليفة إلى مناطق الإستوائية يقيم فيها أشبه بالمنفي فقد دفع فيه ثمناً غالياً — وهو فقدانه لحريته. فقد إتخذ منه الخليفة عبد الله مبرراً يسوقه لبعض الناس مع ما توفر من الوشايات التي ظل أمراء التعايشة الصغار ينقلونها أولاً بأول ليسدل الستار على الحياة الفاعلة لهذا القائد العظيم.

قبل سفره إلى الرجاف عاملاً عليها بأمر من الخليفة زار أبوقرجة في داره بأمدرمان وفد من النساء قريبات بشير بك كمبال. جئن من حلفاية الملوك يترجين الأمير إطلاق سراحه وإعادته من هناك فوعدهن بالإفراج عنه وقد فعل.

ظل اسم أبوقرجة يتردد على جميع الألسنة داخل البلاد وخارجها وعرفه أعداؤه أكثر من أصدقائه ومالوا للإستفادة من قدراته ورصيده الشعبي باعتباره جزءاً من مجموعة أهل النيل التي خسرت جولات الصراع على السلطة على نحو مفصل في موضع آخر من الكتاب. وقد ذكر محمد عبد الرحيم في مخطوطه «أن الحكومة الخديوية عندما علمت بوصوله إلى شرق السودان أرسلت إليه تستميله وتعده سراً برتبة الفريق وتعد جنوده برتبات كبيرة ليكون عوناً لها لإستعادة السودان إلاَ أنه رفض عرضها حرصاً على ولائه للمهدية».

من الواضح أن الحكومة الخديوية — أو مخابرات الجيش البريطاني - كانت تراهن على مثل هذه المحاولة — التي أشار إليها هولت في كتابه دولة المهدية — استناداً على

التقارير التي كانت تصل إليها تباعاً تصف فيه تدهور الأحوال وإجماع أهل النيل على رفض سلطة الخليفة وترى في أبوقرجة واحداً من أنسب القادة من أهل النيل المؤهلين للإنقلاب على سلطة الخليفة عبدالله حتى بالاعتماد على دوائر أجنبية. ولكن يبدو أنه قد فاتها أن الأمير أبوقرجة هو أحد القادة القلائل الذين حملوا عبء الثورة وحققوا إنتصارها وظلوا على إيمانهم بالدعوة المهدية حتى غيبهم الردى. ويبدو أن الخليفة الذي بلغه الأمر كان مقتنعاً بأن مثل الأمير أبوقرجة لا يستطيع أن يخون نفسه، إلا أنه ظل متوجساً منه خيفة فطلب منه التوجه إلى الإستوائية عاملاً عليها ليتم أسره هناك. وما كان من الممكن في ظل الأزمة السياسية التي لازمت الدولة المهدية في سنواتها الأخيرة أن يبقى طليقاً مثل الأمير أبوقرجة الذي بات يتصل به المتربصون بالدولة المهدية. ويبدو أن هاجس إتصاله مع الدوائر الأجنبية كان مستمراً حيث نسب إليه الوشاة الذين لازموه كظله إتصالاً مع الايطاليين أيضاً. وقد كان هؤلاء الوشاة مدفوعين لإلصاق كل ما يمكن أن يكون مبرراً للقضاء على أبوقرجة وذلك بالإضافة إلى محدودية فهمهم وتشككهم في كل ما كان يقدم عليه القائد من أعمال وإستقبال لأجانب كان يفدون من مناطق اريتريا وسواكن، أشار إليهم أبوقرجة في رسائله وتقاريره إلى الخليفة عبد الله أولاً بأول. ثم ظل الهاجس مستمراً حتى أيامه الأخيرة، وهو عامل المهدية في بحارة حين بعث المختار التعايشي تقريراً من الجنوب إلى الخليفة يتهم فيه أبوقرجة بمحاولة تسليم مناطق الرجاف إلى البلجيك. وحتى هذه التهمة -لضعفها وإستحالتها- لم ترد خلال محاكمة أبوقرجة في الرجاف التي تمت بإشراف الأمير عربي ود دفع الله الذي ساق تهماً ضعيفة لم يستطع إثباتها ليلقي بالأمير أبوقرجة في براثن سجنه الرهيب.

الواضح، بل من المؤكد أن أبوقرجة كان غائباً عن مسرح الأحداث حين اندلعت شرارة الثورة في الجزيرة أبا. وكان من الطبيعي أن يستدعي الإمام المهدي رجال أم

غنيم القريبة رغم مفاجأة أبو السعود وعودته السريعة على رأس القوة العسكرية. وقد تكهنَا في موضع آخر من الكتاب بأن القرية ربما كانت خالية من الناس. وحسب رواية اهل القطينة[1] فإنه من المرجح أن يكون أبوقرجة قد وصل إلى الأراضي المقدسة في ذلك الوقت. إلا أنه حين عاد توجه مباشرة وعلى وجه السرعة ولحق بالمهدي في قدير. وبطبيعة الحال يكون قد شارك في واقعة الجمعة وحصار الأبيض قبل أن يكلفه المهدي بملاحقة حملة هكس وإنهاكها ومن ثم إبادتها، كما حدث بالفعل. ورأت بعض المصادر أن أبوقرجة ربما كان مكلفاً ببعض المهام السرية التي ربما تسببت في تأخيره.. حيث وصل إلى قدير يحمل كل ثروته النقدية التي بلغت حوالي ستين ألف ريال مجيدي[2] – وقيل مائة ألف – فكانت نواة بيت المال الأول في قدير في إطار التنظيمات الإدارية المبكرة التي شكلت قسمات الدولة الأولى.

1. في موقعها الاسفيري وفي كتابها الذي أصدرته نخبة من أبنائها روى أهل القطينة أن أبوقرجة غادر إلى الحجاز عقب إجتماع الإمام المهدي برجالات القطينة وأخذه البيعة منهم.
2. رواية الدكتور عبد الرحمن كنتباي أبوقرجة عن والده.

حمـــــلة هكـــــس

أبوقرجة وأساليب الحرب الشعبية

حمــلة هكـــس

أبوقرجة وأساليب الحرب الشعبية

فــــارســـــ مـــلاقــيـــهـــن
بــتــفـــــرتـــق عــقـــدتـــن
والـخــيـــل تـصـاليـهـــن
ومـنـبــــور يـــا عـــريـس
لـلــــــــدقـــو دنـقــيــهـــن

بت مسيمس[1]

إجتاز الأمير أبوقرجة وفرسان الأنصار بالثورة المهدية أخطر تحديين عسكريين.. هما القضاء على حملة هكس وحصار الخرطوم واقتحامها. وقبيل فتح الخرطوم بيومين إختار الإمام المهدي وخلفاؤه وأمراؤه أبوقرجة لمصادمة حملة الإنقاذ. قال له المهدي في رسالة عاجلة ومهمة «أحصرها وأفعل بها ما فعلته بحملة هكس». ولكن أبوقرجة كان يرى ضرورة الهجوم السريع على المدينة وانتزاعها قبل وصول الإنجليز. وقد كان. وذلك بعد تطورات سريعة وحاسمة عززت موقفه الداعي للهجوم.

ففي التحدي الأول قاد أبوقرجة جحافل الفرسان يصحبه أولو العزم والحزم والصلابة من أمراء المهدية وفي مقدمتهم عبد الحليم مساعد وشيخ فضلو أحمد لملاحقة أضخم حملة عسكرية في التاريخ تتوغل في أعماق القارة الأفريقية. كان إخوته – أولاد عثمان العربي أصحاب الجرأة والمبادرات في تلك الحرب التي اتسمت بأساليب الحرب الشعبية (العصابات) التي استخدموا فيها الخيل. نفذوا معظم الهجمات الخطرة وإخترقوا قلعة هكس تلك التي وصفها قائدها بأنها تستطيع أن

1. مقطع من قصيدة للشاعرة تمدح فيها الأمير أبوقرجة.

تسند السماء بالبنادق إذا تداعت، وتثبت الأرض بأحذية الجند إذا تزلزلت. **ولكنهم إخترقوا خاصرتها وأدموها. غارت جراحها ولا تنفك تنزف. ألم تقل بنت مسيمس في رثائها لنصر كاشات يوم سقط شهيداً في الجريف «كم كسر قلعات المنفل ونابه». كانت تعني قلعة هكس لا غيرها. بلغت القلعة الرهيبة شيكان وهي تترنح محتضرة، فتلقفتها رماح الأنصار وأبادتها – في أقل من ساعة – في تجربة لم تتكرر في التاريخ. حينما تقرأ التحركات العسكرية للإمام المهدي في الأيام التي سبقت المعركة كأنك تقرأ في نص شعري ملحمي بديع.**

وفي التحدي العسكري الثاني – حصار الخرطوم – أعدّ أبوقرجة المسرح العسكري لحشد قوات الأنصار ولعزل غردون وتضييق الخناق عليه. فشيد الطوابي والإستحكامات في بري – لأول مرة – ولولا إنضباطه العسكري المعهود وامتثاله لقرارات المهدي لاقتحم المدينة بفرسانه المتعطشين للشهادة. وفي حشرجة الروح حاول غردون فك الحصار. فحشد قواته بصورة مثلت الوقفة الأخيرة – واستخدم مدفعيته تجاه كل معسكر من معسكرات الأنصار. ولما انتكست قوات أبوقرجة أمام تفوق المدفعية في بري والجريف بعد أن أبلت وقاتلت قتالاً دونه أساطير أسبرطة لم ينزعج الإمام المهدي فكتب إليه يقول **(لا تبتئس فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب)**.

خلبت ألبابنا المؤلفات الخاصة بالحروب الشعبية في القارة الأسيوية.. الصين وفيتنام وكوريا. قرأناها أيام شبابنا الذاهب والرؤى الثورية الرومانسية وخاصة بعد مصرع جيفارا. قدم الزعيم الصيني ماوتسي تونغ نظريات باهرة حول ذلك النوع من الحروب. أذكر أننا توقفنا في نظريتين هما «النملة تأكل القندول» و «ربَ شرارة أحرقت السهل كله». وعندما ازددنا نضجاً وأخذنا نمعن النظر في تاريخنا، وجدناها في التطبيق العملي لحروباتنا في الثورة المهدية. كانت ملاحقة حملة هكس هي التطبيق العملي

الخلاق لنظرية «النملة تأكل القندول» ولكن التطبيق في القارة الأفريقية كان سابقاً لما حدث في القارة الأسيوية. فهل يا ترى تسرب شيء من الأدب العسكري للثورة المهدية إلى الصين؟! أما نظرية «ربَ شرارة أحرقت السهل كله» فقد كانت مفتاح النصر للثورة في السودان. فقد بعث الإمام المهدي الرسائل لزعماء القبائل والأعيان والفقهاء وأصحاب الشأن في سائر أنحاء السودان ليهبوا في وجه المحتلين. لم يخيبوا ظنه فامتشقوا الحسام وامتطوا خيولهم يقاتلون جند الحكومة بعنف وضراوة. فالتهبت البلاد بالنيران التي أفضت إلى حريق هائل عجل بإنتصار الثورة.

لخص عصمت زلفو في كتابه «شيكان» مهمة قوات أبوقرجة لملاحقة حملة هكس في أن تقوم بتطبيق أسلوب حرق الأرض وإخلاء المنطقة - التي تمر عبرها — من السكان والأحياء تماماً، وإبعاد أو إتلاف كل ما من شأنه أن يفيد العدو في احتياجاته اليومية كالآبار وموارد المياه والمساكن وقطعان الماشية. ذلك بالإضافة إلى تخصيص قوة قتالية للإستطلاع والمناوشة ولزرع بذور الحرب النفسية وسط جنود الحملة الذين بلغ الإمام المهدي إنحطاط روحهم المعنوية. ولضمان سير المعلومات اليومية عن تقدم الحملة لتحدد على ضوئها لحظة إنتقال المبادرة للمهدي ليضرب ضربته القاضية.

(وقد تحركت تروس آلة المهدي العسكرية لتسير الأحداث حسب المخطط في إيقاع وتنسيق رائعين. فقد عين المهدي قوة من أربع رآيات على رأسها الأمير أبوقرجة والأمير عبد الحليم مساعد والأمير عمر اليأس أمبرير والشيخ فضلو أحمد.. قدر تعدادها بثلاثة آلاف مقاتل أغلبهم من الفرسان لتنفيذ المهام الآتية:

- السيطرة على الأرض الحرام التي كانت تفصل بين الجيشين وإخلاء المنطقة من السكان.
- جمع رجال القبائل وحشدهم وإرسالهم لمعسكر الأبيض.
- إرسال التقارير اليومية عن سير العدو.

مناوشة الحملة بالإشتباكات المتصلة التي أقضت مضاجعها وبترت أطرافها البعيدة المنعزلة أو المتخلفة عن خط سير المربع.. على أن لا يدخلوا مع المربع في اشتباك حاسم. وقد شدد المهدي على هذه النقطة منذ البداية، واضطر أن يؤكدها مرات عديدة لكبح جماح الأمير عبد الحليم الذي عجز عن السيطرة على جنوده المتعطشين للقتال، وهم يرون عدوهم رأي العين.

وعندما أشرف هكس على الترعة الخضراء أطلق المهدي العنان لأمرائه الثلاثة فانطلقوا بفرسانهم غرباً وأدوا المهام الملقاة على عواتقهم على أتم وجه. وبعد أسبوع من تحركهم من الأبيض وتفرق رآياتهم التأم شملهم واتحدت رآياتهم وتجمعوا على مسافة قريبة من المربع. ومنذ تلك اللحظة لم يفارقوا العدو في مسيرته الطويلة يوماً واحداً كظله وهم يناوشونه ويقتطعون من أطرافه) [1].

إستطاع المؤرخ إسماعيل الكردفاني أن يعبر بدقة عن حالة حرب العصابات التي قادها أمراء المهدي وفرسان الأنصار بقوله (فضيقوا على العدو غاية التضييق بشن الغارات ومنعوا الترك من الإنتشار حتى من أخذ الحشيش لدوابهم والحطب لوقودهم. فصار كل من خرج منهم لإحتطاب أو أخذ حشيش أو غير ذلك اختطفته خيل الأصحاب. فصاروا كالمحصورين، وهم سايرون بسيرهم يصيحون عليهم من كل جانب. فادهشوهم بالجلبة والصياح وأثخنوهم بالصفاح والرماح حتى صاروا لا يقدرون على الخروج من قلعتهم. فضاقت عليهم الأرض و إنقطعت عنهم الأخبار التي كانوا يريدون مجيئها من جهة الخرطوم لحيلولة الأصحاب بينهم وبين ذلك وسقط في أيديهم وندموا حيث لا ينفع الندم).

ومن مفارقات التاريخ أو مقارباته.. لا أدري! أن نفس البراري شهدت أسلوباً مماثلاً لحرب العصابات في حوالي عام 1747م. فقد نسب سبولدنق لتراث العبدلاب (أن

1. معركة شيكان – عصمت زلفو.

قوات غير نظامية من البدو أخذت تهاجم قوات الفونج التي كانت قد غزت كردفان واحتلتها فأخذ البدو يقومون بإزعاج قوات الفونج بعد عام من إحتلالها للمنطقة. فكانوا يتصيدون المنعزلين ويمنعون الطعام عن الجيش. كما ثابروا على دفن الآبار في كل المنطقة. فأخذ جنود الفونج يهيمون على وجوههم من شدة العطش. كما نفقت جياد الفرسان. ولما استيقن عيساوي – سلطان المسبعات – من حالة الإرتباك وسط أعدائه شنَ بفرسانه هجوماً على بقية قوات الفونج. وفي معركة قحيف تمكن من القضاء على معظم قادة جيش الفونج. وظلَ يطارد البقية التي كان يقودها شمَام ود عجيب العبدلابي – حليف الفونج - إلى شمقتا. حيث قتله وأنزل بقوته هزيمة منكرة).

في إحدى المراحل الخطيرة من مسيرة حملة هكس، وذلك في العاشر من أكتوبر 1883م بلغ العطش بالجنود مبلغاً أفقدهم صوابهم فانتشرت الفوضى في صفوفهم التي تبعثرت. وأضحوا في حالة تستطيع جماعة صغيرة من الأنصار أن تلحق بهم أذى بالغاً أو هزيمة ماحقة. ولكن في الواقع كان الأنصار قريبين منهم يشاهدون ما آَلت إليه حالتهم. وقد عبر زلفو عن تجربتهم تلك بقوله (وفي ذلك اليوم العصيب أبرز أبوقرجة لأول مرة جزءاً من رآَياته المستترة – فظهروا بالمئات يتعقبون الحملة خطوة – خطوة. وعلى الرغم من تدهور حالة المربع وسهولة توجيه ضربات قاصمة لصفوفه إلا أن أبوقرجة تمسك بتعليمات المهدي وتركهم وشأنهم مكتفياً بالتمتع بمراقبة مشهد تكسر الصفوف وتخلف الجنود وسقوط الدواب. وكان لظهوره ومراقبته المتصلة للمربع أثر نفسي مدمر. فالجنود يشاهدون عدواً طالما سعوا إلى لقائه على بعد خطوات منه وهم لا يستطيعون حياله شيئاً) [1].

أجمع المؤرخون على أن الأنصار إذا أرادوا إبادة الحملة عن آَخرها في اللحظة والتو

1. المصدر السابق.

لاستطاعوا. وذلك إذا أشعلوا النار في الحشائش الجافة والأشجار التي كانت تحيط بها من كل جانب. إلا أنهم كانوا من الفطنة والذكاء ليدركوا ذلك الثراء الذي تميزت به من مؤن وذخائر وأسلحة ومتاع لا يحصى. كانوا يريدونها غنائم وليس طعاماً للنيران. وبالفعل إستطاعت الثورة المهدية أن تستفيد من عدة وعتاد الحملة في كل المعارك التي خاضتها في الأوقات اللاحقة وأصبحت أساساً مقدراً لبيت مال المهدية.

قال الكردفاني (ولما تحقق المهدي من قرب حملة هكس بحيث كان بينها وبين الأبيض نحو ثلاثة أيام خرج بنفسه الكريمة واصطحب جميع أصحابه الكرام). في تلك اللحظة توقفت حرب العصابات بعد أن أدت مهمتها على الوجه الأكمل. وقرر الإمام المهدي أن يبرز لعدوه في معركة نهارية فاصلة. وعلى مسافة لا تتجاوز ميلين ربض أبوقرجة بين فرسانه المشاكسين يرقبون فريستهم وهي على وشك الإرتماء في الفخ المنصوب. كانوا على صهوات جيادهم منذ الصباح الباكر، على أهبة الإستعداد لأخذ المربع برماحهم الطويلة إذا تأنى أو توانى في اندفاعه نحو أنياب الموت الفولاذية المشرعة أمامه) [1].

بعد إنتصاراته السريعة المفاجئة والمتلاحقة بلغ الإمام المهدي بالبلاد أقصى درجات مزاجها الثوري وحرك كيانها المتعطش للحق والعدل وأترع وجدانها بمواعظه العميقة وطرحه الجديد.. يقف أمام الجموع متحدثاً بصوته الجهوري وهي مأخوذة بسمته الأسطوري المهيب وقوامه الفارع. وفي الظروف التي سبقت حملة هكس كان في قمة حيويته ونشاطه الدفاق (الفكري والسياسي والعسكري). فثابر على كتابة منشوراته التي غدت أدباً متكاملاً لثورته وتجسيداً لفكره المتجدد. فكان يمارس عباداته الشاقة العميقة. ويعظ ويوجه ويرشد ويترأس مجالس الحرب المتعاقبة ويخطط للعمليات العسكرية وما يسبقها من تدريبات و إهتمام بالأحوال التشريعية والإدارية

1. زلفو – المصدر السابق.

للدولة الجديدة التي إنبثقت تحت ظلال السيوف وأسنة الرماح. ذلك بالإضافة إلى الرعاية الشخصية المباشرة التي كان يسبغها على الآلاف من أنصاره.

إستطاع المرحوم الرائد زلفو بلغته الغنية الوارفة وأسلوبه الروائي وحذقه العسكري أن يصف لنا معركة شيكان وكأنه يعزف في سيمفونية خالدة. كما استطاع أن يقدم لنا الإمام المهدي كقائد عسكري فذ يمسك بخيوط المعركة بمهارة وقدرات خارقة. كان يمتلك المعلومات التي استخدمها إلى أقصى درجة. ولكن في الأيام الأخيرة لم يكن يعلم نوايا عدوه والطرق التي يعتزم المرور بها.. وما إذا كان سيشق طريقه نحو الأبيض مباشرة. وهنا تجلت عبقريته بتحريك عشرات الآلاف من أنصاره في تلك البراري الشاسعة. وبثقة القادة الشجعان الملهمين حدد موعداً للمعركة لا تحيد عنه فهدأ بال الناس الذين خافوا من توجه هكس إلى مدينتهم -الأبيض- فينقلب الموقف إلى ما لا يحمد عقباه. أعلن بوضوح أن المعركة ستقع ضحى الإثنين وسيتم حسمها على الفور بحيث إذا تأخر أحد من الأنصار ليصلح سير نعاله لفاتته. وقد كان.

إستطاع زلفو بحس فني رفيع أن يجسد تلك اللحظات الفارقة في تاريخ الأمة السودانية. فصورها وهي تقف على رجليها تستجيش غضباً وتفيض حباً للحياة والموت معاً، اللذين لم يعودا نقيضين البتة. لقد نجح الإمام المهدي في قدح شرارة الثورة وأمسك بمفتاح آلياتها.. فبرز إنسان جديد تفجرت قدراته وانبعثت فيه قوى خارقة مذهلة. تماسك ذلك النسيج الواهن في الأمة وأضحى جداراً عسير الاختراق. ما شهد التاريخ بشراً كانوا يتحرقون للقتال وينخرطون في البكاء متشوقين لعناقه. كما لم يشهد جنوداً غابوا عن الوعي واستقروا في وعيهم الباطن يتحدثون لغات أجنبية عنهم كالسريانية ويتغنون بأشعار الصوفية ويتمايلون طرباً في حالة من الوجد العميق.

في أثناء المعركة الإعتراضية التي نفذها حمدان أبوعنجة لعرقلة تقدم العدو تمهيداً لتقدم قوات الأنصار والتماهى مع تحركات قوات هكس. إخترق إدريس الخندقاوي

صفوف العدو وتسربل بجنازير المدفع الذي كانت تجره البغال واجتاز به وحده ميدان المعركة وألقى به بعيداً وعاد مسرعاً ليواصل القتال. وقال حمدان أبوعنجة أنه لا يذكر كيف بدأت المعركة وكيف إنتهت ولكنه وجد نفسه أخيراً ممزق الثياب التي لطختها الدماء كما لطخت سيفه. وقد تفضل زلفو بقوله: «كأن الحواس قد توحدت جميعها في قبضة يده».

كيف إنتهت هذه المعركة في حوالي نصف الساعة والنصف الآخر إستغرقته مطاردات الفرسان لفلول قوات العدو!؟ مهما يكن من حال فإن مشاجرة عادية بين شخصين في قارعة الطريق ربما تستغرق زمناً أكثر من ذلك. هل يأذن لي القاري أن أشير أيضاً إلى ملاحظات زلفو حين قال إن جندي البروجي حين تسلق أعلى شجرة التبلدي راعته كثرة الأنصار الذين كمنوا في مواقعهم تحت راياتهم. فأخذ في الصياح «أرى عدواً في اليمين وفي اليسار وفي الأمام وفي الخلف أيضاً، وأرى عدواً في السماء. العدو الذي في السماء أكثر من ذلك الذي أراه في الأرض». وأخذ يردد ولا يستجيب لنداءات القائد بالكف عن الصياح وتكرار التحذير. ولما فشل القائد أطلق عليه الرصاص وبات معلقاً في أغصان تلك الشجرة لعشرات السنين. الم يقل جل من قال: «وأيدكم بجنود لم تروها». صدق الله العظيم. لقد أُطلع صاحب البروجي المسكين على جند الله ليبث الرعب في نفوس العدو.. أو ليس الله على كل شيء قدير.

عندما سئل صلاح الدين الأيوبي عن السر وراء إنتصاراته الباهرة على الصليبيين رد بكلمتين فقط «قيام الليل». فكيف الحال مع الإمام المهدي الذي لا ينفك قائماً وراكعاً وساجداً.. «يختم القرآن في سنة الوتر» كما شهد خصومه قبل أنصاره. فقد أجمعت المصادر على أنه لم يغفل عن ذكر الله لحظة. فهو إما في صلاة أو في ذكر أو في قراءة ورد أو إلقاء موعظة.

لقد وضعت تلك الأيام السودانيين على طريق جديد فغسلت ما ران عليهم عبر

القرون فانتفضوا ينشدون واقعاً جديداً مختلفاً. ولله در الشاعر المجيد الأستاذ عثمان السيد حين قال: «يا لفجر ليته ما كان لاح». أما عباس العقاد فقد أبدى أسفا حين قال " المهدية شمعة أراد الله لها ان تنطفئ".

كان زلفو كاتباً مبدعاً حين إهتم بتفاصيل صغيرة رصعت النص بماسات نادرة. فتحدث مثلاً عن وصول أخبار الهزيمة إلى القاهرة مبكراً جداً. فوصلتها بعد عشرة أيام فقط قبل وصول البريد الذي يستغرق عادة ضعف تلك المدة أو تزيد.. لا يدري أحد كيف حدث ذلك ولكن دواوين الحكومة المصرية وشوارع القاهرة أخذت تردد ذلك الحدث بين التصديق والتكذيب حتى بلغها رسمياً في 21/ نوفمبر وكانت المعركة قد وقعت في الخامس منه.

في أعقاب المعركة إندفع فرسان الأمير أبوقرجة يطاردون فلول الجيش المندحر.. فقد كان موقعهم في مؤخرته. أما هو فقد أسرع بحصانه يبحث عن مكان الإمام المهدي. كان مشغول البال بمصير الجنرال هكس. فلم يتأكد له مصرعه. ولم يجد إجابة شافية من المقاتلين الذين تضاربت أقوالهم. وفي خلال وقت وجيز كان يقف أمام المهدي فتبادلا التحية بسلام طويل حار. ولم يلبث أن استفسر الإمام عن الجنرال هكس. فابتسم المهدي ونادى بصوت عال «يا عبد الله.. يا عبد الله». فبرز فتى صغير السن. وسرعان ما تعرف عليه أبوقرجة فهو أحد أقربائه من أولاد القطينة الذين تركهم صغاراً لم يشبوا عن الطوق. وأبلغ الإمام المهدي أبوقرجة أن عبد الله هو الذي قتل هكس. وجاء عبد الله بما يؤكد ذلك. في تلك اللحظة إمتلأ أبوقرجة بالحماس فأمسك بذراع الفتى بيده ورفعه عالياً حتى انخلع كتفه. فقد كان نحيلاً واهن البدن. وقيل أن تلك العاهة لازمته طوال حياته التي إمتدت حتى سنوات الخمسين من القرن الماضي[1].

كان عبد الله ود سلمان في القطينة فتى غريراً حين وفد إليهم رجل يمتطي هجيناً.

---

1. رواية صديق كنتباي أبوقرجة ومحمود شايب.

إستقبله شيوخ البلدة في خلوة للضيافة وإجتمعوا حوله نساء ورجالاً. فأخذ يحذرهم من جيش لجب في طريقه إليهم[1]، قد يرسل كتيبة منه تلحق الأذى بأهل البلدة التي قدمت قيادات مهمة للثورة المهدية. كانت القطينة خالية من الرجال الذين توجهوا جميعاً إلى القتال. انخرطوا تحت رآيات أبوقرجة وشيخ فضلو. قرر الشيوخ في القطينة أن يبعثوا برسول إلى الأمير أبوقرجة في مناطق العمليات ليتدبر أمره لحماية أهله المهددين بالخطر. كان الفتى عبد الله هو الأنسب من بين الصبية صغار السن. فلقد عرفه الجميع جسوراً مقداماً لا يبالي. فانبرى للمهمة بحماس. ومن ثم أعدوا له احتياجاته على عجل وشيعوه بالدعوات الحارة. ومضى يشق الفيافي.

ألحقت قوات الإمام المهدي بحملة هكس هزيمة ساحقة ترددت أصداؤها في جميع أنحاء العالم. شارك فيها معظم قادة الثورة مثل حمدان أبو عنجة والنجومي وغيرهم فاجترحوا المستحيل وأبدوا من البسالة وفنون القتال أشكالاً غير مسبوقة في التاريخ العسكري. فاستبشر العالم الإسلامي الذي تكالبت عليه قوى الاستعمار الغربي ورأى فيها فجراً جديداً من شأنه أن يزيل عن الأمة الإسلامية غبن التفوق العسكري. وبات ذلك الإنتصار منعطفاً حاسماً في تاريخ السودان المعاصر.

عاد الإمام المهدي إلى الأبيض وسط أنصاره المزهوين بالنصر في كرنفالات واحتفالات وصفها الأب أوهولدر[2] الموتور بالوحشية، بينما بقي الأمير أبوقرجة ورايته مسئولين عن جمع الغنائم وترتيب الأحوال التي نشأت عقب تلك المعركة الأسطورية.

إرتاع مجلس اللوردات البريطاني بعد أن ذاع الإنتصار الحاسم للإمام المهدي في معركة شيكان فألقى اللورد دربي بياناً جاء فيه (إن أمثال هذه الكارثة التي حلت

1. حملة هكس.
2. الأب أوهولدر قس ألماني كان في الدلنج أثناء اندلاع الثورة المهدية. وقد ظل في الأسر بأمدرمان طيلة عشر سنوات. .

بحملة هكس لم تكن في الحسبان). واعترف في بيانه بأنه لم تكن لديهم وسائل يستطيعون من خلالها تقدير مدى العقيدة والتعصب لهؤلاء العرب[1].

أما لورد فتز مورس فقد أعرب - أمام نفس المجلس — عن أساه وحيرته حول الظروف التي أودت بجيش كامل العدة والعتاد يقوده ضباط بريطانيون عظام، فقضى عن آخره في دقائق معدودة وكأنما ابتلعته الأرض أو لمسته عصا ساحر فأزاحته عن حيز الوجود. وقال إن التاريخ لم يشهد منذ أن ابتلع البحر الأحمر جيش فرعون كارثة مثل تلك التي حلت بجيش هكس فأفني عن آخره وقضي عليه قضاءً مبرماً[2].

1. دراسات في التاريخ الإجتماعي للمهدية. تاج السر عثمان الحاج.

2. نفس المصدر.

شبل القطينة.. قاتل هكس

عــــــبد الله ود ســــــلمان

شبل القطينة.. قاتل هكس
عــبد الله ود ســلمان

ونحن صغيرنا يخطف

في النصــارى المــاكن

أبو عثمـــــان جقود[1]

منذ غضارة الصبا وهوس القراءة البكر كنا نبحث عن كتاب «صور من البطولة» للأستاذ محمد سليمان. وكنا نعلم أنه عمل ناظراً لمدرسة القطينة الوسطى، وكان يدرس مادة التاريخ. وكنا نعتقد أيضاً أنه اتصل بجدنا المجاهد الأنصاري الكبير عبد الله ود سلمان واستمع إلى تجربته ودوره في الثورة المهدية.إلا انه في الواقع لم يلتق به حيث توفاه الله عام 1949قبيل اقامة الاستاذ محمد سليمان في تلك المدينة . كنا تواقين لنقرأ ما كتب. فمضى زمان ولم تصدر للكتاب طبعة أخرى. ولما ألحّ علينا الحال في طلبه ونحن بصدد هذه الكتابة ضاعفنا البحث عنه حتى عثرنا على صورة منه. وجدناه كتاباً مهماً يتضمن مقالات تغطي حقباً من تاريخ السودان. ويتناول سيراً لشخصيات بارزة لعبت أدواراً أساسية فيه. يصلح بلا جدال ليكون من بين مقررات التلاميذ لمعلوماته الثرة الغنية ولغته الأدبية الباذخة وأسلوبه المشوق الجزل.

والأمر الذي كان يهمنا هو ما كتبه عن عبد الله ود سلمان. وكنا نسمع آباءنا يرددون اسمه في مجالسهم ويقولون « أبوي عبد الله ود سلمان» بكل تقدير وإجلال. ومن خلال المقال الذي تضمنه الكتاب – والموسوم بـ«الفارس الصغير.. عبد الله

1. أحد أبرز شعراء الوطنية. وقد كتب شعراً تضايق منه الإنجليز إبان الحرب العالمية. وهو من أقرباء عبد الله ود سلمان من جوابرة الكاملين. وهذا بيت واحد من قصيدة يمدح فيها أبطال المهدية ويشير فيه إلى قتل ود سلمان للجنرال هكس.

ود سلمان» أدركت بلا ريب أن المؤلف إلتقى بمصادر عاشت معه وحفظت المعلومات التي حصلت عليها منه إلا أنه وللأسف لم يشر إلى تلك المصادر. وبالطبع لم يكن يقصد إهمالها ولكن نوعاً من الغفلة صاحب ذلك الأمر. ويبدو أن عدم الإعتماد على الرواية الشفاهية والذي كان سائداً لدى المؤرخين جعله يتجاهل تلك المصادر ويذكر كتابين اعتمد عليهما - هما:

- السياسة البريطانية في السودان: الدكتور مكي شبيكة.
- السودان في قرن: نفس المصدر.

وبالنظر للرواية المنسوبة لتلك المصادر تتأكد صحتها وبدقة المعلومات التي وردت فيها يتضح بلا شك أنها صدرت من صاحبها قبيل وفاته وهو في الثمانين . فلا أحد غيره كان ملماً بتلك التفاصيل التي لم يحتويها مصدر من كتب التاريخ. كما أن خيال المؤلف مهما كان جامحاً لا يمكن أن يصل إلى تلك التفاصيل الدقيقة المتعلقة بتلك المعلومات. وقد أضافت معلوماتنا االشفاهية لتلك الرواية أبعاداً أخرى ترد في هذا السياق.

كانت بلدة القطينة خالية من الرجال تماماً.. فقد توجهوا جميعاً إلى مناطق القتال وانضموا إلى الثورة. فالإمام المهدي كان قريباً منهم دائماً ومتصلاً بهم قبل إعلان الدعوة. ومعظمهم كان قد بايعه بيعة السر. ولم يبق في القطينة من الرجال سوى الشيوخ العجزة والنساء. يتابعون أنباء المعارك باهتمام بالغ. ولكن عندما حل بينهم ذلك الرجل الغريب – راكب الهجين – وأخذ يروي عن ذلك الجيش العرمرم وإمكانياته العسكرية الهائلة ويبالغ في وصفه إستبد بهم الخوف من هجوم متوقع على بلدتهم التي عرفت منذ البداية بانحيازها للثورة. وباتت مركزاً أساسياً من مراكز الدعوة المهدية.

كان عبد الله ود سلمان في طور العبور من طفولته إلى مدارج الصبا حين وقع عليه

الإختيار ليتوجه إلى كردفان فيبلغ رجال القطينة بمخاوف أهلهم والجزع الذي تملكهم والحاحهم على عودة أولادهم لحماية بلدتهم من الغزاة.

إمتطى الفتى عبد الله راحلته وزوده أهله بالمال وبما يحتاج إليه. فتوجه صوب الجنوب حتى بلغ مشرع الدويم الشرقي فعبر النيل. واقتحم فيافي كردفان الخالية حتى بلغ معسكر الأنصار القريب من الأبيض. وهناك أخذ يسأل عن رجال القطينة، فقادوه إلى حيث يقيمون. والتقى بقريبه شايب ود أحمد الذي إستقبله إستقبالاً حاراً. فسأله عن الأميرين أبوقرجة وشيخ فضلو فأبلغه أنهما يقودان فرسان الأنصار الذين يتعقبون حملة هكس. وأحس شايب أن مهمة عبد الله لا تتصل بالدعوة والجهاد فاستفسره عن هدفه الأساسي. فعلم منه أن أهلهم في القطينة يطلبون عودتهم للحيلولة بينهم وبين هجوم محتمل من جانب الجيش الغازي. فسخر شايب من تلك المخاوف وصحبه إلى الإمام المهدي الذي هدّأ من روعه وطيب خاطره وبشره بأن حملة هكس مقضي عليها بالهلاك ولا سبيل لديها إلى النصر. وطلب منه الإنتظام في صفوف الأنصار فلم يتردد في قبول الدعوة وبايعه. فقبل الإمام المهدي رأسه ودعا له بالخير ووجه بشراء فرس له. ولما كان يحمل قدراً من المال أصرَ على أن يشتري فرسه بنفسه لينال الثواب كاملاً. وكانت المهمة الأولى التي أوكلت إليه هي توزيع منشور الإمام المهدي أمام الحملة لاختراقها معنوياً وسياسياً. وقد نجح هذا الاسلوب في زعزعة قناعات الجنود ودفعهم إلى اليأس. إنطلق الفتى عبد الله بفرسه – مع عدد من الأنصار – يوزع ذلك المنشور بكميات كبيرة. فيلقي به في الطريق وبالقرب من موارد المياه ويثبته على أشواك الأشجار. وقد قرأه عدد كبير من الجنود قبل أن يمنعهم قادتهم من ذلك.. وقد جاء فيه:

«من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى من يسمع من أهل الجردة. فمن له عقل لا يخفى عليه أن الأمر بيد الله ولا يشاركه في ذلك بنادق ولا

مدافع ولا صواريخ. ولا عصمة لأحد إلا لمن عصمه الله. فإذا فهمتم ذلك فأعلموا أن الله واحد ولا تغتروا بأسلحتكم ولا بجموعكم»

كانت الحملة الرهيبة التي تابعت تحركاتها الصحف الأوروبية من خلال مراسليها يقودها هكس.. ذلك الضابط البريطاني المعروف بقدراته العسكرية الفذة وخبرته في قمع الثورات في الهند والحبشة. وقد وصلت في ضحى الإثنين الخامس من نوفمبر 1883م إلى ميدان المعركة الفاصلة. وكانت قوات الثورة السودانية متأهبة لخوض تلك المعركة التي طورتها من حرب العصابات إلى حرب نظامية مارست فيها فنوناً من أساليب القتال لم تخطر على عقول العسكريين الأوروبيين. فقد ظنوا أنهم يواجهون شراذم من الدراويش الممتلئين بالحماس والمفتقرين للنظام والإنضباط العسكري. فإذا بهم يواجهون جيشاً دونه الجيوش الأوربية في القدرات القتالية واستخدام الأسلحة.

وفي خضم تلك المعركة الأسطورية التي لم تستغرق ساعة من الزمن كان الفتى الصغير عبد الله يندفع مقاتلاً. ولكن هدفه النهائي كان الوصول إلى موقع القائد العام. وقد عبر الأستاذ محمد سليمان مصوراً ذلك المشهد بقوله «وصاحبنا الفارس الصغير عبد الله ود سلمان يندفع بفرسه ويخوض المعركة يعمل سيفه يمنة ويسرة غير آبه بالنهاية أو عابئ بالموت. يجول في الميدان يقطع الرقاب ويطيح بهامات العدو حتى استطاع أن يفتح ثغرة ويشق سبيله إلى هكس قائد العدو ويطعنه طعنة نجلاء».

تضاربت الأقوال حول قاتل هكس واللحظات الأخيرة في حياة الجنرال. وقال زلفو في كتابه «شيكان» إن الروايات ثلاث، حسن البارودي ومحمد آدم حلو ومحمد سليمان «صور من البطولة». والأولى تذكر أن هكس قتل بحربة قذفها نحوه الخليفة محمد شريف والثانية تقول أن الشيخ أحمد البدوي ولد عبد الصادق حضر على ظهر فرس حمراء. رآه الأنصار الذين طاردوا هكس.. فقتله وشال سلبه – جزمة وبرنيطة وحزام – وهو مقيم بالسوكي قرب القلع عراج. وقال إن رواية محمد سليمان

تذكر أن قاتله صبي صغير من أهالي القطينة يدعى عبد الله ود سلمان أرسله أهله في الأصل لأبوقرجة لنجدتهم عند تقدم هكس. ولكنه إستمرأ الجهاد ومكث مع جيش المهدي واشترك في المعركة بهدف واحد هو قتل الجنرال هكس. وتردد روايات أهل القطينة أن الإمام المهدي إختار عبد الله ود سلمان لقتل هكس وزوده بالتعليمات الضرورية لتنفيذ المهمة. ولما فرغ منها جاء مسرعاً للإمام المهدي يحمل ما يؤكد نجاحه «ربما يكون رأس الجنرال». وبقي قريباً إلى جانب الإمام حتى وصل أبوقرجة.

إنتهت حياة الجنرال هكس على يد صبي صغير بعد كل ذلك التاريخ والخدمة العسكرية الطويلة في سبيل مجد الامبراطورية البريطانية وأطماعها في التوسع والسيادة المطلقة على سكان الكوكب. فقوانين الثورات ليس لها من منطق أو قواعد ثابتة.

منذ يفاعته كان السيد عبد الرحمن المهدي يبدي إهتماماً عميقاً بأصحاب والده الإمام.. يزورهم ويتفقد أحوالهم ويبذل كل ما بوسعه لتقديم ما يحتاجون إليه من مساعدات. وكان إهتمامه يشمل بقية الأمراء والمجاهدين والأصحاب الذين ظلوا مقيمين بأمدرمان، والذين توجهوا إلى مواطنهم السابقة للثورة. وكان يزور القطينة بإستمرار. فقد كانت هناك نساء والده وعشيرته. وفي خلال سنوات الثلاثين والأربعين من القرن العشرين كانت أعماله قد اتسعت وقدراته المالية أصبحت تفيض على كل ذوي الحاجات حتى سارت بذكر كرمه الركبان وتبارى الشعراء في مدحه.

كان جدنا عبد الله ود سلمان أحد بقية الكرام الذين بقوا على قيد الحياة وتقدم بهم العمر. فكان السيد عبد الرحمن يزوره في القطينة ويدعوه للحضور لزيارته في أمدرمان والجزيرة أبا. وكان يبعث إليه أحياناً باللنش الخاص ليقله من القطينة حيث يبقى في الجزيرة لأيام طويلة. وعند حضوره يحتفي به شيوخ الأنصار ويلقى كثيراً من الحفاوة والتكريم. يتحلقون حوله جلوساً على الأرض، بمن فيهم السيد عبد الرحمن، توقيراً له. بينما يجلس هو على سرير أعد له بصورة خاصة. يستمعون إليه مأخوذين

يحدثهم عن الإمام المهدي والثورة ومشاركاته في مختلف المعارك. ثم يجد وقتاً بعد ذلك ليزور مدينة كوستي التي يقيم فيها عدد كبير من أهله.. ومن بينهم أبناء أخيه آدم ود سلمان، محمد نور وسلمان وفاطمة. فيهرع إليه الأهل يزورنه ويتبركون بوجوده ويسعدون بطلعته الوقورة الشائخة.

ونحن منذ أن تفتحت أعيننا في تلك المدينة كنا ندرك عمق الصلة بيننا وبين آل سلمان. فهم أقرب الأهل إلينا رحماً. كنا نرى عمينا محمد نور وسلمان – عليهما الرحمة – في زريبة المواشي والجزارة حين نرتاد السوق لشراء إحتياجات البيت من اللحوم والخضروات. فكانا يهشان في وجوهنا ويبتسمان مرحبين. ويدعواننا «تعال قريب يا ود حسن». ويسهلان مهماتنا.. والزمان كان لا يزال في براءته وصدقه والعواطف كانت حارة مشبوبة والناس ناساً.

تزوج جدنا عبد الله ود سلمان من فتاة بيضاء من سبايا الخرطوم، قيل إنها كانت راهبة في كنيسة.. فسموها جندية. وعاشت حياة طويلة واندمجت في محيطها الإجتماعي بصورة مدهشة. وحجت إلى بيت اللله الحرام. وأنجبت ولداً وبنتين، هم الشاذلي وأم كلثوم ونفيسة.

من فداسي إلى حصار الخرطوم
أبوقرجة.. أميراً للبرين والبحرين

من فداسي إلى حصار الخرطوم
أبوقرجة.. أميراً للبرين والبحرين[1]

جات أنصـــــاراً ما بتتـكلم

وجيت أبقرجة صالح سلم

"من أهازيج الأنصار"

كان مشهداً تاريخياً مدهشاً ومؤثراً. يجسد القوة والاقتدار والثقة بالنفس ودور المرأة السودانية في الثورة المهدية. فقد وقفت سيدة تتقلد سيفاً على كتفها – أمام خيمة صغيرة نصبت لها – ورسالة مطوية وملفوفة بالجلد في يدها اليمنى. توسطت الخيمة جيشين متقابلين أحدهما يضم ألفين من الفرسان وهم على صهوات الجياد. والآخر جيش يقف وراء استحكامات. برز رجل ضخم الجثة، طويل القامة، يرتدي زي كبار الضباط الأتراك، وحوله ثلة من الجند. تقدم نحو السيدة وتسلم منها الرسالة وسلمها رسالة أخرى. فض رسالته رجل كان يقف إلى جانبها وقرأها ثم أشار للضابط العظيم أن يتقدم معه نحو الفرسان الذين كان يقف أمامهم الأمير أبوقرجة في كامل هيئته العسكرية. جبة الأنصار المرقعة والدرع من فوقها والخوذة على رأسه. ممسكاً ببندقيته على يمينه والسيف يتدلى على جانب الحصان. ترجل الأمير أبوقرجة وسلم على اللواء صالح ود الملك بحرارة وابتسم في وجهه وأمنه. هكذا سلم صالح ود الملك حامية فداسي التي ظل يحاصرها الأنصار. وكان قد رفض تسليمها لغير الإمام المهدي. ولكن الإمام أوفد أبوقرجة ليقوم بهذه المهمة وليفتح فصلاً جديداً في الثورة

1. المقصود بالبحرين النيلين الأزرق والأبيض والبرين منطقة الجزيرة وما حولها.

المهدية بالتوجه نحو الخرطوم وحصارها.

كانت السيدة التي حملت الرسالة هي الحاجة ست البنات أم سيف. المجاهدة الأنصارية التي دأبت على مساندة الثورة منذ إندلاعها. كانت تصنع الزاد للأنصار وتشارك في المعارك ما وسعها ذلك. تتقلد سيفها على الدوام. ولقد لقيت مصرعها شهيدة في معركة الجريف أثناء حصار الخرطوم في أغسطس 1884م هي وعدد من إمائها الفتيات اللائي كن يحطن بها. أصابتهن دانة فقضت عليهن. وقد نعاها المؤرخ محمد عبد الرحيم في مخطوطه. وأشارت المصادر إلى أنها امرأة دنقلاوية من القطينة. وقد وردت سيرتها في كتاب للمؤلف بعنوان "أصوات في الثقافة السودانية".

لا شك أن الأمير أبوقرجة أراد أن يكلف هذه المرأة بتلك المهمة التشريفية تكريماً لها واعترافاً بمواقفها الجليلة. وربما كان هذا التكليف بإيعاز من الإمام المهدي الذي أفصح عن تقديره واعتزازه بالمرأة السودانية التي لم تخيَب ظن الثورة فانحازت لها وقاتلت إلى جانب الرجال. حملت السلاح وصنعت الطعام ونظمت الأشعار الحماسية والأهازيج. وتظل أشعار بت المكاوي وبت مسيمس ونفرين بت مياسة عقوداً مضيئة تزيَن جيد الثورة الشعبية.

شهدت منطقة الجزيرة عبر تاريخها الموغل في القدم خيلاً ورجلاً وجيوشاً لا تحصى. فقد غزاها الإمبراطور الأثيوبي عيزانا يقاتل "النوبة الحمر". ودخل العرب في أطرافها أفواجاً وتحالف عرب القواسمة والفونج ودمروا دولة علوة. وحشد سلاطين الفونج خلال عشرات السنين جيوشاً فحاربوا العبدلاب والمسبعات والمتمردين على سلطانهم من القبائل حتى شمال السودان والحدود الأثيوبية. واندلعت الحروب القبلية في أنحائها (حرب القيمان) حتى دخل الأتراك السودان. والكثير هو ما جهلناه عن تاريخها. إلا أن هذا الجيش الذي قدم إليها هذه المرة أمره مختلف. كانوا لا يتجاوز عددهم الألفي مقاتل ولكنهم كانوا فرساناً يمتطون صهوات الخيل. تميزوا

بالضبط والربط والتصميم. لا جلبة ولا ضوضاء. لا يسمع منهم الناس سوى وقع الحوافر على الأرض. كانوا "خرساً صامتين يتلمظون تلمظ الحيات" كما عبر ابن الأثير في وصفه لزحف الأنصار في موقعة بدر. وقد أجملت وصف هؤلاء الأنصار الأواخر هذه الأهزوجة:

جـــاءت أنـصـــاراً مـن قديـر

وقـول لصالح ويــن بتطير

•••

جات أنصاراً ما بتتكـــــلم

وجيت أبقرجة صـالح سلـم

كان صالح ود الملك ضابطاً عظيماً في صفوف الجيش التركي. وقد رقاه غردون إلى رتبة اللواء بعد أن خاض معارك عنيفة ضد الثوار الأنصار في الجزيرة. كان عائداً من فازوغلي في مهمة رسمية عندما ألفى المنطقة وهي تمور وتضطرب. فقد أفلح مخطط المهدي بإشعال الحرائق حول الخرطوم (رب شرارة أحرقت السهل). وكان يتزعم القبائل التي انخرطت في تلك الدعوة المهدية ونهضت تقاتل من أجل دينها وحريتها الشيخ محمد الطيب البصير. وهو من أبكار الدعوة المهدية. وقد إستطاع أن يضيق على صالح ود الملك ويحاصره بجيشه في فداسي التي إختارها منطقة دفاعية. فأنشأ الإستحكامات وحفر خندقاً. وقوات ود البصير تحيط به. فحاول أن يستخدم الحيلة ويستقطب عدداً من زعماء الجزيرة وأعيانها ليدخلهم معه — ربما كرهائن — إلا أن سعيه باء بالفشل. وكان من بينهم الشيخ العبيد ود بدر الذي عبر بسخريته المفعمة بالحكمة عن الموقف بقوله:

أنـا ود ريـا الـما بـربط النية

أنـا تـــرن تـرن في الـقيـف حـرن

أنــا مــا فــار بـدخـــل الجـحـار
وأنــا مـا صـــبر بـدخـل القـقر
بــجـــيــــكـم أبـــقــــــرجـــة
وبـــتـــعــــلـــب الـــهـــرجـــة

كانت الخلافات قد عصفت بجيش ود البصير الذي يتكون من عدد من القبائل حديثة العهد بالدعوة المهدية. وحتى ذلك الحين لم تلتق بالإمام المهدي. وقد فشل ود البصير في ترويضها والحيلولة دون تطور نزاعاتها بتربيتها معنوياً حسب القيم التي طرحتها الدعوة. وفي الوقت نفسه أحسَ صالح ود الملك بأن لا أمل له في كسب هذه المعركة وهو محاصر بهذا المستوى العنيف. فالأمور لا تفتأ تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ولما كان يعلم بأن هناك بحراً من الدماء بينه وبين ود البصير خشي مآلات تسليمه الحامية. فكتب إلى الإمام المهدي يطلب منه مبعوثاً يقوم مقامه في التسليم. ولما كان الإمام المهدي حريصاً على عدم إراقة الدماء وميالاً إلى حقنها فقد قرر ندب الأمير أبوقرجة ليقوم بهذه المهمة. وبعد الفراغ منها يزحف نحو الخرطوم لبدء حصارها بصورة كاملة وجدية.

كتب الإمام المهدي إلى ود البصير يطلب منه التنحي لأبوقرجة والتنازل عن القيادة العامة في الجزيرة ودمج جيشه في قوات أبوقرجة. وقد جاء في رسالة المهدي أن بعض الأهالي ما زالوا يجهلون حقيقة الدعوى فتباطأوا بالإنضمام إليها. وقال إنه لا يفضل إستخدام القوة ضدهم لذا بعث بالأمير أبوقرجة ليجادلهم بالتي هي أحسن. الأمر الذي ربما يتعذر على ود البصير بسبب ما سبق من وقوع إشتباكات بينه وبينهم[1]. لم يتقبل ود البصير هذه الإقالة بصدر رحب وغضب، إلا أن المهدي هدَأ من روعه وذكره بما كان يحدث للصحابة وخاصة تجربة خالد بن الوليد. وقرر

1.حصار وسقوط الخرطوم.
ميمونة ميرغني حمزة ص166.

المهدي تعيين أبو قرجة أميراً للبرين والبحرين على رأس قوات حصار الخرطوم. إستبشر أهل الجزيرة خيراً بدخول أبو قرجة إلى منطقتهم وأطلقوا قولتهم المشهورة «بلاقيهم وبكفيهم».

وعندما كتب ود البصير للإمام المهدي متهماً أبو قرجة بالتساهل مع اللواء صالح في التسليم ردَ عليه الإمام معلناً ترحيبه بهذا السلوك الذي يؤلف القلوب ويحقن الدماء.

تسلم أبوقرجة عدة وعتاد الحامية ومن بينها الباخرة «محمد علي» وأرسل ود الملك مخفوراً إلى كردفان ليقابل الإمام المهدي.. فالتقى به في الرهد وهو يتهيأ للزحف على الخرطوم. وتضاربت الأقوال بعد ذلك حول مصيره. فقيل إنه حاول أن يكاتب غردون فضبطه الأنصار وضاعفوا عليه القيد والمراقبة. وقد توفاه الله «عليه الرحمة» في القطينة في عام 1890م. ولم ندرك الأسباب التي جعلته يقيم في بلدة الأمير أبوقرجة آخر غرمائه.

تحرك أبوقرجة لحصار الخرطوم يقود جيشه في وسط منطقة الجزيرة حيث نادى بالجهاد ودعا الرجال للإنضمام إليه فهرعوا إليه وفي مقدمتهم عشيرته في القطينة الذين اقبلوا عليه زرافات ووحداناً. أما رجال الكاملين فما إن سمعوا النداء حتى لبوا مسرعين. إجتمعوا وجمعوا ما لديهم من مال وبعثوا بإدريس ود هارون فتسلل سراً إلى قلب الخرطوم واشترى ثلاثمائة بندقية الأمر الذي مكن عشيرته من تسليح ثمانمائة رجل باتوا في مقدمة الثوار بقيادة نصر الجمليني. وقد إنخرط أهل الكاملين في جميع معارك الثورة وبرز من بينهم قادة أفذاذ أمثال الجمليني وود فانة وإدريس هارون.
لم تكن الدعوة جديدة عليهم فقد بايع الإمام المهدي الكثيرين منهم قبل إعلان الدعوة. وقد لحق به بعضهم فأدركوا معارك كردفان. في ذلك الوقت كان غردون قد أدرك فشل سياسته بإخماد الثورة بصورة سلمية وإرضاء المهدي بتنصيبه سلطاناً على

كردفان. كان وعيه حتى ذلك الوقت بطبيعة الثورة ضعيفاً يغذيه بعض المستشارين السذج بأفكار تنطلق من عقول مغلقة تقيدها منطلقات عصبية قبلية ومصالح ذاتية محدودة. فلم يمحضوه نصحاً يمكنه من تفادي تلك القارعة التي أحاطت به وهو غارق في أوهامه. وقد إنهارت آخر آماله في تنفيذ خططه عندما وصلته رسالة الإمام المهدي التي حملت رفضه لسلطنة كردفان، وأنه في سبيله للزحف على الخرطوم. وجاء في الرسالة «وإلا فإن حزب الله واصل إليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فاستدعيت ملك عباده وأرضه مع إن الأرض لله يورثها عباده الصالحين.» وختمها بقوله «وبعد هذا البيان فإن إهتديت وسلمت واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك. وإلا هلكت فكان عليك إثمك وآثام جميع من اتبعك».

كان الإمام المهدي قد بدأ إتصالاته في وقت سابق بأعيان القبائل القاطنين حول الخرطوم بضرورة القيام لنصرة الدين. وقد ركز في رسائله للشيخ العبيد ود بدر وأبنائه بالوقوف في وجه حكومة الترك. كما كتب لزعماء الشكرية الذين انقسموا بين مؤيد للدعوة ومعارض. وقد تمكن النشطاء الذين هبوا مسرعين من عزل الخرطوم عن المنطقة الجنوبية بقطع أسلاك التلغراف ونزع أعمدتها نهائياً. واتضح الإنحياز الكامل لشيوخ القبائل في القرى الواقعة ما بين الخرطوم وسنار إلى الإمام المهدي. وبات الخطر يهدد الخرطوم بانقطاع المواد الغذائية عنها. كان المهدي حريصاً على نشوء بؤر ثورية في أنحاء متفرقة حول الخرطوم. وقد أثمرت رسائله باقتناع الشيخ مصطفى الأمين أم حقين بجزيرة إسلانج بالإنضمام إليه كما قام الشيخ أحمد أبو ضفيرة بجمع قبائل الجموعية والفتيحاب وعسكر في ديم أبو سعد، جنوب الخرطوم. أما من الجهة الشرقية فقد إستنفر الشيخ المضوي عبد الرحمن المحسي أتباعه فحشد حوله عشرة آلاف مجند وأوكل قيادتها لأحد أبناء الشيخ العبيد. وقاد الشكرية القدوراب أحمد ود

عمارة والمغاربة محمد عبد السلام والبطاحين طه عبد الباقي، والحسانية سليمان ود كاسر. واتسع نطاق التأهب للمقاومة وإمتد شمالاً فتمكن الأنصار من قطع الإتصال التلغرافي ببربر. وفي الوقت الذي وقعت فيه المنطقة الجنوبية في قبضة الأنصار كانت معسكراتهم قد إمتدت من شلال السبلوقة حتى مشارف الخرطوم. كما أخذت تلك المعسكرات في الإنتشار شمالاً وجنوباً من بربر منذ أواخر مارس 1884 فشمل نشاطهم كل المنطقة الواقعة ما بين شندي وبربر حتى قطعوا الإتصال التلغرافي بين المدينتين. وأضحت المنطقة شمال بربر تحت سيطرتهم تماماً. ولما حسم الشيخ محمد الخير أمره وهاجر إلى الإمام المهدي عاد منه يقود جيشاً قوامه أربعون ألفاً من الجعليين والرباطاب والبشاريين فسقطت بربر في قبضته وتلاشت آمال غردون في إجراء أي إتصالات تلغرافية مع مصر.

وقعت أولى معارك حصار الخرطوم قبل وصول الأمير أبوقرجة إلى الحلفاية في منتصف مارس 1884م بقيادة إبراهيم بن الشيخ العبيد وأخوه العباس والشيخ المضوي عبد الرحمن وألحقوا بعساكر الباشبوزق الشايقية هزيمة منكرة وأسروا منهم مائة وخمسين جندياً وغنموا أسلحة وذخيرة. وحاول غردون إستعادة الحلفاية بحملة قادها إبراهيم فوزي فانهزم وعاد مثخناً بجراحه. وحاول غردون مرة أخرى إستعادة الحلفاية الإستراتيجية الموقع بإرسال قوة كبيرة منيت بهزيمة أشد نكراً.

في الوقت الذي استمرت فيه المناوشات بين الفريقين وصل الفوج الأول من جيش الأمير أبوقرجة في مايو 1884م الذي اصطحب معه أربع فرق من جنود كردفان بأسلحتهم النارية بالإضافة إلى حملة الأسلحة التقليدية الذين تزايدت أعدادهم في شواطئ النيل الأبيض.

حين رأى غردون بنظارته المكبرة جحافل الثوار يقودها الأمير أبوقرجة تتقدم نحو الخرطوم إنتابه الغيظ والغضب. كان يتمنى رؤية جيش آخر قادم من الشمال، إلا أن

آماله خابت. فتجاهل رسالة أبوقرجة الداعية للتسليم.. والتي جاء فيها:

«إني حضرت من قبل المهدي أميراً على البرين والبحرين. وقد أخذت فداسي وجئت إلى الخرطوم أنصح أهلها بالتسليم. فإذا سلَموا سلموا وأمنوا على أموالهم وأرواحهم. وإلا فلا بد لي من محاربتهم وأخذ المدينة منهم عنوة والسلام».

ولكنه في وقت لاحق أفصح غردون عن هذا الغيظ في رسالة للأمير عبد الرحمن النجومي كشفت عن المزيد من جهله وعدم معرفته بطبيعة الثورة المهدية وعن السودان. ظن البلاد كما كانت عليه حينما عمل فيها خلال السبعينات. كانت كسيرة الخاطر مهانة ذليلة تحت حكم الأتراك الذي استمر حتى ذلك الوقت أكثر من خمسين عاماً. لم يدرك ما طرأ عليها بهذه الدعوة الجديدة. فقد إنتفضت وألقت ما ران عليها خلال العقود ونهضت تنتزع حقوقها وحريتها بالسيوف. قال في رسالته إنه لا يراسل العبيد وقطاع الطرق السكارى. فات على مستشاريه أن الرجال الذين يحاصرونه من معادن أخرى.. أمثال الشيخ العبيد ود بدر والشيخ المضوي عبد الرحمن والشيخ مصطفى ود الأمين ود أم حقين. وهاهو الأمير أبوقرجة – بإرثه الصوفي السماني – القادم لتوه من بيت الله الحرام لا يستطيع غردون أن يقدح في شخصه المعروف لدى القاصي والداني في معظم أنحاء السودان. غردون كان غير مؤهل ليسب قيادات الثورة المهدية، العبَاد، الزهَاد، رهبان الليل، فرسان النهار. ففي الوقت الذي كان يسب فيه الناس كان غارقاً في دنان البراندي تلاحقه سمعته كقائد لجيش من المرتزقة جندهم التجار الأوربيون لحماية مصالحهم في الصين. ولكن الزمان كان زمان العهد الفيكتوري وعصمة الرجل الأبيض وقداسته وهو ينشر المدنية في أنحاء الأرض! كان الدفاع عن الإمبراطورية البريطانية واجباً على الصحافة والرأي العام. رفعوا غردون إلى مصاف القديسين ولا أحد يستطيع أن يقول غير ذلك، حتى بعد مرور وقت طويل. وحينما لم يعد الصمت ممكناً أمام ذلك المزاج العام العارم أخذت بعض الحقائق تتكشف عن شخصية ذلك

البطل الفيكتوري المزيف. وذلك بعد أن ظل لأكثر من ثلاثين عاماً أشهر بطل قومي في بريطانيا. وقد قرأ يومياته التي كتبها في الخرطوم كل من يعرف الإنجليزية تقريباً.

لم يكن المشهد في لندن خالياً من الأصوات المعارضة لسياسة بريطانيا في السودان وقد طالب بعضهم قبل مقتل غردون بضرورة جلاء الحاميات المصرية من السودان، وترحيل الإداريين المدنيين. وحذروا من الوقوف في وجه المهدي الذي وصفوه ب «حاكم البلاد الإسلامي الشرعي»، وأعربوا عن توقعاتهم بوقوع الكارثة[1].

أما اليسار البريطاني وأنصار السلام الذين حاولوا منع غزو و إحتلال بريطانيا لمصر في عام 1882م إعتبروا غردون مجرد حصان في لعبة التدخل الإمبريالي في العالم. وعقب سقوط الخرطوم إبتهج الاشتراكيون البريطانيون «بعودة البلاد إلى أهلها الحقيقيين». وعبروا عن رؤيتهم السياسية بقولهم «إن طبقة الرأسمالية هي التي أشعلت الحرب في السودان. وذلك من أجل زيادة رقعة الإستغلال، وإن النصر الذي أحرزه السودانيون هو إنتصار للحق على الباطل حققه شعب يناضل من أجل حريته»[2].

أصدر ليتون استراخي كتابه «فيكتوريون متألقون» الذي استمد كل معلوماته عن غردون من تشالي لونج الذي رافق غردون في مهمته الأولى وكشف بصورة جلية عن النقائص في شخصيته. قال إنه كان كاذباً تعتريه حالات نفسية تصل إلى حد الجنون. واتصف بالسرقة والقسوة التي تصل إلى درجة الوحشية أحياناً. ذلك بالإضافة إلى صفات أخرى تتجاوز تلك الصفات من ميول استعراضية وأفكار صبيانية وتصرفات خرقاء وانتهازية وتحوير للحقائق لدرجة الكذب بلا مواربة أحياناً. وتعتبر مثالاً حياً على مقدرة العقل على تحريف الحقائق وخداع نفسه[3]. وكشف استراخي عن أن حكمدار الخرطوم أقام حفل إستقبال بمناسبة وصول غردون في زيارته الأولى إلى الإستوائية. وقال إنه عقب مأدبة العشاء أُقيم

1. السودان بعيون غربية، ترجمة بدر الدين حامد الهاشمي.
2. المصدر السابق.
3. كرري: عصمت زلفو ص53. طبعة مركز عبد الكريم ميرغني.

حفل راقص ماجن إختلط فيه الجنود براقصات شابات عاريات تماماً[1]. كما كتب آخرون لم يسايروا موجة تمجيده «كبطل مسيحي وقف وحيداً في وجه البرابرة القساة في قلب أفريقيا!!» فكشفوا عن شذوذه ومقارفاته غير السوية. وليت عالمنا الراحل البروفيسور التجاني الماحي لم يقدم رسائل «البطل الأسطوري!» هدية للملكة اليزابيث لدى زيارتها للسودان في عام 1965م. ففي بعض تلك الرسائل ما يفضح بجلاء سلوكه الأخلاقي.

لم تكن جموع الأنصار غائبة عما يجري ويدور من محاولات لإقناع غردون بالتسليم فجادت قرائحها بالأهازيج التي إرتجلتها على الفور. وقد ظل بعضها حياً إلى وقتنا هذا يتداوله السودانيون جيلاً بعد جيل. ظلت تردد والحماس يملؤها طيلة أيام الحصار وحتى بعد تحرير الخرطوم.

غــردون سلم مـا ترجى ... ودي حرابة الحاج أبقرجة

•••

أمــانـة في عينيك قلبك ... شـــن قـــايــــل لـيـك
ضـوق الويكاب والويكة ... وأمـــلأ أب رفـاس تمليكة

•••

غـــردون سـلـم مـا ترجى ... ودي حـرابة الحـاج أبقرجة

•••

أمــانـــة في بـنـي عمـك ... والمــــولى زايـــد همــك
وكـت الأنـصـــار اتلمت ... الجـلـــة في قـلـــب أمــك

•••

غـــردون سلـم مـا ترجى ... دي حـرابة الحـــاج أبقرجة

•••

أم الـغـــردون لا تنومي ... جـايـــيـك ود الـنـجـومـي
والمـهـدي الـسـايق القومي ... يـخـــلـو ديــــارك رومــــي

•••

غـــردون سلم مـا ترجى ... ودي حــرابة الحاج أبقرجــة

1. ومن المستبعد أن تكون هؤلاء الراقصات سودانيات. فإما أن يكن من الجالا الحبشيات. أو من الراقصات المصريات اللائي جرى استبعادهن إلى السودان.

بعد أن رفض غردون الرد على رسالة أبوقرجة أدرك الأخير أن الرجل سادر في غيه غارق في أوهامه. فأقام معسكره في منطقة الجريف إلا أن مستشاريه نصحوه بأن بري أكثر إستراتيجية فارتحل إليها. وكان أول من شيد الطوابي المضادة لحصون الخرطوم. ثم وضع عليها المدافع وأقام الأبراج فأصبحت مراكب غردون هدفاً لقذائف الأنصار يطلقونها عليها من وراء الحصون وهي في طريقها إلى سنار. باتت المعارك بين الجانبين محدودة ولكنها أكثر عنفاً. فالفريقان بإنتظار التعزيزات في سبيل المعركة الفاصلة. والواضح أن تعليمات المهدي لأبوقرجة هي تشديد الحصار حول المدينة والإنتظار خارج بواباتها حتى وصول جيوشه المتمركزة في الرهد.

ظلت معارك محدودة تدور بين الأنصار وعساكر غردون الذين يخرجون أحياناً من الطوابي أو يستقلون البواخر لمواجهة قوات أبوقرجة التي ركزت على تشديد الحصار والرقابة على المواد الغذائية وعدم دخولها إلى الخرطوم.

تمركزت قوات الأمير شيخ فضلو أحمد في الزاوية الجنوبية الغربية فشيد طابية يعاونه الشيخ عبد القادر إبراهيم. وأخذا يقذفان المدينة بالنيران فيصيبان فيها أهدافاً.

عندما تأكد لغردون أن أياماً عصيبة بإنتظاره بعد أن توحد الثوار المحاصرون للخرطوم تحت قيادة الأمير أبوقرجة ظل بإنتظار إرتفاع منسوب النيل الأزرق ليتمكن من إستخدام الوابورات في معاركه المقبلة لفك الحصار. وفي 27/يوليو 1884م جرد جيشاً بقيادة الأميرالاي محمد علي باشا[1] وجيشاً من الباشبوزق بقيادة خشم الموس بك لحصر أبوقرجة بين نيران القوتين ليتمكن من إخراجه من طابية بري التي تقدما إليها ودمراها ودمرا المنازل التي بجوارها. إلا أن الأنصار صمدوا لمدة ثلاثة أيام أبدوا فيها ضروباً من البسالة واحتقار الموت فإستشهد منهم ثمانمائة رجل وانسحبوا إلى الجريف.

1. قائد عسكري من أصل سوداني، شارك في حرب المكسيك.

لم تفت انتكاسة بري في عضد الأمير أبوقرجة فكتب إلى الإمام المهدي يطلب المدد واستنفر الناس فلبوا نداءه وهرعوا إليه زرافات ووحداناً من كل فج. فشرع في بناء الحصون والقلاع لمنع البواخر من المرور إلى سنار فانتاب غردون قلق عظيم وقرر تجديد الهجوم على قوات أبوقرجة[1].

أعد غردون قوة بحرية بقيادة محمد علي باشا وأخرى برية بقيادة خشم الموس بك. تقدما عبر بوابة المسلمية نحو الجريف مصممين على حرمان الأمير شيخ فضلو من نجدة أبوقرجة مثلما فعلا في معركة بري. ودارت المعركة يوم الثلاثاء 12/ أغسطس عام 1884م. وقال نعوم شقير[2] (ولا ننكر بأن أباقرجة وأنصاره هزموا في معركة الجريف غرب هزيمة نكراء على الرغم من إستماتتهم التي شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء. وأُجبر أبوقرجة إلى التراجع إلى قرية ود شكر الله. وبدأت فلول الأنصار المنهزمين تتجمع في تلك القرية. ثم أخطر المهدي بما حدث لهم في تلك الواقعة).

وقال الدكتور علي عمر علي «أن المصادر أجمعت على أن أباقرجة عندما تراجع بقواته إلى النيل الأبيض كتب رسالة إلى الإمام المهدي يخبره بما حدث غير أني لم أعثر على هذه الوثيقة بين وثائق الأمير أبوقرجة فضلاً عن دفاتر الصادر. ربما تعرض هذا الخطاب للضياع لأن المهدي كان في حالة حركة وإنتقال من الأبيض إلى الخرطوم. وتتجلى مكانة الأمير أبوقرجة عند المهدي حينما يرد عليه يطيب خاطره ويواسيه في الهزائم التي مني بها في حصار الخرطوم «لا تبتئس بما حصل فإن الله تعالى أراد أن يميز الخبيث من الطيب[3]».

كان وقع الهزيمة قاسياً على الأنصار، خاصة وقد أبلوا بلاء شديداً وفقدوا أعز الرجال وأشجع الفرسان. ولكن كلمات الإمام المهدي التي بعث بها إلى الأمير أبوقرجة

1. حصار وسقوط الخرطوم: ميمونة ميرغني حمزة.
2. جغرافية وتاريخ السودان.
3. ميمونة ميرغني حمزة، ص169.

في رسالته حملت كثيراً من المواساة وجبر الخاطر.

في أثناء تلك المعركة الشرسة بلغ أبوقرجة أن دانة أصابت بيته في المعسكر وانطلق إلى هناك يمتطي جواداً ويقود آخر فتصايح الأنصار بأن هناك دانة تتجه صوبه فانقلب إلى ظهر الجواد الآخر فسقطت الدانة على جواده الأول فقتلته. وهكذا ظن الناس أنه قد قتل وسرت شائعة إستشهاده فأضعفت معنويات الرجال. وفي الواقع كان قد أصيب إصابة خفيفة في فخذه. وعندما وصل إلى بيته – المبني من القش بالطبع – وجده حطاماً تلتهمه النيران. وقد قضت جارية له حبشية كانت حبلى بتوأمين خرجا من أحشائها حيين يتحركان.. ولكنهما توفيا في الحال.ونجت زوجته الحرم بنت حمزة التي كانت حبلى هي الأخرى، وعاشت حتى روت تفاصيل ذلك اليوم المشهود. كما عاشت إبنتهما آمنة التي كانت جنيناً لتصبح زوجة لوالدنا[1].

قدم الشيخ محمد عبد الرحيم وصفاً للقوة التي أعدها غردون لدحر الأنصار وفك الحصار في الجريف. وقال إنها كانت تتألف من خمسة آلاف جندي بين نظاميين وباشبوزق بقيادة الأمير ألاي محمد علي بك حسين الشلالي، قائد اللواء السوداني الأول، يصحبه السر سواري خشم الموس بك الشايقي. تقدمت هذه القوة فجراً على خمس بواخر مدرعة بصفائح فولاذية، في كل منها بضعة مدافع. فهاجمت الأنصار بعد فراغهم من أداء الصلاة بإطلاق المدافع وأنزلت الجنود على الشاطئ ما عدا الطوبجية الذين يعززون هجوم المشاة بتسديد مقذوفاتهم من داخل البواخر وقد قابلهم الأنصار بثبات عجيب. واحتدمت الحرب وحمي الوطيس. وما زالوا يتبادلون الكر والفر حتى أرخى الليل سدوله وتراجعت الجيوش إلى مواقعها. ولم يسفر ذلك اليوم عن نتيجة تذكر بل بات كل فريق منهما يراقب تحركات عدوه بعين الحذر. وما كادت الشمس تبرز حاجبها حتى بادر محمد علي بك بالهجوم على الأنصار

1. المؤلف.

الذين تصدعت طوابيهم بضرب المدافع المتوالي وسكتت مدافعهم وفتك بهم العدو واستشهد صفوة الرجال ومن بينهم نصر ومصطفى أخوا الأمير أبوقرجة وأصيب فرسه حتى سقط على الأرض فشاع في وسط الأنصار أن قائدهم قد قتل[1]. فتراجعوا مخلفين نحو ألفين وخمسمائة بين قتيل وجريح. وأشار محمد عبد الرحيم إلى سقوط الحاجة ست البنات أم سيف شهيدة ولا تزال تمسك سيفها بيدها.

وقد غنم محمد علي باشا مقادير وافرة من الذرة بلغت ستمائة أردب وألف بندقية و12 صندوقاً من الذخيرة وعدداً كبيراً من السيوف. (وتلك بالطبع كانت أسلحة الشهداء الذين تساقطوا على أرض المعركة). أثلج ذلك الإنتصار صدر الجنرال المحاصر وانفتحت شهيته للمزيد. فبعد أربعة أيام بعث بقائد جيشه محمد علي بك لمهاجمة قوة الأنصار بالحلفايا التي كانت تتألف من أشياع الشيخ العبيد ود بدر بقيادة ابنه إبراهيم والشيخ المضوي عبد الرحمن فهزمها محمد علي بك. فتضاعفت بهجة الجنرال ومنحه رتبة اللواء.

قدم يوسف ميخائيل القبطي[2] وصفاً شاعرياً لجماهير االشعب الزاحفة، التي صحبت الإمام المهدي من الرهد متوجهة إلى الخرطوم. هاجرت إليه من كل بقاع السودان بلا إستثناء. وقال إنها أقوام لا تحصى ولا تعد. فكانت الجموع البشرية تتحرك بصعوبة بالغة لكثرتها. ولا يعرف لها أول ولا آخر. وكأنها قرعة تتأرجح على سطح الماء. رجالاً ونساءً.. منهم من يمشون راجلين وبعضهم يركبون الخيل والإبل، وآخرون يركبون الثيران والحمير. كانت تظاهرة مسلحة لم يشهد مثيلها التاريخ. وقال إن الحيوانات الوحشية كانت لا تجد لها مهرباً. فأينما تفر تجد أمامها الناس. فالغزلان ودجاج الوادي تلوذ بالأرجل وسرعان ما يتخطفها الرجال ذبحاً وتقطيعاً للأوصال. وقال إنه في كل مكان يتوقف فيه الناس عن المسير تقام الأسواق ويشرعون في البيع

1. كانت كثيرا ما تموت الخيل تحته لجسامته وسرعة تحركه أثناء القتال . ويقف السائس خارج الميدان يمسك بأعنة الخيل البديلة
2. أوراق يوسف ميخائيل.

والشراء. وكان لا مناص من أن تفترق تلك الجموع فتسلك طرقاً ثلاثة.

كان يوسف القبطي يحمل قربة للماء ليسقي مجموعته حين رأى الإمام المهدي يمتطي هجيناً وتحف به كوكبة من الأنصار يتناوبون حمل رجليه على الأكتاف حتى لا تتورم قدماه[1]. ووصف الحماس الطاغي الذي بلغ بالأنصار حين وصلوا إلى النيل واختطف التمساح واحداً منهم فاستبشروا وأخذوا يتصايحون في «شان الله.. في شان الله». وأخذوا في كل يوم يتعرضون عمداً للتماسيح المتربصة طلباً للشهادة فيجدون ما يبتغون، حتى علم الإمام المهدي بذلك فأصدر أمراً بمنع تلك البدعة القاتلة.

ظل الإمام المهدي ثابتاً على منهجه. لم تبطره الجموع الزاحفة ولا الفرسان المدججين بالسلاح المستعدين للقاء الموت في كل لحظة كما لم يبطره الحماس الذي يفوق الوصف والإجماع الشعبي غير المسبوق. فأخذ يراسل غردون مجدداً وبإلحاح يدعوه للسلام. لم يكتف بتلك الخطابات التي بعث بها إليه هو وقيادات الحصار. كان يطلب منه التسليم لحقن دماء الناس وتجنب ويلات الحرب. وعرض عليه أن يعيده إلى وطنه سالماً إذا رغب في ذلك. ولكن غردون أصم بأذنيه. فقد كان قدره نافذاً. وفي الوقت نفسه بعث الإمام المهدي إلى قواته التي تحاصر الخرطوم ودعاهم إلى تشديد قبضتهم وأبلغهم أن وصوله إليهم بات وشيكاً. واتضح جلياً أن قوات المهدي أدركت تماماً أن لا محيد عن الحرب.

كان عدد المحاربين الذين وصلوا في ركاب المهدي حوالي مائتي ألف مقاتل فضلاً عن زعماء القبائل الذي هرعوا إليه قبل مغادرتة الرهد وإنضموا إليه مع عائلاتهم.

وصل ود النجومي إلى ضواحي الخرطوم واستنفر الناس لمساندة قوات الثورة وعسكر قبالة طابية الكلاكلة. وأقام الشيخ عبد القادر إبراهيم معسكره قبالة طابية

1. لعل ذلك كان الامتياز الوحيد الذي حظي به المهدي وسط انصاره.

المسلمية، بينما تمركزت قوات الأميرين عبد الله ود النور وعبد الحليم مساعد في منطقة بري للسيطرة على حركة الملاحة في النيل الأزرق ومنع تحركات بواخر غردون. وبعد إستشهاد الأمير عبد الله ود النور وجه الإمام المهدي بإنتقال النجومي إلى معسكر بري وحل أبوقرجة مكانه قبالة طابية الكلاكلة.

وفي نداء الفرصة الأخيرة كتب الإمام المهدي لأهالي الخرطوم رسالة يحذرهم فيها ويدعوهم للنجاة بأرواحهم[1] «الم يأن لكم أن تميل قلوبكم إلى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير. أو ترغبون النجدة والفرج عند الانكليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذي بيده أموركم وقوامكم وهو القوي العزيز. فما الانكليز وغيرهم أضعافاً مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب. وما القوة إلا من عند الله القريب المجيب».

أحكمت قوات الأنصار الحصار على الخرطوم وطوقتها من جميع الجهات. واستمر تبادل النيران بين الطرفين حتى سقطت حامية أمدرمان والتي بسقوطها بات موقف الخرطوم ضعيفاً حتى نضج القرار وصدر باقتحامها وتحريرها. وفي صبيحة الإثنين 9ربيع ثاني 1302هـ (26 يناير 1885م) فوجئت قوات غردون بجحافل الأنصار تدك استحكاماتها وتلج مداخل العاصمة وتنتشر في شوارعها بين مهلل ومكبر. وانفتحت صفحة أول دولة وطنية في تاريخ السودان أقامتها الثورة الشعبية بحد السيف وبقيادة ملهمة ما زلنا لا ندرك لها كنهاً ولا نسبر لها غوراً.

1. من المهدي إلى كافة أهالي الخرطوم، انذارات ب ص 225-6.

نصر ومصطفى
عثمان العربي
الشهيدان في معركة الجريف

قال تعالى: (ولا تحسبن الذين قتلوا

في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)

صدق الله العظيم

نصـــر ومصطفى عثمـــان
الشهيدان في معركة الجريف

شدوا لـــه الكالفِنــُـه

وكم دريس خيالـــن[1]

بجـــكن منــــــه

وده القـــرح يا ناس

الصـــغيـر في ســنه

بنت مسيمس

حين احتدم الوغى واستعرت المعارك وبات الأنصار هدفاً لمدافع غردون، قاتلوا غير مبالين. كانوا ينقضون كالنسور الجارحة على مواقع العدو. إلا أن دانات المدافع كانت تحصدهم حصداً. كان أبوقرجة يصول بجواده من أول ساحات القتال وإلى آخرها ثم يعود لبث الحماسة في الأنصار شاهراً سيفه صائحاً زاعقاً. وكان إخوته يخوضون غمارها. فقد كانت معركة الجريف التي بدأت في الثاني عشر من أغسطس 1884م يوم عرسهم الدامي. كان نصر كعادته لا يرى ثلة من جنود العدو إلاَ هاجمها ولا استحكاماً إلا اقتحمه. وفي لحظة حاسمة كان إلى جواره شقيقه مصطفى وابن خالته شايب ود أحمد. تقدم مصطفى واقترب من مدفعية العدو وهو يطلق الرصاص

1. دريس خيالن: مجموعة من الخيل. يجكن: يهربن.

عليها فصبوا عليه وابلاً من النيران فسقط من على ظهر جواده صريعاً. إنتبه نصر لما حدث لشقيقه فوكز حصانه إلى مكان سقوطه. فترجل ورفع جثته على ظهر الجواد وأسرع بها إلى خارج ميدان المعركة. عاد بعد قليل مسرعاً وطلب من ابن خالته شايب أن يشغل الطبجية بمراوحته في المكان.. وإطلاق النار ليجذب إنتباههم بعيداً حتى يتمكن من الصعود إليهم في استحكامهم ليأتيهم من الخلف فيجز رؤوسهم بسيفه. طلب منه شايب بإلحاح أن يقوم هو بذلك الدور فما أمهله. كان يصيح به مستعجلاً (شيل الشوف.. شيل الشوف). ووكز فرسه وأسرع مقتحماً المكان وأعمل سيفه في الرقاب حتى رماه الجند الرابضون بالرصاص فسقط شهيداً. إستشهد عدد من الفرسان المعدودين. تكبد الأنصار خسائر فادحة. ومن القطينة وحدها إستشهد سبعون رجلاً. سرت شائعة بأن الأمير أبوقرجة قد قتل. أحس الأنصار بتفوق العدو أخذوا يتراجعون يحملون جثث قتلاهم وجرحاهم وإستطاعوا بالفعل استنقاذ جثة كاشات[1] من بين القتلى.

كتب الكردفاني[2] عن مشهد إستشهاد نصر فقال (ولما رأى الأصحاب من أهل الجرأة والإقدام ما يفعله الترك من شدة الضرب بالأسلحة النارية تنادوا للنزال وتشوقوا للقاء الكبير المتعال. فانتدب جماعة من الفرسان منهم نصر بن عثمان أخو حاج محمد عثمان المذكور وحاج محمد ود الزبير وغيرهم. فحملوا على القلعة فدخلوها وقتلوا من الترك مقتلةً عظيمة. واستشهد نصر وحاج محمد ود الزبير وغيرهما من

1. لقب الناس نصر بن عثمان بكاشات لجرأته وجسارته في مواجهة العدو. فكان هو المنتصر دوماً، فيدفع الأعداء أمامه ويجبرهم على الفرار. كما لقبوه بكمال الجردات في إشارة واضحة لجردة هكس. وجاء في قصيدة بت مسيمس الواردة في صدر المقال «كم كسر قلعات».. والقلعة هي حملة هكس أو المربع الانجليزي. وتشير إلى الدور الذي لعبه في ملاحقة الحملة تحت قيادة أخيه الأمير أبوقرجة والتي حصروها حصراً وضعضعوا قوتها بأسلوب حرب العصابات حتى باتت لقمة سائغة في يد قوات المهدية الرئيسية. أما المفردات العصية في تلك الأبيات التي هي جزء من قصيدة فهي: كر زام: زأر – الدابي: الأسد – الكيك: الفارس – الطابي: الطابية – القرح: (القارح): الحصان في إبان قوته – المنفل: صاحب السجايا والصفات المحمودة – الكالفنه: المعلوف جيداً

2. سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي.

الأبطال. وضرب فرس حاج محمد عثمان أبي قرجة بالرصاص حتى هلك)

حمل الأنصار جثمان الشهيد نصر كاشات على سواعدهم ومضوا به إلى معسكر الجريف حيث أقاموا طقساً جنائزياً واستعراضاً عسكرياً غير مسبوق في التاريخ ودعوا به الشهيد. فقد جلس الآلاف منهم القرفصاء صفوفاً صفوفاً ولوحوا بسيوفهم عارية من أغمادها، ذات اليمين وذات اليسار. ومشوا مشياً وئيداً وهم جلوس. شأن الصقور حين تمشي على الأرض. زأروا زئير الأسود يحمحمون بالتهليل.. يخرج من صدورهم كرزيم الرعد. كرجوا أسنانهم غيظاً متحرقين للأخذ بالثأر من العدو في جولة جديدة من الصراع. كانت دموعهم الغالية تتساقط على الأرض حتى أودعوه قبره بالجريف.

ما كان الأنصار يأبهون للموت. فالشهادة كانت مبتغاهم. إلا أن غياب كاشات كان فادحاً. فقد كان فارسهم المقدام وملهمهم الفذ وأخاهم بكرمه الفياض وأريحيته وروحه الجريئة الوثابة. إفتقدوه لأنه كان بينهم وأمامهم في كل المعارك. ما تخلف قط حتى لقي وجه ربه.

روت ذلك المشهد جدتنا الحرم بنت حمزة زوجة الأمير أبوقرجة التي كانت تقيم في معسكر الجريف. وفي ذات اليوم كانت قد سقطت دانة على عشتها ودمرتها وقتلت جارية حبشية للأمير أبوقرجة كانت حبلى في شهرها الأخير.

جزع الأنصار في جميع مناطق السودان لمقتل كاشات وأبدوا كثيراً من الأسف. وقيل إن هذا النبأ حين بلغ الإمام المهدي حزن حزناً عميقاً وقال إنه ليس له عزاء في فقده وإنه لو قدر لجميع أعداء المهدية أن يقتلوا لما وجد ثأراً لنصر في قتلهم (وكان يشير إلى جماعة بعينها).

كان جرحى الأنصار في تلك المعركة بالآلاف. حملوهم بعيداً وشيدوا لهم رواكيب لتضميد جراحهم. أقاموا فيها ولا حديث لهم سوى إستشهاد نصر كاشات. فقد كان



المكان الذي دفن فيه الشهيد نصر عثمان (كاشات) والذي أصبح مقبرة لأهالي الجريف غرب

الجريح الدائم في تلك المستشفيات الميدانية. وكان الجرحى يسعدون بوجوده بينهم. فقد كان ساخراً ضاحكاً حاضر النكتة عذب الحديث. وجاء في إحدى الروايات أنه كان جريحاً في إحدى المرات، فأحضروه لتضميد جراحه. فأخذ يمازح الجرحى ويحكي عن تجاربه أثناء المعركة. كان من بين الجرحى رجل أصابه طلق ناري في صدره إلاَ أنه لم يخترقه واستقر في القفص الصدري. ولم يستطع البصير إخراجه. وعندما ضحك الجميع لما كان يرويه كاشات قهقه الرجل المصاب فاندفعت الرصاصة من بين ضلوعه دون تدخل من أحد.

نظمت الحاجة بت مسيمس شاعرة الوطنية الأولى شعراً مدحت فيه ورثت كثيراً من أبطال السودان وأعيانه. كان كله شعراً مجيداً إلا أن أبلغ ما قالته من شعر هو وصفها للإستشهاد الأسطوري لنصر كاشات في معركة الجريف أثناء حصار الخرطوم. قالت:

كـــــر زام الـــدابـــي
وكـــم كـســـــر قـلـعــات
ولـلـبريــــــــد والمـــابــي
شـــال وخـــــت الكـــــيك
وهـــــز فـــــوق الطـابـــي
وده الــقـــرح يـــا نـــاس
المـــنــفـــــــل ونـــابـــه

•••

شــــــدو لـــــه الـكــالـــفـنـــه
وكـــــم دريــــــــس خـيــالـــن
بـــجـــكــــــن مـــــــــنــه
وده القـــــرح يـا نـــــاس
الـصـــغـــــــير في سـنـــه

وجاءت بت مسيمس إلى الأمير أبوقرجة تعزيه في فقده لأخيه بمرثية مترعة بالحزن واللوعة وقالت:

حـــاج أمحـــمـــد أخـــــوي
يـــا جــــرنا ويــا جـــرك الله
في عـــريـــس الخـــيـــل
أمــــــات ســـبـــيـــبـــاً جـــره
دخـــل العوق الـبـاروده يجلـي
وقدم التهليل وروحه في شأن الله

روي الناس الكثير عن إقدام نصر وجسارته. وقيل إنه أول من أطلق رصاصة في المهدية. وذلك حين وصلت الباخرة التي كانت تقل أبو السعود والحملة العسكرية إلى أم غنيم متوجهة إلى الجزيرة أبا. لم تكن الثورة المهدية قد إندلعت بعد ولكن المهدي كان قد بايع أولاد عثمان العربي في وقت سابق. لم تكن هناك أنباء قد تسربت عن مهمة أبو السعود العسكرية. ولكن كاشات حين رأى الباخرة توجس شراً وأحس بأن الحكومة قررت مهاجمة الإمام المهدي. فاقترب من شاطئ النيل وأطلق رصاصات تجاهها. ولكنها تجاهلت الأمر ومضت في طريقها إلى الجزيرة أبا.

وقعت المعركة في تلك الليلة وفي صباح اليوم التالي كان الإمام المهدي قد قرر عبور النيل والتوجه غرباً. هاجر أولاد عثمان إلى قدير ولحقوا بالإمام المهدي. وتأخر بعض الناس بأم غنيم. وقد عاد إليهم كاشات يستعجلهم للهجرة. ولما كانت أسباب تأخرهم محاولة ترتيب أحوالهم وحصد محاصيلهم الزراعية. شرع كاشات في إحراقها ليصرفهم عن طلب الدنيا والإقبال على الأمر العظيم الذي ينتظرهم.

لم تفصح رسالة الإمام المهدي التحذيرية إلى عساكر أبوكلام عن أسباب تعرضه للمهاجرين من أم غنيم. ولكن من الواضح أن عساكر كان يترصد عبور أبوقرجة العائد لتوه من الحجاز. وتؤكد المواجهة التي جرت بين نصر كاشات وعساكر أبوكلام

والتي كان يتحدث عنها آباؤنا عن الدور الذي لعبه زعيم الجمع في محاولات تصديه للمهاجرين الأنصار القادمين من أم غنيم. كان كاشات قد التقى بعساكر أثناء متابعتهم لحملة هكس وكاد أن يقع بينهما صدام مسلح.

وقد جاء في رسالة الإمام المهدي لزعيم الجمع (وأيضاً يا محبنا الشيخ عساكر نوصيك أن جماعة أم غنيم فهو الحاج محمد عثمان أبوقرجة وجماعته جميع أهل الحلة، فهم بشرف علمكم أنهم تلامذتنا من قديم وأنهم من أول المبايعين، والآن أكثرهم معنا بالهجرة والباقين بالحلة بلغنا أنهم متوجهين إلينا. وقد بلغنا من الواردين أن أهاليكم العربان قد ضيقوا عليهم بمحلاتهم فإن كنت على عهدنا فنبه على جميع العربان ألاَ يتعرضوا عليهم بالحلة ولا بالطريق، فمن تعرض عليهم فقد باء بغضب الله ورسوله وغضبنا ولا بد من مجازاته بالجزاء اللائق. وفي هذا القدر كفاية لأهل الهداية[1]

ويظل الغموض يحيط بموقف الشيخ عساكر الذي كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى حتى ينجلي موقف الصراع بين الإمام المهدي وسلطة الأتراك. وفي آخر أمره وهو يشارك في مطاردة حملة هكس كان لا يزال متردداً. وقد حاول الأمير أبو قرجة أن يحسم تردده ويدفعه دفعاً لإتخاذ الموقف إلى جانب الثوار. فكلفه هو وأخاه عرقوب بمرافقة أسير أوروبي إلى معسكر المهدي قبل القضاء على الحملة.

قليل من المؤرخين أشاروا إلى حادثة المسلمية التي قتل فيها كاشات عالم الشرع الشيخ محمد ود القبة، إلاَ أن إبراهيم فوزي باشا أوردها مفصلة في كتابه "السودان بين يدي غردون وكتشنر" بأسلوبه الذي لا يخلو من المكر وقال:

(لما وصل أبوقرجة إلى الحلاوين وزع عماله على الجهات وعزل عمال ود البصير فاشتد الخصام بينهما وخيف وقوع الشر بينهما فكتب المهدي إلى ابن البصير يأمره

1. 8 شعبان 1299 الموافق 25 يونيو 1882م "الآثار الكاملة للإمام المهدي" المجلد الأول ص131.

بطاعة أبي قرجة فلم يستطع غير تقديم طاعته. وانتدب أبوقرجة أخاه نصراً عاملاً على المسلمية وعهد إليه مصادرة أموال كثيرة من الذين يبطنون ولاء الحكومة فتحصل على شيء كثير من هذه الأموال).

(وقبض نصر على الشيخ محمد بن القبة وكان عالماً نحريراً لانه قام خطيباً في أهالي المسلمية وسرد عليهم الأدلة الشرعية التي تظهر بطلان كل ما انتحله المهدي من الدعاوي الكاذبة!!).

(ولما أوقف الشيخ بين يدي نصر سأله عما نسب إليه فأعاده أمامه وقال إنني لا أرهب الموت في الله فأمر به فسيق إلى السوق وضربت عنقه. ويُروى عن بعض الحاضرين أن أباقرجة كان يكره قتله لأنه كان يعتقد فيه الصلاح) إنتهت رواية إبراهيم فوزي.

أما مصادرنا العائلية[1] فقد ذكرت أن مهمة نصر كاشات في الجزيرة كانت تركز على بث الدعوة المهدية وتحريض الرجال على الخروج لمناصرتها. ولما كانت الجزيرة لم يتم تحريرها بعد فقد كان نصر كاشات يتحرك متنكراً في زي تاجر للدمور. ولكنه كان يمتطي فرساً ويخفي سيفاً. ولما دخل إلى بلدة المسلمية التقى به الناس وأبلغوه بما كان يقوم به ود القبة من محاولات لتكذيب الدعوة المهدية والحط من شأنها إلى الدرجة التي تفوه فيها بكلمات إعتبرها كاشات خروجاً عن الدين وذلك حين قال: «إذا كان محمد أحمد هو المهدي فحماري هذا هو المهدي». وكان يخطب في المسجد ويؤلب الناس. مضى إليه نصر كاشات وصحب معه نفراً من تجار السوق. فوجده جالساً مكباً على كتابه. إستجوبه عما نسب إليه من قول فأقرَ أمام الشهود. استل كاشات سيفه وأطاح برأسه. سرعان ما انتشر النبأ وعمت الشائعات أنحاء البلاد. وأخذ الناس يتحدثون عن صلاح ود القبة وكيف طار كتابه إلى السماء وتفرق ورقة

1. رواية مصطفى حسن الحسن.

ورقة وكتب دمه في الأرض كلمة «لا إله إلاَ الله».

وصلت الأخبار إلى معسكر المهدي في كردفان فجزع إخوة كاشات على ما يمكن أن يصيبه بقتل ذلك الشيخ. فتوجه أخوه الحسن إلى المهدي يطلعه على ما فعله كاشات فطمأنه الإمام بقوله إن نصراً سيكون في يمينه يوم الحساب فهدأ باله.

بات نصر كاشات رمزاً للثورة وبطولاتها وإنتصاراتها، وملهماً للشباب والرجال من الأنصار، يهرعون زرافات ووحدانا ينخرطون في الجهاد. وكانت النساء معجبات بصولاته وجولاته يتمنين أن ينجبن مثله. وظلت الأمهات حتى وقت قريب في زماننا إن لم يكن حتى الآن يهدهدن أطفالهن في المهود ويترنمن:

دقـــــــر يـــا دقــــــــر

ود عــتــمـــــان نـصــر

الجــنــيــــــات رخـــــم

وهــو وحـــده الصقــر

لم تتوقف تلك الحياة الأسطورية بإستشهاده في معركة حصار الخرطوم. بل تعدتها حتى تجسد فارساً يغيث الملهوفين ويدرك المظلومين الخائفين في الفيافي والقفار وفي غياهب الظلام. وفي واقعة موغلة في الغرابة والإعجاز رآه حاج سوداني في الطريق ما بين مكة والمدينة. كان ذلك في حوالي عام 1931م، أي بعد حوالي ستة وأربعين عاماً من إستشهاده. فقد حدث أن الحاج في ذات ليلة تأخر قليلاً عن القافلة ليقضي حاجة له. فلم يلبث أن أصبح هدفاً للصوص البدو الراكبين الخيل والمتربصين بالفرصة السانحة. برزوا إليه من الظلام. استوقفوه وطلبوا أن يسلمهم ماله. جزع الرجل وارتبك ولم يدر كيف أن الله قد ألهمه أن يدعو «آل بدر وحنين». وما إن نطق بتلك الإستغاثة حتى ظهر فارس ملثم شاهراً سيفاً فتفرق قطاع الطرق كأنما انشقت الأرض فابتلعتهم. فأخذ الفارس يقوده إلى مكان القافلة. فسأله حين هدأ

روعه ورأى سمرة سودانية وفصوداً مائلة على الخدين، «أسألك بالله من أنت؟» هل أنت من الإنس أم من الجن؟ فأجابه الفارس بوضوح وإبانة أنا نصر بن عثمان العربي الملقب بكاشات من أهل السودان أنصار الإمام المهدي (عليه السلام) إستشهدت في معارك المهدية وشاءت إرادة الله أن يضمنا إلى شهداء بدر وحنين. أوصله إلى القافلة واختفى. روى الرجل لرفاقه ما حدث له وحدثهم عن الرجل الذي إستنقذه من براثن اللصوص وما قاله له. لم يجد أحداً يعرف شيئاً عن نصر ود عثمان. عاد من حجه وأخذ يتقصى ويسأل حتى علم أن نصر ود عثمان هو أخو الأمير أبوقرجة الذي إستشهد في معركة الجريف أثناء حصار الخرطوم. وأرشده بعضهم إلى مكان قبره في الجريف. فأقام الرجل سياجاً من الحديد حول القبر، فأصبح ضريحاً وإستمر الناس في زيارته والتبرك به وحتى الآن يعرفونه بالفكي نصر[1].

قال تعالى في محكم تنزيله «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون» صدق الله العظيم. وقد ذكر الإمام المهدي (عليه السلام) في رسالة إلى الشهيد الحسن عثمان أخي الشهيد نصر كاشات يطلب منه التوجه لفتح دنقلا. **(وجدير بالعاقل الذي أسعفه الله تعالى بحضور زمننا هذا المندرج بزمن النبي صلى الله عليه وسلم ووفقه على إتباعنا وصار من أنصارنا ومن أعيان أصحابنا أن يكون كذلك ليدرك هذا المدح الوارد من الله تعالى والبشارة الواردة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أصحابي كأصحابه...الخ وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم ما يقتضي مزية أصحابي حيث قال لأصحابه رضوان الله عليهم: أتدرون من أحبابي؟ قالوا: نحن أحبابك يا رسول الله قال: أنتم أصحابي، وأحبابي قوم يأتون بعدكم يؤمنون بي ولم يروني، للواحد منهم أجر سبعين منكم. قالوا: بل منهم، قال بل منكم. أو كما قال. فمن علم هذا الفضل ينبغي له أن يبذل وسعه في طلبه ولا يألوا**

1. روى هذه القصة منور نصر وهو من أقاربنا الذين أقاموا في أبي زبد. وهو الذي دل التاجر على عائلة نصر كاشات.

جهداً في امتثال ما نأمره به، لأن أمرنا هو أمر الله ورسوله).

من رسالة من الإمام المهدي عليه السلام إلى الأميرين الحسن عثمان وميرغني سوار الذهب في غاية جماد آخر / 11 رجب 1302هـ الموافق 27/16 أبريل 1885م[1].

إستشهد نصر كاشات وهو في شرخ الشباب. ربما لم يكن قد تجاوز الثلاثين. وخلف ولداً وبنتاً من زوجتين مختلفتين. وترد سيرة ابنه محمد في مكان آخر من الكتاب. أما ابنته فاطمة فقد تزوجها ابن عمها الأمير كنتباي أبوقرجة بعد زواج سابق لم يستمر طويلاً.

كما استشهد معه شقيقه مصطفى وهو الأصغر سناً منه. لقبه الأنصار ب «الفارس» لشجاعته وجرأته وتصميمه. ولم تتوفر لديَ معلومات كثيرة عنه. إلا أن أخاه جدنا حسين ود عثمان سمى عليه ابنه الوحيد الذي توفي في الجنوب في العقد الثاني من القرن العشرين. وسمى عليه والدنا شقيقنا الراحل مصطفى. كما فعل أيضاً عمنا إسماعيل أبوقرجة. بالطبع كانت هناك معلومات كثيرة عنه ضاعت بالغياب الأبدي لأسلافنا. خلف طفلتين، آمنة ونفيسة. وقد رأينا في طفولتنا – في الخمسينات – آمنة وهي شيخة عجوز كانوا ينادونها ببنت الفارس. جاءت من القطينة وزارت الوالد في كوستي، ثم توجهت إلى أم غنيم. كانت شخصية مدهشة تعيش بعقلية القرن التاسع عشر. لم ترزق بالولد. فكان يقوم برعايتها ابن أحد موالي والدها.. فتحمل جموح شيخوختها وخرفها فجزاه الله خيراً كثيراً. أما نفيسة فلم أجد عنها معلومات وافية إلا أن زوجها كان من آل طالب الله بالقطينه. توفيت ولم تخلف ذرية أيضاً.. عليهما الرحمة.

1. «الآثار الكاملة للإمام المهدي» المجلد الرابع ص443.

تحرير الخرطوم

تحرير الخرطوم

أدونـا البكسمـــات يا بنيـة نتـغـدى

والرصـاص عوى وفوق العريب قجه

يا رب كريـــــم تخــذل أب قرجة[1]

حتى يوم الأحد 25/ يناير كانت الجارية المغنية فدلم بنت سليمان لا تكف عن ترديد هذه الأغنية المتفائلة. كانت تقلها سفينة تغص بالجواري حاملات الدفوف. تجوب عرض النيل الأزرق قبالة الخرطوم لرفع معنويات الجنود والسكان.

وفي الوقت نفسه كان المجاهدون الأنصار المحاصرون للخرطوم ومن خلفهم نساء متحزمات يحملن العصي الغليظة يحمين ظهور الرجال ويرددون جميعهم

غردون سلـــم ما ترجـــــــى

ودي حرابة الحاج أب قرجــة

أما في ضحى اليوم التالي فقد أصبح الوضع مختلفاً حيث سقطت العاصمة في يد الثوار نهائياً وانتشروا في شوارعها مهللين مكبرين. كانت لا تزال أصوات الرصاص تئز ويتجاوب صداها وصيحات النصر تتردد وأهازيج الفرح يرددها الجنود المزهوون بنصرهم. وكان اسم أبوقرجة في ألسنة هؤلاء المتدفقين من بوابة بري. كان بعضهم قد إنشغل فعلاً بالبحث عن الغنائم والبعض الآخر بدا وكأنه مكلف بمهمات محددة من بينها أسر شخصيات مسؤولة في الدولة التي هوت. وكان قد تأكد مقتل غردون عندما رفعت مجموعة رأسه على سنان رمح طويل ليتوقف جنوده عن المقاومة. بينما

1. كانت عبارتها على وجه الدقة تقول "يا رب يا كريم تجيب لينا رأس أب قرجة.

كانت جثته أمام القصر ملقاة عبارة عن كتلة من اللحم والدم بعد أن مزقتها رماح الثوار.

في تلك اللحظات التي تعقب فتوح البلدان والدماء لا تزال تقطر من السيوف وغبار المعارك يحجب ضوء الشمس حيث يختلط الحابل بالنابل وترتخي قبضة القيادة وتعجز عن السيطرة على الجنود المندفعين في مدينة مستباحة إقتيد إبراهيم فوزي باشا محافظ الخرطوم ورئيس أركان حرب الحكمدارية والرجل الثاني في السلطة التي انهارت جريحاً مصفداً بالقيود ممزق الثياب يائساً من الحياة يدفعه جنود أشداء أبطرهم النصر والظفر بعدوهم بعد طول حصار.

كان الأمير أبوقرجة القائد الفاتح في كامل عدته وزيه العسكري.. واقفاً بقامته الفارعة وسمته المهيب ولما يزل في عنفوان الرجولة حيث لم يكن قد تجاوز الخامسة والأربعين من عمره إلا بقليل.. كان يعتمر خوذة ويرتدي درعاً خفيفاً ويتمنطق سيفاً وينتعل نعلين خفيفين ويحيط به عدد من الأمراء وكبار القواد عندما أدخل إليه الباشا مدير الخرطوم.. وكانت أنباء مقتل غردون ترددها الألسن، والأهازيج التي لا يخلو منها- اسم الأمير أبوقرجة تترامى إلى مسامع القائد ومن حوله.. والهرج والمرج يسودان المكان.

دفع أحد الجنود بالأسير إبراهيم فوزي أمام القائد فوصف تلك اللحظات الحاسمة في تاريخ حياته في كتابه «السودان بين يدي غردون وكتشنر» الذي قام بتأليفه بعد عودته إلى القاهرة في أعقاب أسر طال واستغرق عمر الدولة المهدية بأكمله.

قال الباشا الأسير إنه ابتدر الأمير الفاتح بالتحية فرد عليه بأحسن منها مما بعث الإطمئنان في نفسه. كما كانت لبشاشته البادية على محياه رغم تلك اللحظات النادرة في حياة القادة الفاتحين فعل السحر في نفس الأسير المضطربة والتي إستيقنت من دنو الأجل. إلتفت الأمير أبوقرجة إلى الجنود الحراس واستفسرهم عن شخصية

الأسير. تقدم إليه رئيسهم وأسر إليه قولاً «فالتفت إلىَ في سكينة وحنان فأمر بفك وثاقي ففعلوا ثم أمرني بالجلوس على الأرض ففعلت وكنت في أشد حالات الظمأ وآلامه. فقلت له يا سيدي أأتجاسر بطلب شربة ماء قبل الممات. فرد عليَ قائلاً «أبشرك بكل خير». وأمر أحد الغلمان بإحضار شراب من العسل الممزوج بالماء» فقدمه إلىَ إلاَ أنه لم يطفئ ظمأي واشتدت حاجتي إلى الماء فأعدت إليه الرجاء بطلب الماء فأمر لي بشراب «الآبريه» الذي يغذي ويزيل الظمأ فتناولت منه قدر حاجتي.. وبعد برهة إلتفت إلىَ مخاطباً: أن الدنيا فانية وزمان المهدي ليس كما تقدمه من الأزمان والمال أصبح ملكاً له ومن أخفاه وقع في معصية الله».

أنكر إبراهيم فوزي أن يكون لديه مال يؤخذ لبيت مال المسلمين فصدقه الأمير أبوقرجة وأطلق سراحه واستضافه في منزله ليلتين وبالغ في إكرامه إلا أنه لم يسمح له بمشاركتهم الطعام رغم أن مائدته كانت تضم ثلاثين رجلاً. قال إبراهيم فوزي إن الأمير أبوقرجة إعتذر إليه عن عدم تناول الطعام معه لأنه لم يبايع الإمام المهدي بعد ولم ينخرط في زمرة الأنصار.

قبيل ساعات من أسره كان إبراهيم فوزي المرافق الوحيد للجنرال غردون بإعتباره الرجل الثاني في السلطة الإدارية وكانت لا تزال أصوات المدافع التي وجهت قذائفها نحو الخرطوم من حامية أمدرمان بقيادة الأمير حمدان أبو عنجة ترن في أذنيه. وكان المهدي قد وجه بإطلاقها حتى يتسنى لجيشه عبور النيل الأبيض في تلك الليلة لأنه كان قد إتخذ قراره بفتح الخرطوم صبيحة الإثنين 8 ربيع ثاني والموافق 26 يناير.

روي إبراهيم فوزي أنه في ليلة الفتح صحب غردون قناصل الدول الأوربية إلى سطح قصر الحكمدارية وأخذوا يتطلعون بالنظارة المكبرة إلى أمدرمان لتقصي الأسباب التي دفعت الثوار إلى إطلاق القذائف نحو الخرطوم فلفت أنظارهم عبور حوالي 15 ألف فارس من معسكر أبو سعد. وكانت مقدمتهم قد وصلت بالفعل إلى

معسكر الأمير عبد الرحمن النجومي على الجانب الشرقي من النيل الأبيض.

تبادر إلى ذهن الجنرال غردون أن الإمام المهدي عبر النيل ليتولى القيادة العامة على جيوشه ليهاجم الخرطوم. إمتطى غردون صهوة جواده وخرج إلى مواقع قواته يصحبه إبراهيم فوزي وأمضى أربع ساعات يحاول أن يبث الشجاعة والثبات في نفوسهم.

لم تجد كلمات غردون صدى في نفوس جنوده اليائسين فأيقن بسقوط المدينة وطلب من القناصل أن يستقلوا باخرة كانت معدة للهروب إلاَ أن القناصل أحسوا بإستحالة تنفيذ عملية الخروج من الخرطوم التي أحيط بها من كل جانب.

وصف فوزي اللحظات الأخيرة للجنرال الذي تراجع عن فكرة الإنتحار وبدا متماسكاً رغم الإحساس بأن أمراً جللاً وشيك الحدوث ومن ثم أمر بإقامة عرض للألعاب النارية لتهدئة الخواطر وفي محاولة لإرهاب الثوار. وقد رأى المؤرخ محمد عبد الرحيم الذي كان من بين المحاصرين تلك الألعاب تبدو في الأفق في شكل بهيج بيضاء حمراء خضراء فظن هو ورفاقه أن ثمة مهرجاناً أقيم إبتهاجاً بقدوم حملة الإنقاذ البريطانية.

أما في المعسكر الآخر فقد كان المهدي ماضياً في عزمه غير مكترث بما شاع عن قرب وصول الإنجليز فاستدعى خلفاءه الثلاثة ومائتين من أمراء الحصار وأبرزهم أبوقرجة والنجومي وشيخ فضلو أحمد وشايب ومكين ود النور. إجتمع بهم وارتجل خطبة قصيرة بيَّن فيها فضل الجهاد وتحدث عن البشارة المحمدية بفتح الخرطوم صبيحة تلك الليلة، وجدد معهم البيعة ثم التفت إلى الخرطوم وكبر ثلاث مرات وأمرهم بالانصراف بعد أن حذرهم من قتل بعض الشخصيات وفي مقدمتهم غردون باشا والشيخ محمد السقا والشيخ الأمين الضرير. لم يلبث الإمام المهدي أن استدعى الأمير محمد ود نوباوي زعيم قبيلة بني جرار وأوصاه بقوله «لدى دخولك المدينة يجب أن تتوجه نحو

سراي غردون على الفور وتبلغه تحيتي ثم تحافظ على حياته ولا تدع أحداً يعتدي عليه حتى توصله إلينا سالماً دون أن يصيبه مكروه" . وقد رددت عدة مصادر أن المهدي كان يريد أن يفدي به أحمد عرابي الذي نفاه الإنجليز إلى جزيرة سيلان بعد هزيمته في التل الكبير.

كان الخلاف قد بلغ ذروته بين الأمير أبوقرجة من جهة وبقية القادة العسكريين الآخرين من جهة أخرى حول الهجوم على الخرطوم فكتب أبوقرجة رسالة إلى الإمام المهدي تتضمن إستقالته وتنازله عن القيادة وذلك بعد أن رفض الجميع إقتراحه بمهاجمة الخرطوم. كان ذلك في يوم 24 يناير 1885 قبل يومين فقط من الفتح. كان أبوقرجة يرى ضرورة الهجوم الفوري على العاصمة التي أضناها الحصار، الذي كان هو مهندسه الأول بلا جدال. وضرب مثلاً بغزال أنهكه الصياد بالمطاردة حتى أوشك على الظفر به أيتركه ويطارد غيره أم يجهز عليه بعد أن هدَه التعب!!؟.

نسب نعوم شقير هذا المثل لرجل من الحاضرين في المجلس من غير العسكريين ونقله عن مصدر مغمور. إلا أن آباءنا[1] كانوا يؤكدون أن أبوقرجة هو الذي ضرب هذا المثل. ولا غرو فهو الذي كان يمسك بخيوط الحصار الذي ظل يمارسه بجدارة كراً وفراً حتى تكاملت الجيوش. ولولا إنضباطه العسكري الصارم لاقتحم الخرطوم في وقت جد باكر.

وقد كان هناك رأيان آخران الأول هو رفع الحصار والإنسحاب إلى كردفان لإستدراج حملة الإنقاذ القادمة وقد إستبعد هذا الرأي من البداية الأولى. والرأي الثالث كان هو التقدم شمالاً لملاقاة الحملة قبل وصولها.

رد الإمام المهدي على رسالة الأمير أبوقرجة التي لم يعثر عليها المؤرخون – في نفس اليوم. يرفض فيها إستقالته بصورة ضمنية. ويذكره كما جاء في متن الرسالة

1. رواية عمنا إسماعيل أبوقرجة عن جدنا زكريا عثمان، الذي كان قريباً من مداولات مجلس الحرب.

بأن البلوى بألسنة الناس إمتحان من الله لعباده الصالحين. ويشير إلى رفض طلبه بالتنازل عن القيادة والرئاسة للتفرغ للعبادة. ثم يخطره بأنه مرضي عنه وأن له مكانة عظيمة عنده وعند الخلفاء ويبلغه بأنه إختاره لقيادة القوات المرسلة لملاقاة الجردة الانجليزية وحصرها. وقد إستحسنا مع الخليفة عبد الله والخليفة شريف وبقية الأصحاب من النواب وغيرهم توجهك إلى الجردة متولياً على من يسير من هنا ومن هناك تنظروا فيها إن لزم محاصرتها وتحاصرونها كهكس فتحصروها من التصرف في الحلال حتى تصل إلينا أو ما تروه فيها. فقد يرى الحاضر ما لا يراه الغائب، والسلام».

إلاَ أن الإمام المهدي لم يلبث أن عاد إلى مقترح الأمير أبوقرجة بالهجوم على الخرطوم وفتحها عنوة. وذلك بعد أن وجه رسالة للخليفة عبد الله حول الخلاف بين أبوقرجة وبقية القادة بديم الهوى بالخرطوم. ويرجو منه أن يفض النزاع. ويبدو واضحاً أن الخليفة عبد الله كان يميل للرأي الذي يعارضه الأمير أبوقرجة.

فأما الأمر الذي عزز رأي الأمير أبوقرجة هو فرار سنجق من الباشبوزق يدعي عمر بك ود الفقيه إبراهيم الملقب بغرة العينين[1] من أهل الخرطوم[2] الذي كان مطلعاً على أحوالها. فدل عليها وخاصة نقاط الضعف في إستحكاماتها. فجمع المهدي مجلس الشورى في نفس اليوم - السبت 24 يناير - وأطلعهم على التطور الأخير ثم لم يلبث أن وصل أحد الهجانة من المتمة في يوم الأحد 25 يناير وأخبر المهدي بأن وابورات الإنجليز خرجت من القبة فجر السبت متجهة نحو الخرطوم فقرر المهدي الهجوم على الفور.

---

1. كان الإمام المهدي فخوراً بدور غرة العينين فطلب من أصحابه أن يتزوج بنته واحد منهم فتزوجها شايب ود أحمد فأنجبت له ولداً.

2. نعوم شقير.

رسالة الإمام المهدي بخط يده الشريفة للأمير أبوقرجة يوم 24 يناير قبل يومين فقط من فتح الخرطوم

(1)

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على
سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر الى الله
محمد المهدي بن عبد الله الى صفيه وحبيبه وعامله الحاج محمد
ابو قرجه وقاه الله كل مهلكة وجعله من المقربين والصديقين
آمين حبيبي لايخفى عزيز علمك ان الله تعالى حكيم وقادر عليم
قال وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وقد ابتلى خليله وحبيبه
محمد صلى الله عليه وسلم ليعظم مكانته ويزيد رتبته فصبر واحتسب
ووجد عند الله بالرضى والصبر عظيم الاجر ودائم الخير واليسر
وقد اختبر الله تعالى اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين
في كل قرن بانواع البلايا وتلك سنة الله في اصفيائه وانبيائه
ليعظم لهم مكانة الابد ونعمة السرمد ولئلا يركنوا الى شئ في دار
حبسهم وسجنهم الدنيا وي حتى يقدموا على ربهم فيكرمهم في دار
جزائه الدائمة التي لاشوب فيها فلا تضجر حبيبي من البلايا بالسنة
الناس وغيرها وقد يبتلي المؤمن من حبيبه ليجذبه الله اليه
ولئلا يوطن قلبه الى حبيب ولا قريب وليلتجئ الى ربه المجيب
ويسمع الله تضرعه واستكانته ولكن يحمل اخاه على محامل كثيرة
اذ ان الامر بيد الله وليست هذه الدار دار متعة ولاحياة

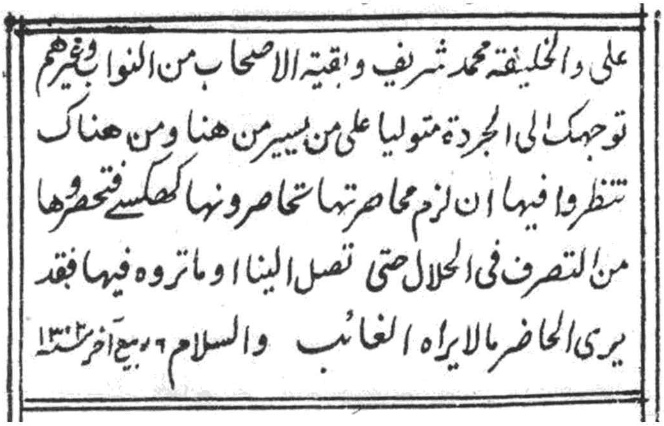
(2)

فقد يبتلي الله العبد من اخيه وحبيبه ليجذبه اليه من الاغيار
ويجره الى مقام الخلة الكبرى كما قال صلى الله عليه وسلم لو كنت
متخذا خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن فاذا
وجد العبد المؤمن من اخيه مثلا يفر الى الله من جميع الاخلا الى
خلة الله الحي الدائم ويتكل عليه ولا يركن الى سواه فان الحبيب
قد يريد ان يسرك فيقع في ضرك وقد يريد ان يواصلك فيقع
في مقاطعتك وقد يعمي الله عليه فيهيج بطبعه بعارض وقلبه منك سليم
والامر بيد الله وهو المتصرف في خلقه بما يشاء ولا حول ولا قوة
الا بالله وقد بلغني جوابك وحالي خطابك وبه تذكر التفويض
في المنازلة من العمل والرياسة وتكون من الملازمين للمذاكرات
والصلوات وتحب بذلك صلاح نفسك ومعادك فجزاك
الله كل الخير وانك عندنا وعند اصحابنا وخلفائنا مقبول ومرضي
وشاكرين سعيك وعملك وارادتك في الله فابشر بكل خير
فانك من خواص الاصحاب فاصدق عزمك ودم على تجردك
للآخرة وارادتك لوجه الله تعالى واعلم انك من اصحابنا
على بال وكذا الخلفا والامنا وخصوصا خليفة الصديق
فدم على صدقك في عملك وقد استحسنا مع الخليفة عبد الله

والخليفة

علي

(3)



علي والخليفة محمد شريف وبقية الاصحاب من النواب وغيرهم
توجهك الى الجردة متوليا على من بسير من هنا ومن هناك
تنظروا فيها ان لزم محاصرتها تحاصرونها كهكسي فتحصروها
من التصرف في الحلال حتى تصل الينا او ماتروه فيها فقد
يرى الحاضر مالايراه الغائب والسلام ٦ ربيع آخر سنة ١٣٠٢

إنتهى الخطاب

القطينة.. معقل الثورة ومقبرة الغزاة

الأميران شيخ فضلو وشايب أحمد

القطينة.. معقل الثورة ومقبرة الغزاة
الأميران شيخ فضلو وشايب أحمد

جات تتالب القطـــانة

شــايلـــة دكـــاكر[1]

أبو عثمان جقود[2]

كتب الإمام المهدي نصاً فلسفياً بديعاً في رسالة إلى الأمراء محمد عثمان أبوقرجة وعبد الرحمن النجومي وعبد الحليم مساعد ومحمد الصديق وعبد القادر إبراهيم ود أم مريوم وآخرين ممن معهم من أصحابه. كان يعزيهم في وفاة الأمير شيخ فضلو أحمد. لخص الإمام في ذلك النص الرائع رؤيته للوجود الإنساني وغايته، فقال:

أعلموا أيها الأحباب، إن موت الحبيب يرغب في لقاء الله ويزهد في دار الملاهي. ولقد علمتم أن هذه ليست بدار أنسنا ولا بدار إجتماعنا. وإنما هي دار حبسنا وسجننا كما بينا ذلك مراراً. ولا إجتماع لنا ولا عيد لنا إلا في دار كرامتنا ولقاء خالقنا.

وحيث فهمتم ذلك فإن الأخ شيخ فضلو إنتقل من دار الملامة إلى دار الكرامة واتصل بالرفيق الأعلى مصحوباً برضاء الله ورسوله ومهديه. كيف لا وهو من قال الله في حقهم (فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي). [3]

ولا شك ممن خرج مهاجراً في سبيل الله بلا علة إذ من المعلوم أنه ممن بذل نفسه وماله في سبيل الله وقاسى الشدائد معنا فيه، فأفرحوا أحبابي بما ناله حبيبكم

1. جاء رجال القطينة يتواثبون شاهرين سيوفهم.
2. شاعر الوطنية المعروف.
3. سورة آل عمران.

المذكور، واصبروا ولا تضجروا وقولوا في سركم وعلانيتكم بلسان حالكم ومقالكم: (ربنا افرغ علينا صبراً وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين).. ربنا وادخله جنات عدن التي وعدت بها أصفياءك ومقربيك المكرمين.. ومتعه بالنظر إلى وجهك الكريم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. وسيتحرر منا مثل هذا إلى جماعة رايته الثاوين معكم ليتشوقوا إلى الله ويرغبوا في لقائه. وفقنا الله واياكم وسلك بنا وبكم مسلك اصفيائه الكرام.

بعث الإمام المهدي بهذه الرسالة إلى هؤلاء الأمراء المرابطين بأنحاء المتمة متوجهين إلى الجهاد لملاحقة حملة الإنقاذ البريطانية وتحرير الشمال. وتشير الرسالة إلى أن جماعة شيخ فضلو كانوا معهم مما يعزز الزعم بانه توفى هناك. فقد ذكرت المصادر أنه أصيب بمرض الجدري الذي تفشى في جيش الأنصار بالمتمة. إلا أن مخطوط الشيخ محمد عبد الرحيم يشير إلى غير ذلك.. فيقول إنه إستشهد نتيجة لجرح بليغ أصيب به أثناء فتح الخرطوم. كما أشار إلى إصابته بالقضروف. ولكن تاريخ رسالة الإمام المهدي (24 رجب 1302هـ الموافق 10 مايو 1885م) يدحض ذلك الزعم ويجدد التأكيد بأنه إستشهد وإنتقل إلى جوار ربه بالمتمة.. رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما أسدى لوطنه ولدعوة الحق التي صدع بها وباع شبابه من أجل نصرتها ليشتري مجداً وثناءً وخلوداً في رحاب الله.

بلغ الأمير شيخ فضلو أحمد أقصى درجات الجسارة والإقدام حين قرر إقتحام الخرطوم بفرسه و وحده. وذلك عندما بلغته شائعة إستشهاد الأمير أبوقرجة في معركة بري. كان متوجهاً لنجدته من طابيته بالكلاكلة. وكانت قوات العدو قد حالت بين قوته وقوات أبوقرجة فاستحال عليه التحرك إلا بمفرده. ولولا أن تعلق الأنصار بعنان فرسه وحالوا دون عزمه بالاقتحام الفردي لاستحكامات العدو لفعل ذلك دون تردد

أو وجل. وقالت المصادر التي أجمعت على وقوع الحادثة إنه سرعان ما استرجع[1] وتساقط الدمع من عينيه. وكيف لا والأمير أبوقرجة هو ابن عمه وصديقه ورفيق حله وترحاله. لم يفترقا قط منذ وصوله من حفير مشو بصحبة والده وهو فتى لم يبلغ العشرين من عمره. وهاهما الآن يخوضان غمار ثورة أعلنها شيخهما وإمامهما محمد أحمد المهدي.. الذي بايعاه على بذل النفس وقص الرقبة.

عرف الناس الأمير شيخ فضلو أحمد بجرأته في القتال ومقدرته على قيادة الرجال. وقد بايع الإمام المهدي منذ الدعوة السرية في القطينة ثم في أم غنيم. ولم يقدر له أن يشارك في معركة الجزيرة أبا المباغتة. إلا أنه لم يلبث أن لحق بالمهدي مهاجراً حتى أدركه في كابا. وقد عقد له الإمام المهدي لواء الإمارة فشهد واقعة الجمعة وحصار الأبيض حتى تسليم حاميتها. وقد إختاره الإمام المهدي إلى جانب الأميرين أبوقرجة وعبد الحليم مساعد وآخرين لمتابعة حملة هكس وإرهاقها بالمناوشات حتى تمت إبادتها. وعند الزحف إلى الخرطوم وحصارها إختاره الأمير أبوقرجة لإقامة معسكره في منطقة شجرة ماحي بك وخاض معارك شرسة ضد قوات غردون.

إرتبط شيخ فضلو وشايب ببني عمهم عثمان العربي. كان الأكبر هو شيخ فضلو الذي هاجر مع والده إلى القطينة من الحفير في تاريخ غير محدد. لحق والدهما بعثمان العربي في مهجره الجديد وكان ابنه شيخ فضلو في عقده الثاني. وقد أشار المؤرخ محمد عبد الرحيم إلى أنه قد ولد حوالي عام 1842م. وربما حدثت تلك الهجرة على مشارف سنوات الستين للقرن التاسع عشر. عندما وصل أحمد فضلو إلى القطينة كان عثمان العربي قد استقر وكون ثروة طائلة. وكان ابنه الأكبر محمد أبوقرجة قد بلغ العشرين وبات على وشك السفر إلى بحارة (المناطق الجنوبية). ولا نملك تفاصيل مؤكدة عن رحلات شيخ فضلو الفتى إلى تلك المناطق ومتى بدأت؟! إلا أنه من

1. قال (إنا لله وانا إليه راجعون).

المؤكد قد صحب ابن عمه أبوقرجة في بعض تلك الرحلات. وقد أظهر نجابة وحذقاً وشجاعة. واستطاع بعد رحلات قليلة أن يعد في مصاف الأثرياء. وأشار محمد عبد الرحيم إلى أن خدمه في المنزل فقط بلغ عددهم الثمانين. وقال إنه عاد ليعمل بالزراعة بأم غنيم إلى جانب أبوقرجة. ولا تزال أراضيه التي أمتلكها في حيازة أحفاده. ولقد إلتقى بالشيخ محمد أحمد (المهدي) في ذلك المكان. وربما إلتقاه في وقت سابق بالقطينة شأن أبناء عمه عثمان العربي. وارتبط به ذلك الإرتباط الذي أفضى إلى الإنخراط في صفوف أنصاره وليصبح واحداً من أبرز أبكاره وأمرائه.

عندما هاجر أحمد فضلو من الحفير إلى القطينة إصطحب جميع أفراد عائلته – إخوته وابناءه – إلا أن شايب لم يكن من بينهم حيث ولد في القطينة في أوائل ستينات القرن التاسع عشر. وكانت أمه فانَة (فاطمة) بنت النور بوبا – وهي من الدناقلة الأكداب. وقد تزوجها أحمد فضلو في مهجره الجديد.. وهي شقيقة آمنة التي تزوجها عثمان العربي وانجبت له الفارسين الشهيدين نصر ومصطفى.. اللذين ربما كانا أكبر قليلاً من ابن خالتهما شايب. إلا أنه نشأ وترعرع بينهما وبين أبناء عثمان العربي الآخرين، وأخيه شيخ فضلو. سافر معهم واكتسب كثيراً من التجارب وأقام في أم غنيم فترة من الزمن. والتقى بالإمام المهدي وبايعه وأضحى من الأبكار. وشارك في جميع معارك الثورة واشتهر بشجاعته وجرأته واقتحامه في المعارك. وعندما إستشهد نصر ومصطفى في معركة الجريف كان يقاتل معهما جنباً إلى جنب. وكان يندفع مقاتلاً لنيل الشهادة أو النصر. وعندما قرر الفرسان الأنصار في لحظة حاسمة اقتحام إستحكامات العدو وقتل الطوبجية بالسيوف (اللحظة التي أجاد وصفها المؤرخ إسماعيل عبد القادر الكردفاني). كان شايب من بين الأبطال (الذين تشوقوا للقاء الكبير المتعال). إلا أن أجله لم يكن قد حان بعد. وظل هكذا حتى اشتهر بفروسيته وشجاعته ولما يزل في ميعة الصبا حتى بات اسمه على كل لسان.

وعندما إنتقل أخوه شيخ فضلو إلى رحاب الله بعد أشهر قليلة من تحرير الخرطوم سلم الإمام المهدي رايته لاخيه شايب وهو في تلك السن الباكرة. ربما لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين.

وعندما إنتدب الخليفة الأمير أبوقرجة إلى شرق السودان قائداً عسكرياً كان الأمير شايب يقود رايته ويقاتل إلى جانبه، ثم إلى جانب الأمير عثمان دقنة. وذلك عندما أعاد الخليفة القيادة العسكرية في الشرق إليه.

أبلى الأمير شايب في معارك شرق السودان وقاد السرايا لتثبيت دعائم الدولة وتأديب العصاة المارقين عن سلطانها. وبات اسمه عنواناً للشجاعة ومضاء العزيمة والوفاء للثورة المهدية.

وفي أثناء إحتدام الصراع السياسي بين أهل النيل والخليفة عبد الله ومشايعيه وجد شايب نفسه إلى جانب أهله وعشيرته. وقد وصف إبراهيم فوزي تلك اللحظات العصيبة حين واجه الطرفان المتنازعان بعضهما بالسلاح. وكانت السلطة مستعدة للموقف بينما كانت المعارضة ضعيفة قليلة العدد. إتخذ الأمير شايب موقعه تحيط به الهيبة وجلال الشجاعة فكان أحياناً يميل بسيفه على الصفوف فتنكسر وتتفاداه.. حتى تدارك الوسطاء الأمر وحقنوا الدماء بالصلح. ولم يمض زمان طويل حتى تفجر الموقف مجدداً وخسرت المعارضة جولات الصراع وتمت تصفيتها.

كان الخليفة يعلم أن شايب لم يكن متورطاً في الإعداد لتلك المواجهة وإنما جاءت به الظروف من شرق السودان إلى أمدرمان فوجد الموقف قد تفاقم فلم يجد بداً سوى الإنضمام لأهله. عفا عنه الخليفة وأمره بالعودة إلى موقعه في شرق السودان. وقد فعل. ولكن بعد أن طال الأمر الأمير أبوقرجة وتم نفيه وأحس شايب أنهم باتوا بعيدين سياسياً ومعنوياً عن السلطة آثر الإنسحاب ومضى إلى القطينة حيث أقام هناك حتى سقطت دولة الخليفة وأقام الانجليز نظام الحكم الثنائي.. وباتت القطينة

مركزاً والدويم عاصمة لمديرية النيل الأبيض. وذلك للقيام بمراقبة فلول الأنصار الذين ربما ينتفضون من جديد. كان ضباط الجيش الإنجليزي كثيراً ما يسألون عنه ويطلبون رؤيته فقد خاض ضدهم معارك شرسة في شرق السودان ما انفكوا يذكرونها ويذكرون بسالته وإقدامه في القتال.

القطينة تفتك بالساتي بيه

في يوم العاشر من رمضان 1301هـ الذي وافق 4 يوليو 1884م تجمع لفيف من نساء القطينة حول فتيات كن يتسلقن شجرة من الدوم بالتناوب. يصعدن إلى أعلى الشجرة ويتطلعن نحو جهة الشمال. كانت تلك الفتيات هن شاية بت النصري وبتول بت ود أب نائب وكلتوم بنت الفكي عبد الله ونفرين بت مياسة. كان قد بلغ أهل القطينة أن غردون جرد حملة عسكرية للهجوم على القطينة ليفت في عضد رجالها المحاصرين للخرطوم. وأخذت البلدة تترقب وصول الباخرة التي تقل القوة. لم يكن هناك شباب ليقوموا بدور الطليعة لتحديد موعد وصول الباخرة. كانوا جميعاً يشاركون في حصار الخرطوم. لذا صعدت الفتيات يتطلعن شمالاً نحو النهر يرصدن دخاناً أو جسماً قادماً من بعيد.

وعندما رصدن موقع سفينة الحرب أبلغن الشيخ حامد الفكي عبد الله الذي أخلى النساء والأطفال إلى مكان آمن خارج البلدة واستدرج الغزاة حتى دخلوا إليها. وهناك برزوا لهم من جهات مختلفة في عملية إلتفاف وهجموا عليهم بصورة مفاجئة وأعملوا فيهم قتلاً حتى هزموهم وفرت فلولهم لتلحق بالوابور الراسية على شاطئ النهر.

كان غردون قد ضاق ذرعاً بالحصار وبأساليب شباب الأنصار المقاتلين. كانوا يفاجئون قواته في كل يوم بجديد. ويبتكرون حيلاً عسكرية لاستدراج ضباط أو جنود من داخل الإستحكامات ليصطادونهم. كانوا ينادون الواحد منهم بالاسم ليلاً وحينما يفتح فاه ليرد عليهم كانوا يلقمونه رصاصاً. فالحذق في التصويب كان أحد العوامل النفسية التي أتلفت أعصاب قوات غردون. فقد كان بعض شباب الأنصار -نصر كاشات ومجموعته- يعرفون ضباط الحكم التركي واحداً واحداً منذ أن كانوا في بحر الغزال.

أشارت المصادر باقتضاب إلى حملة الساتي بك إلى القطينة وقالت إن غردون بلغه

إن رجلاً يدعي حامد الفكي عبد الله من سكان القطينة جمع جموعاً من بلده ونوى الزحف على الخرطوم. فأمر غردون الساتي بك بالتوجه إلى القطينة لوأد الحملة قبل التحرك. ولكن حامد الفكي عبد الله أحرز إنتصاراً على الجردة التي جاءت بالوابورات وقتل الساتي بك بعد هزيمة نكراء.

وجاء في مؤلف نعوم شقير «جغرافية وتاريخ السودان» أن (الدراويش) قطعوا رأس الساتي بك وعلقوه على حربة طويلة وجاءوا به قرب خندق قوات الخرطوم وأخذوا ينادون العساكر «أخرجوا أيها الملاعين ليحل بكم ما حل بالساتي».

وقالت مصادرنا الشفاهية أن الأنصار أخذوا يضربون النحاس (الطبل) ويرددون على أنغامه:

شيخ فضلو بياكلكم
وأبوقرجة بكملكم
بسيفه بياخدكم

وذكر شقير إن الأمر استفز غردون فاحتدم غيظاً وجهز جيشاً مؤلفاً من 600 من العساكر النظامية و200 من الباشبوزق وطاقم صاروخ وعقد لواءه للبكباشي السيد أفندي أمين فجعل العساكر النظامية بهيئة قلعة أو «مربع» وسار حتى أقبل على الدراويش قرب حلة الكلاكلة.

ودارت المعركة بين الأنصار وقوات الحكومة من الضحى حتى وقت الغروب وانجلت عن إنتصار قوات غردون وإستشهد من الأنصار حوالي ألف رجل.

وذكرت مصادر أهل القطينة أن القصد من حملة الساتي بك هو حيازة الذرية وسبي النساء لزعزعة معنويات مقاتلي القطينة الذين يحاصرون الخرطوم. وهذا القول هو الأرجح حيث أنهم كانوا هم الأكثر جرأة وجسارة في القتال بقيادة الأمير أبوقرجة. فقاتلوا بإستماتة حتى لقي معظمهم الشهادة وغردون يعلم ذلك تمام العلم.

كما أن حامد الفكي عبد الله كان شيخاً كبيراً تخلف بحكم سنه عن الشخوص إلى الخرطوم فمن المستبعد أن يكون قد إعتزم قيادة حملة للتوجه بها نحو مناطق القتال. ولما لم يكن قد بقى في القطينة رجال ممن يخرجون مع الفكي عبد الله جمع بعضاً من الشيوخ والموالي وانضمت إليهم بعض النساء الجسورات والصبية الصغار. وكمنوا للحملة حاملين ما تيسر من الأسلحة البيضاء فحققوا نصراً عزيزاً أحبط مساعي غردون واستفزه فبعث بتلك الحملة الكبيرة إلى معسكر الأمير شيخ فضلو بالكلاكلة، حيث يرابط كثير من رجال القطينة أيضاً فضلاً عن المشاركين في الحصار مع الأمير أبوقرجة. وأشارت المصادر إلى رجل آخر شارك الفكي عبد الله قيادة المقاومة وهو شريف حاج النور الرازقي اليعقوبابي. وتحدثت المصادر عن أخ للفكي عبد الله يدعى مكي شارك في قيادة العملية. كان الفكي عبد الله قد عمّر حتى بلغ مائة وعشرين عاماً وتوفي بالقطينة في أربعينيات القرن العشرين، عليه رحمة الله. وحتى بعد وقت طويل من وقوع هذه المعركة وربما حتى الآن ظلت فتيات القطينة يرددن أغنية حماسية ويضربن الدفوف:

ســـــاتي بـيـه يـا هــنـيـنـا
يـا الـغـــشـاك افــــنـديـنـا[1]
جــــيـت تـســــبي نـسـاويـنـا
نـحــــن ويــــن تـلاقــيـنـا
ومـعـــــاك صـبــــير أب شـحـم
الأبـــى جـــتـتـه الـطـير والـرخـم

●●●

يـــا جــــنـيــات حــلـتـي
الـبـتـفـــشـو ضـيـــمـتـي
قـــــام حـامــــد ود الـفـكـي
وقـــطـع رأســ الـســاتـي بيه

1. هنينا: شتيمة باللغة الدنقلاوية.

شهيداً برصاص الإنجليز في دنقلا

الحســن عثمـــان العربي

أمـــير رآية الدناقـــلة

شهيداً برصاص الإنجليز في دنقلا
الحســن عثمــان العربي[1]
أمــير راية الدناقــلة

فتىٍ مات بين الضـــرب والطعـــن
ميتةً تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وقد كـان فـوت المـــوت ســـهلاً عليه
ولكن رده إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
فلم تبق روضـة إلا تمنت أن تكون لـه قبر

«أبو تمـــام»

كانت ليلة الأربعاء الثالث والعشرين من ربيع أول عام 1303 هجرية والموافق الثلاثين من ديسمبر 1885 م قد شهدت زمهريرًا قاتلًا ورياحًا عاتية وبردًا تجمدت منه المياه في القرب.. كانت قوة الأنصار قد تناولت قليلًا من الطعام.. ربما بليلة من الذرة أو غيرها وظلوا ساهرين مترقبين مستعدين للمقاومة حتى الشهادة أو النصر في موقف دفاعي أمام المدافع والأسلحة الحديثة الفتاكة؛ فالعدو على مشارف كوشة يزحف وئيدا للهجوم عليهم.

فبعد منتصف الليل بقليل هدرت المدافع وانهمر الرصاص وانعقد دخان كثيف قبل أن يهب الأنصار ممسكين ببنادقهم يتطلعون إلى مصدر النيران بعيونهم الوسنى. فحاولوا أن يقاتلوا عدواً لا يرونه. ولكنهم إندفعوا يتواثبون كالفهود . فات الأوان فقد أطبقت القوات البريطانية على المعسكر من كل جانب وسرعان ما دبت الفوضى وأخذ الرجال يتساقطون فنهض أمير رآية الدناقلة واعتلى صهوة جواده ببندقيته في يده اليمنى وبلجام الجواد باليسرى. إعترضه أحد الأنصار ورجاه أن يستتر بصخرة مجاورة. ولكن صده واندفع ولم يلبث أن اخترقت عنقه[2] رصاصة فهوى من على

1. الجد المباشر للمؤلف.
2. رواية المؤرخ محمد عبد الرحيم.

ظهر الجواد شهيداً.[1]

إنجلت المعركة خلال فترة وجيزة وخسر الأنصار الحرب رغم ما أبدوه من ثباتهم المعهود. أخذوا في الإنسحاب من أرض المعركة يحملون قتلاهم وجرحاهم. كانوا يدركون أن الإنجليز يمنعون دفن الأنصار منعاً باتاً. يأمرون بترك جثثهم للطير والضباع. كان ذلك إمعاناً في التشفي وإشباع الرغبة في الثأر لمقتل غردون الذي لم يبق على ذكراه الأولى - يوم المعركة — سوى أيام.

كان ريحان تابعاً مخلصاً للشهيد ومقاتلاً عنيداً صعب المراس لم يتردد لحظة في حمل الجثة على كتفه وركض متوارياً عن الأنظار. إنشغلت القوات البريطانية بتمشيط المنطقة وأخذت تطارد فلول الأنصار. إختبأ ريحان وراء أكمة وأخذ يترقب زوال النهار. وبعد غياب الشمس بقليل حمل جثة الشهيد وأخذ يركض ليس بعيداً عن النهر. كانت وجهته دار العمدة دهب ود غانم في قرية جنس. كان العمدة صديقاً للحسن الشهيد يتردد عليه من وقت لآخر ليستجم قليلاً وليتزود بالطعام. إنعقدت صداقة عميقة بين الطرفين. ربما لم يكن العمدة أنصارياً فالدعوة لم تكن قد إنتشرت في تلك المناطق. إلا أنه كان يكن إحتراماً عميقاً للأنصار ولصديقه أمير الرآية الحسن بن عثمان وربما يكون مبعث ذلك أنهما ينحدران سوياً من منطقة دنقلا.

أخذ ريحان يختبئ نهاراً وراء الصخور والآكام وينام قليلاً ليستعد للسرى ليلاً فيعود ليحمل القتيل الغالي على كتفه بعد غروب الشمس. قال إنه لم يكن يشعر بعبء الحمل على كتفه. كأنه يحمل شالاً من حرير. وقد كان الحسن بالفعل نحيفاً قليل اللحم معتدل القامة. وصف ريحان وجهه الصبوح بأنه كان مضيئاً يتلامع مع الضوء كأنما غسلته أيد خفية. لم تأسن الجثة ولم يلحق بها أي أثر من آثار ما بعد الموت رغم مرور ثلاثة أيام بلياليها حتى أوصله للقرية[2] التي كانت تترقب الأحداث

1.نفس المصدر.
2. هذا المكان لا يبعد عن القرية الآن لأكثر من ربع الساعة بالسيارة.

بقلق بالغ. فقد ترامت إلى سمعها أصوات المدافع والرصاص. كان الدخان يلف المنطقة رغم الرياح الشتائية الغبراء. أغلق سكان القرية أبواب منازلهم واخلدوا لنوم متقطع. قصد ريحان منزل العمدة وطرق الباب. هب العمدة من نومه يستجيب لطارق الليل. كان يتوجس شراً فسأل بصوت واضح عن هوية الطارق فأجابه. أردف العمدة الذي تعرف على صوت ريحان قائلاً هل قتل الحسن؟ أجابه وانتظر حتى فتح له الباب. نادى العمدة أولاده فجاءوا بعنقريب خفيف وضعوا عليه جثمان الشهيد. وجدوه سليماً لا يزال الدم متجمداً على موضع الجرح. تشهد العمدة واسترجع ودعا جيرانه الأقربين. لم يضيعوا وقتاً فحفروا له قبراً بين غرفتين في الدار[1] وواروه الثرى بثيابه قبل طلوع الفجر. كانوا قد أقسموا على ألا يذيعوا سر الشهيد الذي جاءت به العناية الإلهية إلى هذا المكان ليضجع فيه ضجعة الأبدية. فالتزموا الصمت وأصبحت القرية وهي لا تدري ما حدث في تلك الليلة.

وفي وقت كان فيه هذا المؤلف ماثلاً للطبع إلتقي اسامه أبو قرجة بأحد أحفاد العمدة دهب فحدثه عن رواية مختلفة حيث قال إن ريحان حمل الحسن جريحاً لا يزال حياً حتي وصل به الي جنس فأخفاه العمدة دهب وحاول مداواة جراحه إلا انه لفظ أنفاسه بعد أيام قليلة شهيداً في تلك الدار .

وجاء في مخطوط المؤرخ محمد عبد الرحيم أن قوات المهدية في دنقلا ضمت ثلاثة من الكتبة كانوا ضباطاً في حامية الخرطوم قبل سقوطها وهم صالح فوزي (قبطي) وسعيد فهمي (شلكاوي) وريحان عبد الرحيم (دنكاوي). وكان الأول والثاني برتبة اليوزباشي والأخير برتبة الملازم. ومن المرجح أن ريحان كان كاتباً في رآية الحسن الشهيد (الدناقلة) وانعقدت بينهما صلة عميقة دفعته لأن يقوم بذلك الدور البطولي. خاصة وأن الأمير الحسن كان رجلاً كريماً رحيماً لين العريكة، موطأ الأكناف. وربما

1. وذلك في محاولة لإخفائه من عيون الإنجليز.

كان يصحبه إلى دار العمدة دهب ود غانم أثناء تردد الشهيد عليها. ولم نكن نعرف في رواياتنا الشفاهية عن هذا الرجل سوى اسم ريحان.

وإستشهد إلى جانب الحسن عثمان (أمير رآية الدناقلة) الأمير عبد الماجد بن الأمير اللكيلك ابن الملك نصر الدين الميرفابي وجرح الأمير عبد الماجد محمد خوجلي (رئيس السرية) والأمير عثمان أزرق. وقدرت خسائر الأنصار بنحو خمسمائة شهيد وثلاثمائة جريح. أما الجيش الإنجليزي فبلغ عدد ضحاياه سبعة قتلى وأربعة وثلاثين جريحاً.

تلك كانت أم المعارك الانجليزية في السودان. تحرك قائد جيش الإحتلال الانجليزي في مصر الجنرال ستيفنسن بنفسه يصحبه الجنرال قرانفيل سردار الجيش المصري. وحشدوا كل الجنود – الإنجليزية والمصرية – والآليات والأسلحة الحديثة ليخوضوا حرباً كبيرة ضد قوات الأنصار. أرادوا لها أن تكون تصفية حساب لكل المعارك التي خسروها في السودان ولكل العار الذي لحق بالإمبراطورية البريطانية بصولتها وصولجانها في مشارق الأرض ومغاربها. كانت مهمتها الثأر للشرف الفيكتوري الذي مرغه أنصار المهدي في تراب السودان. وما زالوا يهددونهم بعد أن احتموا بمعاقلهم في مصر. ما كانت مهمتها البقاء في دنقلا بعد أن استحال الهدف. فمنذ تراجعها من الخرطوم التي ألفوها قد تحررت قبل يومين من الوصول إلى مشارفها ولم يستقر للحكومة الإنجليزية حال. كانت ما بين الإحتفاظ بدنقلا أو العودة مجدداً لانتزاع البلاد من أهليها. وكان دون ذلك خرط القتاد. أرسل الإمام المهدي بقواته إلى هناك عقب الفتح مباشرة. وأخذت تلك القوات تجد في أثر العدو الغازي طيلة أشهر، حتى قرر الإنجليز إخلاء السودان والإنتظار على حدوده. وقد بقوا هنالك منتظرين ثلاثة عشر عاماً لا يجرأون على اختراق القلعة الوطنية المنيعة.

قدم نعوم شقير[1] وصفاً لمعركة جنس إستناداً على تقارير المخابرات البريطانية التي عمل فيها موظفاً – ردحاً من الزمن. وكانت بالطبع تلك آخر المعارك بين القوات البريطانية وقوات الأنصار في دنقلا. وذلك قبيل جلاء المحتلين من البلاد وإتخاذهم حلفا حدوداً جنوبية لمصر.

(وكان الجنرال ستيفنسن قائد جيش الإحتلال في مصر لما علم بقدوم الدراويش إلى كوشة ساق إليها الجنود الانجليزية والمصرية من مصر والحدود ووصلها في 19 ديسمبر 1885م ومعه الجنرال غرانفيل سردار الجيش المصري بصفة رئيس أركان حرب. وكان الجنرال بتلر قمندان العساكر الإنجليزية في الحدود قد سبقه إليها فاجتمع عنده بين طابيتي مغركة وكوشة خمس أورط مشاة وأورطة راكبة من الجيش الإنجليزي وقسم من الأورطة التاسعة السودانية وآخر من الأورطة الثالثة والأورطة الأولى من الجيش المصري وأقسام متفرقة من الطوبجية والمهندسين والهجانة والسواري من انكليز ومصريين. ذلك عدا وابور لوتس الحربي بقيادة الكابتن لويد في النيل. وكان مع عبد الماجد في جنس وكوشة والغرب نحو 6000 مقاتل. فأقر الجنرال ستفنسن على مهاجمة الدراويش في الشرق والغرب فجعل المأجور بارو وجنوده في صدد عبد الله ود سعد في الغرب وقسم جيشه إلى آلايين: الآلاي الثاني- وهو مؤلف من ثلاثة أنصاف أورط انكليزية والأورطة الأولى المصرية وبعض الهجانة الانكليز والمصريين وستة بلوكات من الهيلندرس وبلوكين من الأورطة التاسعة السودانية بقيادة الكولونيل هوش – يهاجم بلدة كوشة ثم يتقدم على ديم الدراويش في جنس بطريق النيل والآلاي الأول – وهو مؤلف من ثلاث أورط انجليزية وأقسام من الطوبجية والهجانة والأورطة الثالثة المصرية بقيادة الجنرال بتلر. تتبعه الأسلحة الراكبة من انجليز ومصريين بقيادة الكولنيل بلاك- يسير في نصف دائرة ويهاجم ديم

1. جغرافية تاريخ السودان ص998.

جنس من الجنوب.

وفي 30 ديسمبر قبيل الفجر زحف الجنرال ستيفنسن بالجيش من النيل إلى التلال الجنوبية المطلة على كوشة وجنس من جهة الصحراء جاعلاً الآلاي الأول ومعه الأسلحة الراكبة أمامه والآلاي الثاني وراءه. ولما كان الفجر أمر مدفعية الآلاي الأول ففتحوا أفواه مدافعهم على كوشة. ثم أمر الستة بلوكات من أورطة الهلندرس والبلوكين من الأورطة التاسعة السودانية من الآلاي الثاني فهجموا على بلدة كوشة واحتلوها عنوة وغنموا منها مدفعاً وذلك في الساعة 6 والدقيقة 50. وكان الآلاي الأول قد إتخذ مركزاً على التلال الجنوبية على نحو ميل ونصف ميل من ديم الدراويش في جنس والآلاي الثانية وراءه تجاه بلدة كوشة. وكان الدراويش في جنس لما سمعوا إطلاق المدافع هبوا إلى سلاحهم. فلما طلع النهار رأوا العساكر قد ملأوا التلال وهم زاحفون عليهم فخرجوا لصدهم زمراً. ففتح العساكر أفواه البنادق والمدافع فإقتحموا النيران وتسلقوا التلال. وذهبت فرقة منهم إلى خور متوارين بشاطئه حتى أتوا على الهجانة المصرية في يسار الآلاي الأول والتحم القتال بينهم وبين الهجانة بالسيوف والحراب. فساعد هؤلاء فرقة من العساكر الإنجليزية فردوهم على أعقابهم خاسرين وشتتوهم كل مشتت. ووالى العساكر رمي النار على الدراويش حتى أجلوهم عن التلال. وتقدم الآلاي الأول إلى الديم فاحتله الساعة 9 والدقيقة 15. وبعد ربع ساعة إنضم إليه الآلاي الثاني واستولى الجيش على جميع ما كان بالديم من الأمتعة والذخائر والأسلحة وفيها 4 مدافع.

أما عبد الله ود سعد في غربي النيل فإنه كان قد إستعدَ للهجوم على زريبة الميجر باور فلما رأى قومه قد شرعوا بالإنهزام إنهزم هو أيضاً بلا قتال. ولحق فرسان الجيش بالدراويش المنهزمين إلى عبري فقتلوا من أدركوه في الطريق وعادوا بالغنائم إلى جنس.

وأما الوابور لوتس فإنه ساعد الجيش في أثناء القتال. ولما إنهزم الدراويش تتبعهم

إلى أبي صاري فغنم منهم تسعة مراكب ملأى بالمؤن والذخائر وعاد إلى جنس.

هذا وبعد الواقعة رأت الحكومة أن لا فائدة لها من إحتلال بطن الحجر غير تحمل المشاق والنفقات فأخرجت جنودها منها. وجعلت آخر حدها الجنوبي حلفا فوصل آخر الجند إليها من الجنوب في 13 أبريل سنة 1886م. وفي 7 مايو خرج العساكر الإنجليز من حلفا فتركوا حمايتها للجيش المصري ولكن بقي ألف رجل منهم في أسوان لنجدة الجيش المصري إذا مست الحاجة إلى سنة 1887م فعادوا إلى مصر). إنتهت رواية نعوم شقير.

كان الإمام المهدي قد وجه رسالتين إلى الأميرين الحسن عثمان (أمير رآية الدناقلة) وميرغني سوار الدهب وكيل الرآية يأمرهما بالتوجه إلى دنقلا لتعزيز قوات الأنصار المرابطة هناك لمطاردة فلول الإنجليز وتحرير المنطقة. كان ذلك خلال شهري أبريل ومايو 1885م.

وفي تطور لاحق بعث الإمام المهدي (عم) رسالة إلى محمد الخير عبد الله لبقاء الأمير أبوقرجة بجماعته في المتمة مع علي ود سعد (عامل المتمة) بجماعته وبحوزتهم أسلحتهم ليحافظوا معاً على البلد. وقد جاء في حاشية هذا الخطاب إشارة المهدي واستحسانه توجه علي سعد مع محمد الخير على أن يترك وكيلاً من قبله مع أبوقرجة في المتمة[1]. كما أخطره بتعيينه قائداً للسرية المتجهة إلى دنقلا على أن يتوجه معه لإنجاز هذه المهمة كل من الأمير الحسن عثمان والأمير ميرغني سوار الدهب بألفي مقاتل «وأن يكون تحرككم» على جناح السرعة على أن يبقى النجومي أيضاً في المتمة[2].

وعندما وصل النجومي إلى بربر واجهته مشكلة المؤن والغذاءات فنشبت بعض

---

1. مهدية: دفتر صادر في وثيقة 7 من المهدي إلى أبوقرجة شعبان – 1302/ مايو 1885.

2. مهدية دفتر صادر في وثيقة 2 من المهدي إلى محمد الخير عبد الله شعبان 1302هـ – مايو 1885م.

الخلافات بينه وبين الشيخ محمد الخير. وظل الأمر معلقاً حتى وفاة الإمام المهدي فأمر الخليفة عبد الله بعودة جيشي النجومي وأبوقرجة لتعزيز حصار سنار وبقى محمد الخير في مديرية دنقلا مع جيشه والجيوش التي لحقت به ومن بينها رآية الحسن عثمان.



قرية جنس كما تبدو الآن

(1)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى الحبيبين المكرمين الحسن عثمان وميرغني محمد صالح سوار الدهب، أصلح الله شأنهما وجعل أحوالهما في الحال والمنقلب، آمين[1].

من بعد أهدي جزيل السلام.

فنعرف الحبيبين أن الله سبحانه وتعالى قد مدح أهل العناية من الأولين والآخرين بآيات كثيرة في محكم كتابه المبين، ونخص المجاهدين من ذلك بقوله تعالى: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه»[2] الآية. وقوله: «أشداء على الكفار رحماء بينهم» الآية[3]. وقوله: «يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم»[4]، إلى غير ذلك. وما ذلك إلا أنهم قد بذلوا أنفسهم لله وقاموا بنصرة دينه إيماناً واحتساباً كما أمرهم وكما اشتراها منهم. وجدير بالعاقل الذي أسعفه الله تعالى بحضور زمننا هذا المندرج بزمن النبي صلى الله وعليه وسلم ووفقه على إتباعنا وصار من أنصارنا ومن أعيان أصحابنا أن يكون كذلك ليدرك هذا المدح الوارد من الله تعالى والبشارة الواردة من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أصحابي كاصحابه الخ. وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم ما يقتضي مزية أصحابي حيث قال لاصحابه رضوان الله عليهم: أتدرون من أحبابي؟

1. المرشد رقم 653، المصدر: 386 بيل، 354 درم، 169 ف2.
2. الأحزاب 23.
3. الفتح 29.
4. المائدة 54.

قالوا: نحن أحبابك يا رسول الله. قال: أنتم أصحابي، وأحبابي قوم يأتون بعدكم يؤمنون بي ولم يروني، للواحد منهم أجر سبعين منكم. قالوا: بل منهم. قال: بل منكم، أو كما قال. فمن علم هذا الفضل ينبغي له أن يبذل وسعه في طلبه ولا يألوا جهداً في إمتثال ما نأمره به، لأن أمرنا هو أمر الله ورسوله.

وعلى ذلك فليكن معلوماً إليكما أنكما عندنا من الصادقين في طلب ما عند الله من ذوي الهمم العالية. ولحسن ظننا فيكما إخترنا تعيينكما الإثنين يصير توجهكما بجميع الأنصار التابعين إليكما ومن يصير تعيينهم معكما إلى طرف محمد الخير عامل عموم بربر ودنقله بمحله الذي فيه الآن لمساعدة المذكور على نصرة الدين، بحيث إذا توجه لدنقلة تتوجهوا معه فوراً بدون إنتظار لبقية اخوانكم الذين بالمتمة، وإذا قام تكونوا معه لحين إستعداد المذكورين ولحوقهم بكم وأنهم أهل لما يراد منكم ان شاء الله تعالى. فبوصول هذا إليكم أجمعوا ناساتكم الموجودين وتوجهوا على بركة الله تعالى حيث أن في توجهكم مصلحة الدين. وليكن تشهيلكم بمعرفة العملا عبد الرحمن النجومي واخوانه مما هو متحصل تحت يدهم. وقد تحرر لهم في تاريخه بذلك وأمرناهم باعطاكم زيادة من الجيش لتكثير أهالي راياتكم لأن الأمر ضروري ومن شأنه تحمل الشدائد فيه لأجل الله، كونه وعد بقوله تعالى: «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله» الآية[1]. وبإجتماعكم مع محمد الخير كونوا طوع أمره ونهيه وتحت إشارته واتحدوا معه على ما فيه نصرة الدين ورضاء رب العالمين، والسلام.

غاية جماد آخر/ 11 رجب 1302[2]

1. التوبة 120.
2. يوافق ذلك 27/16 أبريل 1885م.

(2)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى حبيبه وصفيه عامليه الحسن عثمان وميرغني محمد سوار الدهب، تولاهم الله، آمين.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع بذل الدعاء منا إليكم.

لقد وصل إلى خطابكم، أوصلكما مولاكما إلى بحبوبة فضله وانا لكم عظيم نوله، وكلما حواه من إستماعكم لأمرنا وإجابتكم له بالتلبية إلى آخر ما دونتموه علم وجزيتم كل الخير، حيث بادرتم لما ندبتم إليه، وشكر سعيكم. وما حمدتم الأخوان ناس عبد الرحمن النجومي وما معه على مافعلوه الا لصفاء نياتكم، إذ لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه. وكذلك رضاكم بإتباع الحبيب محمد الخير هو من وفور عقلكم. فشمروا زيادة انتم ومن معكم في طاعة الله وتجنبوا كل الترهات والملاهي. وان شاء الله تعالى ما يبلغنا عنكم إلا كل خير. وفقنا الله وإياكم، والسلام.

ملحق لما قبله: أما الأهل والعائلة الذين خلفتموهم فأمرنا وأمرهم موكول على الله، ولابد أن يكون الالتفات إليهم زيادة[1]. لكن لا تكلوهم إلا على الله تعالى، إذ هو نعم الكفيل ونعم الوكيل. قال تعالى: «ومن يتوكل على الله فهو حسبه»[2]. وقال صلى الله عليه وسلم: اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد. ومثلكم من يتحقق بذلك، ولكن هذا للتذكير والمعلومية، فإن الذكرى تنفع المؤمنين. والسلام.

1. الواضح أن الحسن صحب زوجته الجديدة وأبقى بقية عائلته مابين القطينة وأمدرمان.
2. الطلاق 3.

24 **رجب** 1302[1]

كانت جدتنا فاطمة بنت علي كثيراً ما تروي مشاهد ذلك اليوم الذي سبق تحرك راية زوجها الحسن عثمان. فقد كانت داره بأم درمان مركزاً للتجمع ونقطة الإنطلاق نحو دنقلا. توافد الأنصار من وقت مبكر وجلس البعض منهم في الساحة المواجهة للدار يصلحون سروج الخيل ويصقلون أسلحتهم ويشحذونها ويخيطون ثيابهم. والبعض منهم يقدمون العلف لدوابهم ويملأون قرب الماء. والبعض يجلسون لزملائهم لحلاقة رؤوسهم والبعض الآخر ينفردون بعائلاتهم يتحدثون ويوصون ليقينهم أنهم لن يعودوا فالشهادة كانت بغيتهم. ثم لا تلبث أن تقبل جماعات أخرى على صهوات الجياد فرحين مستبشرين نظيفي الثياب حليقي الرؤوس. يهللون ويكبرون. يصطفون صفوفاً ويتسابقون بالخيل التي تركض مسرعة حتى تغيب عن العين. ثم تعود لتخرج جماعة أخرى في نظام وانضباط.. مسلطين سيوفهم، مشرعين رماحهم. وهناك من تقبل عليهم نساؤهم وأطفالهم، يحملون ما تيسر من الزاد. يجلسون غير بعيد ليتزودوا بنظرة الوداع التي ربما تكون الأخيرة. وفي الصباح الباكر قاموا بأداء صلاة الفجر وأنهضوا الركائب وأسرجوا الخيل. لم يثقلوا أنفسهم بالمتاع الكثير.. حملوا إحتياجاتهم القليلة وخرجوا في سبيل الله مجاهدين[2].

1. يوافق ذلك 10 مايو 1885م.
2. رواية شقيقتنا عن الوالدة عن جدتنا فاطمة بنت علي.

حياة قـــصيرة
توجـتها الشـهادة

ولد الحسن في ود شلعي عام 1842م – في أغلب الظن – فهو الابن الثاني لعثمان العربي – بعد شقيقه الأكبر محمد أبوقرجة. وقد كان للحسن شقيقة توأم تدعي أم الحسين توفيت في طفولتها في الثالثة أو الرابعة بعد أن زينوا رجليها بالحجول. إنتقل الحسن مع عائلته من ودشلعي إلى القطينة التي إتخذها والده موطناً جديداً وشرع في عمارتها كما روي المؤرخون. وربما إلتحق مع شقيقه محمد بنفس الخلوة التي هاجر عثمان العربي من أجلها ليتعلم فيها بنوه. ونشأ نفس نشأة شقيقه، أخوين متلازمين لا يفترقان منذ طفولتهما الأولى. ولما شبا عن الطوق سافر محمد إلى بحارة (الجنوب)، ثم عاد ليتوجه مرة أخرى يصحبه أخوه. وقد أطلق الناس عليه لقب شقيقه أبوقرجة وعرفوه به. وأخذا يصطحبان إخوتهما إلى بحر الغزال ليتعلموا شؤون التجارة ويكتسبوا خبرة في الحياة كانت تتوفر في تلك المناطق أكثر من سواها. ولما عادوا ليستقروا بعد رحلاتهم التجارية المتعددة، كان أبوقرجة قد وضع يده على تلك الأرض الواقعة على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض، وعمد إلى استصلاحها. فمنطقة القطينة لم تعد تسع طموحه ورغبته في التوسع في الزراعة. كما أن الأمر كان يرتبط بلا ريب بهجرة الشيخ محمد أحمد (المهدي) إلى الجزيرة أبا القريبة من أم غنيم.

نشأ الحسن تقياً، نقياً، زاهداً، ورعاً يميل إلى العبادة بصورة تلفت النظر. وقد إقترب من الشيخ محمد أحمد كثيراً أثناء زياراته لهم بأم غنيم. وتلقى البيعة السرية مع

إخوته بنفس المكان. وقد ظل الإمام المهدي ينوه بهم دائماً كأول المبايعين الصادقين. وقد لحقوا به في قدير. وخاضوا جميع المعارك في مقدمة الأنصار المجاهدين حتى ملحمتهم الكبرى، مطاردة حملة هكس والقضاء عليها قبل أن تصل لقمة سائغة لجيش المهدي في شيكان. وقد كان ذلك الإنتصار تحولاً رئيسياً في مسار الثورة والوصول إلى أهم أهدافها وهو تحرير الخرطوم الذي قدموا في معاركه أرواحهم رخيصة وضربوا أروع الأمثال في البذل والتضحية.

كانت آخر المهام التي كلف بها المهدي الحسن هي التوجه إلى دنقلا لدحر فلول الانجليز وطردهم من دنقلا تمهيداً للزحف على مصر لتحريرها من المحتلين الإنجليز. وقد سماه أميراً للدناقلة وسلمه رايتهم.

لما بلغه نبأ وفاة الإمام المهدي في يونيو 1885م – وهو في دنقلا – شق الأمر على الحسن وأصابه حزن عميق. فقد كان للإمام منزلة لا تدانيها منزلة في نفسه. فقد صحبه – شأن إخوته قبل الدعوة وتتلمذ على يديه في الطريقة السمانية وصدق دعوته وانخرط فيها وبات واحداً من أصحابه الأبكار الذين لم يفارقوه ولم يعد لهم شاغل سوى الإنتصار لدعوته. وظل طيلة الستة أشهر التي قضاها على قيد الحياة بعد إنتقال الإمام المهدي يؤم الأنصار ثم يلتفت إليهم للدعاء معه لنيل الشهادة حتى استجاب الله لدعائه ومضى إلى ربه راضياً مرضيا. وحفظت جثمانه العناية الإلهية وبات موضع قبره مزاراً بعد أن لمس الناس فيه من آيات تدل على الصلاح.

وقد ذكر الناس أنه لما أخلى الانجليز المنطقة أراد العمدة دهب أن ينشر الجثمان ليعيد دفنه في المقابر العامة. ولكنه رأى الشهيد في منامه يقول له «يا دهب هذا مكاني فأرحل أنت». فما كان من العمدة إلا أن يذعن لرغبة الشهيد ويذبح الذبائح إحتفاء بهذه الرؤية المنامية ويقرر إخلاء الدار ويشيد أخرى بالقرب منها.

كان الوالد عليه الرحمة ينتوي دائماً السفر لزيارة قبر والده إلا أن رغبته لم تتحقق.

وأذكر وأنا في طفولتي أن تلقى الوالد رسالة من جدنا الشيخ مصطفى محمد الأمين الغبشاوي يخاطبه في مطلعها بيا «ابن شهيد معركة مكركي» و «يا بقية الكرام» منوهاً بما سمعه عنه من كريم الخصال وحسن الأحدوثة. وما زلت أحتفظ ببقايا الرسالة التي سطا عليها الزمن فانطمست حروفها. ويبدو أن الشيخ الغبشاوي كان قد شارك في معركة جنس. وقد تقدم به العمر حين كتب الرسالة وفقد بصره لكنه كان لا يزال يؤم المصلين في أحد مساجد بربر. وبعد هذه الرسالة ازدادت رغبة الوالد في زيارة قبر والده ولكن كان الداء قد هده وتمكن منه.

إستشهد الحسن وخلف ولدين أصغرهما والدنا الذي رأى النور بعد وفاة والده. وعمنا محمد – من زوجة أخرى. وقد توفى في عام 1942 ولم يخلف ذرية.

لا أحد يعرف بالضبط ما حل بريحان الذي نال منه التعب والإعياء ما هو فوق الإحتمال. وقد أكدت الروايات أنه عاد وأبلغ الأمير أبوقرجة شقيق الشهيد بتلك الأحداث والمكان الذي ضم ذلك الجسد الطاهر. كانت فاطمة بنت علي يوسف أغا أرملة الشهيد حبلى في شهورها الأخيرة. ولا أحد يدري ما إذا كانت قد لحقت بقرية العمدة دهب مع بقية أفراد أسرة الشهيد أم توجهت جنوباً للعودة إلى أمدرمان. إلا أنه من المؤكد أنها وضعت حملها في دنقلا قبل عودتها. وكان المولود هو حسن الذي سموه على والده العظيم. عاشت جدتنا فاطمة حتى حوالي عام 1924 وقضت السنوات الأخيرة من عمرها في أم غنيم ترعاها والدتنا حتى توفاها الله (عليها الرحمة). رأى أهل أم غنيم امرأة من طراز مختلف ذات سلوك في غاية التحضر تجيد صنع الطعام وتتفنن في إعداده. كما أنها كانت تجيد اللغة التركية التي تعلمتها في مدارس الخرطوم في السنوات القليلة التي سبقت تحرير الخرطوم. وقالوا إنها كانت بارعة الحسن ومحدثة تروي حكايات في غاية الطرافة والإبداع. تجتمع النساء من حولها يتزودن بحديث تلك المرأة التركية ذات التجارب الثرة. إلا أن الضيق كان

ينتابها في بعض الأحيان فتكف فجأة عن الحديث وتلوذ بالصمت وتلتفت إلى ناحية أخرى كأنها ترجوهن أن يتركنها لوحدها. إعتادت النسوة على غرابة أطوارها فكن يعتذرن ويودعنها بلطف ولباقة لتبقى وحدها. لا بد أن أطيافاً من تلك الذكريات الدامية الأليمة كانت تمر بخاطرها فيغشاها الكدر ويستبد بها الحزن.

حين عادت إلى أمدرمان واستقبل أولاد عثمان مولود شقيقهم الشهيد ووالدته تقدم إليها شقيقه زكريا طالباً منها الزواج ليضم الحسن الوليد إليه ولكنها رفضت واستعصمت بالرفض طويلاً. حتى تزوجت في وقت لاحق بأحمد المصري الذي أنجبت منه عمتنا آمنة التي كانت تصغر أخاها الحسن بسنوات ربما تجاوزت العشر.

لا أحد كان يدري ما ينطوي عليه صدرها من أحزان. كانت الذكريات المريرة تعصف بذاكرتها. بل تكاد لا تبرحها قط. كلما أشرقت الشمس كان وجه ذلك الصباح يطل عليها فتعجز عن الهروب منه فتنخرط أحياناً في بكاء مرير.

ما استطاع أحد من المؤرخين أن يقدم صورة وافية لما حدث لأهالي الخرطوم في يوم الإثنين 26 يناير 1885م وما تلاه من أيام. إلا أن إبراهيم فوزي الذي كان مديراً للخرطوم وعلى صلة ببعض الأهالي وخاصة الأجانب فقد قدم صوراً جديرة بالتأمل. إنها الحرب وما يترتب على تداعياتها من أهوال. فالخرطوم قد استبيحت صباح يوم التحرير وانطلق جنود منتصرون يرون في أهالي المدينة كفاراً تهدر دماؤهم وأموالهم وتسبى نساؤهم.

تقتطف جزءاً يسيراً من كتابة «إبراهيم فوزي[1]» باشا حول ما رآه من أحوال مواطني الخرطوم صبيحة يوم الفتح. فقال (وقد رأيت كثيراً من النساء أصبن بالجنون لهول ما قاسينه من أليم العذاب وأخريات فقدن العقل عندما رأين أولادهن وأزواجهن مذبوحين بين أيديهن وفيهن من فقدت من الأولاد سبعة وثمانية. ولقد

1. السودان بين يدي غردون وكتشنر ص17. الجزء الثاني.

رأيت امرأة رجل مصري اسمه عطية كان أمين ورق «التمتعة» قتل زوجها وإخوتها ثلاثة وأولادها خمسة وأحفادها من جهة أولادها ثلاثة وأزواج بناتها ثلاثة وأحفادها من جهة بناتها أربعة. وكان عمرها زهاء سبعين سنة. فكنت تراها وقد ذهل عقلها وهي تصف لكل من وقع نظرها عليه مصرع أولادها ثم تتناول التراب وتضعه على رأسها ثم تصرخ وتهيم على وجهها في الفلاة وهكذا كان حالها حتى توفيت بعد بضعة شهور. ومثل هذه المرأة يعد بالمئات.

وأصيب كثير من الرجال بمثل ما أصيبت به هذه المرأة. وكثير من الذين نجوا من تلك المذبحة ماتوا لفرط ما أصابهم من الحزن بعد أن انفطرت أكبادهم من هول ما رأوه في ذلك اليوم المشؤوم). إنتهت رواية إبراهيم فوزي.

رأيت من الأفضل ألا أصدم شعور القارئ بالصور التي قدمها فوزي ومن أراد أن يستزيد فيمكنه الرجوع إلى هذا المُؤلَف.

ما كان الإمام المهدي يرغب في وقوع مثل تلك الأحداث الدامية. فقد خاطب غردون في رسائله إليه بالتسليم حقناً للدماء. ولكنه أصمَ بأذنيه في عناد مجنون وأصرَ على موقفه حتى اللحظات الأخيرة من الحصار.

لم أسمع والدي قط يتحدث من قريب أو بعيد عن أهله الذين قتلوا في الخرطوم صبيحة ذلك اليوم. فقد كان آباؤه هم قادة ذلك الزحف العنيف. إلا أن أخته آمنة روت لي أن جدها علي يوسف أغا قد قتل إلى جانب أبنائه الصغار الذين كانوا مختونين حديثاً لا تزال الحناء تلون أظافرهم الغضة.

أقيمت زريبة واسعة على عجل لتضم نساء المدينة – الحرائر والإماء– وذكرت المصادر أن المهدي كلف أحمد سليمان أمين بيت المال بهذا الملف وطلب الإمام أن تسوى أحوالهن على الفور وأن تسلم أي امرأة لأي ولي يطالب بضمها إليه وأن تزوج الحرائر على الفور. والواضح أن أمرهن لم يقتصر على أحمد سليمان وحسب

بل أن الأمير أبوقرجة وأخاه حسن لم يكونا بعيدين عن هذا التكليف. فكن يرتعبن ويتوجسن حين يقبل أبوقرجة بصوته الجهوري المديد الذي ترتجف منه قلوب الرجال إلا أن شقيقه الأصغر كان يخاطبهن بترفق ورحمة، «كيف أصبحتن يا أنصاريات»؟ ويستفسر عن أحوالهن وما إذا كن قد تعرضن للجوع أو المرض. ثم يأمر بتسوية أوضاعهن.

كانت فدلم بنت سليمان المغنية من بين هؤلاء النسوة حين قدموها للأمير أبوقرجة. فسألها عن أغانيها التي كانت تمجد فيها الأتراك وتتمنى الهزيمة للأنصار «يا رب يا كريم تخذل أب قرجة» ولكنها أنكرت. وقالت إنها كانت تقول:

الرصـــــاص عــــــوى

وفـــوق التـــــرك قجــــة

ويارب يا كــريم تنصر أب قرجة

فضحك الأمير وأمنها فأعادت على مسامعه أغنيتها التي وردت في موضعها من هذا الكتاب.

كانت فاطمة بنت علي يوسف أغا فتاة في حوالي الخامسة عشرة من عمرها ذات جمال لا تخطئه عين. كانت تجلس إلى جانبها والدتها مدينة حين اصطفاها الحسن بن عثمان زوجة له. وحين أمر بحملها إلى مكان إقامته وعلمت أنه بصدد زواجها أخذت تبكي وتنتحب رغم أن الكثيرات كن يحسدنها على ذلك الأمير لين العريكة. فاتضح أنها كانت ترغب في اصطحاب فتاة أخرى تيتمت - بنت خالة لها فيما زعمت – تدعى عيشة بنت عبد السلام فتزوجها الأمير أيضاً تلبيةً لرغبتها. إلا أن أخبارها إنقطعت بعد ذلك ولم يأت الرواة بمزيد من المعلومات عنها. وما زلنا نأمل في أن نعثر على سلالة لها في أي بقعة من بقاع السودان.

لم يلبث الأنصار أن نفذوا أوامر الإمام المهدي بالإنتقال من عاصمة الترك إلى

عاصمته الجديدة. وكان الأمراء أول من شرعوا في بناء منازل بسيطة لسكناهم. فمنذ وصول العروس إلى الدار شرعت الخادمات في إعداد حفرة للدخان. وما أن أعملن الحفار في الأرض حتى اصطدم بجسم صلب تبين أنه برمة من الفخار تحتوي على كمية كبيرة من المصوغات الذهبية والخرز والسوميت. فزغردن من الفرح. أقبل الخدم الذكور ورأوا الكنز فأسرعوا بإبلاغ الأمير الذي أمرهم بإحضاره وحمله فوراً إلى بيت المال. وقبل أن يأخذوه أخفت خادمة العروس الشيء الكثير وقدمته لها ليصبح فيما بعد خير معين لها في عام 1306هـ ولولاه لحدث ما لا يحمد عقباه فقد كان صغيرها لا يزال في الثالثة من عمره.

كانت هذه إحدى الحكايات التي روتها لنساء أم غنيم. كما كانت في معظم الأحوال تتحدث عن خرطوم الترك التي كانت قبل التحرير. وتروي كثيراً من القصص حول والدها علي أغا الذي كان يعمل معاوناً في إدارة الأتراك ويمتلك داراً فسيحة في الخرطوم تحيط بها الأشجار. وتتحدث أيضاً عن والدتها مدينة التي تزوجها والدها في بربر وهي من قبيلة الميرفاب. إلا أنه حين تطوف ذكريات محنة عائلتها تغالب الدمع وتلوذ بالصمت مشيحة بوجهها عن الحضور.

لا بد أن أرملة الشهيد أم حسن قد إلتحقت بإحدى المدارس الأهلية المخصصة للبنات في خرطوم الحكم التركي. والتي كانت تقام في البيوت وتديرها نساء مصريات ومولدات متعلمات، يدرسن التطريز والطبخ والشئون المنزلية. كما كانت بالخرطوم أيضاً نساء حافظات للقرآن الكريم يعلمنه لبنات علية القوم. ذلك بالإضافة إلى الدروس الدينية والخط.

تأخرت ١٢٩ عاما
زيارة مباركة لقبر الشهيد

تحول المساء بغتة إلى ليل بهيم. هبط الظلام وأطبق علينا. لم يتدرج كما ألفنا. رفعت رأسي إلى السماء أنظر، فرأيته قريباً بشكل مخيف. بدا كمرآة صقيلة تنعكس عليها ملاءة عتيقة زرقاء متغضنة الأطراف. وتبعثرت فيها النجوم كاللؤلؤ الناصع الأخاذ. هذه الأرض قريبة من السماء بشكل لا يصدق. تحس أن يداً لو امتدت للامستها. هل إنتاب هذا الشعور غيري!؟ أم كان مخفياً في دواخلي، تغذيه قراءاتي – بقدر ما أتيح لي – عن قداسة هذا المكان وازدحامه بخطى الأنبياء والرسل!!

كنا قد وصلنا إلى جنس للتو فانهكمنا في تنظيف مكان قبر جدنا الشهيد وإزالة طبقات التراب التي تراكمت طيلة ثمانية وعشرين ومائة عام. كانت أنفاسي تعلو وتهبط ويبللني عرق كثيف. فهذه اللحظة الخرافية النادرة ظلت كامنة في شعوري ووجداني منذ أن تفتحت عيناي على الوجود. (حمل ريحان جثمانه وركض صوب القرية، يختفي نهاراً ويواصل السير ليلاً حتى وقف أمام منزل العمدة دهب ود غانم).

هذه قلعة طينية مهيبة شامخة وليست قصراً بمواصفاته المعروفة، كما يطلقون عليها. في أعلاها برج وأبواب الغرف في داخلها ضيقة لا تسمح للإنسان بالدخول واقفاً. ربما اتخذها العمدة سكناً ولكنها تصلح للدفاع أيضاً. قيل إن الذي شيدها هو العمدة محمد خير ود غانم والد دهب في القرن التاسع عشر. حين جلسنا نستمع لأحد أحفاده قال إن قيادة قوات الأنصار اتخذتها مقراً للرئاسة. هذا المكان لم يكن غريباً على الأمير الحسن الشهيد. هذا كان معقله الذي ظل يراقب من خلاله تحركات العدو. ثقب المزاغل في البرج يطل منها ويستخدمها لإطلاق النار. كان العمدة دهب وطنياً متعاطفاً مع الأنصار. رآهم يقاتلون الغزاة الإنجليز فانحاز إليهم. أخلى القلعة وشيد بيوتاً جديدة لعائلته في الجانب الآخر. وجدنا سلالته لا تضمر إلا الخير للأنصار. لا تنطوي

قلوبهم إلا على المحبة والإكبار. ولما بدأ الإنجليز بالهجوم محيطين بمعسكر الأنصار إندفع الحسن بفرسه نحو ساحة المعركة. حاول بعضهم أن يصده لما رأى ضراوة الهجوم. ولكنه لوى عنان فرسه واقتحم صفوف العدو فامطروه بالرصاص وسقط شهيداً. قام ريحان بدوره المشهود فحمل الجثمان إلى القلعة على النحو الذي رويناه. هذا المشهد أقرب إلى حقيقة ما حدث من الرواية السابقة، وإن لم يختلف كثيراً. ظل الشهيد في رقدته الأبدية هذه منذ ديسمبر 1885م. وظل العمدة دهب وعائلته وأهله من بعده يبذلون ما بوسعهم من عناية للحفاظ على القبر.

هؤلاء السكوت أهل نجدة ووفاء وأهل كرم وسخاء. هرع إلينا الشاب عوض ركضاً تتابع أنفاسه حين رأى سيارتنا تقف أمام القلعة التي تواجه داره. ليس أبعد من ثلاثمائة ياردة. وضع نفسه تحت خدمتنا على الفور. حمل المعول يزيح التراب ويراكمه خارج الغرفة المكشوفة التي تحتوي القبر. واتصل بالبنّاء يطلب حضوره على عجل. وصحب أحد أحفاد الشهيد إلى عبري لشراء المواد اللازمة لإقامة الضريح وتثبيت الشاهدين. وعندما فرغنا من المرحلة الأولى على أن نعاود العمل في الصباح صحبنا إلى داره لنجد في انتظارنا مائدة سخية عامرة. ومن ثم إستضافنا لليلتين في داره. حضر مبارك دهب -المهندس الزراعي بالمنطقة - وتبادل معنا كثيراً من الأحاديث. واتصل من فوره بالسيد عمر بن العمدة دهب في منزله بالدروشاب. رحب بنا عمر دهب الذي تجاوز الثمانين ترحيباً حاراً عبر الجوال وتمنى لو كنا اتصلنا به قبيل توجهنا إلى جنس ليصحبنا إلى هناك. وفي الصباح الباكر بعث إلينا بصورة فوتوغرافية واضحة للعمدة دهب. كان الحصول عليها بمثابة العثور على كنز ثمين.

وصل غسان بن عبود متأخرا من مدرسة كوشة الإبتدائية. جاء الينا مباشرة حيث كنا قرب قبر الشهيد. حيانا بصوت خافت خجول ووقف الى جانبنا فترة من الزمن. أخذ يتردد علينا صباحا ومساءً. كان قد احتفل بعيد ميلاده الرابع عشر قبل يومين.وفي المساء الأخير جاء يحمل مقطفاً من البلح الجيد وأصر على ان نأخذها كهدية شخصية منه. والد غسان يعمل في السعودية وهو صديق لبعض شباب العائلة الذين كان قد

التقاهم قبل سنوات. وعندما علم بوجودنا في جنس أخذ يتصل هاتفياً مرات ومرات يتابع خطواتنا.

منذ الوهلة الأولى إعتقد سكان المنطقة في صلاح الحسن الشهيد وتحدثوا عن كرامات له. فأخذوا يزورون القبر يتبركون، وأطلقوا عليه اسم سيدي المهدي والشيخ قورجة. واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقت قريب حين تغيرت الظروف حول المكان. هاجر الناس من جميع القرى وأضحت خالية يحيط بها السكون. ولكن جمالها ما زال ماثلاً كأنها فراديس منسية. النخلات التي جاورت القلعة سموها نخلات سيدي المهدي. تبدو صغيرة مخضلة كالصبايا اليانعات. كأنما شتلوها قبل عام لا يزيد. تذوقنا ثمراتها الحلوة الناضجة. ومن ورائها مباشرة تنفذ إلى نهر النيل الذي بدا شاباً فتياً في عنفوانه وكأنه جدول كبير مصقول الجانبين صنعته أيد دربة لإستقامة شاطئيه واستوائهما. وقفنا على الشاطيء الشرقي نتطلع إلى الجانب الآخر حيث بدت تلال رملية بيضاء، نشأت بفعل الزحف الصحراوي. إرتفعت على الشاطيء جميلة كأنما تدخلت فيها يد فنان بارع. تنمو عليها أعشاب زاحفة كما تراءت لنا في ذلك المساء. أما جزيرة التماسيح فاستلقت قريباً وسط النيل. قيل إن تلك الكائنات تظهر أحياناً ولا تهاجم البشر. تكتفي بالتهام الأسماك العملاقة التي تتوافر في مياه السد القريبة.

غادرنا أمدرمان فجر الثلاثاء الثامن والعشرين من أكتوبر 2014م، في تلك الزيارة التي تأخرت أعواماً وأعواماً. جاء أخي شعيب من كوستي والتأم شمل وفدنا مع ابني شقيقنا الأكبر مصطفى – نصر ومحمد – وابن شقيقتنا حسن مصطفى إسماعيل. أعدوا للرحلة جيداً وحمَّلوا سيارة محمد مصطفى بكل الإحتياجات خاصة الطعام والماء البارد. وهم تجار أهل سفر وترحال مثلما كان أسلافهم. وكان أمامنا الف وخمسمائة كيلو متر لنقطعها في الذهاب والإياب.

بعد صلاة الفجر تحركنا في تلك الأجواء المتفائلة السعيدة. ترفدها أنفاس الصباح الندية بأحاسيس يصعب وصفها. كنا جميعاً مستبشرين والطريق خال من الزحام والسابلة. هذا الطريق سلكه جدنا عثمان – والد الشهيد – قبل قرنين. اصطحب

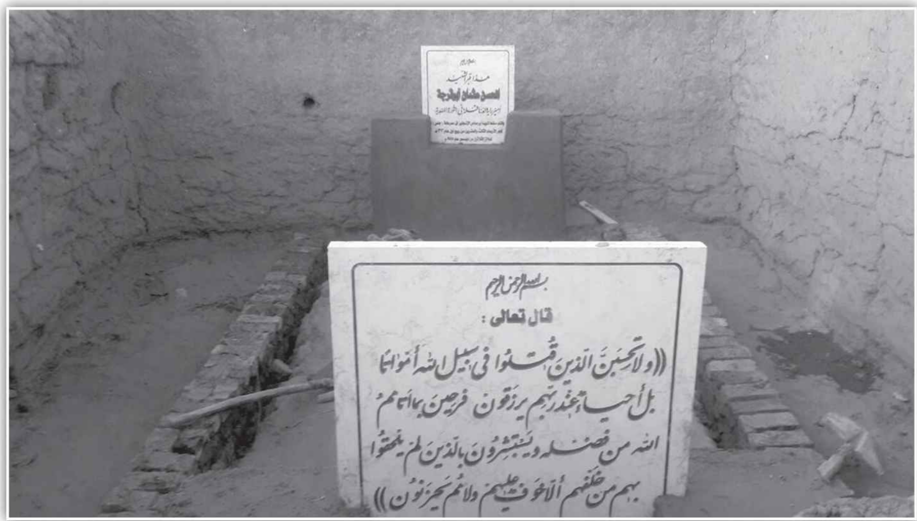
إحدى القوافل قادماً من مسقط رأسه – الحفير – متجهاً إلى أرض جديدة في زمان غير هذا الزمان. لا أحد يستطيع أن يرسم صورة دقيقة لهذا الطريق قبل مائة وتسعين عاماً مهما جمح به الخيال. كما سلكه ابنه الحسن أميراً يقود راياته متعقباً قوات الاحتلال الغازية – حملة الإنقاذ – التي تراجعت إلى دنقلا بعد سقوط الخرطوم في يد الأنصار. كان ذلك قبل قرن وربع القرن. وها نحن نسلكه الآن لنزور قبره في قرية جنس في أقصى شمال السودان. ظل الحسن ماثلاً في وعينا لم يبرح. والآن نسعى إليه في شارع مسفلت يشق تلك الدورب الوعرة التي مشاها مع رجال لم يشهد التاريخ أمثالاً لهم في التصميم ومضاء العزيمة. كم عطشوا وكم جاعوا وكم تعرت أجسادهم وتقرحت أقدامهم وسقط الكثيرون صرعى، وهم صامدون كالجبال الشم. لم يهنوا ولم يتراخوا ولم يتراجعوا ولم يركنوا للفرار هرباً من الأهوال. أكثر من سبعمائة كيلومتر قطعناها بسيارتنا الصلبة المريحة مكيفة الهواء ولم نسلم من الضجر يسيطر علينا من وقت لآخر. رغم الأنس الجميل الذي ما انفك يصحبنا طوال تلك الرحلة المباركة.

كان عزاء الأنصار وحداؤهم التهليل والتكبير، مفعمين بالشعور بالظفر أو الشهادة. يجوبون الصحاري ويتواثبون كالفهود فوق الصخور البركانية الجارحة، المشرئبة كالنصال. راوغتهم القوات البريطانية.. تراوح كالزئبق من مكان لآخر. وأخيراً جاءها المدد بقيادة الجنرال استيفنسن قائد قوات الاحتلال بمصر. أعدت للمعركة الفاصلة عدتها وانقضت على المعسكر مدججة بأسلحة لا قبل للأنصار بها، فسقط منهم خمسمائة شهيد. خسروا المعركة ولكنهم تربعوا على عروش المجد والجدارة والخلود كأشجع الرجال الذين درجوا على وجه الكوكب على مر العصور.

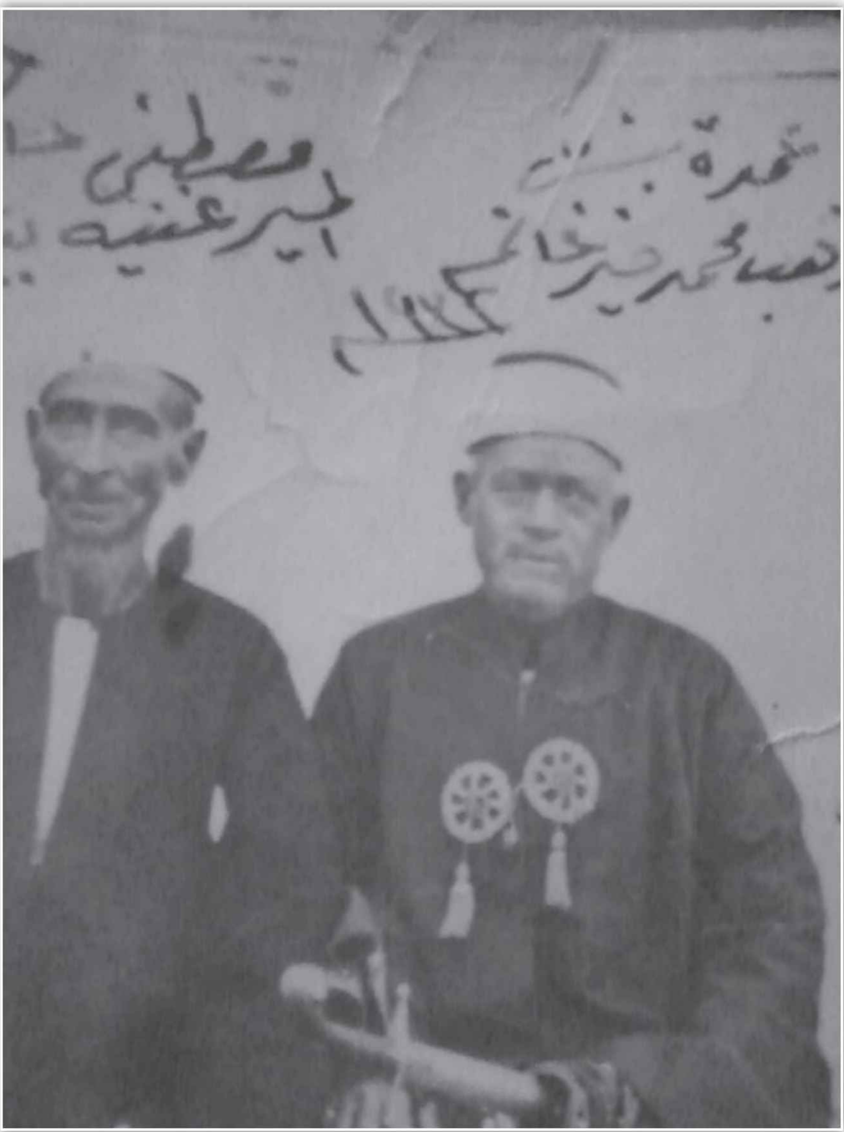
ولما عدنا قمنا بزيارة السيد عمر بن العمدة دهب في منزله بالدروشاب فغمرته السعادة وعبر عن فرحه كأنه إستعاد أمجاد والده ومآثره الجليلة. جلس إلينا شاباً فتياً رغم تجاوزه سن الثمانين. تحدث عن تجارب وذكريات. شاركته الحديث ابنته السيدة البرزة رجاء التي بدت عليها سمات الفضل والسماحة، كما بدت علائم النجابة على ابنها الفتى محمد.



قلعة دهب وفي داخلها قبر الأمير الشهيد الحسن عثمان



قبر الأمير الشهيد الحسن عثمان



العمدة دهب غانم – الي اليمين (وقد توفي في عام 1935 م)



نخلات سيدي المهدي (الشهيد الحسن) قرب القلعة

أبوقرجة في شرق السودان

أبوقرجة في شرق السودان

الخليفة عبد الله لأبوقرجة[1]

«أنت من فرســـــان الديـــــن

وأبطــــاله الميامـــين وأرباب

الرأي السديد والعزم الشديد»

بعد إثبات جدارته في معارك الثورة المهدية للتحرير كقائد عسكري إستراتيجي بالإضافة لما إشتهر به من الحزم والعزم والحكمة والعدل، إقتضت ظروف الدولة المهدية أن تبعث بالأمير أبوقرجة إلى شرق السودان. وذلك بعد سقوط مدينة كسلا ونفور الناس من سياسات عثمان دقنة وابن أخيه محمد فاي. إضطربت الأحوال واحتدم غضب الهدندوة حتى شمل خليفة المهدي نفسه الذي رفضوا قراراته. لم يجد الخليفة أحداً سوى الأمير أبوقرجة للقيام بمهمة تهدئة الأحوال وإقناع أهل الشرق بالسلطة الجديدة.

وقالت المصادر إنه لما بات الأمر في شرق السودان معقداً وانطلقت شرارة الثورة هناك وتأزم موقف المهدية في كسلا فكر الخليفة في تلافي الموقف المتفجر فاستدعى عثمان دقنة لطرح وجهة نظره في هذا الموقف وكيفية تجاوزه، إلا أن دقنة الذي قابل الخليفة بأمدرمان إستطاع إقناعه بسلامة موقفه فثبته في مكانه وكتب إلى القبائل يقول «إن الحبيب الصفي القائم بمساعدتنا وصدق إتباع إشارتنا عثمان بن أبي بكر دقنة هو العامل عليكم وملزمين بطاعته وامتثال أوامره في جميع ما يشير به عليكم وبعد أن

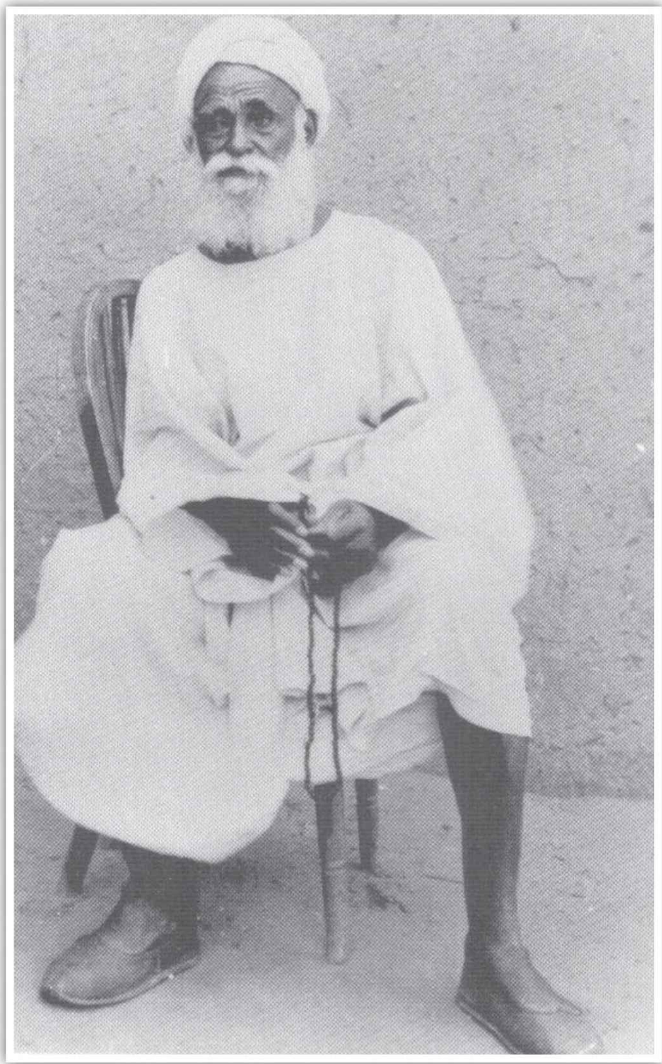
1. من الخليفة لأبوقرجة مهدية: صادر 9 وثيقة 259 غرة جمادى الأولى 1303هـ 5 فبراير 1886م..

إجتمع بنا وازددت تنوراً بتجديد عهدنا وسماع مذاكرتنا.. ورأينا أوفقية تعجيل عودته إليكم في أول جيش وها هو المذكور واصل إليكم فليزم أن تقابلوه بالإنشراح.«وأرسل معه الخليفة جيشاً كبيراً يقدر بحوالي عشرة آلاف من أخلاط البقارة والجعليين والدناقلة بقيادة الأمير أبوقرجة لمواجهة إحتمال إتساع حركة التمرد واندلاع الثورة.

ولما بلغ الهدندوة أن الخليفة إقتنع بموقف عثمان دقنة وثبته على عمالته تجمعوا في أم قروفة غير بعيد من كسلا. فأسرع الفكي علي بن حامد إلى أمدرمان وأبلغ الخليفة بما عليه حال الهدندوة من التحفز فتلافى الخليفة الأمر وكتب إلى الأميرين دقنة وأبوقرجة قبل وصولهما بأن يتبادلا منصبيهما فيصبح دقنة أميراً على الجيش وأبوقرجة عاملاً على القبائل. وكتب إلى القبائل الثائرة يقول: في 23 صفر 1304هـ (21 نوفمبر 1886م) [1]: فإن كان ما جرى منكم من الإعراض عن طريق الهدى والرشاد سببه- كما بلغني – ما أصابكم من الحبيب عثمان أبوبكر دقنة من الضرر وعدم المراعاة ومعاملتكم بالشدة وأنكم ما زلتم تحت طاعة المهدية فأعلموا أنه قد عينا من طرفنا الحبيب محمد عثمان أبوقرجة لمباشرة أموركم وراحة بالكم ورفع الضرر والسير فيكم بمقتضى السنة المحمدية والطريقة المهدية وأرسلنا معه قاضياً شرعياً وعضدناه برجال من أمناء الدين والأصحاب السابقين. وما تركنا للحبيب محمد عثمان أبوقرجة من التوصية والرفق بكم وسيعمل فيكم بمقتضى وصيتنا ويعاملكم بالعدل والفضل ولا يأخذ منكم غير الزكاة المفروضة عليكم في كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم).

وحرص الخليفة على توزيع المهام والإختصاصات بين دقنة وأبوقرجة وكرر كلمة رفع يد دقنة عن القبائل نهائياً وأوكل كل ما يتعلق بقبائل البجة الإدارية والمالية والسياسية والعسكرية وكلف بها عامل الشرق الجديد محمد عثمان أبوقرجة. أما

1. مهدية 4/41/58/2 – من الخليفة إلى أهالي كسلا 16 محرم 1304هـ.



عثمان دقنة في سجنه بمدينة حلفا

الجيش الذي خرج به أبوقرجة فقد أسند أمره إلى دقنة. وحتى هذه الصلاحيات المحدودة التي أسند أمرها إلى دقنة حرص الخليفة أن تكون في طي الكتمان[1].

كما أوصى الخليفة عبد الله أبوقرجة بالترفق في معاملة أهالي الشرق حتى يزيل آثار قسوة محمد فاي فضلاً عن بسط المحبة والعلاقة الحميمة مع عثمان دقنة وقال «إن عربان جهات سواكن ونواحيها قد نفروا من الدين واحتاجوا لدخول جديد فيه (والمتبالغ) من جهتهم أنهم نافرون عن حكم الحبيب الصفي عثمان دقنة ولذلك جرى ما جرى. وهم قد أخطأوا الطريق وعدلوا عن سنن إلتحقيق واستحقوا الزجر. ولكن نحن لشفقتنا على الأمة أحببنا أن نبادرهم في أول الأمر بالإحسان والتأليف والأمان بوجوه تفحمهم وتقطع حجتهم ظاهراً وإن كانوا لا حجة لهم علينا في الواقع لإختيارهم الكفر بعد الإيمان ونقضهم لعهد الرحمن.. ما دام أن حال هؤلاء العربان قد صار إلى ما صار إليه وتمكن إعراضهم عن الحبيب عثمان من قلوبهم فإن كافة الأمانات والإنذارات التي تصدر منكم إليهم فلتكن باسم محمد عثمان أبوقرجة كأنه مرسل منا إليهم بالإستقلال ولتكون معاناتهم في الظاهر منوطة به ولا تبتدرهم أنت أيها الحبيب عثمان بشيء ولا تقدم لجهتهم أمام ذلك الحبيب)[2].

وجاء في مؤلف نعوم شقير «جغرافية وتاريخ السودان» «فرضي الهدندوة بذلك، وحال وصول أبوقرجة إلى كسلا بث العادَيِّن[3] في أنحاء البلاد، فقاموا بتعداد الأنفس والمواشي وشرع في جمع الزكاة على ما يفرضه الشرع الإسلامي. وكان محمد فاي قد هجر بندر كسلا ونزل في ديم توكروف، وإتخذ أبوقرجة محلجة القطن التجارية التي أنشأها التاجر عمر أغا خارج البندر ديماً له.

وقال الشيخ محمد موسى ناظر الهدندوة في مخطوطه إنه عندما إجتمع الناس في

1. مهدية صادر 150/1/13 من الخليفة إلى دقنة وأبوقرجة 31 ديسمبر 1886م، 4 ربيع ثاني 1304هـ.
2. مهدية صادر 81/1/13 من الخليفة إلى دقنة وأبوقرجة 1 صفر 1304هـ 8 نوفمبر 1886م.
3. رجال إحصاء.

كسلا وتلا أبوقرجة أوامر الخليفة برحيل عثمان دقنة وجماعته إلى طوكر وسلنهات على أن يترك تنظيم المدينة وإدارتها لأبوقرجة إمتثل دقنة للأمر وخرج من المدينة. وقال الناظر وكنا لا نسمح للهدندوة بالذهاب معه. ومن أصر على أن يتبعه جردناه من كل ما يملك إلاَ ملابسه. ثم بدأ أبوقرجة في تنظيم المدينة فطلب مني أن أعين له أربعة أمراء من الهدوندوة على أن أكون أنا واحداً منهم. فعينت له محمد الهداب ومحمد الحاج الهاكولابي وبلال الأمين. وسمح أبوقرجة للشيخ محمد الأمين محمد عوض أن ينفرد بإمارة الحلنقة. أما الأجانب كالجعليين والدناقلة والتكارير، بالإضافة إلى من تبقى من قبائل البجة مثل المليهتكناب والسقولاب فقد إنضموا إلىَ أنا».

وهكذا أسفرت ثورة الهدندوة في كسلا عن عزل رجل المهدية الأول في كل شرق السودان، إلاَ أن هذا الأمر لم يدم طويلاً حيث تغير رأي الخليفة بعد أقل من شهر وأرسل خطاباً للأميرين أبوقرجة ودقنة عدل فيه عن قراره السابق بالإبقاء علي عثمان دقنة بالاحتفاظ له بمركزه مع مراعاة المحافظة على استقرار المنطقة وهدوئها حتى تستقيم الأحوال. إلاَ أن نفوذ دقنة انحسر نهائياً في كسلا وما جاورها ولم يتبق له إلا اسم الأمارة.

وصف الأستاذ محمد الأمين شريف – أحد مؤرخي شرق السودان البارزين في كتابه «تاريخ مدينة كسلا» الأمير أبوقرجة – فقال «كان الأمير أبوقرجة رجلاً شجاعاً كريماً وشهماً وذا شخصية قوية. وقد أحسن إدارة مدينة كسلا ومنطقتها حتى أرضى جميع القبائل النافرة وهدأ الأعصاب المتوترة والمتحفزة للقتال. «فبمجرد توليه إمارة كسلا أحسن معاملة الناس، وكسب ود زعماء العشائر والقبائل، فهدأت خواطر المجموعات الثائرة - خاصة الهدندوة - بعد أن خفف عنهم الضرائب، وأوقفها عند حد الزكاة الشرعية. وأقر زعماء العشائر ورؤساء القوم على رئاستهم. ثم نظم شؤون التجارة والزراعة والأعمال الأخرى. كما فتح طرق المواصلات وأمنها، لا سيما بين

كسلا والمدن الرئيسية مثل القضارف وسواكن وأمدرمان ومصوع، وذلك رغم دخول الإيطاليين في إريتريا. فلما رأى النافرون عدله واستقامة أمره عادوا إلى مناطقهم بعد أن كانوا هجروها، فامتلأت ضواحي كسلا بفرقان العرب وانتعشت المدينة وسوقها انتعاشاً جيداً، وفي بحر عام واحد حدث تقدم كبير في الإصلاح والعمران».

وقد إمتدح الخليفة سياسة الأمير أبوقرجة التي أعادت قبائل كسلا إلى حظيرة المهدية، وذلك في رسالة جاء فيها «نقول لك أيها الحبيب جزاك الله خيراً عن إجتهادك في توسيع دائرة الدين وإصلاح العباد وسوقهم إلى رب العالمين. هذا الظن بك والأمل فيك، فما زلت فشد حيلك فيما نحن بصدده.. وكافة الرؤساء من الهدندوة والشكرية الذين بجهتك والحمران وغيرهم فليكن حضورهم لطرفنا ليدركوا العيد معنا»[1].

في هذا الإيجاز الموثق أردت أن أوضح الأسباب التي دفعت بالخليفة عبد الله إلى إرسال الأمير أبوقرجة إلى شرق السودان. وذلك لأن الأمير عثمان دقنة كان هو رجل المهدية الأول في تلك الأنحاء منذ عودته من الأبيض بعد لقائه مع الإمام المهدي ومبايعته له وحمَله منشورات الدعوة والرسائل إلى زعماء القبائل ورجال الدين وتفجير المعارك ضد مواقع سلطات الإحتلال.

أما محمد فاي الذي عينه عمه الأمير دقنة عاملاً على مدينة كسلا ومناطقها لم يكن شخصاً عادياً عاطلاً عن القدرات. فهو ابن الشيخ علي بك دقنة المشهور والذي كان من أقوى شخصيات سواكن الرأسمالية والإجتماعية في زمانه. وكان أيضاً من خاصة الشيخ محمد المجذوب، كما كان ذا حظوة لدى الحكومة المصرية – التركية لا سيما في عهد الحكمدار ممتاز باشا الذي قلده مشيخة سوق سواكن، فكان سر التجار فيها. وهو الذي التزم بتجربة زراعة قطن السايكل في طوكر. وتمت التجربة

1. من الخليفة لأبوقرجة مهدية صادر 344/3/13. 1717 ذو القعدة 1304هـ أغسطس 1887م.

فعلاً لأول مرة في السودان على يد موسى محمد دين الأُرتيقي في عام 1870م»[1].

«وكان محمد فاي بطلاً مغواراً لا يعرف الخوف. وهو الذي هجم فيما بعد على أحد الضباط الإنجليز المدافعين عن قلعة سواكن، ووصل إليه، رغم وابل الرصاص، فشطره بالسيف شطرين، إلاَ أن الإنجليزي كان قد أصابه برصاصة أصابت منه مقتلاً فماتا معاً في الحال». إلاَ أن الأمير محمد فاي رغم شجاعته وانحداره من بيت رئاسة لم يستطع أن يترفق بالهدندوة ودفعه الحماس لأن يفرض ضرائب باهظة عليهم. وقد إستكثر ناظرهم الشيخ محمد موسى تلك التقديرات الضريبية. واحتدم النقاش بينه وبين محمد فاي حتى تطور إلى خصومات أسفرت في النهاية عن الزج بناظر الهدندوة في السجن. الأمر الذي فاقم غضب قبيلته[2].

لم يكن شرق السودان خالياً من الطوائف الدينية والتنافس فيما بينها. كما لم يكن أرضاً يباباً بكراً لتقبل الدعوة المهدية في سهولة ويسر. كان دقنة التاجر المتدين ذو الإهتمامات الثورية – يدين بالولاء للطريقة المجذوبية الشاذلية التي يرعاها السادة المجاذيب وفي مقدمتهم الشيخ الطاهر المجذوب. وتنافسها في المنطقة الطريقة الختمية برعاية السيد محمد عثمان بن السيد الحسن الميرغني وذلك إبان انفجار الثورة المهدية. وكانت سلطة الأتراك المصريين تقرب الختمية وتؤثرهم على الآخرين. فلما نشبت المعارك ضد مواقع السلطة في المنطقة إنحاز إليها الختمية بثقلهم التعبوي والمعنوي بعد أن أنكروا الدعوة المهدية جملة وتفصيلاً. وقد تطورت الأحداث حتى سقطت مدينة كسلا في يد الأنصار. ومن التطورات البارزة التي صاحبت تلك الأحداث هو هجوم عثمان دقنة – الذي أعقب معركة كوفيت – على قرية الختمية بجيشه فجرى تدمير مسجد الختمية الكبير والضريح الذي أقيم للسيد الحسن. وكانا

1. من كتاب تاريخ مدينة كسلا لمحمد الأمين شريف ص 167-168.
2. المصدر السابق.



ضريح السيد الحسن الميرغني في كسلا قبل إعادة بنائه

آيتين في فن العمارة وبتدميرهما إندثرت أهم المعالم التاريخية الرائعة للطريقة الختمية. الأمر الذي ترك أثراً ظل يتداعى ويظلل علاقات الأنصار بالختمية حتى وقت قريب.

ولعل التاريخ أخفق في تسجيل الدور الذي لعبه الأمير أبوقرجة بمحاولاته إزالة الأضرار التي أصابت هذين الأثرين أو التخفيف منها ببعض أعمال الصيانة. حتى أنه بعث إلى مصوع لإحضار السندس الأخضر لكسوة الضريح. وقد خلف سلوك أبوقرجة المختلف في نفوس الختمية أثراً طيباً ظلوا يذكرونه حتى يومنا هذا. وهذا الموقف هو الذي دفع السيد علي الميرغني لبعث الرسائل إلى السلطان علي دينار يناشده إخلاء سبيل الأمير أبوقرجة الذي احتجزه طويلاً في الفاشر. ولقد رأيت قبل سنوات رسالة من السيد علي الميرغني للأمير أبوقرجة وذلك بعد عودته من منفاه.

وحين حل الأمير كنتباي مأموراً لمركز سنكات في ثلاثينات القرن العشرين إحتفت به السيدة مريم الميرغنية وأكرمته وظل موضع إهتمامها ورعايتها حتى سمى إحدى كريماته بالسيدة مريم.

«لم يضيع أبوقرجة وقتاً وسرعان ما وظف قدراته العسكرية وبعد نظره في ترتيب الأوضاع الأمنية في منطقة شرق السودان. وقام بإنشاء النقاط العسكرية بين حاميتي كسلا وطماي لتطويق حركات القبائل المتمردة. وأصدر أوامره بإرسال الحملات الإستطلاعية وشن الغارات. وقالت المصادر إن أبوقرجة إتخذ بعض الإجراءات العسكرية للتغلب على أسباب الهزائم التي منيت بها المهدية في الشرق. وحاول الإستغلال الأمثل للقوات المتاحة في المنطقة، مما يدل دلالة واضحة على حسه العسكري النافذ وخبراته الميدانية المكتسبة»[1].

صحب الأمير أبوقرجة كثيراً من رجال القطينة والكاملين أهل الثقة من الفرسان

1. علي عمر "دور الأمير أبوقرجة في الثورة المهدية".

المجربين وفي مقدمتهم أخواه زكريا وحسين. ومن أبناء عمومته شايب أحمد وإدريس هارون. وكان هؤلاء كثيراً ما يقودون السرايا وينفذون المهمات الصعبة ويحرزون الإنتصارات. إلاَ أن التحركات البريطانية في سواكن ومحاولاتها السيطرة العسكرية على البحر الأحمر إستمرت بالإضافة إلى محاولات إيطاليا بسط نفوذها على منطقة كسلا انطلاقاً من مصوع. ذلك في الوقت الذي كانت فيه الحبشة تسعى للسيطرة على القلابات. أسفرت تلك المحاولات عن تشجيع تلك القبائل على التمرد ضد سلطة المهدية ورفع معنوياتها فتفاقمت الأوضاع وباءت محاولات دقنة لإخضاعها بالفشل. كما ألحقت به الحامية البريطانية في سواكن هزائم نكراء. فلم يلبث أن أمر الخليفة أبوقرجة بمغادرة كسلا على رأس جيشه ليلحق بدقنة في هندوب لتلافي تدهور الأوضاع. وبوصول أبوقرجة إلى طوكر إنتهت عمالته على شرق السودان.

لم يفلح أحدٌ من المؤرخين مثلما فعل الدكتور علي عمر بتفكيك الوثائق على نحو حاذق ومن ثم قراءتها بصورة ألقت ضوءاً كاشفاً على الخلاف الذي وقع بين الأميرين دقنة وأبوقرجة حول الإستراتيجية العسكرية تجاه سواكن. فقال «رأى الأمير أبوقرجة أن الإستراتيجية المناسبة لظروف منطقة سواكن هي ضرب الحصار الذي سيكون مفيداً ومثمراً بالحيلولة دون إتصال القبائل المعادية للمهدية بحامية سواكن. وبذلك يتم عزلها عن الحامية سياسياً واقتصادياً وعسكرياً. الأمر الذي من شأنه أن يضعف تلك القبائل المعادية بعد قطع الإمدادات المادية والمعنوية فتجد نفسها أمام الواقع بالانصياع لسلطة الدولة المهدية. وبذلك يكون أبوقرجة قد أكد على عدم حصار مدينة سواكن بقوله «لاعتمادها على البحر الكبير ومداومة مرور الوابورات إليها»[1].

وأضاف المؤلف «لهذا يصعب بل يستحيل حراسة ذلك المنفذ عسكرياً لأن

1. مهدية: 79/1/5/1 من أبوقرجة إلى الخليفة 29 شعبان 1305هـ/ 11مايو 1883م.

السفن تغدو وتروح بسهولة وهي تحمل لسواكن ما تحتاجه من مصر وبريطانيا التي تحتاج لتأمين طرقها إلى مستعمراتها في الهند. وعلى العكس من ذلك كان رأي الأمير دقنة هو ضرورة الحصار المباشر لسواكن حتى تذعن وتسلم للمهدية. ويعود ذلك الخلاف الحيوي للتباين الواضح في الخبرات التي تميز بها كل من القائدين العسكريين والتي تم إكتسابها من خلال حروبات المهدية.

فقد إكتسب أبوقرجة خبراته الواسعة من إستراتيجيات الحصار وتطبيقها الناجح أثناء حصار الأبيض الذي شهده مع الإمام المهدي، وحصار الشيخ محمد البصير الذي ضربه على حامية فداسي – والتي سلمها قائدها آخر الأمر لأبوقرجة. كما قاد أبوقرجة بنفسه عملية حصار الخرطوم حتى قطف ثمارها بفتح عاصمة الترك في يناير 1885م. وعاصر أبوقرجة عملية حصار مدينة سنار التي نفذها الأمير محمد عبد الكريم. كان أبوقرجة يدرك أن الحصار يعني حصر المحاصرين حتى تتقطع بهم الأسباب وسبل الإتصال – لا خارج ولا داخل- حتى تنفذ المؤونة ويفتك بهم الجوع الذي يؤدي إلى خيارين لا ثالث لهما. إما الموت جوعاً أو التسليم الذي غالباً ما يحدث.

لم يحدث لعثمان دقنة العمل في مناطق أخرى غير شرق السودان. وكان يفتقر للتجارب النظرية والعملية حول إستراتيجية الحصار. وقد اشتهر عنه عمليات الكر والفر فلم يمارس خططاً حربية مختلفة. ولقد ساند الخليفة إستراتيجية دقنة ربما لأنه أمضى وقتاً ليس بالقليل في معارك مع الحاميات المصرية التي تدعمها القوات البريطانية في الشرق وربما رأى أن أبوقرجة حديث عهد بمنطقة البحر الأحمر. غير أن الخلاف بين الأميرين شمل مكان المعسكر الذي أقامه دقنة في هندوب، والذي رأى أبوقرجة أنه غير مناسب بسبب قلة المياه وندرة الغلال فاقترح نقل المعسكر إلى طوكر الأمر الذي رفضه الأمير دقنة لإعتبارات رأى أنها الأفضل. وقبل أن يستفحل الخلاف بين

القائدين الكبيرين حاول الخليفة تلافيه لمواجهة الوجود البريطاني المصري والقضاء عليه بإسقاط سواكن فآثر التضحية بالأمير أبوقرجة. واستدعاه إلى أمدرمان.

بعد أن إنفرد الأمير دقنة بالقرار وبدأ في تنفيذ إستراتيجيته بحصار سواكن ناشد هولت سميث محافظ سواكن السردارية في مصر المساعدة للخروج من مأزق الحصار فخف لنجدته جرانفيل من القاهرة وطلب إذناً من الحكومة المصرية إرسال حملة لطرد الأنصار من سواكن فأجابته على طلبه في الحال[1].

قاد جرانفيل حملة تتألف من 750 من الجنود الإنجليز وألفين من العساكر السودانيين وتحرك فجراً من سواكن في يوم 10 ربيع الثاني 1306هـ الموافق 20 ديسمبر 1888م لرفع حصار الأنصار الذين دارت عليهم الدائرة فانهزموا في الواقعة التي عرفت بمعركة الجميزة. فانزعج الخليفة وأدرك فداحة الأمر والخطأ الذي ارتكبه برفضه خطط الأمير أبوقرجة فاستدعاه حيث دار بينهما نقاش مستفيض تأكد من خلاله من فشل إستراتيجية دقنة وأمر أبوقرجة بالعودة فوراً إلى طوكر لإنقاذ الموقف.

«وبهذا يكون الخليفة قد اعترف بالدليل العملي – بعد معركة الجميزة – بإستراتيجية أبوقرجة فأراد أن يعطي القوس باريها ليستفيد من مقدرته العسكرية الفذة على الرغم من حداثة معرفته بطبيعة البحر الأحمر وجغرافيته وسكانه»[2].

عندما إجتمع بالأمير دقنة في أم درمان تأكد للخليفة بما لا يدع مجالاً للشك إستحالة وجود دقنة وأبوقرجة في مكان واحد لذا كتب للأخير يطلب منه مغادرة طوكر فوراً إلى بربر والإنتظار هناك حتى صدور أوامر جديدة.

شهدت المنطقة الحدودية مع مصر حالة من التوتر بعد أن توجس سردار الجيش المصري وأحس بخطر حامية الأنصار في أبو حمد على حامية المرات المصرية التي تواجهها. فرأى الخليفة أن تكون عمالة بربر في يد قائد عسكري محنك بدلاً من

1. نعوم شقير ص1087م.
2. علي عمر "دور الأمير أبوقرجة".

الحكام المدنيين حتى يستطيع أن يعمل على إستبباب أمنها وحماية الحدود. فوقع إختياره على الأمير أبوقرجة وصدر القرار بتعيينه في سبتمبر 1889م.

رأى المحللون أن تعيين أبوقرجة ربما جاء لأنه واحد من أهل النيل ومن المؤكد أن يجد قبولاً لدى أهل المنطقة الذين رفضوا عثمان الدكيم وانفضوا من حوله. كما رأوا أن هذا القرار جاء في إطار كسب ود الأشراف بإعادة بعض المناصب القيادية إليهم – كما حدث في حالة الأمير محمد خالد زقل - بعد أن سلبت منهم.

بذل أبوقرجة جهوداً جبارة في سبيل إنجاح مهمته وعقد مؤتمراً جامعاً في أبوحمد حال وصوله حضره أمراء الجعليين والرباطاب والميرفاب وغيرهم. وألقى فيه خطبة حملت كثيراً من المواعظ فبعثت الحماس في نفوس الرجال الذين أخذوا يبحثون سبل حماية الحدود الشمالية.

لم يمكث أبوقرجة طويلاً في عمالة بربر بعد أن قرر الخليفة فجأة نقله إلى كسلا. خلفه الزاكي عثمان وكالعادة أثار دخاناً كثيفاً حول أسلحة زعم أن أبوقرجة حملها معه.. وحول زراعة كانت ملكية خاصة له فأصرَ على مصادرتها. وظل يكاتب الخليفة بهذا الشأن حتى كشف أبوقرجة حقائق تلك الإتهامات في رسائله إلى الخليفة (وثائق).

أراد الزاكي عثمان بذلك أن يخفي تلك المآثر والمواقف الجليلة للأمير أبوقرجة والتي ظل ينوه بها أهالي بربر إلى يومنا هذا. وقد جاء في مخطوط المؤرخ محمد عبد الرحيم أن أبوقرجة غادر بربر إلا أنه ظل مقيماً في قلوب أهليها.. لا تفتأ الألسنة تتحدث عن فضله وكرمه وجدارته وحسن معاملته للناس[1].

عاد أبوقرجة عاملاً على كسلا لفترة قصيرة إمتدت من يناير 1891م وحتى نوفمبر منه. كان الخليفة في حاجة ماسة لقدراته في حل مشكلات المنطقة التي تفاقمت إلى الدرجة التي أخذ السكان يهربون ويلجأون للإيطاليين. ولكن الخليفة بعث بحامد

1. ليت المتعلمين من أبناء قرية جاد الله يتفضلون بتدوين مرويات أجدادهم عن الأمير أبوقرجة.

ود علي ليكون وكيلاً له. إلا أنه في الواقع كان عيناً عليه يتسقط أحواله ويتناول الأحداث اليومية التافهة ويبعث بها في رسائل إلى الخليفة ليوغر صدره ضد الأمير أبوقرجة. ولا تزال رسائله موجودة ضمن وثائق تلك الفترة. كان ذلك في الوقت الذي أصبحت فيه المنطقة تحت رحمة الغزاة البريطانيين والايطاليين الذين إتفقوا على تسوية أوضاعها بينهم لتفويت الفرصة على الفرنسيين. إستمرت مكايدات حامد ود علي ومحاولاته للنيل من الأمير أبوقرجة. وفي آخر المطاف أمر الخليفة بتعيين مساعد قيدوم خلفاً لأبوقرجة في كسلا. وصل قيدوم وهدفه الأول تجريد أبوقرجة من السلاح. لم يكتف بذلك بل كتب عن إتصالات لأبوقرجة مع الطليان.. كما فعل مع الأمير محمد خالد زقل عندما كان عاملاً على دنقلا. وكان وكيلاً له. فأخذ يكيل له الإتهامات ويكتب عن إتصالات له مع الانجليز حتى أوغر صدر الخليفة الذي قام بعزله. أما في حالة أبوقرجة فلم ينجح قيدوم في حمل الخليفة على محاكمته لضعف أدلته وغياب مستنداته.

وبعد أن مكث الأمير أبوقرجة لمدة عام بأمدرمان أصدر الخليفة أمراً بتعيينه عاملاً على خط الاستواء في نوفمبر 1892م. ومن ثم أُسدل الستار على تلك الحياة الزاخرة والعطاء الخلاق على المستويين العسكري والإداري.

أبوقرجة ونكبة الأشراف

أبوقرجة ونكبة الأشراف

بعد عودة الأمير أبوقرجة من المنفى في عام 1907م وحتى وفاته في عام1916م درجت البقية الباقية من كبار رجال الأنصار – ومن بينهم الأشراف والدناقلة – على الحضور إلى منزله في حي بيت المال في كل أصيل يوم لقضاء بعض الوقت معه حتى صلاة العشاء. يتبادلون الأحاديث والذكريات التي كانت لا تزال رطبة ندية. وكان في مقدمة هؤلاء الزوار السيدان الشابان عبد الرحمن وعلى نجلا الإمام المهدي. وكانت الجراح لا تزال تنزف بعد تجربة سقوط دولة المهدية وهزيمة كررى الماثلة أمام العيان.

ذكر محدثي – ابن عمي الطيب صبير طه[1] – الذي كان من بين الحضور المواظبين، أو ربما كان مقيماً بالدار، أن أحد رجال الأشراف تحدث مرة عن نكبتهم وما لاقوه من تنكيل علي يد الخليفة. وكان الحديث لا يخلو من عتاب عن تقصير إرتآه من جانب بعض الأمراء الدناقلة وعن مواقف لم تكن متعاطفة مع الحركة التي جرى قمعها في مهدها. ذكر الطيب صبير أن الأمير أبوقرجة الذي أحس بالغرض من الحديث لأنه كان أكبر وأهم هؤلاء الأمراء الذين ألمح المتحدث إلى دورهم "السلبي المزعوم" إزاء تلك الأحداث. فبدأ حديثه رداً عليه في هدوء تام وتناول تفاصيل الأزمة وما أحاط بها والمواقف التي كان يتابعها منذ إنتقال الإمام المهدي إلى الدار الآخرة والتي لم يكن بعيداً عنها وكاد يدفع حياته ثمناً لها ريبة وشكوكاً ووشايات أحاطت بتحركاته حتى تم القبض عليه غدراً وهو يؤم الأنصار في الصلاة. فكبل بالحديد وألقي به في جزيرة الرجاف منفياً. كان حديثه قد بدأ هادئاً مفنداً دعاوي

1. صبير طه صحب خاله الأمير أبو قرجة إلى الرجاف ولازمه في منفاه إلى ان إختفى بصورة غامضة في تلك الجزيرة الأمازونية. وكان قد ترك إبنه الطيب رضيعاً في القطينة.

المتحدث موضحاً إستحالة تحقيق نصر خلال الإنتفاضة المحدودة التي شهدتها منازل الأشراف بقلب أمدرمان. وتحدث أبوقرجة – الذي بدا الانفعال واضحاً عليه عندما تطرق لبيعة الإمام المهدي للخليفة عبد الله وضرورة الإلتزام بها حتى اللحظة الأخيرة في الحياة. ذكر الطيب صبير أن الغضب كان يتصاعد مع إستمراره في الحديث الذي تعرض فيه للحالات التي تدخل فيها وأنقذ كثيراً من المشتبه بضلوعهم في الحركة حين كانوا مقيدين في صحن المسجد تحت رحمة سيوف ملازمية يعقوب ولا نصير؛ وهم بإنتظار مصير مظلم كان الموت أخف وأرحم منه. وعندما بلغ غضبه مرحلة بات لا يحتمل فيها وهو يهدر بصوته الجهوري إضطرب معظم الحضور وتملكهم الخوف وأخذوا يتسللون حاملين أحذيتهم في أيديهم خارجين الواحد تلو الآخر بينما كان السيد عبد الرحمن يربت على رجليه مهدئاً ومردداً قوله "يابا أكبر.. يابا أكبر".

لقد كان الأشراف عترته وأهله وكان ينتمون جميعهم بشكل عام لقبيلة الدناقلة، ولم تكن الصلة هي الثورة المهدية وحسب وإنما إمتدت لفترات قبلها – حيث كانت أعداد منهم في الجزيرة أبا – قبالة أم غنيم– ربما قبل مجيء الشيخ محمد أحمد كالسيد طه. وربما إتخذ بعضهم أم غنيم سكناً أيضاً حيث لا تزال قبورهم تختلط بقبور أهلها في مقبرة الشيخ محمد ولد مدرع، وفي مقدمة هؤلاء السيد محمد شرفي.

وفي رسالته للشيخ عساكر أبو كلام[1] ذكر الإمام المهدي أن أهالي أم غنيم هم تلامذته من قديم – يعني في الطريقة السمانية التي جمعتهم به قبل الدعوة – بالإضافة إلى صلة القربى التي كان لا يفتأ يرددها واصفاً أولاد عثمان العربي بأبناء عمومته. ثم توجت هذه العلاقة بزواج أبوقرجة من السيدة آمنة بنت السيد حامد الشهيد وشقيق الإمام المهدي والتي أنجب منها إبنه المبارك. وقد قام الإمام المهدي بنفسه بعقد القرآن بعد فتح الخرطوم.

1. الرسائل الكاملة للإمام المهدي ص.

لم تكن حركة الأشراف التي تفجرت في مساء الإثنين 20 ربيع ثاني عام 1309 وليدة تلك الأمسية وإنما كانت تعبيراً عن سخط مكبوت ربما ظل يعتمل في نفوس بعض أقارب الإمام المهدي منذ وصول السيد عبد الله ابن السيد محمد قادماً بصحبة الإمام إلى الجزيرة أبا بعد بناء قبة القرشي ود الزين بمنطقة الحلاوين. وكان واضحاً أن السيد عبد الله قد إحتل منزلة رفيعة لدى الشيخ محمد أحمد منذ الوهلة الأولى الأمر الذي أسخط البعض وساءهم الإستئثار الذي بات يجده ذلك الغريب القادم من بعيد. كما كانت لهجته الغريبة وأسلوب حياته واختلاف ثقافته المرتبطة بمناطق الغرب القصية تزيدهم نفوراً.

وقد لخص يوسف ميخائيل القبطي الكردفاني الاختلاف الذي كان سائداً بين أهل النيل وأهل الغرب في أوراقه بقوله «وكان الشيخ محمد أحمد جميل الصورة حلو اللسان فصيح في الكلام، له جاذبية في الناس. والمعلوم عندنا نحن أهل كردفان أي إنسان يحضر من البحر كأنه حضر من بيت المقدس الشريف أو مكة المشرفة، كونه لسان أهل البحر طلق ورطب وجلدهم أملس. وعموم أهل كردفان وأهلها — إلا بارة — الجسم خشن واللسان تقيل في اللغة العربية والأسماء الوحشية فمنهم من يقول أنا اسمي أبو جعيرين ومن يقول أنا اسمي دحيش... الخ غير أنهم في الكرم أجود من أهل البحر وأكرم منهم طاقات»[1].

لا شك في سطحية هذه النظرة إلا أنها ذات أهمية قصوى إذا أدرجناها في سياقها التاريخي بوعيه المحدد الذي يقيس الأمور بالمظهر دون أن يجد القدرة على النفاذ إلى الجوهر. وقد صاحبت هذه النظرة تطورات الصراع بين سلطة الخليفة عبد الله وأهل النيل حتى نهايته بسقوط دولة المهدية. ومن الطبيعي أن يحدث ذلك في وطن كانت تسوده العصبية القبلية دون الإحساس بكينونة الأمة الواحدة. كما كان للقمع الذي

1. أوراق يوسف ميخائيل (تحقيق عثمان جعفر النصيري) ص14.

مارسه الجهادية خلال سنوات الدولة المهدية وفي معظم أنحاء السودان دوره في رسم صورة سلبية لكل ما هو مرتبط بالغرب.

لا يزال أهل قرية أم غنيم يتناقلون قصة زيارة السيد عبد الله لهم بمعية الشيخ محمد أحمد بعد عودته إلى الجزيرة أبا مباشرة من طيبة بالحلاوين ليعرفه بخلصائه أبناء الشيخ عثمان العربي وكيف إستقبلوهما كدأبهم بالترحاب. إلا أن زائراً يدعي الحاج رحمة الله من ذوي قرابتهم نفر من السيد عبد الله لما كانت عليه حاله من وعثاء السفر بثيابه البالية وقروحه التي غطت أجزاء من جسده فأسر إلى الشيخ محمد أحمد بألا يشاركهم الطعام لرثاثة هيئته. ولما كان المهدي بصوفيته وعمقه الباطني لا يلتفت لمثل هذه القشور لم يعط هذا الحديث وزناً إلا أنه كان قد ترامى إلى سمع السيد عبد الله الذي وجد على قائله. ولم تمض أشهر قليلة حتى أصبح السيد عبد الله رجل الدعوة الثاني وبعد سنوات كان صاحب الأمر والنهي في طول البلاد وعرضها.

ومنذ بداية الدعوة كان الإمام المهدي يلاحظ محاولات أهله الأشراف إستثمار زعامته وقطف ثمار الثورة الوليدة، كما كان يلاحظ مظاهر الأبهة التي كان يحاول البعض إحاطة أنفسهم بها في الوقت الذي كان يحض فيه الناس على الزهد في نعيم الدنيا والتوجه إلى الآخرة؛ وتطهير النفس بطلب الشهادة. وقد حدث عندما كان متوجهاً إلى الخرطوم لحسم أمر الحصار أن شاهد ذات صباح سجاجيد حمراء منشورة على أغصان الشجر فسأل عنها ولما علم أنها تخص بعضاً من قرابته ساءه ذلك وأمر بإحضارها وقام بتمزيقها داعياً إلى التقشف والتمثل بسائر الأنصار الحفاة الجياع. وكثيراً ما وقف على المنبر يعظ أهله ويأمرهم بترك الدنيا وما يلازمها من لعاعات وقشور. وقد ذكر بابكر بدري أنه في خطبة صلاة الجمعة الأولى بعد فتح الخرطوم «خطب المهدي وصلى بالناس وفي آخر خطبته قال: يا أصحاب المهدي أحمد سليمان

شغل الأشراف بالمال قولوا نعوذ بالله من حالهم ثلاث مرات وهم مطرقون كأنما على رؤوسهم الطير – وهم عشيرته الأقربون بينهم أعمامه وأبناء أعمامه.» وكانت خطبته الأخيرة بمثابة الوصية التي أعلن فيها تبرؤه من تصرفات الأشراف نافضاً ثوبه مؤكداً تبرمه وضيقه بما كانوا يفعلون – وهو الذي كان في غاية الحلم وسعة الصدر.وقيل إنه أوصى أهله الأشراف بقوله «إني خائف عليكم من إثنين من الدنيا والخليفة عبد الله، فأعلموا أن الخليفة عبد الله غيور وإنه خليفتي عليكم بعدي فلا تخالفوه في أمره[1].

كان الخليفة عبد الله يتابع كل ذلك وقيل إنه كثيراً ما كان يردد أن الإمام المهدي طلب منه أن يأتيهم به بعد أن يتطهروا من رغائبهم الدنيوية[2].

كانت وفاة الإمام المهدي المفاجئة والصاعقة سبباً في خضوع الجميع لبيعة الخليفة حيث لم يجد أحد الوقت الكافي لمحاولة التنصل أو تسمية خليفة آخر. وفي اليوم الثالث للوفاة طلب الخليفة[3] جميع كبار آل المهدي في محراب الإمام المهدي وهم: أحمد شرفي، وأحمد عبد القادر، والسيد محمد صالح، والسيد أحمد عبد الكريم، والسيد أحمد سليمان، وعثمان الناير، والسيد طه، والسيد محمد حاج شريف. وطلب الالتفاف حوله كما كانوا يفعلون مع الإمام المهدي. وقد إستمرت الأحوال هادئة حتى آخر عام 1303هـ.

وقال إبراهيم فوزي[4]: «وجملة القول إن عبد الله التعايشي قبض على زمام البيعة وهو مضطرب وكان لا يدري كيف يدير دفتها كما كان شديد الخشية من إنتفاض الخليفة شريف وأقارب المهدي عليه إذ هم أشد قوة منه وأكثر عدداً من رجاله ولذا لبث كأنه واحد من الخلفاء لا يقطع أمراً بغير مشورتهم ولا يعمل بغير إرادتهم منتظراً

1. جهاد في سبيل الله ص 110.
2. تاريخ حياتي – بابكر بدري ، الجزء الأول ص38.
3. جهاد ص 121.
4.السودان بين يدي غردون وكتشنر.

ما يكون من أمر مدينتي سنار وكسلا اللتين كانتا على وشك السقوط.

وهكذا أصبح السيد عبد الله خليفة للمهدي ليجد الأشراف أنفسهم في مواجهة الرجل الذي ظل يستند إلى سلطة الإمام المهدي الروحية والسياسية والتي إعتقدوا أنها تلاشت بغيابه فانفتح باب الصراع على مصراعيه متخذاً أشكالاً متعددة.

كان للأشراف ومشايعيهم من أهل النيل الشوكة والغلبة العسكرية والإدارية في بادئ الأمر – وهم الذين شكل معظمهم قيادة الثورة – وكانوا يحتلون المناصب الكبرى في الجيش وعلى مستوى الأمصار. كما كان أحمد ود سليمان أميناً لبيت المال. وهو الذي لعب دوراً أساسياً في تطورات الأحداث التي أدت إلى التمرد على الخليفة . لم يضيع الخليفة عبد الله وقتاً – وهو يدرك تماماً خطورة الموقف – فعمد إلى تجريد قادة الجيوش من أهل النيل من مناصبهم التي أسندها إلى أهله وذوي قرابته.

وحتى الذين أبقى عليهم قيد سلطاتهم وعين مستشارين لهم من بطانته وأمرهم صراحة بالاَ يبرم أمر دون الرجوع إليهم. وكان ذلك واضحاً عندما صدرت الأوامر للنجومي وأبوقرجة بتولي عمالتي دنقلا وكسلا وتكليف مساعد قيدوم وأحمد ود علي مستشارين لهما ليستطيع قراءة ومتابعة مواقف ونيات القائدين الكبيرين اللذين لا يجد مبرراً لوضع كامل ثقته بهما باعتبارهما أبرز أمراء أهل النيل.

وكتب خليفة المهدي في نفس الوقت للأمير حمدان أبوعنجة الذي كان معسكراً في جبال تقلي على أن يتحرك فيقابل محمد خالد زقل بباره ويستلم منه الجيش ويجرده من كل ممتلكاته ويرسله إليه. وقيل إنه عندما شاع هذا الخبر بأمدرمان كتب أحمد ود سليمان أمين بيت المال إلى السيد محمد خالد قائلاً: وقد بلغنا أن خليفة المهدي كتب إلى حمدان أبوعنجة ليحضر بجيشه لتجريدك واستلام الجيش منك فإني أحذرك عاقبة الأمر وأوصيك ألاَ تصدع لهذا الأمر ولو أدى ذلك إلى الحرب فأنا أعتقد بأن فيك الكفاءة التامة لمكافحة حمدان.

وتقول بعض الروايات أنه أشار إليه في الكتاب إلى تطور الخلافات بين خليفة المهدي والخليفة شريف ويخشى منها حصول حرب بينهما وكتب إليه ما معناه ولذلك فإنا نريد أن نستعين بك فافدنا عن مقدار عدد جيشك كما علمنا مقدار جيش أبوقرجة وجد السير إلينا ولا تتوانى.

وقد أرسل هذا الخطاب مع بريد خاص وأمروه بأن يجد السير لتسليم الخطاب لمحمد خالد قبل وصول حمدان إليه. ولكنهم وصلوا بعد تجريد السيد محمد خالد وضبط حمدان البوستة وسألهم: من أين أنتم مرسلون. وإلى من؟ فأجابوه بأننا مرسلون ببوستة من الخليفة شريف للسيد محمد خالد. ولما أحس الإضطراب في كلامهم ضغط عليهم فسلموه البوستة التي كانوا يحملونها فأعطاها الأمير حمدان للأمير محمد خالد وأمره بقراءتها وإفادته عما فيها ففتحها وأخذ يتلوها علناً ثم ناولها للأمير حمدان الذي أرسلها بدوره لخليفة المهدي وأبلغه أن السيد محمد خالد قابل أمره بالرضى والتسليم.

وقد سأل خليفة المهدي أحمد ود سليمان عن ذلك الخطاب فاعترف له بأنه كتبه وحده وأن الأشراف المذكورة توقيعاتهم في ذلك الخطاب لم يشتركوا معه في كتابته فأذن له خليفة المهدي بالإنصراف. وقد ذكر خليفة المهدي أمر ذلك الخطاب بحضرة الأشراف ليقرأ من أساريرهم «مدى تأييدهم واشتراكهم فيما جاء فيه».

كان الخليفة عبد الله يعي تماماً أن أقرب كبار أمراء أهل النيل للأشراف نسباً وصهراً هما محمد عثمان أبوقرجة ومحمد خالد زقل لسبقهما وصلتهما الوثيقة بالإمام المهدي. وكان زقل بعيداً في دارفور يقود جيشاً كبيراً يمثل خطراً داهماً فبعث إليه الخليفة عبد الله بعد وفاة المهدي يحثه على الحضور إلى أمدرمان للبيعة. ولما أحس بضعف حماسه للحضور إستخدم كل الأساليب معه حتى ستدرجه واخترق جيشه في كردفان مما سهل عملية أسره التي نفذها الأمير حمدان أبوعنجة.

مما لا شك فيه أن زقل كان سيميل إلى الأشراف إذا تفجر الموقف إلاَ أنه من الواضح أن التنسيق لم يكن كاملاً بينه وبين شيعته هؤلاء. ففي الوقت الذي تدهور فيه الموقف بأمدرمان بين الأشراف والخليفة قرر زقل التوجه إلى عاصمة الدولة بعد طول تباطؤ ظل محسوباً عليه من قبل الخليفة.

وقد أورد المؤرخ البروفيسور مكي شبيكة[1] رواية وصفها بالضعف جاء فيها أن زقل بعث برسالتين إلى الخليفتين عبد الله ومحمد شريف حامد يؤكد للأول قدومه إلى أمدرمان ويعد الثاني بمساندته عسكرياً عند لزوم الحال. وقد شاءت الصدف أن تقع الرسالة الموجهة لمحمد شريف في يد الخليفة عبد الله.

وقد أكد الشيخ على السنوسي أمير التعايشة للمؤرخ موسى المبارك الحسن[2] صحة هذه الواقعة وأوضح بأن زقل أبلغ الخليفة شريف في خطابه الذي أخطأ الطريق بموقفه الذي لخصه بقوله «البقارة يشوفوا ليهن بكان» وبشكل عام فإن ما لحق بالأمير زقل من إجراءات تأديبية قد يفسر إدراك الخليفة لموقفه وما انطوت عليه نفسه من موقف معاد.

وهكذا ظل دأب الخليفة عبد الله في استئصال نفوذ الأشراف. فعندما جرت هزيمة الأنصار في معركة جنس في 30 ديسمبر 1885 إثر الهجوم المباغت الذي شنه الجيش الإنجليزي أثناء تراجعه من دنقلا إتخذ الخليفة من الموقف ذريعة لتحجيم الأشراف والقادة من أهل النيل فقام بعزل الشيخ محمد الخير عن عمالة دنقلا وبربر وعين في منصبه عثمان الدكيم، وهو من أقاربه – ليشعل غضب الأشراف – ثم لم يلبث أن أردف ذلك بتعيين يونس الدكيم عاملاً على الجزيرة. لم يكن قادة الأشراف بمستوى الصراع الذي بادروا به كما أنهم لم يدركوا المدى الذي يمكن أن يبلغه

1. السودان في قرن ص363.
2. تاريخ دارفور السياسي ص89.

حين أخذوا يستعرضون قوتهم في شوارع أمدرمان – مكتفين بتلك المظاهر – بينما أخذ الخليفة عبد الله يتخذ الإجراءات اللازمة للمواجهة وتأكيد سيادته على الدولة بتجريد الأشراف من مناصبهم العسكرية وتوحيد قيادة الجيش تحت إمرته.

كما لم تكن الأهداف السياسية للأشراف محددة ويبدو أنها تلخصت في التعبير عن القهر وممارسة نوع من الضغط لم يستقرأوا نتائجه. وقد ذكر المؤرخ محمد عبد الرحيم رواية غريبة في مخطوطاته لم تعززها مصادر أخرى إلاَ أنها تشير بوضوح لغياب الأهداف. وهي أن فوزي محمود – أحد كتبة الإمام المهدي – وأخاه أحمدي (وهما من ركابية بارة) كانا يعدان في إطار التحضير للانتفاضة على الخليفة – لتسليم السلطة لأحد رجالات الختمية وهو السيد أحمد الميرغني – الذي يمتان إليه بصلة القربي. حيث أنه من المعروف أن السيد الحسن بن السيد محمد عثمان الكبير كانت أمه السيدة رقية بنت جلاب من السادة الركابية المستوطنين في بلدة بارة.

تناول كثير من المؤرخين نكبة الأشراف بغير تعاطف ربما لأنهم نازعوا صاحب حق أسنده إليه الإمام المهدي في حياته بشكل واضح لا لبس فيه، كما أن مراميهم لم تكن بالوضوح الكافي الذي يوفر لهم التعبئة السياسية الضرورية. كما كان واضحاً أن أغلبهم كان يسعى نحو مكاسب ذاتية. ويبدو أيضاً أن أسلوب الحياة المترف نسبياً الذي إتبعوه أضعف مصداقيتهم في ظل دولة قامت على أساس الزهد في وقت كانت تتقاذفها المحن والاضطرابات وتعصف بها المجاعات.

بالطبع لم تكن تلك الحركة التي تفجرت في ذلك المساء مفاجأة لخليفة المهدي الذي أعد لها العدة منذ أن كانت همساً يدور واحتجاجات ترددها الألسن في البيوت والمجالس الخاصة التي كانت مخترقة بعيونه الساهرة. وحتى ساعة الصفر كان الخليفة يستطيع تحديدها. وكان يعلم أن أبوقرجة الذي بقي أملاً بعد تجريد زقل يجب ألا يكون بعيداً عن أمدرمان فلم يتردد في إستدعائه من شرق السودان ليظل بعيداً

عن مركز قواته في تلك اللحظات الحرجة وليحرمه حرية التصرف إذا كان متواطئاً مع عناصر الحركة. وتحرك أبوقرجة بصورة عاجلة من موقع قيادته قبل فترة من تطور الأحداث تنفيذاً لأوامر الخليفة يصحبه مساعداه الأميران حمد النيل حامد وأحمد البدوي أبوصفية – وهما من أبكار الدعوة المهدية وأصحاب الإمام، المحسوبين على أهل النيل. وكان من الواضح أن التوجهات قد صدرت إليه ليسلك طريق بربر البعيد نسبياً، دون طريق القضارف - رفاعة، حتى لا يمر بإقليم الجزيرة الذي كان يعج بالدناقلة والأشراف. وكان أبوقرجة كعادته في الانضباط يبعث برسائله تباعاً إلى أمدرمان حتى وهو في الطريق حتى بلغ بربر التي توقف فيها لاستئجار بعض الجمال لإستكمال الرحلة بعد أن أضنى السير االحثيث رواحلهم.

ذكر كثير من المؤرخين[1] أن الخليفة استدعى أبوقرجة من عمالته بعد قيام الأشراف بحركتهم ولكن الرسائل والوثائق تؤكد أن الاستدعاء. تم قبل وقوع الحركة وخلال إرهاصاتها الأولى والإستعداد لها، وذلك حسب تقديرات الخليفة للحظة وقوعها – أو علمه بذلك من خلال عيونه – التي تزامنت مع وصول أبوقرجة لأمدرمان كجزء من المخطط الذكي الذي أحبطت به الحركة.

كان الأمير أبوقرجة قد عاد إلى أم درمان بعد إستدعائه من جانب الخليفة الذي ساند موقف الأمير دقنة وخططه الخاصة بحصار سواكن والتي رفضها أبوقرجة جملة وتفصيلا. وأوضح إستحالة الحصار لمدينة تتلقى العون والمدد من داخل البحر. أقام أبوقرجة في العاصمة أم درمان قريباً من الخليفة ملازماً لمجلسه لأكثر من خمسة أشهر.. الأمرالذي بعث الاطمئنان في نفسه وتأكد له أن أبوقرجة ليس متورطاً فيما يعد له الأشراف. وعندما إنهزم الأمير دقنة في معركة الجميزة هزيمة ساحقة تبين للخليفة صحة الرأي العسكري لأبوقرجة فإجتمع معه وبحث الأمر وطلب منه العودة

1. نعوم شقير – جغرافية وتاريخ السودان ص835

فوراً لإنقاذ الموقف في شرق السودان. وعندما حزم أمتعته وتأهب للسفر أصدر إليه الخليفة أمراً يستفسره عن الشائعات التي انطلقت بأمدرمان عقب لقاء تم بين الخليفة شريف وأبوقرجة وإثنين من أعوانه هما الأميران حمد النيل حامد وأحمد البدوي إثر عودتهم من هندوب مباشرة. وجاء في رسالة الخليفة لأبوقرجة فإذا صدرت منك تلك الشائعات عليك بمقابلتي. وإذا لم تصدر منك فعليك بالسفر على بركة الله على أن يقابلني الأميران حمد النيل حامد وأحمد البدوي[1].

وكان أبوقرجة وصاحباه قد إجتمعوا مع الخليفة شريف الذي طلب مقابلته. إلا أن ذلك الإجتماع لم يتناول الأزمة السياسية ولم يناقش من قريب أو بعيد الموقف الماثل. واقتصر على كلام عام عن أحوال شرق السودان.

وقد أكد أبوقرجة للخليفة بأنه لم يبدر منه ما ورد في تلك الشائعات. وبناء على أوامره غادر أبوقرجة أمدرمان في طريقه إلى طوكر[2].

وقد ذكر بابكر بدري في مذكراته[3] أن الخطة شملت بدقتها إعتقال عدد من الدناقلة والأشراف في معظم مدن أواسط السودان كالكاملين ورفاعة ومدني وجزيرة الفيل في يوم وساعة واحدة بحركة منتظمة حتى لا ينجو واحد منهم من الإعتقال.

وتحدث يوسف ميخائيل في أوراقه عن الإستعداد العسكري للأمير يعقوب لحظة تفجر الأحداث والسيطرة الكاملة على الموقف والإحاطة الشاملة بمنازل الأشراف. ولم يخف الشماتة التي كانت تنضح من كلماته بأن الأشراف كانوا دون ذلك الإستعداد بكثير لأن إهتمامهم كان ينصب على إنتقاء النساء وليس في الإستعداد للحرب.

كان الخليفة عبد الله واثقاً من النصر حين كلف حوالي الألف من الملازمية

1. مهدية 29/1/5/1 من الخليفة إلى أبوقرجة 23 ربيع ثاني 1306هـ.
2. مهدية 92/5/1 من أبوقرجة إلى الخليفة 8 جمادى الأول 1306هـ/ 10 يناير 1889م
3. تاريخ حياتي الجزء الأول ص118.

بالتصدي للأشراف الذين برزوا للحرب ومن بينهم أرامل الإمام المهدي اللائي تقلدن السيوف. وكان الإمتحان عسيراً على الخليفة الذي كان يتعين عليه إتخاذ الحكمة سبيلاً لإخماد الفتنة. فاستطاع بدهائه وبتحريك قوته إحباط الحركة عسكرياً في مهدها وفي نفس اللحظة أوكل للخليفة علي ود حلو مهمة التوسط لإنهاء الشقاق.

عاد أبوقرجة إلى عمالته بشرق السودان لمباشرة مهامه وبدأ الخليفة مسلسل تحرياته التي أفضت إلى إعدامات مروعة وتصفية الأشراف ومن شايعهم- من أهل النيل- كما يعبر المؤرخون. وانتهى الأمر باقتياد الخليفة شريف إلى سجنه وتحديد إقامة أبناء المهدي الثلاثة الكبار محمد والفاضل والبشرى في دورهم – إلاَ أن الستار لم يسدل على تلك القضية حيث إستقبل المنفى في مناطق الإستوائية عدداً من الرجال كثير منهم قضوا نحبهم هناك وعاد منهم القليل على نحو يرد في مكان آخر في هذا الكتاب. قضى أبوقرجة قرابة العام في كسلا قبل أن تصدر إليه الأوامر بالحضور إلى أمدرمان ليتم إبلاغه بتعيينه عاملاً على مناطق خط الاستواء بالتزامن مع إرسال عدد من الأسرى في نفس الباخرتين اللتين أقلتاه هو وحاشيته والقوة التي رافقته.

ذكرت بعض المصادر العائلية أن أبوقرجة عاتب الخليفة شريف كثيراً على قيامه بالحركة، كما لامه على عدم التحضير الجيد لها ما دام قد اعتزم النهوض بالأمر. وأوضح له العيوب العسكرية التي لازمت الحركة ومسألة تفجيرها وسط البيوت مما يجعلها معركة يائسة وسط بحر من جنود الخليفة. إلاَ أن علاقته ظلت حميمة بأهله الأشراف عامة وببيت الإمام المهدي خاصة.

لا شك أن مؤلف السيد علي المهدي «جهاد في سبيل الله» يظل ذا قيمة إستثنائية باعتباره شهادات حية إستقاها السيد علي من رواتها شهود العيان. كما يظل ذلك المؤلف موثوقاً به لأن كاتبه بعيد عن المظنة والغرض فقد كان رجلاً مستقيماً تقياً نقياً عرفه الناس حتى وفاته في منتصف أربعينات القرن العشرين. ولا غرو فهو ابن الإمام



الخليفة شريف في سجن الساير بأمدرمان

الصادق الزاهد وحفيد الشيخ الطلعة الواصل القرشي ود الزين. أما الرؤية التاريخية الخاصة به والتي إتخذها منهجاً في كتابه لم تكن سوى سرد لا أكثر. ولا عجب إذا ما إنحاز للدعوة التي قام بها والده والتي تفتحت عيناه على أصدائها الحارة وعبيرها الفواح وان كان ذلك التفتح حدث بعد رحيل والده الفاجع والمباغت. عاش سنوات طفولته الأولى غير بعيد – هو وإخوته – عن توجيهات الخليفة عبد الله الصارمة والتربية المتطهرة التي أخذ بها شيوخ الأنصار وأصبحت منهجاً إمتد إلى عقود وعقود. قوامها الطهارة والصدق والحزم والعزم ومخافة الخالق.

ومن الواضح أن السيد علي حاول أن يتجنب الإنحياز إلى أحد المعسكرين في الصراع السياسي العنيف الذي نشأ بين الأشراف وشيعتهم وبين الخليفة والمجموعات القبلية التي والته. إلا أنني أعتقد جازماً أن السيد علي المهدي حاول أن يتحرى الحقيقة في نظرته للصراع دون أن يحاول التعاطف مع أهله الأشراف. ولقد درج آل المهدي على الدوام ألا ينتقدوا الخليفة عبد الله رغم الدماء العزيزة التي سالت وما خلف ذلك من مرارات لم تمحها الأيام. وكثيراً ما كان الإمام عبد الرحمن يدعو آباءنا لعدم الموجدة على خليفة المهدي لما حدث لوالدهم الأمير أبوقرجة ظلماً وتجنياً.

مما لا شك فيه أن بذرة الخلاف بين الطرفين كانت قديمة بدأت بظهور الشخص الغريب القادم من الغرب بلهجته المختلفة وبحالته المزرية بسبب وعثاء السفر الطويل مخترقاً الفلوات والغابات بصحبة والده وجماعة من أهله قدر لها أن تلعب دوراً خطيراً في تطورات الدولة المهدية اللاحقة. وما كان ليلفت أنظار الناس لولا الحفاوة التي إستقبلها به الإمام المهدي في قرية طيبة بالنيل الأزرق والمكان الذي احتله إلى جانب الشيخ محمد أحمد منذ وصوله إلى الجزيرة أبا.

يقول السيد علي أن الخليفة عندما أحس بنفور الأشراف وبأن أمراً ما يطل برأسه ولا شك في وقوعه بدأ في إجراءات إحترازية. وذلك بعد تجريد الأمراء الكبار من أهل

النيل – من رآياتهم – إلتفت إلى تجنيد قوات خاصة من قبائل مختلفة لتكون حرساً له وأسند قيادتها لابنه عثمان شيخ الدين. وسمى تلك القوة الجديدة بالملازمين الذين أصبح شعارهم رآية زرقاء وتم تخصيص بيت مال لهم ومخازن غلال خاصة – شونة – تحت إدارة حبيب عثمان. كما كلف الأمير أحمد السني بتمويلهم بالحبوب من الجزيرة بالإضافة إلى تحصيل الزكوات والتبرعات من الموسرين لصالحهم.

كان الخليفة قد أمر الأشراف بملازمة مجلسه حتى تخرس ألسنة الوشاة. إلا أن الأمر لم يجر كما يشتهي فقد نشط الساعون للوقيعة حتى انعزل الأشراف عن مجالس الخليفة وسقطوا في الفخ الذي لم يلبث أن أهوى بالجميع إلى قاع لا قرار له.

بلغ الخليفة أن إسماعيل أحمد شجر الخيري وهو من الإشراف الذين يمتون بصلة القربى للإمام المهدي متورط في إشعال الفتن. كان شجر الخيري من تجار الأبيض المعروفين في التركية السابقة وقد عينه المهدي مساعداً لأحمد سليمان أمين بيت المال في القسم التجاري. وأبلغ الخليفة أن المتهم الثاني بالسعي بالوشايات هو الشيخ محمد عمر البنا الشاعر المعروف والذي كان كاتباً للخليفة شريف – وهو من الجعليين الذين أقاموا في رفاعة.

أمر الخليفة بنفيهما إلى بحر الجبل إلا أن خاصته أشاروا عليه بإعادة البنا الذي إفتقده لحسن تلاوته لآي الذكر الحكيم فأعاده إلى الخرطوم وواصلت الباخرة إبحارها متجهة إلى الجنوب وهكذا أصبح إسماعيل شجر الخيري أول منفي في قضية الأشراف.

وجاء في رواية السيد على أن ود البنا كان يقرأ كتاب الواقدي في فتوحات الشام والدروبي وكان ذا صوت جهوري يسمعه جميع الناس. وجاء أيضاً أن طه ود الجعلي ذكر أن البنا تعلم في مصر مع طوسون باشا وسعيد باشا فصار نديماً للملوك فاكتسب جرأة في القراءة إفتقدها سواه.

ولما أعاده الخليفة أبعده عن خدمة الخليفة شريف ووبخه بقوله «أنت منافق بل أنت أعظم نفاقاً من عبد الله بن أبي سلول. ثم استتابه فتاب وأخذ عليه عهداً بألا يعود لتلك الأفعال وبتلك الحادثة هدأت الأحوال بين المعسكرين في أوائل عام 1309هـ.

كان الخليفة على الدوام يتشكك في ولاء محمد عمر البنا. وقد صدق حدسه عندما سقطت أمدرمان وتوجه الخليفة مهاجراً غرباً، حينذاك برز ود البنا ولم تمض ساعة من الزمن ليلتقي بالسردار قبل دخوله المدينة هو ونفر من أهلها مرحبين بالغزاة. وقد ذكر محمد عبد الرحيم في مخطوطه أن البنا نظم قصيدة في مديح الفاتحين نشرتها مجلة «الجوائب المصرية» خلال أيام قليلة من سقوط أمدرمان.

إستطاع السيد علي أن يرسم تطورات الأحداث في كتابه بدقة بالغة. وقال إن الأحداث تفجرت بحادثة محاولة مزعومة لإغتيال الخليفة شريف تورط فيها ثلاثة من الجهادية إعترفوا بأنهم مرسلون من قبل الخليفة عبد الله. وبعد أخذ ورد حول هذه العملية كلف الخليفة عدداً من القضاة هم أحمد ود علي والهادي دفع الله وعبد القادر ود أم مريوم والشيخ إبراهيم ود عالم وعثمان ولد أحمد البطحاني النائب بالحضور. كما كلف إثنين من الشهود هما شيخ البنا والأمير علي ود تنير. حضر الأمير يعقوب وعدد من كبار رجالات التعايشة بخيولهم ودروعهم فتوسطهم الخليفة وخلفه حشد من الجهادية والملازمين مدججين بالسلاح متوجهين إلى منزل الخليفة شريف بعد أدائهم صلاة العشاء. كان الخليفة شريف في زيارة لمنزل الجد أحمد شرفي الذي دخله الخليفة عبد الله وبقى الجميع وفي مقدمتهم الأمير يعقوب خارج الدار. تبادلوا التحية وتناولوا طعام العشاء وابتدر الخليفة المجلس بإعلانه أن ظلماً حاق به من جانب أخيه الخليفة شريف. وعندما طلبوا الشهود لبدء إلتحقيق في الحادثة كان الأمير علي ود تنير وحده حاضراً أما شيخ البنا فقد تغيب مختفياً في منزل الأمير يعقوب. كان واضحاً عدم إرتياح الخليفة شريف للقاضي أحمد ود علي وأعلن أنه

يفضل قاضياً انجليزياً بدلاً عنه. خيم صمت على المجلس إخترقه صوت السيد عبد القادر الذي أخذ يراطن الخليفة شريف بلغة الدناقلة الأمر الذي حدا بالخليفة عبد الله أن يستوضحه جلية الأمر فأجابه أن الموضوع ليس أكثر من «مراجعة».

تجاوز الخليفة عبد الله في ذلك المجلس عن حجب الخليفة الشريف لأحد الشهود وطلب إغلاق الملف والإتفاق على صيغة مصالحة جديدة تضع حداً للوشاة والواشين إتقاء للفتن. تم الإتفاق على ذلك ووضع الخليفتان يديهما على المصحف بالإضافة إلى سيفيهما وسيف الخليفة علي ود حلو – باعتبارها سيوف الإمام المهدي. وأقسما على كشف الساعين بالفتن أولاً بأول ثم تصافحا وتعاهدا على الصفاء والإخلاص- طلب كبار الإشراف أن يؤدوا القسم أيضاً ومن ثم انفض المجلس.

لم تمض أكثر من ثلاثة أشهر حتى فوجيء الخليفة شريف برجلين متنكرين في ثياب نسائية يطلبان لقاءه في جوف الليل. أقسما على مصحف يحملانه بأن الخليفة عبد الله أعلن أمامهما أنه قرر نفي الخليفة شريف وأولاد المهدي الثلاثة والسيد عبد القادر ساتي علي والسيد محمد عبد الكريم إلى جبل مرة. ونفي بقية الأشراف إلى بحر الغزال. كان الرجلان المعنيان هما فوزي وأحمدي ابني محمود بادي ويعملان كاتبي سر للخليفة عبد الله. وكان أولهما كاتباً للإمام المهدي. وهما ينتسبان للدناقلة- من ركابية بارة. وقالا إن الدافع وراء مهمتهما الخطرة هذه هي روابط القربى والنسب التي تربطهما بالخليفة شريف وهما يعلمان مغبة هذا الأمر الذي سيدفع بهما إلى القتل لا محالة. بات الخليفة شريف بين أمرين، عهده مع الخليفة عبد الله والمروءة التي تقضي بعدم إفشاء سر الأخوين اللذين دفعتهما صلة القرابة إلى كشف القرار الخطير الذي لا يمكنهما إثباته لأن جميع الذين حضروا ذلك المجلس كانوا من خاصة خليفة المهدي.

وفي صباح اليوم التالي طلب الخليفة شريف السيد محمد عبد الكريم وحدثه بما

بلغه من الأخوين الكاتبين. ودخل بعده من ملازمية الخليفة شريف أحمد محمد خير وعبد القادر ود حسن وسليمان عبد الله فلم يخف عنهم الأمر. وشاركوا جميعاً في النقاش الذي دار بينهم وتلمسوا كيفية الدفاع عن أنفسهم فاستقر رأيهم على إستشارة السيد عبد القادر ساتي علي لما يتوسمون فيه من سعة الفكر وسداد الرأي. توجهوا إلى منزله وأفضوا إليه بكل ما حدث وطلبوا منه إسداء النصح.

كان السيد عبد القادر حكيماً وواقعياً حين طلب من زواره التزام الهدوء حيث لا نصير لهم بعد أن سحب الخليفة عبد الله راياتهم والأمر لا بد أن يكون بين إثنين إما أن يكون صحيحاً والخليفة مصمم على تنفيذه ولا بد من وقوعه، وإما أن يكون مختلقاً والسكوت عنه أفضل. وأكد لهم أن محاولة إعداد جيش للدفاع أمر قد فات أوانه. وتساءل عما إذا كان أحمد شرفي أو السيد محمد خالد، أو محمد حاج شرفي من مناصريهم. فلما فاجأوه بأن هؤلاء مخلصون للخليفة عبد الله، قال «هؤلاء عصبتكم من حاج شريف الذين ينتظر أن يثبتوا معكم عند الحادث الداهم أما البقية فلا أثق فيهم لأنهم ليسوا من عصبة الخليفة شريف الذين يبذلون أرواحهم دفاعاً عنه.

كلف الخليفة شريف أحمد محمد خير بأخذ اليمين من زعماء القبائل والأعيان الأقرب إليه حتى يكونوا في نصرته ضد من أراد أن يحول المهدية إلى ملك عضوض ويقوم بنفي أولاد المهدي والخليفة شريف وكبار الأشراف. مضت حوالي أربعة أشهر وأحمد محمد خير منهمك في أداء مهمته حتى إنضم إليهم عبد المولى صابون رئيس الجهادية وأخو الأمير حمدان أبو عنجة غير الشقيق ووكيله. وكان آخر من أخذ اليمين.

إتفق الأمير على الأمين الضرير والبدوي ود العريق ومحمد حامد جفون وبانقا محمد (كاتب الرآية الزرقاء) على زيارة أحمد محمد خير للوقوف على المهمة التي يقوم بها. ظن أحمد خير أن هؤلاء الجماعة زاروه للإنضمام إلى حلفه فاندفع يشرح

لهم وجهة نظره موضحاً أن الخليفة عبد الله جعل المهدية ملكاً. وكشف لهم من تحالفوا معهم من زعماء القبائل.

خرج الزوار الأربعة إلى القاضي أحمد علي يستفتونه حول اليمين الذي أدوه فأفتاهم ببطلانه لأن من شأنه أن يؤدي إلى الفتنة. ومن ثم توجهوا إلى الخليفة ليطلعوه على ما يفعل الأشراف فأخذ في الإستعداد والمتابعة والمناورة ليقف على مدى إستعداد الأشراف وقوتهم.

ترددت إحدى الشائعات بأن الخليفة عبد الله بصدد إعدام محمد خالد زقل الذي كان يقبع في السجن فدعا الخليفة شريف الأشراف وحلفاءهم من الأعيان للإستفسار عما يحدث من تحركات الخليفة عبد الله. ولما تأكد من علمهم بما يحدث طلب منهم الإستعداد للمثول أمامه في أي لحظة لمواجهة الموقف.

لم يلبث أن احتشد الأشراف ومشايعوهم داخل حوش قبة الإمام المهدي. وبعد أدائهم الصلاة أعلن الخليفة شريف أمامهم « أن خليفة المهدي مصمم على أن يلقى القبض علينا نحن وأولاد المهدي وأنه سينفينا إلى جهات مختلفة، فيرسل فرقة إلى جبل مرة وأخرى إلى كسلا وثالثة إلى بحر الجبل، فما رأيكم؟ فقالوا جميعاً: فهمنا ذلك وسندافع عنكم وعن أولاد المهدي وعن أنفسنا» فدعا لهم بالخير فصاحوا وتباشروا وأعلنوا أمرهم. ترامت إلى الآذان المرهفة تلك الأصوات فأمر الخليفة عبد الله الجهادية وغيرهم من القوات فأحاطوا بمحراب الخليفة بقيادة الحاج الزبير الجعلي وعربي ود دفع الله. أما بقية جيوش أولاد العرب فقد أحاطوا بسور الجامع من الداخل في الجهات الثلاث، الشرقية والبحرية والغربية وتركوا الجهة القبلية ليحتلها الأمير يعقوب وفرسان الرآية الزرقاء.

كان السيد أحمد عبد الكريم – من أبناء عمومة الإمام المهدي – قد قرر إعتزال هذه الفتنة، إلا أنه لم يكن بعيداً عن المشهد. فأعلن التزامه ببيعته للخليفة عبد الله

أمام المهدي وذلك خلال محاولته إثناء الخليفة شريف من التمادي في هذا الصراع وطلب منه الوقوف بعيداً كما فعل السيد عبد القادر ساتي علي. وفي الوقت نفسه كان يريد ألا يغضب الخليفة شريف الذي وافقه على إعتزاله مؤكداً أنه لم يكن راغباً في تفاقم الأحداث على هذا النحو الذي أرادته المجموعة التي تحيط به. وأسند أمره لله.

كان السيد أحمد عبد الكريم في غاية الحزم والشجاعة حين رفض تسليم سلاحه غير آبه بأوامر رئيس الجهادية حاج الزبير الجعلي وهو في طريقه للمثول أمام الخليفة. في خلال ذلك اللقاء تأكد الخليفة أيضاً من إعتزال عبد القادر ساتي علي وأحمد شرفي للفتنة وأبدى لأحمد عبد الكريم رغبته في إستمالة الخليفة شريف وأولاد المهدي ومحمد عبد الكريم ليحضروا إليه "وترك الوشاة والأوباش لمواجهة مصائرهم"، وقال «لكن ما دام الخليفة شريف إختار لنفسه ذلك فأنا لا أبالي بأن أعامله بما اختاره لنفسه.»

يقول السيد علي المهدي إن إستعدادات الخليفة بلغت حوالي عشرين ألفاً من المقاتلين وضعت تحت قيادة إبراهيم مالك – أحد أقربائه من التعايشة – ووضعت حراسات على المواقع الهامة في المدينة مثل الكارة (مستودع الأسلحة والجبخانة) والمهمات الجهادية التي كانت تحت رئاسة الأمير أحمد فضيل (قريب الخليفة) ووضعت المدفعية أمام منزل الخليفة متجهة نحو منزلي المهدي والخليفة شريف ومنازل الأشراف الأخرى. كما تمت حراسة الجامع من الداخل من جميع الأنحاء بالجهادية حملة الأسلحة النارية. أما محراب الخليفة فقد أحاط به الجهادية بقيادة محمد حامد جفون المسلمابي ومعه خليط من قبائل الرزيقات والهبانية والحمر وغيرهم. أما التعايشة فقد وقفوا جميعاً مع الأمير يعقوب بالإضافة إلى مقاتلين من الجعليين والعمراب بقيادة فضل الله ود شاويش. وهؤلاء إصطفوا شرق بيت الخليفة حتى

منازل الخليفة شريف والسيد عبد القادر فأحمد سليمان. وقفت صفوف هذا الجيش بهذا الترتيب مدججة بالسلاح بإنتظار أوامر الحرب أو الإنصراف بالصلح.

قدرت مصادر السيد علي جيش الخليفة شريف بألف رجل، وقف منهم محمد كركساوي وسليمان كركساوي وعثمان صالح أرباوي مع بعض الأعيان مصطفين في الجهة الشرقية لقبة الإمام المهدي وممتدين أمامها مسلحين ببعض البنادق والسيوف والحراب. واصطف مثلهم جماعة في الجهة القبلية لبيت المهدي وبيت الخليفة شريف يواجهون المدفعية. وتمركزت قوة أخرى بقيادة شايب أحمد فضلو وسعيد محمد فرح في مواجهة الجهادية بقيادة بخيت جاموس الذين قال إبراهيم فوزي باشا أن الأمير شايب أحمد حمل عليهم بسيفه حين حمى الوطيس ففر أمامه مائتان مذعورين.

وقفت قوات المعسكرين في هذه المواجهة لا يبعدون عن بعضهم البعض سوى أمتار قليلة حتى أنهم كانوا يتبادلون الشتائم والتهديدات التي ما خلت من القفشات والضحكات. في تلك الأثناء كان الخليفة يبعث بعض ممثليه لتهدئة الأوضاع والتحلي بضبط النفس حتى ينجلي أمر المفاوضات، التي خرقت هدوءها رصاصة طائشة انطلقت من معسكر الأشراف لتسقط تحت سرير الخليفة الذي ظل ثابتاً رابط الجأش.

لم ينس السيد على أن يورد بعض المواقف الطريفة ومنها أن الخليفة عبد الله بعث وفد صلح مكون من القضاة يصحبهم الشاعر الحردلو أبو سن. فقال الخليفة شريف للقضاة إنني أطالب بإقامة الشرع والعدل الأمر الذي جاء به الإمام المهدي وأنتم المقصودون بالقيام بذلك والمسئولون عنه أمام الله ولا أقبل مراجعتكم. ثم التفت إلى الحردلو وقال له «إني لا أسمع مراجعة الغنايين» ويعني بهذا اللفظ الشعراء. والمعروف أن الحردلو كان ملازماً لمجلس الخليفة عبد الله.

إختلفت رواية إبراهيم فوزي باشا نوعاً ما عن الإفادات التي حصل عليها السيد علي. ففي كتابه «السودان بين يدي غردون وكتشنر» روي الأسير المصري الذي ظل

مقيماً بأمدرمان منذ أن إتخذها المهدي عاصمة له بعد تحرير الخرطوم. وظل قابعاً في الأسر يتقلب بين تحديد الإقامة بالمدينة حيناً والزج به في السجن حيناً آخر. كان حانقاً بالغ الإحساس بالمرارة والمهانة. وظل كغيره من الأسرى المصريين والأجانب الآخرين يتصيد الشائعات ويحتفي بالأزمات علها تأتي بالفرج أو تشتفي بها نفسه الحانقة. ربما كان يضمر عطفاً على آل المهدي والأشراف لما يقاسونه - كما هو حاله- من المعاملة الجافة والإهمال الواضح من جانب الخليفة عبد الله فقال: أصبح الخليفة شريف مجرداً من كل مميزات الخلافة يتقاضى مرتباً شهرياً ضئيلاً لا يتجاوز مائتي ريال لا يقبضه سوى مرتين أو ثلاث في السنة ذلك بالإضافة إلى انتزاع راياته من يده. كان للمهدي أولاد - غير الثلاثة الكبار محمد والفاضل والبشرى ما زالوا في سن الطفولة وكثير من النساء الأرامل كانوا في غاية الضنك يتضورون جوعاً. ولما فشت المجاعة خلال عامي 1306، 1307 كادوا يهلكون من الجوع لو لم يتداركهم ذووهم. وفي مستهل عام 1309 تدهورت الأوضاع في السودان وتغيرت قلوب الأهلين وتحفزوا للوثوب على الخليفة التعايشي. إغتنم الخليفة شريف وأولاء المهدي والمضطهدون من أقاربهم هذه الفرصة وبعثوا بالدعاة سراً إلى منطقة الجزيرة يدعون الأهلين للانتفاض علي التعايشي ومبايعة الخليفة شريف. ضربوا لذلك أجلاً يجتمعون فيه بأمدرمان وهو السابع والعشرون من شهر رجب 1309هـ ودخل في هذه البيعة كثير من الوجوه والقواد وأكثرهم من حزب التعايشي الذي لم يكن عالماً بما دبروه. وفي ليلة الثاني والعشرين من شهر ربيع الثاني دخل عليه أحد الجواسيس وأطلعه على كل ما جرى. إستدعى الخليفة السيد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي وطلب منه الإتصال بالخليفة شريف والقبول بما يريد «بشرط أن تقف على كل ما دبره وتعود لتطلعني عليه». نفذ السيد المكي المهمة فجمع الخليفة أخاه يعقوب وذوي قرابته فتداولوا في الأمر وقر رأيهم على الأخذ بزمام المبادره والهجوم على الخليفة شريف وأولاد المهدي وإلقاء

القبض عليهم. كان فوزي وأخوه أحمدي محمود بادي كاتبي السر في ديوان الخليفة حاضرين فأسرعا ليلاً إلى دار الخليفة شريف متنكرين وأبلغاه بما إتفق عليه الخليفة عبد الله ومشايعوه.

في اليوم الثاني إنتشر الخبر بين الناس فاستدعى الخليفة عبد الله الجهادية الذين زحفوا من معسكرهم إلى داره مارين بمنطقة الموردة وما حولها من السوق ونهبوا كل ما صادفهم في طريقهم حتى وصلوا إلى بيت الخليفة.

على خلاف ما ذكرت المصادر فقد أشار فوزي إلى أن مؤيدي الخليفة شريف كانوا حوالي عشرة آلاف معظمهم من الدناقلة وأهالي القرى المحيطة بأمدرمان. وفي مشهد يجسد غلبة معسكر الخليفة شريف قال فوزي «إن الرعب وقع في قلوب البقارة وفر ثلاثمائة فارس منهم قاصدين كردفان. وبلغ الحماس مبلغاً عظيماً بالمنتفضين حتى أن النساء تسلحن مع الرجال وهجمت مائة امرأة منهن على نحو خمسين فارساً من البقارة كانوا يسقون خيولهم على ضفة النهر فأوسعنهم ضرباً بالعصي حتى فروا وتركوا خيولهم غنيمة للنساء المتحمسات. وبينما كانت المفاوضات بين الجانبين تجري خلال تلك الليلة هجم رجال الخليفة شريف على صفوف التعايشي حتى زحزحوهم عن مواقفهم واستولوا على بعض أمتعتهم.»

لو لم يكن إبراهيم فوزي موجوداً بأمدرمان في تلك الأيام وشهد بعينه ما جرى لتشككنا في روايته مقارنة بتلك الشهادات التي وردت في أوقات لاحقة لتلك الأحداث وتضمنتها كتب التاريخ. ومن الواضح أنه توسع في السرد لإهتمامه بتلك الأحداث التي كان من الممكن أن تؤثر على وضعه في الأسر. وربما إنعقدت آماله على فرج قريب. إنتقص من موقف الخليفة علي ود حلو وقال إنه كان يمالئ الخليفة عبد الله ويظهر لمناوئيه دون ما يبطن. وقال إنه قد جمع مقاتليه الذين بلغ عددهم حوالي خمسة آلاف فارس جميعهم من عرب دغيم وكنانة، إلا أنه لم يبين أي معسكر

إنحازوا إليه في تلك المواجهة الحرجة.

قال فوزي إن مفاوضات اللحظة الأخيرة تمخضت عن إتفاق غير مكتوب وتضمن تسعة شروط أولها أن تعاد للخليفة شريف راياته ويدفع له مرتب شهري قدره ألف ريال وكذلك تدفع مرتبات لأولاد المهدي الكبار. كما تضمن عفو الخليفة عن الذين ناصروا الخليفة شريف وتآمروا بتفجير تلك الإنتفاضة. وعزل يعقوب بن السيد عبد الله وأحمد علي قاضي الإسلام. كما قضى الإتفاق بإطلاق الأمير محمد خالد زقل من السجن والتزام الخليفة بمشاروة الخليفة شريف في كل الأمور وبتعهد الخليفة علي ود حلو بإنفاذ هذه الشروط.

وافق الخليفة عبد الله على الإتفاق وأظهر حرصاً على تنفيذه واستقبل غريمه استقبالاً مؤثراً وأمر له بثلاثة آلاف ريال في الحال. أمر الخليفة شريف جماعته بالكف عن الحرب فاستاءوا وأحسوا بأن الأمر لا يخلو من مكر وخديعة وتوقعوا الإنتقام الوشيك.

وفي اليوم التالي مباشرة أمر الخليفة جهاديته بالهجوم على منازل قادة الإنتفاضة التي تم نهبها وتجريدها من الأمتعة. ثم بعث بسراياه إلى مناطق الجزيرة، كالكاملين وود مدني وجزيرة الفيل والقطينة للقبض على الدناقلة والأشراف. وقد وصف الشيخ بابكر بدري في كتابه «تاريخ حياتي» مشهداً مؤثراً لبعض الذين تم إعتقالهم وقال:

«ففي هذه السنة التي هي 1309هـ حصلت بامدرمان ما يسمونها بحركة الدناقلة فرأيت من قبض عليهم من الكاملين ورفاعة ومدني وجزيرة الفيل في يوم وساعة واحدة بحركة منتظمة حتى لا يفر أحدهم من مكان فينجو من القبض عليه. وقد مر علينا صالح حسن وعبد القادر أخوه في دفعة تربو على المائة نفر كلهم «مشعبون»[1] فزرتهم لأني عرفتهم منذ نشأتي برفاعة وأبكاني حالهم بهذا الذل بعد ذلك الرغد

1. الشعبة نوع من القيد على السجين حيث يوضع قرنا العود حول رقبته ويصل بينهما سير من القد.

في أيام دولتهم بحياة المهدي وبعدها حيث كانوا في المنازل الكبيرة في الحشم والخيل المنقودة. كانوا واسطة أغراض أصحابهم ومحل آمالهم فقلت هذا مصير الدنيا وذكرت أيام بؤسي فحمدت الله وودعتهم بعد أن أعطيتهم ما كنت أقدمه لأمي في ذلك الأسبوع».

كثيراً ما تحامل يوسف ميخائيل في أوراقه على الدناقلة، وذلك منذ قبيل الدعوة المهدية وكان لا يخفي شماتته على كل ما يصيبهم من مكروه. ولا بد أن في الأمر مسألة شخصية لم يفصح عنها. وعلى الرغم من عدم معرفته بخفايا صراع السلطة في المهدية، ألا أن أوراقه لا تخلو من مشاهد جديرة بالوقوف عندها. فهو يقول بلهجته «الكردفانية التي طبعت أوراقه بميسمها» وعند ذلك أمر السيد يعقوب بالقبض على كافة الأشراف، ودار عليهم القبض وملوا سجن الساير من أكابر الأشراف، وليس تركنا منهم واحد يدور في المدينة إلا القوا عليه القبض، لمدة عشرين يوماً القبض داير عليهم، ويعقوب رتب في كل مشرع عساكر، وعليهم مقدم لمدة شهر أو زيادة لأجل قبض الأشراف، وأرسل إلى القطينة، وود مدني والكاملين، لأجل القبض على كافة الدناقلة وإرسالهم إلى امدرمان، بعدما يجردوا منهم الأموال، وأغلب الناس منهم نكروا قالوا: نحن ليس أشراف بل نحن دناقلة تجارين مراكب «واستطرد» عند ذلك أخلى سبيلهم السيد يعقوب، بل أخذنا الرؤوس الكبار كمثل السيد طه وعبد القادر ساتي علي و(السيد حامد عبد الكريم)! وأحمد سليمان كفاية عن خمسة وأربعين من أعز الأشراف المسجونين عند الساير، وأنا والشيخ بان النقا أمرنا خليفة المهدي بحضور وابور وإدخال المذكورين فيه ليلاً، وبوقته يسافر الوابور، وعند قيامه تكونوا انتوا الإثنين ماشين بالبر، وعند وصوله شجرة غردون القبطان يعطكم إشارة بالصفارة، ويتوجه طوالي. وقد كان جمعنا مائة وخمسون نفر من الأنصار لأجل ما يكونوا «حرساً» على الوابور، عليهم واحد ريس اسمه رحمة ولد برمة من الجوامعة

دائماً ترسلوا إلى بحر الجبل بالمذنبين ومن بعد حضور الوابور أوقفناه أمام مشرع الساير كمثل العادة، ونزلت الخمسة وأربعين من الأشراف مكبلين بالحديد لحد الركبة، إلا يشيلوهم على الدمير واحد بعد واحد، وأدخلناهم الوابور بموجب كشف لأجل تسليمهم إلى برمة المذكور، وأيضاً أعطيناه التعليمات عندما يصلوا الشجرة يعطونا صفارة، ويمشوا طوالي. وجميع ذلك ليلاً وخليفة المهدي جالس في منزله ومنتظر حضورنا بعد سفر الوابور، وعندما الوابور سافر لغاية الشجرة أعطانا صفارة ورجعنا منه، وأعطينا الخبر إلى الأمير يعقوب. قال: توجهوا إلى الخليفة، وأعطوه الخبر بذلك كونه جالس للآن في إنتظاركم. وقد كان توجهنا لخليفة المهدي، وأعطيناه الخبر بسفر الوابور، قال لنا: بارك الله فيكم توجهوا لمنازلكم.

كان للقطينة نصيبها من غضب الخليفة ونقمته فلا غرو فهي معقل الثوار والأشراف وأقارب الإمام المهدي ذوي البأس الشديد. وما الصورة التي رسمها إبراهيم فوزي للأمير شايب ود أحمد حين تزعم العملية العسكرية وواجه المقاتلين الجهادية شاهراً سيفه حتى فر أمامه المئات مذعورين إلا جزءاً يسيراً مما تميز هؤلاء الناس من الجرأة والشجاعة. وكانت نساء الإمام المهدي الثلاث اللائي تزوجهن في القطينة ما زلن موجودات علي قيد الحياة.

وفي رواية لجدنا المجاهد عبد الله ود سلمان أملاها على الأستاذ حسن عثمان علي فرح في كراسته «القطينة في عهود» قال «ولم يسلم أنصار القطينة من غضب الخليفة فوجه إليهم تهمة التآمر مع الأشراف. فأمر بمصادرة أموالهم (غنيمة) وبترحيلهم من القطينة إلى أمدرمان. وقبل دخولهم على الخليفة قابلهم الأمير أبوقرجة بما عرف عنه من الحكمة والفطنة والمرونة وبعد النظر فلقنهم كلمات من شأنها أن ترضي الخليفة. وعندما مثلوا أمامه تحدث إليهم حديثاً هيناً ليناً وذكرهم ببيعتهم للإمام المهدي. فوقف أحدهم ويدعى محمد عثمان عجيب ممثلاً للمجموعة يرد على الخليفة فأذن له

فتحدث بما أملاه عليه أبوقرجة وقال: إن هذه الفتنة القصد منها أن ينفض المجاهدون الأنصار الأوفياء من حولك فتضعف دولة المهدية فيسترد الأتراك قواهم ويعودون من جديد. وأن الإمام المهدي قبل رحيله رتب نظام الخلافة وهناك عهد أن نبايعك أولاً ثم من يليك حسب الترتيب. فأنت الظهر ومن يليك العصر فهل يستقيم أبداً أن تصلي العصر قبل الظهر. سر الخليفة سروراً عظيماً من هذا الخطاب وأصدر عفوه عن أنصار القطينة وأمر برد أموالهم إليهم كما أمر بترحيلهم بالمراكب إلى بلدتهم».

وفي 24 جمادي الثاني 1309 (12 يناير 1892) وصف أحمد السني[1] العامل بمنطقة غرب الجزيرة مشهداً آخر في الكوة «عندما كنا بمعتوق ذهبنا إلى الكوة ليلاً وبتنا بالخارج بعد أن عملنا دراسة كافية حول القرية دون أن يشعر بنا أحد. وبعد أن أدينا صلاة الصبح أمرنا كل الرجال في القرية أن يخرجوا من منازلهم إلى خارج القرية ثم أمرناهم أن ينقسموا بحيث تكون كل قبيلة على حدة في مكان واحد. وعندما تم ذلك اخبرنا الدناقلة بأن لدينا أوامر بالقبض عليهم وإرسالهم إلى سيدي خليفة المهدي وكنا نرغب منهم إن كانوا مطيعين وخاضعين أن يلقوا سلاحهم وإن كان لديهم شيء يريدون أن يقولوه فليوضحوه.

حدث هذا يا سيدي بعد أن وضعنا عدداً كافياً من الجهادية حولهم مستعدين بأسلحتهم. وبعد أن رأوا هذا الموقف المرعب أجابوا بالطاعة.. قبض عليهم وأوثق رباطهم ووضعنا عليهم حراسة مشددة. ثم التفتنا إلى بقية القبائل وأعطيناهم أمان الله ورسوله وأمان خليفة المهدي وأخبرناهم بأن سيادتكم راضي عليهم.. ثم بعد ذلك عملنا كشفاً مكتوباً للدناقلة ليكتبوا عليه كل ممتلكاتهم وأجابوا على حسب ما هو مبين في الكشوفة المكتوبة وأرسلناها إلى سيدي يعقوب ما عدا الحبوب لكون المعلومات المطلوبة في كميتها غير معروفة».

1. هولت – دولة المهدية بالسودان 202.

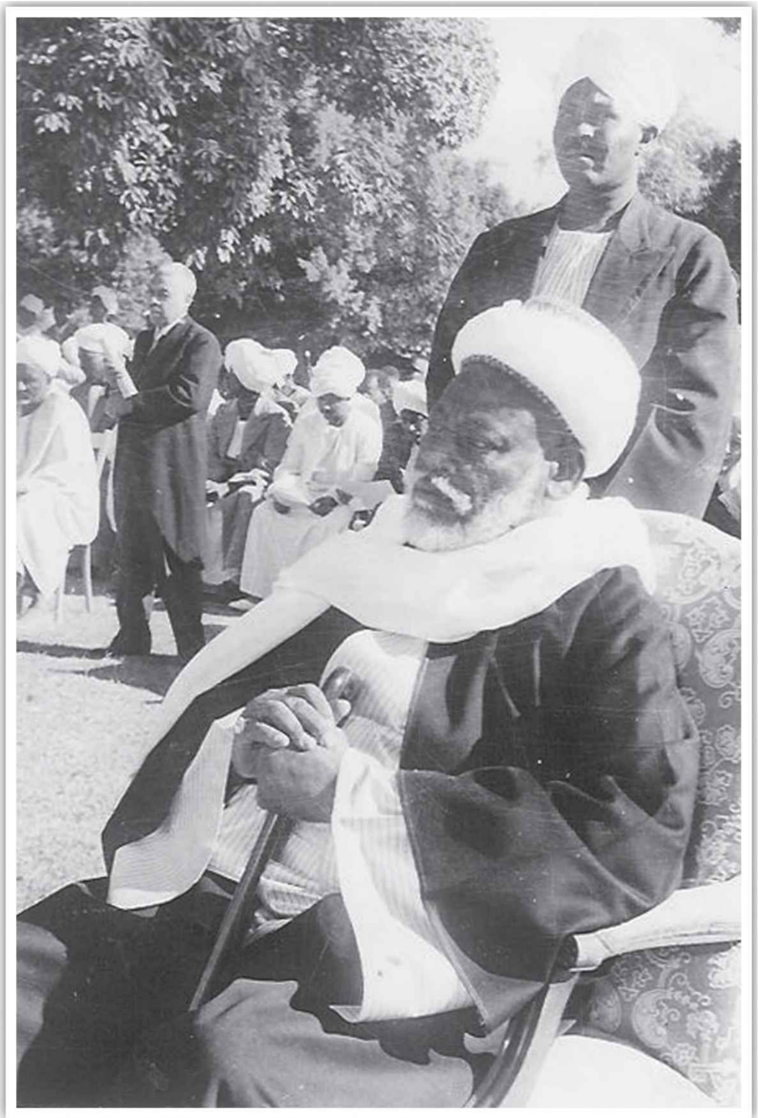
ولما كان قاضي الجهة معنا أويدت إجابتهم على الوجهة الشرعية وبعد ذلك عيناً عدداً كافياً من الأخوان الصادقين الذين ذهبوا إلى منازلهم وأحضروا الأشياء الموضحة في الكشف المرفق ما عدا أشياء وممتلكات كالمنازل... الخ.

كل هؤلاء الأشخاص ومواشيهم ورقيقهم في الكوة تحت الحراسة المشددة في إنتظار قرار يصدر بشأنهم. وقد ظل هؤلاء الدناقلة التعساء بالكوة حتى رمضان (أبريل) حيث أطلق سراحهم بعد أن صودرت ثلث ممتلكاتهم لبيت المال.

أشارت مصادر قليلة إلى دور نساء بيت المهدي في حركة الأشراف وقالت إنهن تقلدن السيوف وخرجن يحرضن على القتال. كن غاضبات بعد أن تجرعن مرارة الحرمان من مقومات الحياة الأساسية وضروريات المعيشة.

كنت لم أتجاوز الثانية عشرة من عمري حين إصطحبني والدي إلى الجزيرة أبا للعزاء في وفاة الإمام عبد الرحمن المهدي. كان السيد الصديق قد إنتقل بالمأتم من أمدرمان إلى الجزيرة أبا يصحبه عدد من شيوخ الأنصار والمدينة تغص بالمعزين من مختلف أنحاء البلاد. ما زالت تلك المشاهد حية لم تغيبها عشرات السنين التي مضت. كان شيوخ الأنصار من جيل والدي ما زالوا في الستين والسبعين متماسكين أقوياء بتلك الروح الوثابة التي تميز بها الأنصار. كانوا يلتفون يومياً صباحاً ومساء. وما زلت أذكر منهم ابني الخليفة عبد الله الإثنين محمد المهدي ومحمد السيد (وأمهما السيدة أم كلثوم بنت الإمام المهدي). ذلك بالإضافة إلى الحسن النجومي ومحمد عثمان الناير (وأمه بنت الأمير عبد الرحمن النجومي) وأحمد حسون زعيم جماعة أنصار السنة والعمدة آدم حامد، عمدة الجزيرة أبا ومهدي أزرق وزين العابدين إبراهيم بلال وغيرهم من شيوخ الأنصار.

كنت مزوداً بالكثير من قصص تاريخ المهدية وبطولات الأجداد. لذا لم تفتني شاردة ولا واردة من تلك الأحاديث التي تبادلها هؤلاء الشيوخ. ما زالت أصداؤها



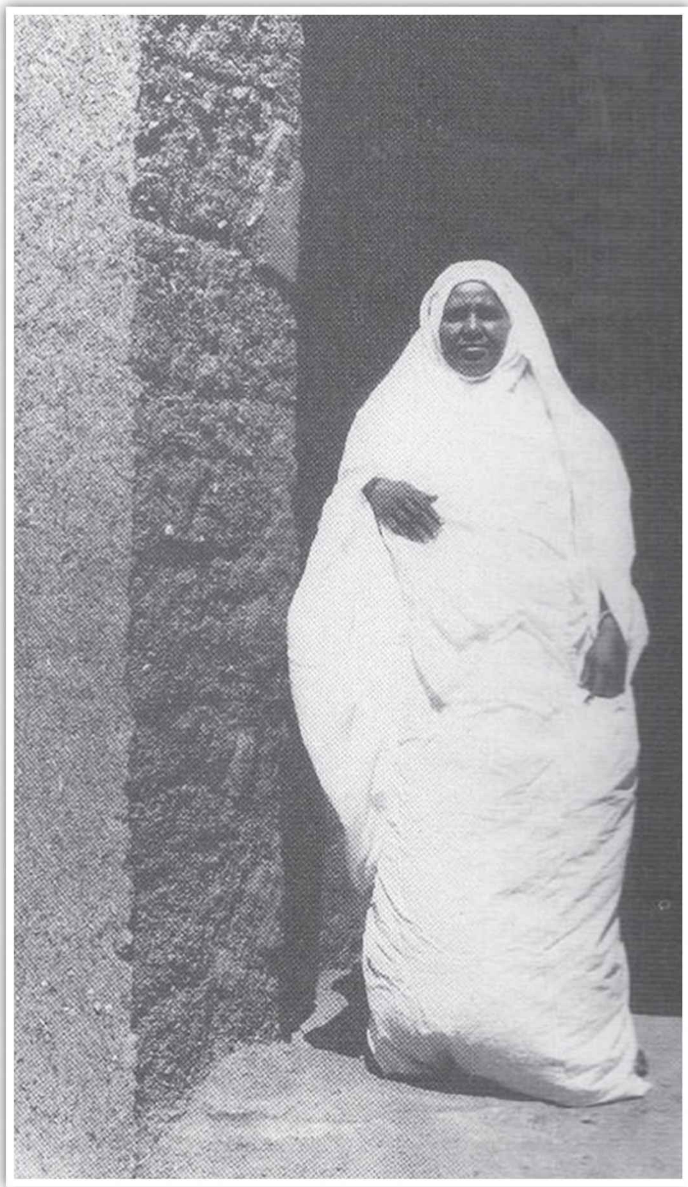
الإمام عبد الرحمن المهدي

تتجاوب في أذني. كان محمد المهدي الذي عرف بميوله للسياسة المصرية وشارك في أحداث ثورة 1924 يميل إلى ممازحة والدي كلما أفاضوا في الأحاديث الطويلة الجادة. وفي لحظة من لحظات جده روى لوالدي أن والدته السيدة أم كلثوم أبلغتهم بأن الأمير أبوقرجة ما توقفت عطاياه عنهم وأنه كان يبعث إليهم بالعطور من مصوع بالقدور وذلك إبان إدارته بكسلا. فرد عليه الوالد بأن والدكم الخليفة كان قد ضيق على نساء المهدي كثيراً. فسكت محمد المهدي ولم يعلق على ذلك.

رسم إبراهيم فوزي صورة مفصلة عما حدث لنساء المهدي وما قمن به من تحرك قتالي أثناء ثورة الأشراف. وإذا أزحنا جانباً تلك الظلال – التي تنم عن غيظه وهو يرزح تحت ظروف القهر والأسر نستطيع أن نحصل على صورة تقريبية لتحركات نساء بيت المهدي أثناء تلك المواجهة المسلحة.

قال فوزي إنه بعد إنتقال الإمام المهدي إلى الدار الأبقى وأتمت أرامله العدة جمع الخليفة عبد الله الخليفتين والقضاة وعرض عليهم إخلاء سبيل كل امرأة لم ترزق ولداً من الإمام المهدي. عارض الخليفة شريف هذا الأمر ووصفهن بأنهن كنساء النبي (صلى الله عليه وسلم) يعاملن مثلهن فيقرن في بيوتهن ولا يتزوجن من بعده. وقال إن هؤلاء النسوة أقمن في داخل بيت، كل خمس منهن في كوخ من البوص. لاحظ أن المؤلف أشار إلى نسائه الأربع ثم السراري من مختلف القبائل – حيث حاول المهدي بذلك أن يربط بين أواصر تلك الأمة بالزواج والإنجاب حيث كان يتمنى لو أن له مائة بنت ليفتدي بهن القبائل – حسب تعبيره - في سعيه لوحدة الأمة السودانية. وقال فوزي إن الخليفة عبد الله أجرى للواحدة من هؤلاء النسوة راتباً شهرياً قدره خمسة ريالات يكدن لا يستلمنه إلا مرتين أو ثلاث مرات في السنة. ووكل حراستهن إلى نحو خمسين من الخصيان الذين كانوا ملكاً لوجوه وأعيان المصريين في سائر مدن السودان.

وصارت حالة النساء والخصيان تنتقل من سيء إلى اسوأ. وبالجملة لو لم يكن



السيدة أم كلثوم بنت الإمام المهدي وزوجة الخليفة عبدالله حوالي عام 1908

لهؤلاء النسوة أقارب يمدوهن ببعض القوت لمتن من الجوع وكذلك الخصيان الذين كان قوام معيشتهم من التسول من الأمراء وأعيان البلاد. وفي عامي المجاعة توفيت كثير من النساء اللواتي لم يكن لهن أقارب ومات كثير من أطفالهن أولاد المهدي وكن كلما شكون أمرهن إلى الخليفة وما هن فيه من شظف العيش يبكي وينتحب ويقول لهن أنكن آل بيت المهدي لا نصيب لكن في الدنيا وليس لكن غير الآخرة. حتى إذا تفجرت حركة الأشراف إنتفضت نساء المهدي تأييداً للخليفة شريف. فبعث الخليفة لهن ألفاً من الجهادية المسلحين لتهديدهن، إلا أن البعض منهن ثبتن واستهن بالموت. ويقال أن السيدة زينب كبرى بنات المهدي وزوجة الخليفة شريف أغلظت القول للخليفة فأنصرف عن هؤلاء النسوة ولم يعاقب اللائي شاركن في تلك التظاهرة المسلحة. ولكن الحال إستمر على ما هو عليه حتى سقوط دولة الخليفة.

لم تمض سوى إثنين وعشرين يوماً على الإتفاق الذي تم بين الخليفتين حتى صدرت الأوامر باستدعاء زعماء الحركة وإجراء محاكمة استنطق فيها الشهود وصدرت أحكام بالإعدام في حق أولاد الفكي محمود بادي وهم فوزي وأحمدي ووجدي ومقبول بالإضافة إلى بشير بادي وإدريس وديدي وسعيد محمد فرح وأحمد سليمان وأحمد محمد خير وموسى ود زينب وأحمد النور الكاتب. وتم إرسالهم إلى فشودة حيث كان الأمير الزاكي طمل معسكراً هناك حيث تم تنفيذ الإعدام. وقال فوزي إنه قبيل تنفيذ الحكم خاطبهم الزاكي في مجلس يغص بقواده فقال «لماذا يا معشر الدناقلة تحاربون خليفة المهدي فردوا عليه أقبح رد وقالوا له إن المهدي الذي أورثكم الملك دنقلاوي منا وأنتم بقارة أرقاء فساءه ذلك وقال لهم لاقتلنكم كما تقتل الكلاب وأمر أن يضربوا على رؤوسهم بالعصي الغليظة حتى سحقت هاماتهم. وعفا خليفة المهدي عن آخرين ومن بينهم شايب أحمد ومحمد كركساوي وسليمان كركساوي وعثمان صالح أرباوي ومحمد علي دفع الله الخندقاوي لأنهم لم يشاركوا في إعداد الإنتفاضة.

ولقد ذكرنا آنفاً أن أولاد محمود بادي الذين إتخذوا موقفهم إلى جانب الخليفة شريف كانوا يخططون لحكم السودان بتسليمه للسيد أحمد الميرغني.

والمعروف أن السيدة رقية بنت جلاب والدة السيد الحسن بن محمد عثمان الميرغني الكبير هي قريبة الفكي محمود بادي. وقصة تحرك السيد محمد عثمان الختم من الحجاز إلى السودان ومن ثم إلى بارة معروفة على ذلك النحو الباطني الذي يردده الرواة.

واسترسل إبراهيم فوزي في التفاصيل المتعلقة بنكبة الأشراف والتي إنفرد بها دون سائر المؤرخين وقال «وأنه لما تم إعتقال أحمد ود سليمان ومن معه لزم الخليفة شريف داره وامتنع عن الذهاب إلى منزل الخليفة عبد الله الذي أمر بالقبض على نحو ألفي رجل من حزبه ونفاهم إلى أعالي النيل وقتل أكثرهم في الطريق. وشاع بين الناس أن التعايشي ظفر بالقائمة التي تتضمن أسماء من بايعوا الخليفة شريف وجلهم من الأمراء ووجوه البلاد فخافوا العاقبة وأرسلوا للخليفة شريف سراً يدعونه للفرار من أمدرمان واللحاق بالجزيرة ليظهروا مبايعته ويقوموا بأمره. وحينئذ يكون أحد الأمرين إما الموت أو الظفر وهذا قريب من الصحة لما قدمناه من إنحراف الناس عن التعايشي وسعيهم للخلاص من يده».

لم يلتفت الخليفة شريف لما أشار به أنصاره ولم يعبأ بما عرضوه عليه من الآراء الحازمة وظل مقيماً في داره حتى شاع بين الناس أن التعايشي أوشك أن يقبض عليه فذهب واحد من خاصته وأبلغه بذلك إلا أنه لم يلق بالاً لحديثه.

كان الخليفتان مختلفين حول أحقية سيف للإمام المهدي يقال عنه أنه سيف النصر لما يتميز به من خواص يتحدث عنها العامة وينسبون إليه الكرامات. وكان الخليفة شريف يحتفظ بالسيف ويرفض أن يعطيه للخليفة عبد الله رغم مطالباته المتكررة. وكان الخليفة شريف يتقلده أيام الأحداث ليقينه أن النصر حليفه ما دام

السيف بحوزته.

وفي اليوم الثالث من شهر رجب 1309هـ جمع الخليفة القضاة والأمراء وطلب منهم أن يكتبوا ما هو أقرب إلى صحيفة الإتهام جاء فيها أن الخليفة شريفاً اعتزل الجمعة والجماعة وأصر على العصيان ولزم داره. فكتبوا الوثيقة وصحبوا الخليفة علي ود حلو إلى حيث يقيم الخليفة شريف لإستدعائه للحضور في قبة المهدي. ولما أحس السيد محمد بن المهدي بأن الأمر لا يخلو من مكيدة حاول منعه وعرض عليه الفرار إلى الجزيرة فرفض. ولم يكد يصل إلى ذلك المجلس حتى انتزع بعض الحاضرين منه السيف. وبأوامر من القاضي أحمد ود علي اقتاد عربي ود دفع الله وحاج الزبير الجعلي رئيسا الجهادية الخليفة شريف إلى السجن. أحاط به جهادية عربي بعد أن رفض عدد منهم المشاركة في إذلال خليفة المهدي وابن عمه. إلا أن البعض الذي تورط في المهمة استخدم معه الشدة والعنف حتى سحبوه على صخرة كانت قريبة من الباب فأدمت كعب رجله اليسرى وأودعوه السجن وهو يرسف في اثني عشر قيداً.

بعد تلك المعالجة القاسية وجم الحضور وخيم على المجلس سكون رهيب وبدت مظاهر الحزن العميق ترتسم على وجوه الخليفة علي ود حلو وبعض القضاة والأمراء فقرروا التوجه إلى باب الخليفة يطلبون الإذن لمقابلته فلم يأذن لهم فانصرفوا. هل كان الخليفة عبد الله سعيداً بما جرى فأوصد بابه ليحتفل وحده بالنصر على زعيم المعارضة الذي يعرف جيداً مكانته عند الإمام الراحل الذي قام بتربيته وتعليمه وتهذيبه منذا أن هاجر إليه من دنقلا صبياً يافعاً ومن ثم إتخذه خليفة ثالثاً وزوجه ابنته. أم أنه كان حزيناً لما آلت إليه الأمور والنتائج التي وجد نفسه مدفوعاً لتحقيقها؟!

لم تكن تصرفات الخليفة عبد الله تشف عن تسرع للتشفي والانتقام منذ أن أطلت الفتنة وظل يتذرع بالصبر ويبدي سروراً بالانفراج الذي يتم والإتفاقات التي يتراضى عليها الطرفان بل كان كثيراً ما يبدي رغبته في عزل الخليفة شريف وكبار

الأشراف بمن فيهم أبناء المهدي عن البطانة التي ظلت تشعل الحرائق وتستعجل المواجهة دون إعداد المسرح والإستعداد اللازم.

ولا بد أن الخليفة في تلك الليلة ظل يستعرض علاقاته مع الأشراف آل المهدي منذ أن وطئت قدماه أرض الجزيرة أبا لأول مرة وأطال التركيز على كلمات الإمام المهدي في آخر خطبة جمعة له في شعبان سنة 1302هـ الموافق 12 يونيو 1885م. فبعد أن فرغ الإمام من الخطبة في الجامع وهمَ الناس بالوقوف للصلاة أشار إليهم بيده وقال اجلسوا ثم نادى بأعلى صوته وقال «أيها الناس إني مللت النصح والمذاكرة لأقاربي الأشراف الذين تمادوا في الطيش والغواية وظنوا أن المهدية لهم وحدهم ثم أمسك بثوبه ونفضه ثلاث مرات وقال أنا برئ منهم فكونوا أنتم شهوداً عليَ بين يدي الله تعالى فنكس الأشراف رؤوسهم ولم يجبه أحدهم بكلمة. ثم نزل من المنبر وصلى صلاة الجمعة وخرج. وكان هذا آخر عهده بالجامع.

ولعله في تلك اللحظات تذكر تلك الحادثة التي رأى فيها الإمام المهدي أجساماً حمراء منشورة على الأشجار وذلك أثناء زحفه على الخرطوم، فظنها لحماً وسأل عنها فأجابوه بأنها سجاجيد الأشراف التي بللتها الأمطار. فغضب الإمام من محاولة الأشراف التميز على الناس بالنوم على السجاد فأمر بها فأحضروها فمزقها قطعاً وهو غاضب على هذا السلوك المترف الذي يصاحب ثورة الفقراء والزهاد.

هل إستعرض الخليفة في تلك الليلة التعالي والإعراض وما كان يلقاه من إزدراء الأشراف له واستهانة أحمد سليمان أمين بيت المال[1] حيث كان لا يعطيه أكثر من مائة ريال في الشهر. ويقول فوزي «أما أقارب التعايشي فلا نصيب لهم البتة حتى أن يعقوب أخا التعايشي ووكيل رآيته كان يتردد على باب أحمد سليمان شهرين أو ثلاثة فلا يمنحه بعدها أكثر من خمسة ريالات. وقد رأيته مراراً واقفاً على باب أحمد

1. لسودان – الجزء الثاني ص105

سليمان موقف أذلاء السؤال فلا يؤذن له بالدخول إلى حضرته.» وقال «ولما توفى المهدي كان التعايشي ينتظر من أحمد سليمان أن يتقرب إليه ويخدمه بمثل ما كان يخدم به المهدي ويقود دابته حافياً كما كان يقود دابة المهدي فلم يفعل. بل غاية الأمر أنه زاد في إحترامه للتعايشي رعاية لمنصبه وزاد في مرتباته وخص ذوي قرابته بنصيب أقل من القليل من بيت المال وعكف على البذل والإنفاق على أقارب المهدي وزاد أعطيات نسائه وأولاده وأمهاتهم.

كانت ذروة المأساة حين إنعقدت محكمة برئاسة القاضي أحمد علي وعضوية عبد القادر ود أم مريوم والسيد المكي الشيخ إسماعيل الولي وطه الجعلي وعبد الباقي ود حاج الماحي والقاضي الهادي الحلاوي. وذلك لمحاكمة الشريفين عبد القادر ساتي علي، عم الإمام المهدي ومحمد عبد الكريم، ابن عمه. وأعلن القاضي أحمد علي أن الشريفين تورطا في الفتنة وسيكون مصيرهما الحكم بالإعدام كما كان حكم رفاقهما السابقين أحمد سليمان وسعيد محمد فرح وأحمد النور الكاتب وغيرهم. فأعلن السيد عبد القادر ترحيبه بقضاء الله وقدره أما السيد محمد عبد الكريم فحاول الدفاع عن نفسه فأمره الشريف عبد القادر بالكف عن ذلك وقال له: «هذا شيء نافذ ومتفق عليه ولا داعي للكلام فيه»، فسكت. ثم أصدر القاضي أحمد علي أمره إلى عبد الباقي ود الماحي وطه الجعلي أن يقتاداهما إلى السجن ففعلا وهناك مكث المحكومان ثلاثة أيام ثم أرسلا بالباخرة بحراسة شخص يدعى ضوينا ، وهو أحد أمراء الجوامعة، إلى الزاكي طمل بفشودة. ولما كان الأمير الزاكي عائداً إلى أمدرمان إلتقيا به في جبيل أحمد أغا القريب من الجبلين. وتسلم الزاكي خطاب الخليفة الذي يتضمن الحكم بالإعدام ضرباً بالعصي. ولم يشأ الزاكي أن ينفذ الحكم أمام الجيش وفي وضح النهار فأرجأه إلى الليل وحاول تكليف الأمير عبد الله ود إبراهيم بالتنفيذ فامتنع رافضاً أن يلطخ يديه بدماء الأشراف من آل المهدي. **وكان قد دار حوار بين الزاكي والشريف**

عبد القادر الذي أبدى جلداً وثباتاً نادرين. كلف الزاكي رجلاً في رتبة «رأس المائة» يدعي كافي فاختار معه عدداً من الجهادية – الذين أخذوهما إلى خارج البلد بعد صلاة العشاء ونفذا فيهما الحكم ضرباً بالعصي. وقد روى السيد علي المهدي مشهداً عجيباً حيث قال: وفي صباح اليوم التالي أبلغ كافي الأمير الزاكي بتنفيذه الحكم فاستأذن عبد الله ود إبراهيم وتوجه إلى مكان الإعدام ليجد جثتي الشريفين وبجانبهما ثلاثة من النسور نافقة. وقع اثنان منهما على جثة السيد عبد القادر فمزقا جبته ولكنهما نفقا عندما حاولا أكل لحمه. أما الثالث فقد وجده بجانب السيد محمد عبد الكريم وكان قد بدأ ينهش إحدى عينيه فسقط نافقاً. ولم يملك عبد الله ود إبراهيم إلا أن أجهش بالبكاء وعاد ليبلغ الأمير الزاكي بالمشهد الذي رآه فتحسر الزاكي وتشاءم لأنه في ساعة الإعدام كانت قد هبت عاصفة عنيفة أضاعت كثيراً من صناديق الجبخانة التي كانت بالصندل الملحق بالوابور.

ولم يلبث الحال أن تدهور أمر الزاكي طمل وطاردته اللعنة حتى أطيح به بعد وشايات نقلها الأمراء التابعون له إلى خليفة المهدي فطلبه بأمدرمان وحبسه حتى مات صبراً.

أمر الخليفة بإخلاء منزلي السيدين عبد القادر ساتي علي ومحمد عبد الكريم بأمدرمان وبعث بجماعة من قواته الخاصة فأجروا تفتيشاً دقيقاً على المنزلين حتى حفروا الأرض بحثاً عن السلاح والجبخانة وأي مكاتبات محتملة. فلما لم يعثروا على شيء وضعوا عليهما الحراسة لمدة طويلة حتى صدر الأمر بترحيل الأشراف إلى ود نوباوي.

كان عبد القادر ساتي علي كما وصفه فوزي باشا فقيهاً شاعراً أديباً طبيباً ولد في الخرطوم ونشأ فيها ولحق بالإمام المهدي في كردفان فأكرم وفادته وعرف منزلته وصار مبجلاً لديه حيث عهد إليه برئاسة الأمناء الذين ينوبون عنه في نظر المسائل العمومية

وجعله أميناً على خاتمه. وقال إنه لم يكن يتقرب إلى الخليفة ولا يبدي له كبير إحترام ولا يجلس بين يديه جاثياً على ركبتيه كما يقتضي الحال. ولما إنتقل الإمام المهدي إلى الدار الآخرة عزل الخليفة السيد عبد القادر من منصبه ومنعه من مزاولة مهنة الطب.

لا بد أن فوزي باشا كان يجنح للمبالغة حين كتب يقول بأن «أقارب المهدي الذين قتلوا في حوادث انتفاضة الأشراف يبلغ حوالي ثلاثة آلاف رجل عدا الشبان الذين كانوا حراساً للخليفة شريف فقد طرح عدد كبير منهم طعمة لأسماك النيل». ولم ينتبه فوزي كثيراً إلى أنه كان يكتب تاريخاً عاصر أحداثه فيلتزم بالدقة والصرامة فيما يتعلق بالأرقام. كما أنه كان يظن أنه يكتب للمصريين فقط وخاصة الطبقة الحاكمة آنذاك التي ربما تتسع دائرة إهتمامها لتشمل أحداث السودان. ولم يتصور أن يصبح مؤلفه يوماً مصدراً يتناوله الباحث السوداني من بين ما يتناول من كتابات المؤرخين. لذلك فجميع المراجع التي تعرضت لتلك الحادثة لم تتحدث عن ضحايا كثر سوى الأسرى والسجناء الذين أبعدوا إلى منافي الجنوب.

مات شهيداً متأثراً بمعتقل للإنجليز

حســـين عثمان العربي

قائد الهجوم على سواكن

مات شهيداً متأثراً بمعتقل للإنجليز
حســين عثمان العربي
قائد الهجوم على سواكن

نحن خــيولنا غارن

في نواحي ســواكن

أبو عثمان جقود[1]

إشتد الضيق بقوات الأنصار الذين حاصرتهم المجاعة وكادت أن تفتك بهم. تولّت سنة 1306هـ وما جرته على أهل السودان جميعاً من هلاك. وها هو الموسم الجديد لا يبشر بكثير من الخير وخاصة في شرق السودان. فقد هجمت أسراب الجراد كالغيوم السوداء مقبلة من جهات اليمن وقضت على الأخضر واليابس. واجه الأمير أبوقرجة بشدته وقوة بأسه الموقف فأخذ يبعث بالسرايا لمطاردة المتمردين على سلطة المهدية وانتزاع الغنائم منهم. وفي عصر يوم الخميس 27 ربيع أول الموافق 21 نوفمبر 1889 بعث سرية بقيادة أخيه حسين عثمان العربي قوامها خمسون فارساً للهجوم بغتة على مدينة سواكن. أحاطوها بالكتمان حتى لا يبلغ نبأ تحركها الحامية. نفذ حسين الغارة بفرسانه على العساكر الموجودين خارج أسوار الحصن فولوا هاربين. تتبعهم بفرسانه وقتلوا منهم خمسة وستين وغنموا ألفين من الأغنام وسبعة من الإبل وثلاثة من البقر. ولم يجرؤ أحد على الخروج إليهم من داخل الحصن لإسترداد ما غنموه.

كانت المجاعة تهدد جيوش المهدية في شرق السودان عندما استدعى الخليفة عبد

1. من قصيدة جقود التي ينوه بها إلى هجوم الأمير حسين على سواكن.

الله الأمير عثمان دقنة وعدداً من أمراء راية الأمير أبوقرجة إلى أمدرمان[1] «بغرض المذاكرة في الله مما يؤدي إلى تأييد الدين وتوسيع رقعته» كما أوصى الخليفة أبوقرجة بامتثال أوامر وكيل دقنة وتقبل توجيهاته». رد عليه أبوقرجة بأن دقنة وقع إختياره على المجذوب أبي بكر يوسف[2] ليكون وكيلاً عنه في عموم الجيش وطمأن الخليفة بأنه قد وافق عليه وسيتحد معه حتى لا يحدث اضطراب وخلل في الجيش إلى حين حضور المكرم عثمان دقنة. والتزم للخليفة بأنه سيبادر إلى فعل كل ما يؤمر به حتى يكون قدوة حسنة للناس. وأشار إلى أتباعه مع المجذوب نفس طريقته مع دقنة. وختم أبوقرجة خطابه بأن حبل المودة سيكون ممدوداً بينه وبين الطاهر المجذوب والشفيع رحمة (من الأمناء) في طوكر[3]

وجاء في رسالة علي عمر علي (أن الأوضاع المعيشية في طوكر تردت وبلغ السيل الزبا بالأنصار وبلغت قلوبهم الحناجر. وأن جميع الأبواب أغلقت في وجه المجذوب أبي بكر (وكيل دقنة) لهذا وجد الأمير أبوقرجة نفسه أمام المركب الصعب الذي لا بد من ركوبه فركبه لإنقاذ العمالة حتى لا يهلك الأنصار عن بكرة أبيهم على الرغم من الإهمال الذي لقيه من الخليفة في نزاعه العادل مع عثمان دقنة. وأخيراً إهتدى أبوقرجة لتجريد الحملات بنفسه وأعوانه على المتمردين لجلب الغذاء لطوكر. وعليه فقد نذر أبوقرجة نفسه وباعها فداء للوضع الدقيق والحرج الذي تمر به المهدية في الشرق).

إضطر المجذوب أبوبكر أن يعترف بالدور الذي قام به أبوقرجة، وذلك في خطاب بعث به إلى الخليفة قال فيه: (فمن خصوص حال المكرم عثمان أبي قرجة معنا فهو

1. مهدية: 6/30/1ب/25 من أحمد محمود إلى المجذوب أبي بكر 11 جمادى الثاني 1307هـ، قرة فبراير 1890م.
2. وهو من الأرتيقة وأمه بنت الشيخ محمد المجذوب.
3. مهدية: 115/1/5/1 من أبوقرجة إلى الخليفة 28 محرم 1307هـ - 24 سبتمبر 1889م.

في غاية الموافقة والاتحاد والمؤازرة جزاه الله الخير وفقنا وإياه[1].

شارك حسين بن عثمان العربي إخوته في جميع معارك المهدية. وقد ورد اسمه كثيراً في وثائق شرق السودان حيث صحب أخاه الأمير أبوقرجة – هو وزكريا – إلى هناك. وقد قاد كثيراً من السرايا الموجهة لتأديب المتمردين على السلطة.

وقد عاد أخيراً وأقام في القطينة بعد نفي الأمير أبوقرجة وظل بإنتظاره حتى عاد في عام 1907م. وفي عام 1908م عندما وقعت أحداث انتفاضة عبد القادر محمد إمام ود حبوبة تم إعتقال جدنا حسين باعتباره أحد كبار الأمراء الذين ظلوا على قيد الحياة. وزجوا به في سجن ضيق فتأثرت صحته بذلك، وفقد بصره. ولما أفرج عنه لم يعش طويلاً فلقي ربه شهيداً.

وروي عمنا المرحوم حسن آدم إدريس[2] في حديث أجريته معه وتم تسجيله في عام 1982م. أن عساكر الحكومة جاءوا يحاصرون القطينة ليلاً فشاهدوا أناساً يرقدون في فناء أحد المنازل. فأمر قائدهم بإطلاق النار عليهم. ولكن أحد الجاويشية إرتاب في الأمر واقترب من الناس فأدرك أنهم نيام في دار عزاء، وليسوا في حالة إستعداد للحرب. ورفض الانصياع لأوامر القائد. وقال العم حسن آدم أن قائد العساكر كان مأموراً سابقاً في مركز القطينة حين إعتدى بالضرب على عمدتها. فتوجه نفر من أعيان البلدة إلى الدويم عاصمة المديرية وقدموا شكوى بشأن ذلك الاعتداء. قرر مدير المديرية نقله من القطينة إلى الدويم فأضمر حقداً على أهالي البلدة. وكان يظن أن الفرصة قد سنحت لتصفية حساباته معهم.

وكانت الحكومة قد بعثت قواتها تحاصر القطينة والكاملين لإعتقادها بإحتمال مشاركة الرجال في تلك الأحداث أو لربما ينتفضون في أي لحظة. فهم ثوار المهدية

1. مهدية: 6/30/1ب/4 من المجذوب أبي بكر 3 جمادى الثاني 1307هـ. - 3 فبراير 1890م.
2. كان في الثامنة عشرة من عمره.، عند وقوع تلك الأحداث.

الذين ما زالوا يتحينون الفرص لمواصلة الجهاد.

لم يكن جدنا حسين عثمان شقيقاً لأحد من إخوته أبناء عثمان العربي. كان وحيد أمه، وهي من آل سندلوبة. وأغلب الظن أنه كان واسطة عقد إخوته ، الثلاثة الكبار أبوقرجة وحسن وزكريا والثلاثة الصغار نصر ومصطفى وعلي. وربما كان ميلاده في حوالي (1848 – 1850).

خلف جدنا حسين ولداً واحداً هو عمنا مصطفى الذي سافر إلى الجنوب شاباً في العقد الثاني من القرن العشرين. وقد تزامن ذلك مع وجود والدنا وعمينا حسين وكنتباي في تلك المناطق. وقد توفي هناك في حادث مؤسف حين أصابه طلق ناري في رجله – أثناء تنظيفه لبندقيته – فنتج عن ذلك «غانغرينا» فتسمم دمه. وقد إنتقلت أمه من القطينة إلى أم غنيم يصحبها عدد من أرقائها. وقد أقامت هناك إلى أن توفاها الله، عليها الرحمة.

كنا نلاحظ أن في ساعد الوالد آثاراً لجراح – ربما ثلاثة أو أربعة – كان قد مضى عليها زمان فيما يبدو إلاَ أن أثرها كان واضحاً. وفي لحظات الصفاء حين نكون جالسين بالقرب منه، كانت الوالدة تدعونا همساً لأن نستفسر عن سر تلك الفصود. فكنا نسأله. وكان يجيبنا بابتسامة لا أكثر. ويدرك أن الوالدة كانت وراء ذلك السؤال. روت لنا الوالدة أن الوالد كان حدثاً صغير السن دون العشرين حين جاء من أمدرمان إلى القطينة لحضور حفلات إحدى زيجات الأهل. وفي الحفل عندما برزت فتاة بارعة الجمال للرقص إستبد به الموقف وهزه المشهد فلم يملك نفسه فاستل سكينه ومدَ ساعده الأيسر فوق الفتاة وأخذ يجرحه ويرش الدم على ثوبها فانزعج الحاضرون وإضطربوا. وأسرعت النساء باقتياد الفتاة إلى داخل الغرف لغسل الثوب. فقد كانت ضيفة قادمة من أمدرمان.

كان الفتيان عهد ذاك يحاولون إبداء ضروب من البسالة كالضرب بالسياط

«البطان» وجرح أيديهم وصدورهم بالسكاكين. وذلك ابتغاء رضا الفتيات والفوز بإعجابهن. وكانت الأغاني حماسية عهد ذاك تثير نخوة الشباب وتوقهم للبطولة. وقد ظلت هذه العادة تظهر وتختفي إلى يومنا هذا.

تبرع أحدهم وأبلغ جدنا حسين بما فعله ابن أخيه حسن فاستدعاه وانهال عليه ضرباً بعصا غليظة وهو ثابت لا يتحرك. فأحدث الضرب جراحاً على جراحه وأصبح لا يكاد يقوى على الوقوف على قدميه. وأشفع الضرب بعبارة لاذعة «والآن دع بنت فلان تأتي وتربت لك على جراحك»[1].. يقصد تلك الفتاة ضحية الحادثة. وذلك مستحيل بالطبع.

إضطر حسن للبقاء في القطينة تزوره عمته سراً. تحمل إليه الطعام وتضمد جراحه بالسمن الساخن حتى كادت أن تندمل. ومن ثم عاد إلى أمدرمان. وربما تكون تلك الحادثة قد أحدثت تحولاً في حياته. فلم يعرف له من بعد لهو ولا عبث. وظل صاحب جدٍ وورع حتى توفاه الله.

كان جدنا حسين هكذا متشدداً صعب المراس. وكان الناس يخافونه حيث يلجأ للعصا في معظم الأحوال. ولما أضحت القطينة مركزاً يعمل فيه كثير من الموظفين المصريين، يقيمون مع أسرهم بدأ بعض الناس في تقليد لهجتهم. وكان يرى في ذلك كفراً حيث أن المصريين كانوا شركاء الإنجليز في إحتلال السودان. فكان يغضب ويعاقب كل من يحاول إستخدام الفاظ مثل إزاي ودلوقت وفين وما ينفعش وما عندناش.. الخ.

1. "خليها تجي تحوليه ليك"

الفخ .. أو الإستدراج للمنفى

الفخ .. أو الاستدراج للمنفى

كان ما جور الزمن وناساً بصرها قليل

شرك أم قيردون كيفن بقبض الفيل!!

الحردلو ود أب سن[1]

كان الوقت أصيلاً والشمس برتقالية ناعسة ذات ألق نحاسي بديع والنيل ساكناً رصاصي اللون تحرك أمواجه رياح خفيفة تعاكس التيار فتحدث تجعدات ناعمة في وجه الماء. كان ذلك اليوم هو الخميس الأول من نوفمبر 1892 حين شهد سكان أمدرمان القاطنين على الشاطئ الشمالي قارباً يشق الماء متجهاً صوب الجنوب تحجبه سيقان أشجار السنط بين الفينة والأخرى. وكان المنظر المثير الذي شد إنتباه المشاهدين كثرة النساء اللائي يقلهن الزورق واللغط الذي يدور بينهن محطماً ذلك الهدوء الطبيعي الذي تنعم به المدينة لا يبدده إلا آذان الصلاة الذي ينبعث من بعيد من مسجد الخليفة الجامع. رسا القارب أمام منزل الأمير أبوقرجة الذي كان بيت مال المسلمين قبل أن يشتريه الأمير من الدولة ليتحول بيت المال إلى موقعه الأخير. ترجلت النساء كاشفات عن رؤوسهن مولولات باكيات. وسرعان ما تم إدخالهن إلى المنازل الداخلية للحريم وأقبل عليهن الأمير أبوقرجة ليسمع قصتهن. كانت النسوة قريبات لبشير بك كمبال المبعد إلى المناطق الإستوائية وكن قادمات من الحلفاية بعد أن بلغهن أن أمراً صدر من الخليفة عبد الله بتعيين الأمير أبوقرجة عاملاً للمهدية في بحارة وأنه يوشك على التوجه إلى عمالته الجديدة.

1. مقطع من قصيدة يمدح فيها الخليفة عبد الله في صراعه مع الأشراف. ولكنها تناسب هذا المقام.

فكرت أسرة بشير كمبال في أن تطلب من الأمير أبوقرجة العمل على إعادته إلى أهله فأوفدت تلك المجموعة من النسوة حاسرات طامعات في مرؤوته ونخوته رغم ما قد يسبب له ذلك من متاعب مع من يتربصون به الدوائر. إلاَ أنه أمرهن بتغطية رؤوسهن تعبيراً عن الاستجابة لطلبهن وبشرهن بالخير، واستضافهن في داره حتى عدن إلى الحلفاية.

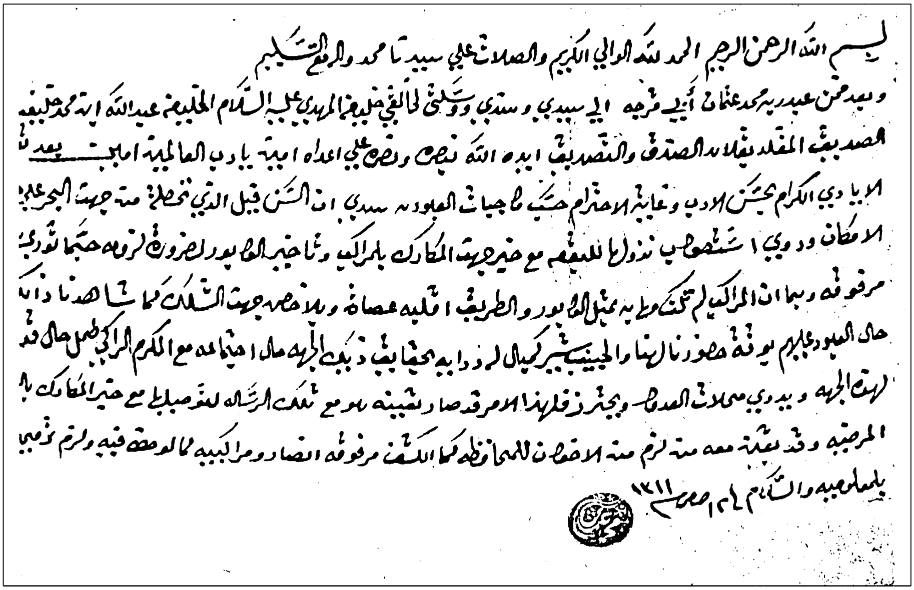
جاء في مخطوط المؤرخ محمد عبد الرحيم أن الخليفة كان قد بعث ببشير بك كمبال – الذي كان ضابطاً بارزاً إبان العهد التركي وإنضم إلى سلطة المهدية – مع جيش عمر صالح أمير الرجاف حيث بقي هناك بضع سنين قبل أن يعود إلى أمدرمان. وأشار المؤرخ إلى أن إتهاماً تم توجيهه إلى بشير كمبال بمراسلة مخابرات الجيش المصري بالحدود حتى بعد أن زج به في السجن.

بعد وصوله إلى الإستوائية بأقل من عام إستطاع أبوقرجة أن يجمع كميات من سن الفيل منفذاً توجيهات الخليفة وكلف بشير كمبال على رأس مجموعة أبحرت بعدد من المراكب التجارية بهذه السلعة الثمنية إلى بيت المال بأمدرمان. وأصحبه رسالة للخليفة يوضح فيها أن إختيار بشير كمبال إنما جاء لمعرفته بالممرات المائية في النيل وبتلك الجهات.

وفي 20 سبتمبر 1893 التقى عربي دفع الله ببشير كمبال عند مدخل نهر السوباط قادماً من خط الاستواء الذي حاول أن يعيده إليه إلاَ أنه إعتذر بطول غيابه عن أهله ووعد بالعودة إلى تلك المناطق مرة أخرى. أشارت بعض الروايات إلى أن الخليفة عبد الله غضب من الإفراج عن بشير كمبال واعتبر ذلك خروجاً عن إرادته وعبر عن ذلك بقوله «نحن نسجن وأبوقرجة يفك!!». وذلك رغم الرسالة التي أوضح فيها أبوقرجة الظروف التي اقتضت تعيين بشير كمبال لتلك المهمة وقدرته على اجتياز



بشير بيك كمبال



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم

وبعد فمن عبد ربه محمد عثمان أبي قرجه إلى سيدي وسندي ووسيلتي لله في خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة

الصديق المقلد بقلائد الصدق والتصديق أيده الله بنصره ونصره على أعداه آمين يا رب العالمين أما بعد تقبيل

الأيادي الكرام بحسن الأدب وغاية الاحترام حسب ما جيات العبودية سيدي أن السن فيل الذي تحصلنا منه جهة البحر على

الإمكان وودي استصحاب نذوره للبقعة مع خير جهة المكارك بالمراكب ونا حين العابور لضرورة لزومه حتما تورد

مرفوقه وبما أن المراكب لم تكن مطلوبة بمثل العابور والطريق أغلبه عصاة وبلا خصوص جهة الشلك كما شاهدنا ذا به

حال العبودية لم يوقفه حضورنا لهنا والجنيب بشير كمبال لو دابه مقابيت ذبت الجهة حال إقامته مع المكرم الراكب حصل حال قد

لهت الجهة وبيدي معاملات العداء وبخير ذلك بهذا الأمر قد صار تشبينه معه مع تعقب الرسالة للتوصيل مع خير المكارك با

المرضية وقد بقيت معه منه لزم منه الإحصان للمحافظة كما السفن مرفوقه القصاد ومراكبه لما لوحقه فيه ولزم توضيحا

بالمعلومية والسلام ٢٤ صفر ١٣١١

رسالة من أبوقرجة للخليفة بخصوص إرسال بشير كمبال إلى أمدرمان مشرفاً على المراكب المحملة بسن الفيل



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم
وبعد فمن عبد ربه محمد عثمان ابي قرجه الى سيده وسندي ووسيلتي الى النبي خليفة المهدي عليه السلام الخليفة سيدي عبد الله ابن محمد
خليفة الصديق المتقلد بقلائد الصدق والتصديق رضي الله تعالى عنه وارضاه ابدا آمين بعد
تقبيل مواطي الاقدام قبل الايادي الكرام نفيد بكل وثائق واجبات العبودية سيدي انه لقد تشرفنا
بورود الامر الكريم الصادر لنا من سيادتكم بتاريخ ٥ جماد اول سنة ١٣١٠ الموذن بان توضح حقوقنا جميعا والمتروك
من هنا المأخوذ معنا واولادنا وامرأتنا لكيلا نحتوا الجميع على بال سيدي الجميع بحسب شفقته علينا وعلى جميع السائلين اذ انا
متوجهين لجهة مستبعدة والموت والحياة غير معروفين كذا بانه كنا اوردنا سيدي الجميع ان وكيلنا فهو اخينا ... واو
عندنا سيادتكم بمقابلته ولاكان بتوقفت سيدي فاما ... عدم مقابلته اخينا المذكور لسيادتكم ونحن عند
الوداع بضريح المهدي عليه السلام لاكان بتوقفه وجوده وشفقة عليكم من سيادتكم عما بلغه مع سيدي بمكتوب
وقد كان عند صلاة الصباح وقابلني الاسلام وولد امير يوم قابلناه بخصوص سيدي بمكتوب وما دار اقنا وزجا
ثنا قد رجاتنا الا ... اثنينه تركناهم بالبقعة والسراري سبعه تحت حوزنا ... امراة حبا تركناها
بالمنزل واخذنا منهم اثنين مع الاثنينة الخاليات ولنا بنت اخي يتيمه بالقصبه عندنا ... واصحبناها معنا ... الاسايده
اذ انه امرنا من سيادتكم باخذ زوجاتنا واولادنا ذكور واناث اثنا عشر اصحبنا اثنينه وتركنا عشره والاوراق
... للعرضه اخذنا معنا اربعه ... حقوقنا وحقوق اخوتنا ولذلك سبعه
خدم لخدمتنا وخدمة اولادنا وتركنا الباقي الذي لهم اولاد ... والعاجز ...
بموجب وثائق جرى تحريرها لهم الان حسبما امرنا من سيادتكم وسلمناها لهم وحقوق الاولاد المتوجهين معنا
جرى تركها لهم هنا وكذا عندنا من الابل ... معنا ... كبير وصغير ايضا صار ...
مع الاولاد مع الرقيق واوكلنا ... الجميع اخينا على المذكور وهو الحاله هذه بالعرضه ... اخذ ... الاولاد
... بالبقعه ... ان شاء الله ... للسيادة ... والمذكور هو واخي ... ولا يكون ... وكيل
في نفسنا واولادنا وكلما يتعلق بنا ... الخليفة المهدي عليه السلام ... لهذا الايضاح ... الامر والسلام ختام

رسالة من أبوقرجة للخليفة يوضح فيها أفراد عائلته وممتلكاته وكأنها بمثابة إبراء للذمة

مصاعب الممرات المائية[1].

كان الخليفة قد أبلغ الأمير أبوقرجة أن الغرض الأساسي من تسميته عاملاً على مناطق خط الاستواء هو الإستفادة من خبرته في تلك الجهات خلال رحلاته التجارية في فترة الحكم التركي وتزويد بيت مال المسلمين بسن الفيل الذي بذل مجهودات جبارة في سبيل جمعه بمجرد وصوله إلى الجنوب.

بعد قضاء الخليفة على حركة الأشراف وإستشهاد الأمير عبد الرحمن النجومي لم يبق من الأمراء الكبار سوى أبوقرجة وعثمان دقنة ممن يعتمد عليهم في الملمات. وبعد إستدعائه من عمالته بكسلا واقامته بأمدرمان حوالي العام فكر الخليفة عبد الله في الإستفادة من قدرات الأمير أبوقرجة في السيطرة على الأوضاع المتدهورة في مناطق خط الاستواء رغم عدم الثقة وجرح مذبحة الأشراف كان لا يزال نازفاً.

كانت أحوال الجيش قد تردت وبات يعاني ضعف الإعداد وقلة الأسلحة والذخائر والخلافات بين القيادات كما انعكست نتائج الأحداث الأخيرة على القوات التي انقسمت إلى مشايعين للأشراف وأولاد عرب يؤيدون الخليفة. كما أصبحت قبائل الجنوب تتجرأ على قوات المهدية لما آنسته فيها من ضعف وأخذت تكثر من هجماتها عليها. ذلك بالإضافة إلى ما ترامى إلى أسماع الخليفة من تحركات أوروبية في مناطق بحر الغزال والإستوائية ونشاط جهادية خط الاستواء بقيادة فضل المولى الأمين. فشل عامل الخليفة في تلك المناطق – عمر صالح – في مواجهة الموقف فارتأى الخليفة الإستعانة بالأمير المجرب في حسم الأمور وأصدر أوامره إلى المختار بكر وكيل العمالة بتعيين أبوقرجة عاملاً على خط الاستواء بدلاً من عمر صالح على أن يحتفظ الوكيل بمنصبه.

غادرت الباخرة «المنصورة» التي تقل سرية الأمير أبوقرجة أمدرمان في العاشر من

1. مهدية رسالة 245 ص24. بتاريخ 24 محرم 13/1 من أبوقرجة للخليفة.

نوفمبر 1892. وحينما وصلت القطينة أمضت ثلاثة أيام – حيث أهله وعشيرته – كما أمضت يومين في القراصة – حيث تقيم بعض من عائلته. وذكرت مصادر أهل القطينة أن عشيرته رأت في تعيينه عاملاً على بحارة مكيدة يريد منها الخليفة عبد الله التخلص منه. وذلك بعد أن شهدوا ما حلَ بالأشراف والدناقلة من قتل وتنكيل وألحوا على عدم تنفيذ المهمة، إلاَ أنه أقنعهم بأن مهمته من أجل نصرة الدين وتلافي الأوضاع المتدهورة في المناطق الجنوبية.

وعند وصوله إلى الكوة تلقى رسالتين من الخليفة بتاريخ 25 نوفمبر 1892 ناشده في الأولى بالاجتهاد الزائد في كشف أحوال الكفار والسياح المعتاد مجيئهم لخط الاستواء كما استفسره عن عودة أمين إلى خط الاستواء مرة ثانية. وفي الرسالة الثانية طلب منه. ما هو أشبه بتبرئة الذمة – توضيح ما لديه من ممتلكات وأفراد أسرته[1].

وجاء في رد أبوقرجة على الرسالة الثانية توضيح حقيقة أمواله وتفاصيل أسرته بأن له زوجتين إثنين تركهما بأمدرمان. ولديه سبع من السراري، خمس منهن أنجبن وإثنتان لم تنجبا بعد. فصحب السراري اللائي لم ينجبن وإثنين من المنجبات. وأشار إلى أنه تزوج من إحدى قريباته في القطينة[2] تنفيذاً لأوامر الخليفة بضرورة أن ترافقه إحدى زوجاته الحرائر. وأوضح أبوقرجة بأن أولاده – ذكوراً وإناثاً – يبلغ عددهم اثني عشر إصطحب منهم إثنين وترك عشرة (ما بين أمدرمان والقطينة – المؤلف). وتعرض أبوقرجة لثروته وقال إن لديه من الإبل تسعة أحضرها معه من طوكر، وثمان عشرة بقرة كبيرة وصغيرة وزعها على الأولاد الذين أوصى أخاه علياً على رعايتهم.

كذب هولت حين إدعى في كتابه (دولة المهدية في السودان) أن الأمير أبوقرجة إستولى على الثروة والأراضي خلال الثورة المهدية وتكفي براءة الذمة هذه التي

1..مهدية: 1/5/

2. الحرم بنت طه والدة ابنه إسماعيل.

قدمها للخليفة. ويكفي ما شهدنا عليه واقع الحال حيث لم نجد أمام أعيننا سوى تلك الأرض الزراعية التي استصلحها في النيل الأبيض قبيل الثورة المهدية.

وكان أبوقرجة قد حاول لقاء الخليفة عشية سفره يصحبه أخوه علي إلاَ أن المقابلة لم تتم فقابلا الأمير يعقوب الأمر تعثر فقابل يعقوب يصحبه أخوه علي. وقد أشار إلى ذلك في نفس الرسالة. ومن المفارقات أن «المنصورة» التي أقلت سرية أبوقرجة أقلت معتقلين سياسيين إلى المنفى في خط الاستواء. وكان من بينهم سبعة من ملازمية الخليفة شريف واثني عشر رجلاً من الجموعية. وقد بلغ عدد المنفيين في الباخرة ثمانية وتسعين شخصاً.

ويلاحظ الدكتور علي عمر علي في كتابه «دور الأمير أبوقرجة في المهدية» أنه يتضح من إحصائية سرية أبوقرجة في الشوال[1] أن عدد المجاهدين الذين صحبوه قد زاد على الرغم من فرار البعض وأن عيون الخليفة كانت ترصد هذه الزيادة التي تدل على أن أبوقرجة كان يقوم بعملية استنفار في أثناء سيره إلى خط الاستواء. كما كانت ترصد معاملته للأسرى. وما إذا كان يأخذهم بالشدة كما هو مطلوب، أم يترفق بهم للصلة القائمة ما بينه وبينهم باعتبارهم «أولاد البلد».

أجمعت المصادر على أن الخليفة قرر الإستعانة بالأمير أبوقرجة لقوة شخصيته وحنكته وخبراته الواسعة في الإدارة ومعرفته بجغرافيا المنطقة والإلمام بطبيعة القبائل الجنوبية.

وقد تناول الدكتور علي عمر في كتابه مسألة تسمية أبوقرجة عاملاً للمهدية في خط الاستواء بقوله «أما الروايات التي ذهبت إلى أن الخليفة أراد أن يتخلص من أبوقرجة فلجأ لاغتياله أو سجنه بعيداً عن حاضرته ليأمن شره. والتمس لها العذر لعدة مبررات. أذكر منها الكيفية التي احتوى بها الخليفة ثورة الإشراف الثانية واتبع

1. قرية معروفة في الضفة الشرقية للنيل الأبيض.

فيها سياسة التصفية الدموية لقيادات الأشراف. وكانت العقوبة الأدنى هي الإيداع في سجن الرجاف.

«وقد تم تعيين أبوقرجة في هذه الظروف الدقيقة والحرجة فلا غرابة أن يفهم المؤرخون أن تعيينه كان مكيدة ومصيدة للتخلص منه. وثمة مبرر آخر هو أن أبوقرجة من الأشراف ومن هذا المنطلق أصبح مصنفاً من المعارضين لحكم الخليفة فيبدو أنه فكر جاداً في التخلص منه. بل الغريب حقاً أن يتم تعيينه عاملاً على خط الاستواء اللهم إلا لحاجة الخليفة الملحة لخدماته خاصة وأن النيران قد اشتغلت في كل أطراف دولته بسبب أطماع الدول الأوربية الاستعمارية والتنافس بينها.»

غير أني أرى أن الخليفة كان حائراً في أمر أبوقرجة الذي حافظ على بيعة المهدي للخليفة وأبدى إخلاصاً مستمراً وحماساً للثورة التي اضطلع بأخطر مهامها وانتصر لها. وكان واضحاً وجلياً أنه لم يتورط في محاولات الأشراف للانقلاب على سلطة الخليفة. لأنه كان يرى ببصيرته النافذة وبتجربته مع أهله هؤلاء أن لا مستقبل لهذه المحاولات.

كما أن الخليفة كان يدرك أن أبوقرجة كان يشكل لأهل النيل أملاً وممثلاً لهم في تلك الدولة التي لا تفتأ تباعد بينها وبينهم وتقرب من شيعتها. كان الخليفة مدركاً بلا شك لخطورة أبوقرجة وشخصيته القيادية التي لا يدور حولها جدل. كان يدرك كل ذلك وكان يود التخلص منه إذا توفرت البينات التي لم يوفر جهداً في سبيل الحصول عليها لإدانته. إلاَ أن الخليفة في نفس الوقت كان يدرك الحاجة إليه في تلك الظروف التي أخذت فيها دولة المهدية تواجه إنحدارها بسبب المشاكل الداخلية والخارجية. فهل يا ترى إرتأى أن يرمي به في تلك الجهات النائية والمهمة في نفس الوقت لإنجاز أهدافه؟ فإذا نجح يكون قد حقق غرضه وإذا لم يعد يكون قد ارتاح من عدو مامن صداقته بد.

سافر أبوقرجة تحيط به شكوك الخليفة واتبع معه نفس أسلوبه المعتاد بإحاطته بالجواسيس والعيون ليرصدون كل حركاته وسكناته.

منذ مغادرة المنصورة قرية الشوال كان المنظر واحداً لا يتغير. غابات السنط الكثيفة تلف ضفتي النيل الأبيض بخضرة داكنة وأسراب الطيور تحلق طيلة ساعات النهار. وقطعان الحيوانات الوحشية ترد الماء. الآلاف من أبقار الجاموس والزراف والأفيال والغزلان بأنواعها المختلفة. والقردة تلهو في أعالي الأشجار. ومياه النهر تزدحم بالقرنتي والتماسيح التي يتمدد بعضها كجزوع الأشجار على الشاطئ. وكانت الباخرة تتوقف أحياناً ليصطاد الرجال الأشداء ما يكفي مؤونة السرية من الطعام. كما كانت تتوقف أحياناً إذا برز أفراد من قبيلتي الدينكا أو الشلك للتفاهم حول تبادل بعض الأشياء وخاصة الملح بالحليب والأسماك المجففة. طيلة ثلاثة أشهر وعشرة أيام ولا شيء غير الماء والسماء وخضرة الشاطئين والزئير المتقطع للأسود وأصوات الطيور المتنوعة في الغدو والرواح.

بعد تلك الرحلة المضنية والمعاناة القاسية وصلت سرية الأمير أبوقرجة إلى بور وعسكرت غير بعيد من النيل وإجتمع مع قادة جيش المهدية حيث أطلعهم على أوامر الخليفة القاضية بالرحيل فوراً إلى الرجاف. فبدأت الرحلة إلى حيث المركز الجديد، والمهمات العسيرة التي فشل في إنجازها عمر صالح وما زالت تشكل تحدياً للدولة المهدية.

في طريقه إلى الرجاف واجهته صعوبات جمة وخاصة صعوبة الملاحة. وقد توقفت المنصورة بعد انغرزت في مكان ضحل مما أدى إلى مزيد من التأخير. وكانت تحمل أمتعة الأمير وعائلته فغرقت، مما جعله يناشد الأمير يعقوب أن يبعث إليهم بملابس على وجه السرعة. وعند وصوله شرع في إعادة تأهيل مركزه الجديد في الرجاف. إلاَ أنه منذ وصوله واجهته صعوبات جدية كان أهمها مشكلة نقص الغلال حيث

باءت محاولاته بالفشل لأن السكان في المناطق المجاورة كانوا يهربون عندما يعلمون بتحركات قوات المهدية ويحرقون قراهم وغلالهم مبدين عداوة صريحة. ولما بعث بعوثه في غزوات للأماكن البعيدة نجح إلى حد ما، ولكن واجهته مشكلة نقل الغلال إلى الرجاف. لجأ الأنصار إلى حملها على رؤوسهم لمسافات طويلة أجهدتهم وأنهكت صحتهم لذا تقدم أبوقرجة بطلب من الخليفة لإرسال ثلاثين من الخيول المكادية.

وبعد فترة وجيزة من الإقامة في الرجاف طلب أبوقرجة من الخليفة السماح له بنقل مركزه إلى اللادو وقدم حججاً دامغة أهمها عدم ملاءمة المناخ في الرجاف والموقع الجغرافي الملائم للادو وموقعها المتميز الذي يسمح بتكليف مائتي رجل مسلح لحمايتها مع عدم وجود شلالات للشمال فيها تعرقل الملاحة إلى أمدرمان. ذلك بالإضافة إلى طبيعة أرضها الصالحة للزراعة.

كما طلب أبوقرجة من الخليفة أن يمنحه تفويضاً للبت السريع في الأحداث العابرة والعاجلة لبعد المسافة من العاصمة[1].

لم يكترث الخليفة لطلب أبوقرجة بالتفويض بل انتابته الشكوك والهواجس بأن أبوقرجة يسعى لطلب صلاحيات واسعة تمكنه من تقليص نفوذ وكيله على المختار وأهله التعايشة لترجح كفة القبائل النيلية، الأمر الذي يخشاه الخليفة كثيراً ويعمل له ألف حساب.

وقد طرح أبوقرجة للخليفة تصوره بإمكانية إصلاح النظام الإداري والعسكري في عمالة خط الاستواء وقال إن عدد الجيش لا يتناسب مع مساحة المنطقة وينبغي زيادة الأفراد المجاهدين وتسليحهم بصورة جيدة وتوزيعهم على أربع محطات متباعدة على أن تشرف كل وحدة عسكرية منها على المنطقة المنوط بها حمايتها.

إندلعت ثورة الباريا بمجرد وصوله حيث تزعمتها امرأة «كجورية» فأرسل لها قوة

1. مهدية 225/2/5/1 من أبوقرجة إلى الخليفة 19 يونيو 1893م.

بقيادة الأمير الياس علي كنونة فقتلت وتم تصفية نفوذ أتباعها من قبيلة الباريا.

عندما تعاظم التنافس العسكري والإستعماري على خط الإستواء إنطلقت الشائعات في أمدرمان بوجود الأجانب في خط الإستواء فانزعج الخليفة كثيراً وأرسل أول كتاب لأبوقرجة يناشده موافاته بأخبار أمين والسياح المعتاد مجيئهم.

أخذ أبوقرجة يبعث برسله يتنطس أخبار الأجانب ويوافي الخليفة بتقاريره. وأخذت الأخبار تنهال على أبوقرجة إلاَ أن أعداد الأجانب لم تكن كبيرة لكن تحركاتهم كانت دؤوبة في خط الاستواء حيث قاموا بتأسيس زرائب (حاميات) في مناطق متفرقة. إلاَ أن هؤلاء الأجانب كانوا مجهولي الهوية في وثائق المهدية التي كانت تشير إليهم بلفظة النصارى أما المصادر الأجنبية التي كانت أكثر وضوحاً فقد أشارت إلى فرنسيين وألمان وبريطانيين.

وقد تأكد وجود البلجيك الذين كانوا يتبعون لولاية الكنغو الحرة وتمكنوا من بسط نفوذهم في بحر الغزال وخط الإستواء وقد قاموا بالفعل بتأسيس الحاميات (الزرائب) لبسط نفوذهم العسكري والسياسي وللحصول على سن الفيل. وكان لديهم من يساندهم من العناصر المحلية بالإضافة إلى فضل المولى الأمين قائد بقايا الحاميات المصرية في خط الاستواء. وقد حاول أبوقرجة كسب وده ولكن رده تأخر فصرف عنه النظر خاصة وقد سبق له أن خدع عمر صالح.

لم يضيع أبوقرجة وقتاً فدعا مجلسه للإنعقاد الذي قرر إتخاذ خطوات إيجابية لطرد الأجانب ومعاونهم فضل المولى من خط الإستواء. وعندما شمر أبوقرجة إستعداداً للحرب لم يلبث أن وصل أمر عزله وتعيين عربي دفع الله ليخلفه على عمالة خط الإستواء.

كتب الخليفة إلى علي المختار بكر بتاريخ التاسع من جمادي الأولى 1310هـ (29 نوفمبر 1892م) يناشده توخي اليقظة والحرص على إبعاد أبوقرجة والموالين له عن

السلاح والذخيرة. كما طلب منه أن يبذل ما في وسعه لكسب ود الأمراء والجهادية.

"وقد جاء رد المختار علي ذلك الأمر مطمئناً الخليفة بأن جميع الأسلحة والذخائر تحت إشرافه الشخصي. وأنه تظاهر فقط بالطاعة لأوامر أبي قرجة بأن سلطته اسمية في العمالة وأن لا يثير شكوكه وظنونه بأن تكون هذه الأوامر موضع سره لا يطلع عليها أحد[1]".

وقد وصف المختار للخليفة كيف خرج حافي القدمين مسافة ساعتين — إمعاناً في التضليل - من الديم إلى مرسى الباخرة يرافقه عمر صالح فغمرا الأمير أبوقرجة بالإكرام وأبديا الانقياد لإرشاداته الكريمة. وأعدا له مكاناً منسقاً ولكنه رفضه وآثر الإقامة بالقرب من مرسى الباخرة[2].

واصل المختار رسائله الملفقة التي يبعثها للخليفة يصف الفرح الذي غمر الأنصار من أبناء القبائل النيلية لقدوم أبوقرجة عاملاً على خط الاستواء «كأنما حضر لهم الخليفة شريف بنفسه وأبلغوه مقاصدهم المنطوية عليها سرائرهم وقد ظاهروا بنفورهم لنا ولجميع التعايشة[3].

واعترف المختار بتعمده عرقلة أعمال أبوقرجة ورفضه تنفيذ أوامره بالسفر إلى مناطق خارجية «حتى لا تمتد يده للأسلحة والذخائر» وتحدث عن مساعدات يقدمها أبوقرجة للأشراف السجناء.

كان الإعداد لإعتقال الأمير أبوقرجة قد بدأ مبكراً ولم يكن وليد تلك اللحظة التي وجه إليه فيها عربي إتهاماته بتبذير أموال بيت المال — الذي بنى عليه العنكبوت - ولا العبارات التي قال إن أبوقرجة تفوه بها قادحاً في عدل الخليفة. فمنذ وصوله أخذت الرسائل تترى إلى أمدرمان تصف إستقبال الأنصار من أولاد النيل

1. مهدية 28/2/32/1 من علي مختار إلى الخليفة 18 ذي القعدة — 131-3 مايو 1893م.
2. مهدية 26/1/2/32/1 من علي المختار إلى الخليفة 28 محرم 1311-11 أغسطس 1893م.
3. مهدية 26/5/32/1 من علي مختار إلى الخليفة 15 ذو القعدة 3/1310 يونيو 1893م.

له ومدى الفرحة التي غمرتهم. كما لم يتقاعس نائبه المختار بكر – أو الرقيب عليه بالأحرى– عن منعه من حيازة أي أسلحة ـ حتى الأسلحة الشخصية. فما كان من عربي دفع الله سوى أن لفق محكمة حشد لها بعض الشهود. فوجد في الأسيرين زقل وشجر الخيري مطمعاً وهما يرزحان تحت وطأة ظروف لا طاقة لهما بها، فشهدا ضد الأمير أبوقرجة وهما من هما في العلاقات التي تربطهما به. ذلك بالإضافة إلى المحنة التي تعرض لها الأشراف من قتل وتنكيل والرشاش الذي أصابهما بإقتيادهما إلى ذلك المنفى الرهيب. لا بد أن الأمير أبوقرجة بصدره الرحيب وبصيرته النافذة أدرك الملابسات التي قادت رفيقيه إلى الإدلاء بالشهادة ضده. فقد صحبهما في رحلة العودة الطويلة بعد أن صفح عما كان يراه من صغار يلازم النفس الإنسانية.

إستعد عربي للحظة الحاسمة بحشد معاونيه في الصف الأول للصلاة. وحين وقف الأمير الحاج أبوقرجة بقامته الفارعة يؤم الناس هجمت عليه المجموعة وأمسكت به من كل جانب ومن ثم قيدوه بالمكاكي (جمع مكية وهي قيد الحديد).

إنعقدت المحكمة برئاسة قاضٍ يدعى الشيخ آدم جاد الرب الجامعي حيث تركزت التهمة حول ذلك الحديث المزعوم الذي إدعى عربي بأن أبوقرجة تفوه به.

حكمت المحكمة على الأمير أبوقرجة بالجلد 1700 سوط فيما ذكر محمد عبد الرحيم. أما مصادر الأسرة فأشارت إلى أن العقوبة بلغت خمسمائة سوط. فتهرأ لحم ظهره فما كان منه ألاَ أن أمر خادمه بالتقاط اللحم المهترىء ووضعه في إناء وتقديمه لعربي دفع الله. وأشفع ذلك بشتيمة موجعة بقوله «خلي أمك تسوي ليك ملاح أم دجي يا ود أم كنفوس» في إشارة إلى الطعام واللباس الذي كان فاشياً في دار التعايشة. لم يعر عربي ذلك الموقف إهتماماً بل أمر بتكبيل أبوقرجة بالسلاسل وإلقائه في جزيرة الرجاف.

تجرأ عربي على الأمير أبوقرجة كما تتجرأ غرثى الضباع على أسد جريح. كان

يدفعه الحقد والضغينة. ما راعى سبق الرجل ومكانته في المهدية. كما لم يقدر ما قدمه للثورة من إنتصارات – ولا ما أنجزه من مهام عجز عنها كل الرجال. أراد أن ينال من هيبة القائد الذي ظل اسمه أنشودة على السنة الثوار في طول البلاد وعرضها.

وخلص محمد عبد الرحيم إلى أن الأسباب الحقيقية من وراء ذلك كانت سياسية بالقطع، خوفاً من أن يستغل أبوقرجة ذلك البعد الجغرافي فيقود الأنصار من أهل النيل في ثورة تنطلق من غابات الإستوائية. وقال - في مخطوطه - إن المختار بكر التعايشي – الذي تم تعيينه نائباً لأبوقرجة – بعث برسالة إلى الخليفة يدعي فيها ميل الأمير أبوقرجة لتسليم إمارة الرجاف للبلجيك. وعند وصول تلك الرسالة إجتمع بكبار التعايشة لأخذ آرائهم بشأن إختيار أمير من قبيلتهم يحل بدلاً عن الأمير أبوقرجة فاختاروا عربي دفع الله.

كان أسلوب الخليفة عبد الله وبطانته واحداً في التخلص من القيادات التي يتشككون في ولائها. ففي الغالب تكال الإتهامات دون تثبت أو إجراء إلتحقيقات اللازمة. ولقد لقيت قيادات مهمة مصائر مأساوية بصورة متعجلة كما حدث للزاكي طمل الذي كان ضحية لوشايات الأمراء الصغار. فتم إعتقاله وإعدامه صبراً بعدم تقديم الطعام والشراب إليه حتى قضى نحبه. وتم إتهام أحمد سليمان أمين بيت المال بالاختلاس بعد إنحيازه للاشراف وتم إعدامه. وكذلك إبراهيم ود عدلان الذي جاء بعده فاتهم بالفساد وإستغلال المنصب. فكان نصيبه الإعتقال والشنق. وجرى تجريد محمد خالد زقل وسجنه قبل إطلاق سراحه وتعيينه أميراً على دنقلا وإعادة القبض عليه ونفيه إلى الرجاف. ذلك فضلاً عن إعدام ونفي العشرات من الشخصيات المهمة التي اتهمت بالمشاركة في حركة الأشراف. وفي مقدمتهم الخليفة شريف الذي قضى سنواته الأخيرة في سجن الساير.

ظلت الوشايات تلاحق الأمير أبوقرجة منذ فترة باكرة. لم تغفل عنه لحظة. فراقبت حتى طعامه وشرابه. وقد ذكرت المصادر (أن صغار الأمراء كانوا يرمونه بالانغماس في الملذات والعكوف على الشهوات لأنه كان لا يجاريهم في التغالي في الظهور بالزهد والتقشف كما عليه المهدي وخلفاؤة وجميع المقربين إليه) [1]. والملذات التي تحدثوا عنها لا تدخل في دائرة المحرمات وإنما كانت الموائد التي إعتاد أن يقدمها للضيوف منذ فجرحياته صبياً في كنف والده بالقطينة. لم تكن تشتمل على الأطعمة التركية التي جاء بها حكام البلاد وأخذت في تقليدها العائلات الميسورة التي كانت عائلة أبوقرجة جزءاً منها. وانما كانت تقدم أنماط الطعام السوداني كعصيدة الدخن بملاح أم دقوقة، والقراصة باليخني واللحم المنصص والأرز المبشور (المفندك) ومرشوش بعسل النحل والقراصة بالسمن والعسل، وفطائر القمح باللبن والعسل وغيرها[2].

وقد حدثنا عمنا المرحوم – بإذن الله - حسن آدم إدريس ذات مساء في عام 1983م بأن طعام العشاء الذي تناوله الإمام المهدي في أم غنيم حين قدم إليها مصطحباً السيد عبد الله (الخليفة) لأول مرة كان يخني الدجاج. فقد كانت تلك العائلة مفطورة على قرى الضيف فتسخر كل إمكانياتها لإستقباله وإكرامه. كما كانت تلك المائدة غريبة على الذين وفدوا من البادية فقد إعتادوا على أطعمة أخرى بعينها.

ثابر صغار الأمراء على الوشايات بحق الأمير أبوقرجة. وكانت تلك المراقبة – في أغلب الأحيان – صادرة من جهات عليا.. حسب المصادر والوثائق. فعندما كان في شرق السودان اتهموه بالإتصال بالإيطاليين وفي بحارة اتهموه بميله لتسليم المنطقة إلى البلجيك. وعندما عقد له عربي دفع الله تلك المحكمة المهزلة لم يقدم أدلة دامغة

1. السودان بين يدي غردون وكتشنر ، إبرهيم باشا فوزي ، ص 148.
2. هذه الأنواع من الطعام كانت تتخصص في كل واحد منها أمهات أولاد الأمير أبوقرجة.

فلفق بعض الشهادات لإتهامات ضعيفة باطلة. وهكذا تم القضاء على كفاءة عسكرية نادرة. كما تم القضاء على معظم القيادات العسكرية الحقيقية للثورة المهدية. وبعد إستشهاد الأمير عبد الرحمن النجومي لم يبق إلى جانب الخليفة إلا الأمير عثمان دقنة.

وقد وصف محمد عبد الرحيم عربي دفع الله بأنه "كان رجلاً جريئاً متهوراً أرسله الخليفة إلى دنقلا لترويض أخلاقه وما لبث أن إستدعاه إلى أمدرمان". وقد عمل قائماً بأمر العسس كما تولى قيادة ما هو أشبه «بالقوات الخاصة». وذكرت المصادر أنه لم يكن يتردد في القيام بأي عمل يكلفه به الخليفة. ووصفت قيامه باقتياد الخليفة شريف إلى السجن بعد محاكمته حين امتنع عدد من الرجال عن القيام بذلك تقديراً لابن عم الإمام المهدي (عم) وأحد خلفائه. فتصدى عربي دفع الله للمهمة ودفع بالخليفة شريف في اتجاه السجن حتى سقط على الأرض عدة مرات وانخلع حذاؤه وأصيب في قدمه.

لم يكف عربي دفع الله عن إيذاء الأمير أبوقرجة وهو في الأسر. فقد منع عنه الطعام وأمر بمراقبته بصورة دقيقة. وعندما أنجبت له إحدى سراريه غلاماً إحتدم غيظه وأمر بجلده مرة أخرى حتى انفتقت الجراح القديمة.

كان عربي لا يزال يذكر تلك الحادثة التي حال فيها أبوقرجة دون بلوغ مراده. فلم يتمكن من أن يشفي غليله من ذلك التاجر الدنقلاوي الذي أبدى شجاعة ووفاء نادرين. فلم يكشف عن أسماء رفاقه التجار الذين حضروا معه من غرب البلاد إلى أمدرمان.

كان مكي فريني دنقلاوياً يتاجر في التمباك. يذهبون جماعة من التجار إلى دارفور ويعودون محملين بالسلعة المحرمة إلى أمدرمان. وفي مرة وهم على مشارف المدينة ظلع حمار فريني وتباطأ في السير. فطلب من صحبه أن يواصلوا سيرهم حتى لا تطالهم يد

العسس أجمعين. وفي الساعات الأولى من الفجر ألقى العسس القبض على مكي فريني ليمثل أمام عربي دفع الله - كبير العسس – الذي أمر بجلده ليعترف ببقية صحبه تجار التبغ. إلاَ أنه أصر على الإنكار فأمعن في ضربه داخل سجن الساير الذي أودع فيه منذ الوهلة الأولى.

أرسل فريني إلى الأمير أبوقرجة يبلغه بما هو فيه من العذاب وما ينتظره من تهديدات عربي دفع الله. وأفصح عن مخاوفه بفقدان حياته إذا استمر الضرب بهذه الصورة الفظيعة. فتحرك أبوقرجة بنفوذه لدى الخليفة وأمر عربي بالتوقف عن جلد فريني فأضمرها عربي حتى سنحت له الفرصة لينتقم من أبوقرجة في الرجاف.

لم يكن ذلك هو السبب الأساسي بالطبع. فقد كانت نفس عربي تعتمل غيظاً وضغينة على الأمراء الدناقلة والأشراف الذين نازعوا الخليفة وانتهى أمرهم إلى الإغتيال والسجون والمنافي. وقد كان عربي على رأس جماعة السلطة التي نفذت تلك الأحكام في غير ما شفقة أو رحمة.

قال محمد عبد الرحيم في مخطوطه «ما كاد عربي دفع الله يبلغ الرجاف حتى دعا الجيش إلى المسجد الجامع وتلا عليهم الأمر القاضي بعزل الحاج محمد أبي قرجة وتعيينه هو أميراً بدلاً عنه. وذلك قبل أن توجه إليه تلك الإتهامات الملفقة".

وبوصولنا إلى ذروة تلك المأساة نعود إلى أهل القطينة وما رووه من طرائف. قالوا إنه بعد أن تم إعتقال أبوقرجة في الإستوائية واحتجازه في جزيرة الرجاف نقل الوشاة إلى الخليفة أن أهله في القطينة نقضوا البيعة إعراباً عن غضبهم ورفضهم للقرار. فأرسل الخليفة أحد أمراء التعايشة ويدعى إبراهيم مالك ليراقب الموقف في تلك البلدة الثورية المتحفزة. وحدث أن ولد طفل لأحد مواطني البلدة، فحملته النساء يصحبهن والده يزفون النبأ لإبراهيم مالك في معسكره وأنهم قد سموه على الأمير. وكانوا يتوقعون منه خيراً نقداً أو عيناً. فما كان من إبراهيم مالك إلا أن استشاط غضباً لما

سمع، فكيف يسمونه عليه دون مشاورته!! فأخذ أهل الوليد يهدئون من ثورته ولا يفتأ يزداد صياحاً وتصنعاً للغضب حتى قبلوا بتسوية الموضوع بأن يقدموا له أوقيتين من الذهب فداءً لما أقدموا عليه من حماقة.!! ولما كانت تلك العائلة فقيرة لا تملك شيئاً ساهم أهل القطينة كل حسب إستطاعته حتى جمعوا الأوقيتين من الذهب. وقدر لهذا الوليد أن يصبح واحداً من أبرز التجار ورجال الأعمال في السودان. وما زالت عائلته رائدة في جميع المجالات الاقتصادية والإجتماعية.

الرجاف.. جزيرة الموت

الرجاف.. جزيرة الموت

«البلجيك جوكم..

البلجيك جوكم»

طائر غريــب

كانت جزيرة المنفى الإستوائية القريبة من جبل الرجاف البركاني – قطعة من الأمازون "تعج بكافة الحيوات الأسطورية والكائنات الغريبة والنباتات والأدغال التي يتعذر إختراقها.. فالتماسيح تزحم شطآنها لا تترك موضعاً لقدم. تهاجم كل من يقترب منها وتسعى أحياناً لفرائسها من البشر في مراقدهم.. وذئابها تعوي في رائعة النهار وأفراس النهر ترتع بلا توجس أو وجل تتقافز صغارها من حولها..وجموع النحل الشرسة تشكل سحابات داكنة لا تلبث أن تتبدد لتتجمع من جديد.. والناموس لا يني يقتحم الآذان والأنوف ينشر داء الملاريا القاتل والحيات تطلق فحيحها من بين أغصان الأشجار الملتفة والفهود الرقط تتربص للانقضاض من بين حين وآخر.. المطر ينهمر بلا انقطاع ليلاً ونهاراً ليرفد المستنقعات الآسنة بمزيد من المياه، والرطوبة تتمدد فتتخلل العظام فتزيد من أوجاعها والظلمة تلف المكان الخرافي التكوين. في هذه البقعة التي تضاعف الرعب فيها الهزات الأرضية التي يسببها البركان في جبل الرجاف اختار الخليفة عبد الله المنفى الذي أودع فيه معظم معارضيه السياسيين منذ أن انفجر الخلاف بينه وبين الأشراف – قرابة الإمام المهدي – ومن شايعهم من أهل النيل[1].

1. من كتاب "أصوات في الثقافة السودانية" للمؤلف.

إنتشرت أكواخ صغيرة أقيمت على عجل من أغصان الأشجار والحشائش في طرف الجزيرة وأدخل السجناء فيها مكبلين بالقيود كان أبرزهم الأميران محمد عثمان أبوقرجة ومحمد خالد زقل ومن بينهم إسماعيل شجر الخيري وإسماعيل عبد القادر الكردفاني – مؤرخ المهدية الذي كانت نهايته بين أنياب الذئاب.

ففي مساء يوم حزين زحف الأسرى كعادتهم نحو كوخ الأمير أبوقرجة. حيث لا يستطيع معظمهم المشي لثقل القيود. وتحلقوا حوله بعد أن أوقدوا ناراً لطرد الناموس وطلباً للدفء. كان أبوقرجة يخفف عنهم ويشجعهم بأحاديثه العذبة وصوته المديد العميق فيبث الأمل في النفوس التي أدماها العذاب وطول الأسر وبعد الشقة عن الأهل والإحساس بالظلم. تناول الأسرى طعامهم بعد ساعات من الأنس وقفلوا عائدين زحفاً إلى أكواخهم قبل أن تحول دونها قطعان الذئاب إلا إسماعيل الكردفاني– الذي كان متجدد الأحزان كثير الحنين لأهله وذويه، فتأخر قليلاً يتجاذب آخر أطراف الحديث مع الأمير أبوقرجة ويبثه شوقه لعائلته معرباً عن يأس مطلق وإحساس مرير بخيبة الأمل. أخذ أبوقرجة يربت على كتفيه مواسياً ومشجعاً طالباً منه الصبر والتمسك بالأمل والاعتماد على الله وحده ولكن الأسير كان متطيراً ذلك المساء مستسلماً لليأس يغالب العبرات كأنما أحس بقرب نهايته. أخذ الأسير يزحف نحو كوخه ويلتفت بين حين وآخر لرفيقه في الأسر الأمير أبوقرجة يتزود بأصداء كلماته المشجعة «حتماً تعود يا إسماعيل إلى بلدك وأولادك بعد هذه الحالة». إلاَ أن القدر كان يبيت له مصيراً آخر حيث تراءى له ذئبان غير بعيدين عن كوخه فأخذ يسرع زاحفاً إلاَ أنها تكاثرت وأخذت تحيط به. فبدأ يثير الغبار بيديه في وجوهها ويتناول ما يصادفه في الأرض من أغصان جافة يردها بها حتى بلغ كوخه بعد مشقة وعنت. ولكنها اقتحمته عليه وأنشبت أظفارها في جسده النحيل فواجه الموقف بكل شجاعة وثبات وبدأ يردد الشهادتين بأعلى صوته.. ويلعن جلاديه متوعداً إياهم بيوم الحساب حيث

لا يذهب ظلم سدى. تنبه رفاقه في الأسر لمحنته منذ أن بدأت الذئاب في مناوشته وسط الأكواخ وجميعهم مكبلون بقيود ينوؤن تحت وطأة ثقلها.. فأخذ بعضهم ينشج بالبكاء تحرقاً لنجدته وآخرون يصيحون يا «أبا مروءة»، ولكن لا صريخ. فالحراس جميعهم يقيمون خارج جزيرة المنفى. شق الأمر على الأمير أبوقرجة أكثر من سواه وهو طريح عنقريبه مقيداً بسبع من «المكاكي»[1] فحاول النهوض رغم ذلك وهو الذي لم يقف على قدمين منذ يوم إعتقاله، فانكسرت قوائم السرير وغاص في كومة من الحبال والخرق البالية. ولما أيقن الجميع أن رفيقهم العزيز بات في بطون الذئاب أخذوا في التكبير والتهليل بأصوات واهنة ولزموا أكواخهم ثلاثة أيام، ما التقوا خلالها. كان ذلك في أوائل عام 1897م. واجه هذا المصير عددٌ من الأسرى.. فمن لم تتخطفه الذئاب ابتلعته التماسيح أو لدغته الأفاعي أو راح ضحية لحمى الملاريا أو الجوع الذي سيطر على الأسرى طيلة أيام بقائهم في المنفى.. حيث لم يكن يسمح لهم إلاَ ببضع حفنات من حبوب الذرة توزع عليهم يومياً فتؤكل جافة أو تغلى في الماء لتصبح بليلة سائغة بشكل نسبي.

لعل القدر إدخر للأمير أبوقرجة ابناً لم ينحدر من صلبه.. فمنذ قرار الخليفة عبد الله باستدعاء الأمير من عمالة شرق السودان وتكليفه بإمارة المناطق الإستوائية لم يفارق صبير طه خاله الأمير أبوقرجة وبات يلازمه رغم وجود العدد الكبير من بطانته. ولعل السبب يعود لما أحسه الجميع من خطر يواجه الأمير بعد أن ترددت شائعات عن عزم الخليفة عبد الله على قتله أو نفيه. أقام صبير طه واثنان من أمهات أولاد الأمير أبوقرجة كوخاً صغيراً في طرف قصي من الجزيرة وذلك بعيداً عن أعين الرقباء والحراس وأخذوا في رعايته، رعاية كانت تشمل أيضاً بعض الأسرى إن لم يكونوا جميعهم. كان صبير (ابن مدينة بنت عثمان العربي) يتقدم المرأتين بعد أن يجن الليل وتتردد في

1. قيود الحديد.

الجزيرة الموحشة أصوات السباع حاملاً بندقيته يتحسس طريقه إلى الكوخ.. فيقومون بإطعام الأمير وغسل جسده ودهنه وتطييبه مما يدهش الحراس حينما يأتون لتفقده.. ولربما تمكن صبير من رشوة بعضهم حتى يغضون الطرف عما يقومون به من رعاية للأمير.. أنشأ صبير مزرعة صغيرة برع في إخفائها داخل الغابة وسرعان ما أثمرت أنواعاً من الخضروات والبقول.. وكان بارعاً في صيد الغزلان والأرانب والدجاج البري المتوفر في الغابة – كما أقام صلات طيبة مع الوطنيين القاطنين على ضفة النهر خارج الجزيرة والذين كانوا يمدونه باللبن والسمن وأنواع من العسل. وكان الأسرى يتهللون فرحاً بقدومه متسللاً حاملاً ما تيسر من أنواع الطعام.. إلاَ أن ذلك لم يدم طويلاً حيث فجع السجناء وفي مقدمتهم الأمير أبوقرجة بالإختفاء المفاجئ لصبير الذي لم يعد يعرف له مكان. وأغلب الظن أن الوحوش قد افترسته أو غدر به السكان المحليون فقتلوه وأخفوا جثته. كان في ريعان شبابه لم يبلغ الثلاثين طويل القامة أسمر اللون وسيم الطلعة وكان قد ترك ابنه الطيب طفلاً في القطينة وقد رأيناه بأمدرمان شيخاً بلغ الثمانين حيث توفاه الله في سبعينات القرن العشرين.

حين ولد للأمير أبوقرجة ابنه العوض ثارت ثائرة عربي دفع الله وصب جام غضبه عليه وعلى الأسرى وفرض مزيداً من الإجراءات عليهم وأضاف قيوداً جديدة على الأمير مستنكراً أن يعيش حياة تمكنه من الإنجاب في ظل هذا الأسر الذي أراده أن يكون رهيباً قاسياً خالياً من مظاهر الحياة الطبيعية للإنسان. ويتسق ذلك مع وصفه الذي أورده محمد عبد الرحيم في مخطوطه بأنه كان «شرساً متهوراً أرسله الخليفة إلى دنقلا لترويض أخلاقه ثم ما لبث أن استدعى إلى أمدرمان. «ومن ثم إلى الرجاف[1].

زحف الأمير أبوقرجة ذات صباح من كوخه في الجزيرة ليجلس في ظل شجرة وريفة غير بعيدة. وجاءت لتجلس قريباً منه أم ولده يوسف. كانا يتطلعان إلى شجيرات

1. مخطوط محمد عبد الرحيم.

مورقة قريبة كثرت فيها الطيور من كل الأنواع فتصدر أصواتاً متباينة. وفجأة هبط على إحدى الشجيرات طائر الببغاء. وأخذ يصدر أصواتاً أشبه بالكلام. فأثار إنتباه الأمير وأم ولده فسألته «هذا الطائر كأنه يتكلم فماذا يقول؟ أصغى مرة أخرى للصوت وقال «كأنه يقول «البلجيك.. جوكم» البلجيك.. جوكم». لم تمض أيام حتى وصلت قوات البلجيك وخاضت معركة فاصلة ضد قوات الأنصار بقيادة عربي دفع الله وهزمتها. فكان خلاص الأسرى في يد البلجيك. وربما كان الأمير أبوقرجة بمتابعته للأحوال السياسية والأمنية بمنطقة الرجاف يتوقع هجوم البلجيك.

كانت في خط الاستواء أورطتان سودانيتان بقيادة بكباشيان يدعي أحدهما سليم أفندي والآخر فضل المولى أفندي محمد. ولما فر أمين باشا إلى ودلاي إختار الضباط والموظفون البكباشي فضل المولى الذي كان حاذقاً وشجاعاً باسلاً ليكون مديراً بعد أن منحوه رتبة القائمقام. فغضب نظيره سليم أفندي وانسحب بأورطته إلى أوغندا تاركاً المديرية لفضل المولى الذي قدر له أن يواجه قدره منفرداً. فبعد أن شعر بضعفه وقلة حيلته وافق على الدخول في خدمة البلجيك بشروط محددة وتوجه إلى ودلاي ليبتعد عن منطقة الخطر إلاَ أن ذلك لم يمنع قوات الخليفة من مطاردته والقضاء عليه. فسير عربي دفع الله جيشاً إلى ودلاي فباغت حاميتها وقتل فضل المولى بك محمد وجميع ضباطه. وبعد عودة قواته إستنجد البلجيك بحكومة أوغندا التي قررت إرسال حملة من الجنود السودانيين بقيادة المأمور ماكدونالد الذي صمم على مساعدة البلجيك.. على إجتياح الرجاف. ولكن لسوء حظه تمرد الجنود على الإنجليز في أوغندا وأحبطت خططهم. ثم لم يلبث الأمير عربي دفع الله أن هاجم النقاط الغربية لقوات البلجيك وانتصر عليهم في ثلاث مواقع، إلاَ أن البلجيك جهزوا سرية بقيادة المسيو شلتني في فبراير 1897 إستطاعت هزيمة عربي دفع الله واحتلت الرجاف. في تلك الظروف التي غمرتها الفوضى وتواترت الأنباء بتوغل القوات الانجليزية – المصرية زاحفة نحو

أمدرمان كان بعض الأسرى ما زالوا يرزحون في القيود بعد أن بعث عربي بمعظمهم إلى أمدرمان، وترك الآخرين ليواجهوا مصيرهم.

ذكر نعوم شقير أن محمد عثمان أبوقرجة ومحمد خالد زقل واسماعيل شجر الخيري لجأوا إلى البلجيك في عام 1896، إلاَ أنهم في الواقع كانوا قابعين في جزيرتهم حتى بعد وصول البلجيك الذين وجدوهم شيوخاً هدهم الأسر وأضنتهم الأسقام فعمدوا إلى فك قيودهم بمساعدة حدادين كان عربي دفع الله يستخدمهم في صناعة بعض الأسلحة والمعدات وجفان الطعام.

بعد هزيمته في الرجاف وتحركه نحو الشمال لم يكن عربي دفع الله يعلم شيئاً عما حدث بأمدرمان فبعث رسولاً يتسقط الأنباء ويحمل في الوقت نفسه رسالة إلى الخليفة عبد الله. وعندما وصل موفده إلى فشودة وجدها قد سقطت في يد الميجور مارشان الفرنسي فأبلغه أحد أسرى الأنصار بسقوط دولة المهدية و إحتلال قوات كتشنر أمدرمان. حاول عربي دفع الله أن يحافظ على من تبقى في جيشه وأخفى عنهم التطورات الجديدة ورفض محاولات سلطة الإحتلال لإستسلامهم واندفع نحو دارفور يقاتل القبائل المحلية تارة وعمال السلطان على دينار تارة أخرى حتى تمرد جنوده وتخلوا عنه بل هموا بقتله حتى اضطر إلى الفرار تاركاً نساءه وراءه واحتمى بالفاشر. فأمر السلطان لدى وصولهن بأن يوزعن على أعيان جيشه ما عدا ابنته التي ردها إليه. وأقام عربي دفع الله في الفاشر حتى كانت نهايته قتلاً على يد السلطان علي دينار في عام 1915 عندما علم بنوايا الحكومة على الوثوب لاحتلال بلاده. وخشي أن يشارك في أي مؤامرة محتملة ضد القصر.

تعرف قائد القوة البلجيكية التي احتلت الرجاف على الشخصيات المهمة التي كانت من بين أسرى جزيرة المنفى الذين كان من أبرزهم الأميران محمد عثمان أبوقرجة ومحمد خالد زقل وإسماعيل شجر الخيري. واهتموا بأحوالهم الصحية

وأحسوا بأنهم وجدوا صعوبة بالغة في المشي الذي حرموا منه لعدة سنوات وبسبب الجراح الغائرات التي خلفتها القيود الحديدية على أرجلهم.

تضاربت الروايات حول مصير الأمير أبوقرجة بعد سقوط الدولة المهدية. وقد كان من الصعب وصول الأخبار الموثوق بها في تلك الظروف المضطربة التي اتسمت بتحرك الناس الواسع والسريع وانعدام وسائل الإتصال وخاصة في تلك المناطق القصية النائية. فقد كتب إبراهيم باشا فوزي في كتابه – الذي أعده بعد عودته إلى القاهرة إثر تحريره من الأسر بأمدرمان – «السودان بين يدي غردون وكتشنر». وكان ذلك في أوائل القرن العشرين «أن أبوقرجة فر من سجنه في خط الإستواء ولحق بأحد معسكرات بلجيكا في جهات بحر الغزال ثم لحق بمملكة برنو فأكرم سلطانها وفادته وأنزله على الرحب والسعة لكنه لم يسمح له بالعودة إلى بلاده على مألوف عادة أهل تلك البلاد خشية أن يكون رائداً يجوس خلال الديار لمعرفة أحوالها». وقد يكون ذلك صحيحاً بوجه من الوجوه ما عدا حكاية الفرار حيث أن أبوقرجة وزقل دخلا دارفور من خلال وداي التي ربما نزلا في ضيافة عدد من سلاطينها قبل التوجه إلى الفاشر أو قد يكون يقصد السلطان علي دينار نفسه. أما نعوم شقير الذي فرغ من كتابه «جغرافية وتاريخ السودان» في عام 1903 فقد أشار بوضوح إلى أن أبوقرجة وزقل لجأ إلى بلاط علي دينار. وفي مخطوطه «أبطال السودان» ذكر محمد عبد الرحيم أن البلجيك بعد أن أطلقوا سراح الأسرى خيروهم بين ترحيلهم إلى مصر عن طريق ممبسا بالساحل الشرقي للقارة حتى السويس ومنها إلى الخرطوم على نفقتهم أو السفر براً إلى الفاشر فاختار أبوقرجة وزقل الطريق الثانية.

كان البلجيك كرماء معهم حيث زودوهم بكتاب يكفل لهم التحرك في مناطق نفوذهم دون أن يتعرضوا إلى أذى من قبل رجال القبائل، وذلك خلال تنقلهم ما بين أوغندا والكونقو في طريقهم إلى وداي ثم الفاشر. وكان لهذا الكتاب أثر فعال في

تخفيف غلواء رجال القبائل المتوحشة الذين كادوا أن يفتكوا بهم في معظم الأحيان.

تراءت في الأفق البعيد قافلة صغيرة كانت تغذ السير بين الفدافد والتلال تتسلل عبر حدود وداي إلى سلطنة دارفور الجديدة.. معظم أفرادها كانوا إما راجلين أو راكبين على بغال وأتن هزيلة. ومن بينهم محفتان محمولتان على أكتاف الرجال تقلان شيخين في الستين. كان أفراد الجماعة الذين بدوا كأشباح هائمة رغم التصميم والصمت الذي خيم على قافلتهم قد أمضهم الجوع وأضناهم المسير الذي استغرق الشهور الطوال وتخللت لحوم سيقانهم النحيلة ديدان الفرنديت[1] وتساقطت أهب أقدامهم الحافية بعد أن أعيتهم الحيلة بإتخاذ أوراق الشجر أحذية موقوتة لا تلبث أن تبلى. كانت الرحلة قد إمتدت مئات الأميال فشملت أوغندا والكونغو ووداي[2] ثم بحر الغزال فدارفور. كانت تلك المناطق تمور بالإضطرابات في الوقت الذي كانت القوى الأوربية تحاول إحكام سيطرتها عليها. إلاَ أن القافلة كانت تسير لا تلوي على شيء هدفها البعيد العودة إلى سودان النيل عن طريق دارفور. وعندما أكد الدليل أنها وطأت أرض تلك الديار بدأ إهتمام الشيخين الكبيرين واضحاً بالأمر فانتدبا أكثر الرجال عافية واقتداراً وبعثا به إلى الفاشر ليبلغ السلطان علي دينار بن زكريا بأن الأميرين الحاج محمد عثمان أبوقرجة ومحمد خالد زقل يستأذنان في الدخول إلى سلطنته في طريقهما إلى أمدرمان.

لم تحدد المصادر تاريخاً لهذا اليوم، إلاَ أن من المرجح أن يكون ما بعد عام 1900 أي بعد إنتصارات علي دينار الأولى التي مهدت له السبيل لاعتلاء عرش أجداده. ولكن التحديات كانت لا تزال ماثلة أمامه من بينها جيوب المقاومة المتمثلة في قوات الأنصار بزعامة سنين حسين في معقله المنيع بكبكابية وموقف الإدارة البريطانية من

1. وهي ديدان تقتحم جسم الإنسان وتمتص دماءه.
2. تشاد الحالية.

الإعتراف بسلطانه على دارفور. وكانت الفاشر، التي إستقبلته بالزغاريد عائداً من أمدرمان – قد إستقبلت أفواجاً من الأسرى وجنود الأنصار وأمراء التعايشة وعائلاتهم كلاجئين قادمين من بحر الغزال والإستوائية. وأصبحت المدينة تعج بمختلف السحنات واللهجات حيث أن الإضطرابات كانت لا تزال سائدة والحكم البريطاني لم يوطد أركانه بعد والخليفة طليقاً في مناطق غرب النيل الأبيض يعد للجولة الأخيرة مع القوات الغازية.

إتخذ أفراد القافلة ظلال بعض الأشجار الباسقة معسكراً مؤقتاً بإنتظار الإذن بدخول الفاشر. وأطرق الأميران بعد أن أديا صلاة الظهر جالسين نتيجة للضعف الذي اعترى أقدامهم خلال سنوات الأسر. كان أبوقرجة قلقاً على مصير طفله العوض وأمه التي خرجت ذات يوم من جزيرة الرجاف تستطلع الأنباء إثر المعارك التي نشبت بين قوات الأنصار والبلجيك ولكنها لم تعد، بعد أن عمت الفوضى والاضطراب المنطقة وحدثت «الكسرة» «الهروب الجماعي» واحتمت ببعض التجار الذين صحبتهم حتى الفاشر. ورغم الأخبار التي ترامت إلى سمع الأمير بوجودهما بدارفور إلاَ أنه لم يطب له خاطر ولم يشعر بالاطمئنان. كما كان دائم التفكير في أهله وبقية عائلته وأبنائه الذين تركهم صغاراً بأمدرمان والقطينة والقراصة. وقد مرت سبع سنوات مشحونة بالأحداث الجسام والتغيرات العميقة وهو لا يدري كثيراً عن ما ألم بهم خلال تلك الفترة العصيبة.

أما محمد خالد زقل فقد ظل ساهماً – تستبد به الهواجس والقلق يستعرض شريطاً طويلاً من الذكريات منذ يفاعته الباكرة التي شهدتها هذه المنطقة التي نشأ وترعرع فيها. فهو من دارفور رغم نسبه الذي يتصل بأشراف دنقلا. فقد وفد والده إلى دار برقو ثم إنتقل إلى دارفور تاجراً يتمتع بأفضل السجايا وأكرم الخلال وأقام في كوبي التي ولد فيها ابنه محمد ونشأ وترعرع قبل أن يتخذ سبيل والده في عالم التجارة

الذي أبدى فيه حنكة ومقدرة أتاحت له جمع ثروة طائلة وأصبح واحداً من أعيان المنطقة حتى حصل على رتبة البكوية. وعمل موظفاً كبيراً في الإدارة التركية، مديراً لدارة بالإنابة. وعندما اندلعت الثورة المهدية وتطورت أحداثها في مناطق كردفان كان سلاطين باشا النمساوي مديراً لدارفور وزقل نائباً له. وبعد أن باتت دارفور في حالة من الترقب والإنتظار لما تسفر عنه تلك الأحداث المتلاحقة كان سلاطين يعلم بالعلاقة التي تربط زقل بالإمام المهدي وكان مرتاباً في صلات محتملة نشأت بينهما فيما يتعلق بأمر الدعوة الجديدة. وعلى الرغم من ذلك وافق سلاطين على إيفاد زقل إلى زعيم الثورة ليتحرى موقفه وليؤمن ظهره في حالة إنتصار الحركة وإمتدادها إلى دارفور.

تذكر زقل كيف إستقبله الإمام المهدي واحتفى بمقدمه وبايعه وعينه أميراً على عموم دارفور وشيعه خارج مدينة الأبيض وأوصاه بتقوى الله وبالمسلمين خيراً. عاد زقل إلى قواعده وتسلم السلطة من سلاطين في دارفور وبسط نفوذ المهدية بالإقناع متسماً بالمرونة والحنكة في مواجهة الصعاب مشتهراً بالذكاء والدهاء والفطنة. إلاَ أنه أحياناً كان يجد نفسه مضطراً لممارسة العنف والشدة وخاصة ضد الفور حيث حاصر الأمير دود بنقة في جبل مرة واضطره للتسليم. لم ينس زقل ما فعله معه الخليفة وكيف أنه بعد ثلاثة أشهر فقط من دخول الفاشر بدأت ملاحقته بالرسائل الآمرة بمغادرته دارفور على رأس جيشه حتى صدع للأمر في أوائل عام 1886. فتم عزله وتجريده من منصبه بعد أن أحاط بمعسكره جهادية أبوعنجة في أطراف بارا فاستسلم لقيود الحديد وأرسل مخفوراً إلى الأبيض ومن ثم إلى امدرمان حيث عفا عنه الخليفة وأعاد له اعتباره إلى أن إنقلب عليه بعد حركة الأشراف الثانية وتم نفيه إلى الرجاف في عام 1893م.

كان زقل متزوجاً من الميرم عرفه بنت السلطان محمد حسين بن السلطان محمد الفضل منذ أيام التركية، - وهي عمة السلطان علي دينار بن الأمير زكريا — فلم ينس

حين غادر مبعوثهما إلى الفاشر لإبلاغ السلطان بوصولهما أن أوصاه بأن يدلف إلى دار الميرم ليزف إليها بشرى وصوله. كانت الهواجس لا تزال تضطرم في نفس الأمير زقل حين ثار غبار فوق أحد التلال لتنحدر كوكبة من الخيالة ما لبثت أن أحاطت بمجموعة المسافرين المرهقين يحملون البنادق وإلى جانبها عصى غليظة كانت تعرف بأم سباغة. لم يتوجهوا بالسلام كعادة أهل تلك البلاد وإنما سأل قائدهم عن الأمير محمد خالد بقوله «أب زقل وينو؟ وحاج أبوقرجة وينو؟». ولما حدد هدفه أشار إلى المسلحين الذين ترجلوا بسرعة وانهالوا على الأمير زقل ضرباً بهراواتهم حتى تركوه جثة هامدة في برهة وجيزة. كانت مفاجأة صاعقة ما توقعها الأمير أبوقرجة الذي رغم ضعفه ووهنه هم بالإمساك بسيفه إلى أنه تم تجريده منه بسرعة كما تم تجريد بقية الرجال مما كانوا يحملون من أسلحة.. واقتادوهم نحو الفاشر حيث مثلوا أمام السلطان علي دينار الذي أكرم وفادة الأمير أبوقرجة وأغدق عليه الهدايا وخصص له داراً واسعة جمعته مع أفراد عائلته الذين سبقوه إلى عاصمة دارفور.

تضاربت الروايات حول مصير الأمير زقل إلاَ أن شهود العيان الذين صحبوا الأمير أبوقرجة في عودته من الرجاف ظلوا يروون تلك الحادثة حتى بعد أن مرت عليها قرابة الخمسين عاماً. كما أن تاريخ وقوعها ظل لغزاً محيراً حيث ذكر هولت أنها وقعت في عام 1903 ووصف ملابسات مختلفة توحي بأن الأمير زقل دخل عاصمة علي دينار وأقام فيها فترة من الزمن بعد أن توسطت بشأنه زوجته عمة السلطان. وأن أسباب القتل كانت إتهامه بالتآمر والخيانة. إلاَ أنه من الواضح أن تلك الحادثة وقعت قبل ذلك بعامين أو ثلاثة حيث أشار كل من إبراهيم باشا فوزي في كتابه السودان بين يدي غردون وكتشنر ونعوم شقير في «جغرافية وتاريخ السودان إلى وصول أبوقرجة إلى الفاشر ما بين عامي 1902 و 1903م وهما تاريخا صدور كتابيهما حيث من المرجح أن تكون المعلومات قد وصلتهما في وقت متأخر بعض الشيء. كما أن مصادرنا الشفاهية

لم تشر إلى أن زمن الرحلة ما بين الرجاف وحتى الفاشر قد استطال حتى بلغ أربع سنوات كاملة (1899 – 1903م).

قيل إن الميرم عرفة أخذت تستعد للقاء بعلها الأمير زقل. فأمرت بإعداد الأطعمة لتلك المناسبة. وذلك بطحن أجود أنواع الحبوب لصنع الكسرة والعصيدة والمديدة وبتقديد اللحم وتجفيفه وطحن الويكة والبهارات. كما أمرت بتنظيف المفروشات والسجاد. بلغ السلطان علي ما كانت تقوم به عمته لإستقبال زوجها وإكرامه فاغتاظ واضمر شراً له فحدث ما كان.

لم يكن الأمير أبوقرجة يتوقع أن تطول إقامته بالفاشر حتى عام 1907م– فالسلطان علي دينار أبدى له كرماً حاتمياً وإحتراماً عميقاً – إلاَ أنه كان يغضب حينما يطلب السماح له بمغادرة عاصمته. وقد بات معروفاً في السودان أن علي دينار يحتفظ بالأمير كالأسير أو الرهينة فكتبت له حكومة السودان رسمياً – ويبدو أن ذلك قد تم بايعاز من أعيان السودان– بأن يسمح للأمير بالعودة إلى بلاده. كما كتب السيد علي الميرغني بما كان له من صلات طيبة مع سلطان دارفور في شأن الأمير أبوقرجة عدداً من المرات إلاَ أنه كان يسّوف كثيراً في الرد على هذا الطلب. ولما أيقنت عائلة الأمير أبوقرجة بأن أمر عودته بات مستعصياً سافر وفدٌ منهم يتقدمه أخوه علي بن عثمان ويصحبه إثنان من أبناء إخوته هما محمد بن نصر «كاشات» ومحمد بن الحسن عثمان ونفر كريم من رجال القطينة وحملوا معهم عدداً من رسائل أعيان السودان للسلطان علي دينار – إلا أنه استمر في موقفه الرافض إطلاق سراح الأمير. وفي عام 1907م وعندما اشتد الإلحاح وكثرت الضغوط وافق على مضض وأسمع الأمير حديثاً أغضبه ملمحاً إلاَ أنه يتوقع منه العودة على رأس جيش للإنجليز لغزو دارفور. وقد رد عليه أبوقرجة بأنه ليس من المتصور إنضمامه لجيش يقوده الإنجليز «الذين جاهدهم بسيفه» لغزو المسلمين. غادر أبوقرجة الفاشر يقود قافلته الصغيرة يمتطون جمالاً – قيل إنها

كانت من منطقة فزان الليبية التي تتميز باللونين الأصفر والأحمر. وفي الطريق إلتقوا قافلة لبعض تجار الأبيض الذين عرفوا الأمير أبوقرجة ونصحوه بأن يسلك طرقاً ملتوية وصفوها له حتى لا تنتاب السلطان علي دينار نوبة غضب تجعله يغير رأيه ويبعث بقوة تعيدهم إلى عاصمته. وقد حدث ذلك بالفعل، إلاَ أن القوة التي سلكت الطرق المألوفة لم تتمكن من تحقيق هدفها وظلت تبحث عن القافلة المفقودة التي كانت قد دخلت مركز النهود.

غير أن روايات أخرى ترددت بأن الأمير أبوقرجة حين تأكد أن السلطان لن يسمح له بمغادرة الفاشر، بدأ في إعداد رحلة العودة دون إذنه أو الرجوع إليه. فاشترى عدداً من الجمال القوية وقرب الماء. كما تم إعداد الزاد. واستأجر رجالاً أشداء لمرافقة القافلة. وتوجه غرباً قبل أن يستدير إلى جهة الشرق للتمويه. ومن ثم سلك طرقاً غير مطروقة لتجنب المطاردة المحتملة لفرسان السلطان. وقيل إن قافلة تجارية إلتقت به في الطريق ووصفت له طرقاً مأمونة.

عاش أبوقرجة في الفاشر حياة شبه طبيعية حيث خصص له السلطان داراً مناسبة لسكنه مع عائلته. وكان يبعث إليه ليزوره من وقت لآخر. وفي يوم العرضة (إستعراض الجيش) كان الأمير أبوقرجة يرتدي زيه الأميري فوقه الدرع وعلى رأسه الخوذة متقلداً سيفه وراكباً فرسه فيزدحم حوله الفرسان يسلمون عليه.

تعرضت القافلة في الطريق لبعض المضايقات حيث تعدى عليها جماعة من قطاع الطرق في جبل الحلة إلاَ أن أبوقرجة إستطاع بدهائه أن يتخلى لهم عن بعض ما معه من الإبل واحتجزوا رجلاً وامرأة لحقا بهم بعد فترة من الزمن[1].

1. الرجل كان هو سرور الأمين – وكان خصياً موكلاً بشئون الدار. وقد ورد ذكره في وثائق المهدية حين كتب حامد ود علي من كسلا يصف للخليفة معاملته للأمير أبوقرجة وإكرامه له. وقد علمنا أن سروراً عاش حتى ثلاثينات القرن العشرين. وكان يصطحب الأمير كنتباي أثناء تنقلاته كمأمور مركز في كثير من المدن. كان ضخم الجثة طويل القامة. ويلتهم الطعام بشهية بالغة وبكميات كبيرة. ومن طرائف الروايات عنه، أن سيدة انجليزية – ربما كانت زوجة لمفتش المركز. رأته فصاحت من الدهشة. وذلك حين وضع قدمه على باب السيارة فاختل توازنها. تدهورت صحته بعد تلك الحادثة واضمحل جسده

لما اقترب الأمير أبوقرجة من الأبيض وعلم أهلها بذلك خرج عدد من أعيانها ومن تبقى من مجاهدي الثورة المهدية واستقبلوه أحسن إستقبال. وكان في مقدمتهم السيد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي الذي أصر على أن ينزلوا في ضيافته حيث أمضوا فترة من الزمن خلدوا فيها للراحة. ومن ثم توجهوا إلى أمدرمان، عن طريق الدويم التي التقى فيها سلطات المديرية مستفسراً عن أراضي أم غنيم التي استصلحها منذ أيام التركية السابقة واطمأن على أنها لا تزال جزءاً من أملاكه.

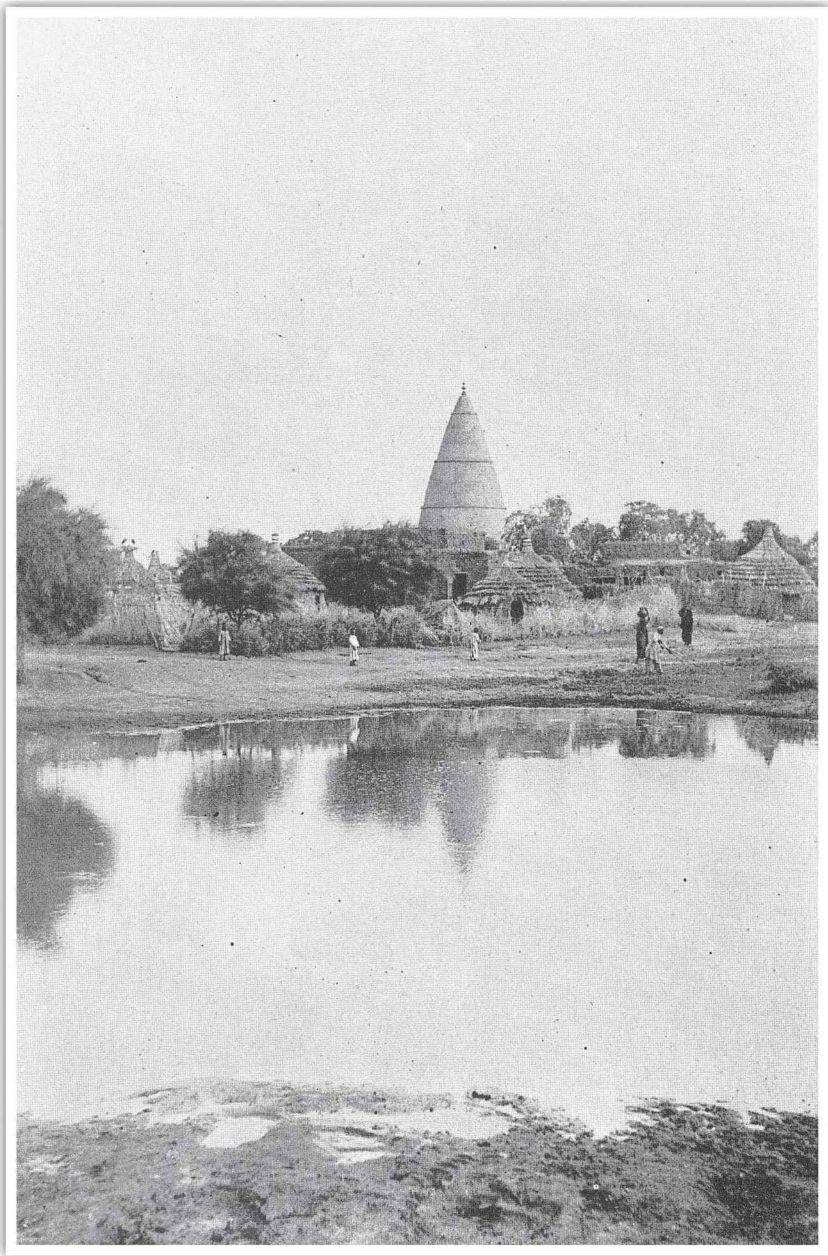
وحدثني عمنا العوض أبوقرجة الذي عاش حتى عام 1982م وكان في حوالي الثانية عشرة من عمره حين وصل مع أبيه إلى الأبيض بأن السيد المكي زودهم بكميات من الطعام زاداً لهم في سفرهم. وقال إنه لا يزال يتذكر ذلك الجراب الصغير المملوء تمراً والذي لم تنفذ محتوياته حتى بعد وصولهم إلى أمدرمان. قال ذلك وكأنه يشير إلى إحدى كرامات السيد المكي. وذكر عمنا العوض قصصاً حدثت أثناء إقامتهم في الفاشر من بينها قصة ختانه مع أبناء السلطان علي دينار.

كان الغموض يلف مصير إسماعيل شجر الخيري وعند لقائي مع أحد أحفاده[1] روى أن جده – غير المباشر- خرج من الفاشر دون أن يلحق به أذى ووصل إلى الأبيض في تاريخ غير معروف. غير أنه توفى بعد أسبوع من وصوله للمدينة التي شهدت نشاطه التجاري في أيام التركية. وأوضح لي عبد المجيد أن قرابة إسماعيل شجر الخيري بالمهدي بوالدته التي كانت من الأشراف إلاَ أن أصولهم تعود إلى الجعافرة بصعيد مصر. وقد أقاموا في منطقة كرري، تجاراً أثرياء حتى أن ذلك اللقب

حتى توفى. فقال أهلنا أن عين النصرانية قد أصابته.

أما المرأة فقد كان اسمها بحر النيل. عادت إلى أم غنيم وأقامت فيها حتى توفيت. وكانت قد أصيبت بسرطان الثدي، الذي كان الطب الشعبي في السودان بصيراً به كما كان بصيراً بشأن كثير من الحالات التي تستدعي إجراء عمليات جراحية. ووصف الرواة أن طبيباً شعبياً من عرب ضهاري النيل الأبيض استأصل الثدي بمهارة بالغة واستخدم مسحوق العطرون دواء للجرح الذي اندمل خلال أيام قليلة وبات موضعه كصينية صغيرة من النحاس.

1. عبد المجيد منصور عبد المجيد شجر الخيري



فريق القبة بالأبيض حيث حل أبوقرجة ضيفاً على السيد المكي عام 1907 وتبدو وسط البيوت قبة الشيخ اسماعيل الولي

يشير إلى ثرائهم.. فالخيرية نوع من العملة كانت سائدة في السودان. فكأن أموالهم مثل أوراق الشجر لكثرتها.

وكان الوالد عليه الرحمة يذكر آل شجر الخيري كثيراً وله فيهم صداقات وعلاقات حتى كنا نحسب أنهم من ذوي قرابتنا. وما زلت أذكر أن أحدهم ويدعي عبد اللطيف شجر الخيري، كان تاجراً في منطقة واقعة غرب النيل الأبيض. وقد حدث أن توفي في مستشفى كوستي. فقام الوالد بستر الجثمان وأقام له مأتماً في دارنا.

شهيداً في غربته

علـــــــي عثمـــــان العربي

شهيداً في غربته
علـــي عثمـان العربي

برّز مـــــــا بندني

وكضــب اليازن علي

بت مسيمس

وصف الناس الذين رأوا علي بن عثمان العربي بأنه كان وسيم الطلعة أبيض اللون فارع الطول صبوحاً رائع المحضر، شجاعاً لا يبالي. كان أصغر إخوته أولاد عثمان وليس له شقيق من بينهم. تربى في كنف والده بالقطينة واكتسب منه ومن إخوته قيم الرجولة والتجارب الجسورة التي وسمت حياتهم. ولا ريب في أنهم صحبوه في رحلاتهم التجارية البعيدة في بحارة ولم يتجاوز عمره العشرين. وفي أرجح الإحتمالات أنه ولد في منتصف خمسينات القرن التاسع عشر. ولا شك في أنه شارك في معارك الثورة المهدية - حيث كان من أبكار أهل البيعة - وأبلى فيها بلاءً عظيماً. أهلته بطولته وجسارته لأن يكون نموذج الفارس الذي يحظى بإعجاب الشاعرة الحاجة بت مسيمس التي محضته وداً خالصاً وفضلته على أقرانه من شباب تلك الأيام. وفضلاً عن بسالته فقد كان أنيقاً بمقاييس ذلك الزمن. يرفل في ثياب الدمور والدبلان الناصع البياض وينتعل المراكيب القوية الناعمة الصقيلة التي كانت تأتي من دارفور حتى زمن ليس بعيداً، نذكره ونحن بعد إيفاع.[1] وقيل إن جدنا علي كان يحمل عدة

1. كان يبعث بها إلى الوالد أهله آل محمد مهدي هدايا من نيالا. وهم من الدناقلة الذين أقاموا في دارفور منذ أكثر من مائة عام

مناديل في وقت واحد. الأمر الذي كان يعتبر ترفاً وتظرفاً لا نظير له.

قالت بت مسيمس في مدحه:

يا عقد البرنسيات[1] المخرجه جنيهات[2]

الله لي مـــنك يا لزم التقيلــة إن جات

•••

علي يا عيـــال النمر تلب شـــال

وكـــت الحديث ينقـــال

بارود النصــارى البغلي في الشـــلال

علي يا عيــال وكت الحــديث يلـزم

بارود النصــارى البغلي فيــه السم

•••

غــني لي يا أم قرقـــــــداً قرضي

في ساعـة الضـــرب ما تزالفن كرعــيه

في البلـــد البعيد أنا أخوي بفاشــي بيــه

ثم لا تلبث الحاجة بت مسيمس أن تعقد مقارنة عابثة بينه وبين أخيه زكريا وصديقهما ود البنا فتقول:

ســيد الجـبركد والحـافرية

ســيد ود الـبنا وزكريـــا

كانت بت مسيمس شديدة الإخلاص والإعجاب بالأمير أبوقرجة وإخوته. مدحتهم بقصائد جليلة تغنت بها النساء عهدذاك. وصفت فيها شجاعتهم وكرمهم

1. الأميرات

2. جنيه الذهب الإنجليزي.

وثباتهم الأسطوري في معارك المهدية.حملت تلك القصائد جميع قيم البطولة التي تميز بها القرن التاسع عشر. كانت تزورهم في معظم الأحيان وتقيم في منازلهم بالزمن الطويل فتصيب من رفدهم ونوالهم الجموم.

قيل إنها في إحدى المرات وقفت أمام خيمة الأمير أبوقرجة فمنعها حراس لا يعرفونها من الدخول بدعوى إصابته بصداع ألزمه الفراش. ولكنه فجأة أطلَ من داخل الخيمة يتهيأ لصلاة العصر فأنشدته مرتجلة هذه الأبيات:

أبو البشـرى الحاج يتعـــــــلا

وجــاته النصــره من نـــاس الله

فــردوا له البـــيــرق الناصبنه

ووجــع رأس سلامتك منــــــــــه

فإستقبلها ببشاشته المعهودة وأمر الحراس بإدخالها في منازله حيث أسبغ عليها فيضاً من كرمه وهداياه النفيسة.

نظمت بت مسيمس أشعاراً كثيرة في مديح الأمير أبوقرجة.. كما فعل غيرها من الشعراء والشاعرات. ولكن كل هذا التراث طواه الزمن وأودعه غياهب النسيان. وحتى وقت قريب كانت أمهاتنا يحفظن الكثير ويرددنه. ولكن لا سبيل إليه الآن.

أخذت بت مسيمس تتقرب من الأمير أبوقرجة حتى زوجته من بنت أخيها. كانت فتاة بارعة الجمال لا يعيبها سوى حول خفيف في عينيها (ربما كان يزيدها جمالاً وعذوبة). كانت الفتاة تسبل طرفها حياءً – كعادة عرائس الزمن الماضي – أو لربما كانت تحاول إخفاء حولها عن العريس. سنحت الفرصة لضرائرها اللائي تربصن بها وأخذن يكدن لها ويقبحن صورتها للأمير المشغول بمسئوليات جسام ولا وقت له لصغائر الأمور. ولكن لسبب ما طلقها وأمر بتجهيزها بكل ما يليق بها من ثياب فخمة وعطور ثمينة ومأكولات متنوعة حملتها الجمال إلى دار أهلها. وأبدت النساء

العازلات الشامتات سروراً وسخرن من الشاعرة لما حدث لابنة أخيها. فما كان منها إلا أن أفحمتهن بكلمة أصبحت مثلاً يتداوله الناس.

طلقـــة أمير ولا جـــيزة فقير

وترد في موضع آخر من هذا الكتاب القصائد الثاكلة الملتاعة التي رثت بها الأمير الشهيد نصر بن عثمان العربي (كاشات).

عندما وجه الخليفة عبد الله الأمير أبوقرجة للسفر إلى بحارة عاملاً عليها صحب معه أخاه علياً – عشية الإبحار من أمدرمان – للقاء الخليفة. ولكن لأمر ما لم ينجحا في مقابلته والتقيا بالأمير يعقوب. وقد أشار بذلك أبوقرجة في رسالة بعث بها إلى الخليفة خلال رحلته يوضح له فيها ممتلكاته وأفراد عائلته ويؤكد أن القائم بأمورها في غيابه هو أخوه علي.

ظل جدنا علي يقيم ما بين القطينة وأمدرمان طيلة فترة غياب أخيه أبوقرجة ما بين المنفى في جزيرة الرجاف والتيه في الغابات الإستوائية والإقامة القسرية في الفاشر. ولما تأكد وصول أبوقرجة إلى دارفور بعد أن إنقطعت أخباره ردحاً من الزمن شكل جدنا علي وفداً من ابني أخويه الحسن عثمان ونصر عثمان وعدد من أقربائهم رجال القطينة. توجهوا إلى الفاشر والتقوا بأبوقرجة إلا أن السلطان ظل موصداً بابه أمام عودة الأمير إلى أمدرمان.

أدركت المنية جدنا علي في الفاشر بعد أن رأى أخاه بعد طول غياب. أبدى أبوقرجة حزناً عميقاً لرحيله في الغربة بعيداً عن أهله وبلده. لم نحصل على معلومات حول ظروف وملابسات وفاته ولم يتجاوز الخمسين من عمره. وفي أغلب الظن كان ذلك في عام 1905م. عاد الوفد إلى القطينة وأصاب الناس حزن كثيف لعدم عودته. خلف بنتين فقط هما عائشة ونفيسة. الأولى تزوجت من بشير ود الخاص وأنجب منها ولداً واحداً والأخرى تزوجها إبراهيم سبدرات وأنجب منها ولدين وبنتين. عليه رحمة الله تعالى ورضوانه.

السنوات الأخيرة . .
للأمـــير أبوقرجة

السنوات الأخيرة. .
للأمير أبوقرجة

الدابي الكدك في أم غنـــيم

وهوي يا ليـــــــــــلة

وده الحارسه العز من قديم

وهوي يا ليـــــــــــلة

مغنية مجهولة

بعد غياب قسري دام أربعة عشر عاماً عاد الأمير أبوقرجة عام 1907م إلى أمدرمان.. تلك العاصمة التي أقاموها بحد السيف وتحت ظلال الرماح.. أضحت مدينة تثير الشفقة والرثاء بأكواخها الطينية الغبراء وأزقتها الملتوية.. إنزوت وأصابها الشلل بعد أن إختفت كثير من أكواخ القش والقطاطي التي عاد سكانها إلى مواطنهم السابقة عقب سقوط الدولة المهدية. وبقي عدد ربما لا يتجاوز الأربعين ألفاً فقراء معوزين. كان اتش. جي. جاكسون الذي وصل إلى السودان في نفس العام نائباً للمفتش يقوم بإدارة المدينة. إتخذ بيت الخليفة سكناً له فليس هناك من سكن مناسب سواه. كان كما تركه صاحبه لم يتحول إلى متحف بعد. كان جاكسون يستلقي على سطح البيت يطالع قطعان الغزلان ترد إلى الشاطئ القريب من المدينة ويستمع إلى عواء الضباع. وصف أمدرمان بأنها كانت تماثل مدينة لندن قبل خمسة قرون. أشار إلى كتاب بيندرل "حياة لندن في القرن الرابع عشر"[1]. قال إن أمدرمان كانت لا تزال

1. Sudan Days and Ways، by H.G. Jackson.

تعج بإثنيات مختلفة قل أن تحتشد في مدينة أخرى سوى مكة المكرمة. إثنيات ظل بعضها مقيماً من أيام المهدية والبعض الآخر جاء مع جيش الفتح.. مغامرين وباحثين عن الرزق وجماعات إرتبطت بخدمة القوات الغازية. فتجد الهنود والأمريكيين والأتراك واليونايين والسوريين والفرس وجنسيات من الشرق الأوسط وأوروبيين. ذلك بالإضافة إلى قبائل السودان المختلفة، عرباً وأفارقة، هدندوة وبربر وفلاتة يتجولون في أزقتها الضيقة التي لا تعرف من أين تبدأ وأين تنتهي. أما شاطئها فتروح وتجيء فيه المراكب والسفن الشراعية والحمالون يفرغون حمولات الذرة والصمغ والمحاصيل الزراعية الأخرى والأخشاب. كما يشهد الشاطئ يومياً قوافل الجمال القادمة من مناطق كردفان ودارفور، تنقل منتجات تلك الأصقاع. وتجلس عشرات النساء غير بعيد عن النهر عاريات الصدور يغسلن الملابس بأرجلهن أو بالحجارة. وترد نساء وفتيات إلى الماء يحملن الجرار يدور بينهن لغط بأصوات عالية. والصيادون غير بعيدين منهمكون في إلقاء الشباك في النيل. ومن هناك يبدو سوق المحاصيل بأجرانه العالية من الحبوب. أما السوق فقد طرأ عليه شيء من النظام. تم تقسيمه للسماكين والجزارين والحدادين والخياطين والصاغة وصانعي الأحذية البلدية «المراكيب» وغيرهم. وترى أفواج السياح يزدحمون أمام محلات التحف المصنوعة من العاج والأبنوس والمشغولات الفضية وجلود الفهود والثعابين. جاءوا إلى السودان بعد أن الهب خيالهم بحروباته وبسالة رجاله وما قرأوه عن مقتل غردون الذي كادوا أن يحفظوا كتاب يومياته عن ظهر قلب. بالإضافة إلى الكتب التي سطرها سلاطين وأورهولدر ووينجيت التي وصفت السودان وكأنه مكان خارج الكوكب.

أما الخرطوم فقد كان لها شأن آخر. فقد عبرت إليها قوات كتشنر بعد ساعات من الفتح وهي تدوس على جثث الآلاف من الشهداء على مشارف أمدرمان. كانت المفارقة واضحة في إهتمام سلطات الإحتلال بإعادة الخرطوم إلى سابق عهودها الزاهرة

في التركية السابقة. فأهملوا أمدرمان وكأنها شيء لم يكن. أمر كتشنر بتخصيص القطارات لشحن مواد البناء والأثاثات، لا لإغاثة البلاد التي كان يفتك بها الجوع. فشيدوا بسرعة مذهلة دور الحكومة ومنازل الحكام. وقاموا بصيانة قصر الحكمدارية وأضافوا إليه أجنحة وغرفاً جديدة حتى أضحى تحفة تليق بمقام الحاكم العام المنتصر وبذكرى غردون الذي خصصوا له مكاناً تذكارياً حيث سقط قتيلاً. رصفوا شارع النيل وجلبوا مئات الآلاف من شتول الأشجار من الهند. وتابعوا نموها بإهتمام ومثابرة. وسخروا النساء – بقايا الرقيق – الذي تم تحريره. يحملن الجرار غاديات رائحات، يسقين النبات، حتى غدا الشارع بحدائقه وأشجاره الوارفة ومنازله الفخمة قطعة من مدينة أوروبية. شجعوا عودة مواطني الخرطوم السابقين إلى المدينة بعد أن تم تعويضهم عن منازلهم السابقة فشيدوا دوراً جديدة بالطوب الأحمر واللبن.. إلا أنهم لم يسمحوا لهم بالسكن في شارع النيل الذي غدا منطقة حكومية بكاملها.

إستقبل أهالي أمدرمان الأمير أبوقرجة بفرح غامر وكأنما عادت إليهم عزتهم المسلوبة وكبرياؤهم الجريح. كانت عائلته قد أعدت داره المطلة على النيل في بيت المال لإستقباله.. إلا أن قريبه وصديقه بشير ود ضرار عمدة الدناقلة أصرَ وأقسم على أن يحل ضيفاً على بيته في أيامه الأولى. وفي تلك الدار إستقبل أبوقرجة جموع المهنئين الذين هرعوا إليه من كل حدب وصوب.. أعيان البلاد ورجالها وجموع غفيرة من أهالي أمدرمان. كان أبرز المهنئين الذين قدموا إليه الزبير باشا رحمة – من الجيلي – ومن تبقى من أمراء المهدية وعلى رأسهم النور عنقرة. كما أرسل الحاكم العام البريطاني موفداً من حكومته لتهنئة الأمير بسلامة العودة. وبعد أن خلد إلى الراحة وخف تدفق الزوار قرر أن يرد الزيارات إلى أصدقائه الكبار.. خاصة وأن صديقه ود مناع قد أعدَ لمهرجان كبير في العليفون. خرج أبوقرجة مع بعض ملازميه يركبون الحمير في رحلة بدأوها بالأمير النور عنقرة الذي إستقبل صديقه القديم والدموع تتساقط من

عينيه وألحَ على إقامته معه لمدة يومين أو ثلاثة ليقوم بواجب الضيافة. ولكن أبوقرجة الح على المضي في رحلته ووعده بزيارة أخرى. ومن طرائف النور عنقرة الذي كان منفعلاً بالزيارة ولم يجد شيئاً يقدمه لضيفه الكريم دخل إلى الدار وعاد يحمل سجادة أعجمية كبيرة وأصرَ على مرافقي الأمير أن يحملوها معهم إلى بيته. فأشار عليهم أبوقرجة بأن يأخذوها معهم حتى لا يثيروا غضب النور.

وعندما وصل أبوقرجة إلى الجيلي إستقبله الزبير باشا بحفاوة بالغة. فذبح الذبائح وأقام وليمة كبرى والحَ أيضاً على إقامته لبضعة أيام ولكنه إعتذر بموعد ود مناع في العيلفون. لم ينس الباشا بأريحيته المعروفة وكرمه الفياض أن يدس في يد أحد مرافقي الأمير كيساً يحتوي على مائة من الجنيهات الإنجليزية الذهبية التي كانت تعد ثروة طائلة لا يحلم بامتلاك نصفها أحد في بلادنا في تلك الأيام.

تحركت المجموعة الصغيرة نحو العيلفون فأسدل الليل أستاره قرب الحلفايا فقرروا المبيت. أوصى الأمير أبوقرجة مرافقيه بأن لا يشيروا إلى هويته. فإذا لم يتذكر أهالي البلدة مأثرته مع بشير بك كمبال ربما يكون تسليم صالح ود الملك والمواجهات التي جرت مع الضباط الشايقية أثناء الثورة المهدية ماثلة في الأذهان. قضوا ليلتهم في منزل طرفي بالحلفايا ونهضوا فجراً متوجهين إلى العيلفون. ولما اقتربوا منها تناهت إليهم دقات النحاس.. ورأوا شباباً ورجالاً متحزمين يمتطون صهوات الخيول ويحملون السيوف في استعراض بديع. ولم تلبث أن أسرعت نحوهم الجياد والرجال يتصايحون ويتباشرون. أقبل نحوهم أهالي العيلفون يتقدمهم ود مناع. وكان لقاءً حاراً وفرحة غامرة. إستمر مهرجان الفرسان ساعات طويلة قبل أن يعود الناس إلى حيث أولم ود مناع الولائم وأطعم سائر الضيوف من المنطقة. وأمضى معه صديقه الأمير أبوقرجة أياماً قبل أن يعود إلى أمدرمان. وعاد معه مرافقوه يصفون تلك الإستقبالات بكثير من الزهو والانفعال.

لم تمض سوى أيام قليلة حتى أرسل الحاكم العام رسولاً يطلب مقابلة الأمير

أبوقرجة. قيل إنه إجتمع معه بحضور بعض كبار الإنجليز. فتحدثوا معه حديثاً طويلاً لم يخل من تجربة إقتحامهم للسودان وسهولة الفتح. أسهب الأمير أبوقرجة في الحديث عن هذه المسألة. وأوضح أن الأمور كان يمكن أن تجري بصورة غير ذلك. فتحدث عن غياب قادة المهدية الكبار. وعن غياب الخطط التي كان من شأنها أن تعرقل قوات الفتح إن لم تصدها. وتناول تجربته ضمناً في ملاحقة الغزاة بأساليب حرب العصابات بكتائب الفرسان. وتحدث عن إمكانية قطع خطوط الإمداد باقتلاع السكة الحديد الجديدة وإغلاق شلال السبلوقة لمنع تقدم السفن الحربية. كما تحدث عن ضرورة الهجوم الليلي على قوات الفتح في مشارف أمدرمان. لا ريب أنهم أعجبوا بشخصية ذلك القائد العسكري الاستراتيجي وأكبروها. وتردد أنهم أيضاً استفسروه عن الوضع الذي يرغب في أن يكون عليه بعد عودته بعد كل هذه السنين. وما إذا كان يقبل بمرتب شهري كما جرى الحال مع الأمير النور عنقرة[1]. كانوا يدركون أن أبوقرجة قد تقدمت به السن ولا طموح لديه في المشاركة في ثورة محتملة. ولكنهم قدروا بسلوك متحضر يعرف أقدار الرجال بأن مثل هذا القائد لا يمكن تجاهله. رفض أبوقرجة فكرة المرتب.. إلا أنه طلب السماح له بتجميع أرقائه الذين تبعثروا في أنحاء السودان خلال فترة غيابه. فسمحت له الحكومة بذلك، وكانت تدرك أن قانون إلغاء الرق لن يمكنه من الاحتفاظ به طويلاً.. إلا من أراد أن يبقى في وضعه القديم طواعية. فالإنجليز كانوا قد وضعوا تصوراً لعملية التدرج في إلغاء الرقيق المنزلي.. وفي إعتقادهم أن ذلك في مصلحة الأرقاء أنفسهم الذين إعتادوا على نمط معين من العيش في ظل عبوديتهم. وأنه من الصعب عليهم الإستقلال بحياتهم بصورة مفاجئة!! كان أبوقرجة منسجماً مع عقلية القرن التاسع عشر وأساليب كسب العيش التي إعتاد عليها ولم يدرك أن مياهاً غزيرة ستندفع في مجرى النهر.

1. أعادوا إلى النور عنقرة رتبة البك وخصصوا له مرتباً شهرياً قدره مائة جنيه مصري.

علمت نساء الخدمة في الدار بدعوة الحكومة لأبوقرجة فغمرهن السرور. توقعن خيراً ومالاً كثيراً يصبن منه شيئاً. تمنين أن يتمرغن في الميري[1]. وقال الناس إذا فاتك الميري فتمرغ في ترابه. كناية عن الرغبة في الحصول على وظيفة أو بعض مال من الحكومة. فالفرص كانت محدودة والناس يرزحون تحت وطأة الفقر والفاقة.

كانت فرع الزين[2] يحدوها كثير من الأمل في هذا اللقاء المرتقب. فانطلقت تغني وتقول:

وافرات عروضـــــــــه

ما طـــلع المال جديده

ما فــــات حــــــدوده

•••

يا عــبد الله شـــدو ليـــه

ويا فضـل الله جيبـو ليه

مــدَرج شـــايل البيـــه[3]

ويا الله تتــم ليــــــه

لا أحد يدري ما إذا كانت نتائج هذه الدعوة قد خيبت ظنها، أم أن هذه الأغنية العابرة قد عادت إليها بمكافأة صغيرة تعوضها عن خيبة الأمل.

منذ وصوله إلى أمدرمان بعث أبوقرجة بمجموعة من أعوانه وأرقائه إلى أم غنيم التي ظلت مهجورة منذ اندلاع الثورة المهدية. شرع هؤلاء الأعوان في قطع الأشجار التي أضحت غابة كثيفة مليئة بالحشائش وهوام الأرض. وأخذوا يهيئون موقع القرية القديم ويمهدون الأرض للشروع في الزراعة.

1. الميري: هو الأميري، أي الحكومي والمفردة جاءت من مصر.
2. من مولدات الشكرية وعبد الله زوجها.
3. البيه: البك وتعني به الحاكم العام.

انطلق أعوان أبوقرجة في شتى أنحاء السودان يبحثون عن أرقائه السابقين. جاءوا بهم إلى أم غنيم حيث نشأ معسكر ضخم للعمل. فاشتغلوا بالزراعة في جزيرته وفي أراضي الجروف والزراعة المطرية. ثم لم يلبث أن نقل معظم عائلته وأبنائه من أمدرمان والقطينة والقراصة إلى تلك القرية ليكونوا بعيدين عن ظل السلطة الجديدة.

أمر أبوقرجة بصناعة مركب شراعية كبيرة كانت تقله من أمام منزله في بيت المال حتى أم غنيم. وقد أطلق عليها بحارتها اسم «شق النص» لسرعتها. كان يقيم معظم شهور السنة بأم غنيم مشرفاً على الزراعة بنفسه. يمتطي حماره ويحمل مظلة فوق رأسه. كان رجل عمل وجد ومثابرة ولا يرضى بالقليل من الإنتاج.

نشأ في القرية مجتمع عمل ضم شتى الأجناس، فتشكل سودان مصغر، إلا أنه بدأ يتقلص مع مرور الأيام بهروبهم فرادى وجماعات حيث لا معنى للعبودية الطوعية والعمل الشاق! إلا أن أم غنيم ظلت قبلة للضيوف وذوي الحاجات. يأتونها من كل فج.. تستهويهم رؤية الأمير أبوقرجة ويحنون إلى زمان قد مضى. واتجه كثير من الدناقلة بأسرهم للإقامة فيها. ومنذ البداية رأى أبوقرجة أن تكون لقريته عمودية خاصة يحتكم إليها جماعته بدلاً من اللجوء إلى العمودية المجاورة ومقرها في الفشاشوية. وكثير من المؤرخين تأثروا برواية ريتشارد هيل بأن أبوقرجة عاد إلى قريته أم غنيم ليصبح عمدة عليها. وكأن من كان أميراً للبرين والبحرين وقاد معارك المهدية المظفرة وتقلب في المناصب ونال من المجد والثناء ما لم ينله غيره ينحصر طموحه في النهاية بأن يشغل منصب العمدة الذي تقلده أبناؤه كنتباي ثم حسين فالعوض الذي انتهى شيخاً للقرية.

في ذات يوم من أيام عام 1929م وقف مستر آركل رئيس لجنة قلم الرقيق في مرتفع من الأرض ما بين النيل وقرية أم غنيم. كان ممسكاً «بأوراق الحرية» ويتحدث بصوت عال «زمان العربي كان يقول لبنت عمه» أنا مغصوب أجيب الرقيق علشان

العاج بتاعك ما يتملي دقيق[1]. ولكن دلوقت ما في كلام زي ده، أحمر، أسود، أسمر كله واحد».

لم يتحرك نحوه أحد من أهالي القرية الذين تحلقوا حوله قالوا إنهم ليسوا رقيقاً وإنما أهل لأصحاب هذه القرية. ولكنه أصر على إلتحقيق وأخذ يتفرس في الوجوه ويتحدث معهم فرداً فرداً حتى تأكد من أن أرقاء هذه القرية لا يخضعون للعبودية بذلك المعنى البغيض ولكنهم يعيشون ويفلحون الأرض ويستطيعون مغادرتها أنى يشاءون.

كان آركل الذي أضحى مؤرخاً وعالماً للآثار في أوقات لاحقة في جولة في مناطق غرب وجنوب غرب النيل الأبيض لتحرير جيوب الرقيق في تلك المناطق والإشراف على ترحيلهم إلى مستوطنات جديدة يعيشون فيها حياة الحرية بعيداً عن سادتهم السابقين.

كان أبوقرجة حينما يعود من أم غنيم إلى داره بأمدرمان يتزايد عدد الضيوف والزوار وأصحاب الحاجات، صباحاً ومساءً. وكانت الدار تضم عدداً كبيراً من أهله وحاشيته وخدمه. كان لا يبارحها إلا نادراً. وفي بعض الأحيان يكون في زيارة للزبير باشا في منزله المجاور. وذلك حين يأتي من الجيلي. فقد كانا جارين وصديقين تجمعهما ذكريات مشتركة وأحاديث طويلة عن تجارب عنيفة مختلفة تعرضا لها منذ افتراقهما قبل حوالي ثلاثين عاماً. كان بعض أعيان أمدرمان قد أقاموا منازلهم قبالة شاطئ النيل. فكان إلى جوارهما شخصيات معروفة مثل الجزولي بك التلب وآل مالك ود ابو روف وغيرهم. وكان الزبير وأبوقرجة كثيراً ما يجلسان أمام منزل أحدهما على عناقريب وطيئة أو كراسي، يواجهان النيل. ذلك الممر الذي طالما سلكاه في رحلات الجنوب المتعددة. وكان كثيراً ما ينضم إليهما النور عنقرة وضيوف آخرون من كبار

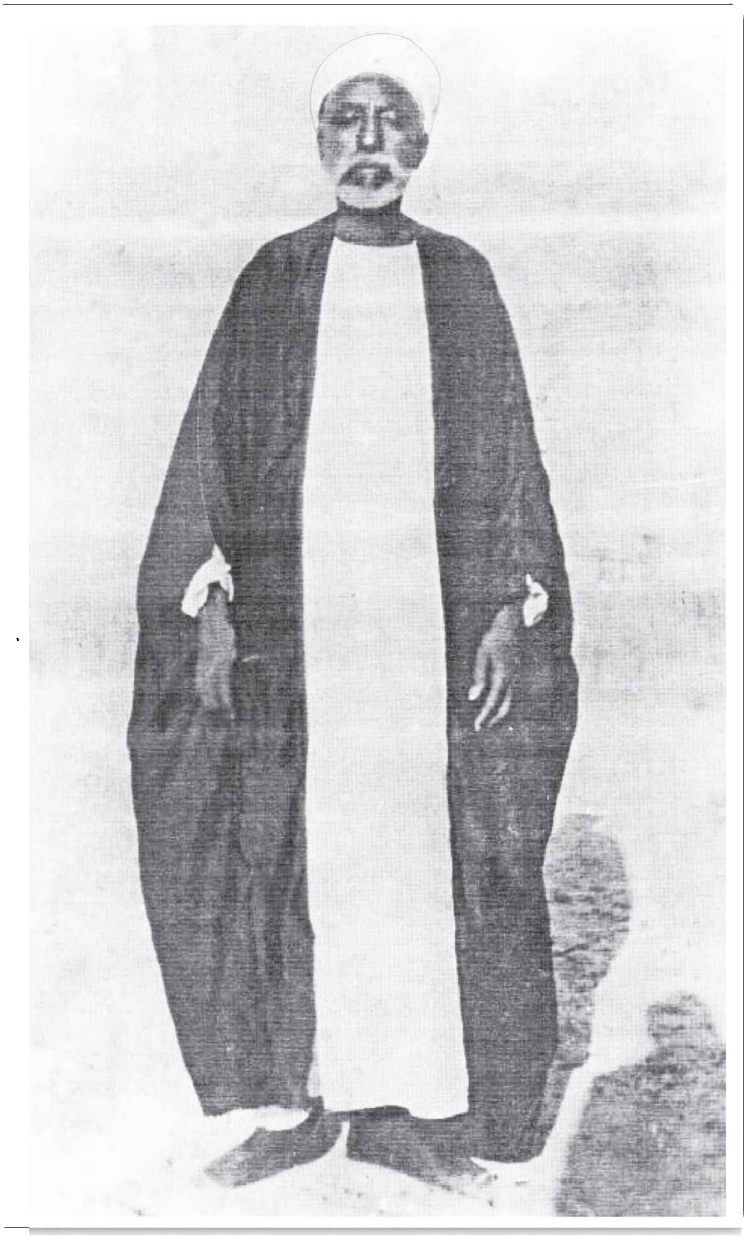
1. في إشارة إلى الراحة التي ستجدها بنت عمه بينما تقوم الخدم بالعمل المنزلي بمختلف ضروبه.

السودانيين. وكان الناس يتفادون المرور على ذلك الطريق تهيباً وإحتراماً. ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى توفي الزبير باشا في عام 1913م.

وفي حوالي عام 1915م/1916م كان أبوقرجة بأم غنيم عندما أحس بألم حاد في أحد ثدييه. فتوجه في أول أمره إلى الدويم للعلاج. ومكث فترة من الزمن ولم تتحسن حالته. فقرر العودة إلى أمدرمان حيث بعثت إليه الحكومة بطبيب سوري. فقام بفحصه وتبين له وجود ورم فقرر إستئصاله. فاستشاره في تخديره فرفض بشكل بات. فأجرى الطبيب عملية جراحية كبرى دون مخدر. ولما أعمل مبضعه في موضع الألم فوجئ بالمريض يستغرق في نوم عميق. إندهش الطبيب وظن ذلك ضرباً من الشجاعة وقوة الإحتمال التي تميز بها الرجل. وعندما أفاق إستفسره عن سبب نومه رغم الألم الممض الذي يصاحب مثل هذه الجراحة فأجابه بأن الألم الذي كان يسببه له الورم كان أشد من ألم المباضع.. فكان لا يدعه ينام ليلاً ولا نهاراً. ولكن الأوجاع سكنت بمجرد الشروع في التخلص منه. وفي وقت لاحق رجح الأطباء أن يكون ذلك الورم سرطانياً في آخر مراحله وأشدها قسوة وألماً.

تماثلت حالة الأمير أبوقرجة للشفاء إلا أن صحته أخذت في التدهور فأدرك أن منيته قد حانت. فأخذ في الإستعداد لوفاته وأمر بإعداد المنزل لذلك الحدث بإشرافه. فجاء أهل بيته بجرار الماء الجديدة والأواني والأطباق والبروش. وأعدوا دقيق القمح والذرة وقددوا اللحم وجففوه وطحنوا الويكة والبهارات والبصل وكل ما يلزم من إحتياجات أيام المأتم.

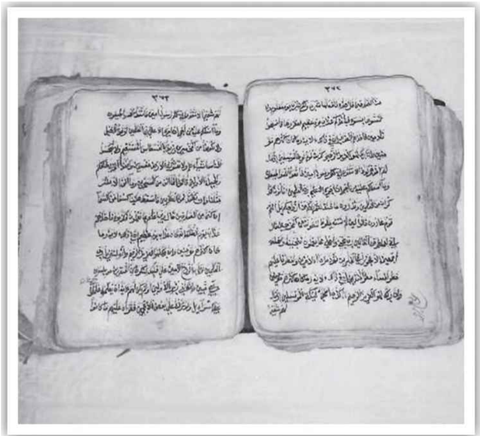
وقبل خروجه من المستشفى كان الحاكم العام قد بعث بمصور القصر ليلتقط له الصورة التاريخية الوحيدة التي ظلت باقية حتى اليوم. ويبدو فيها وقد هده الداء فتداعى ذلك الجسد العظيم وأضحى عظاماً دارسة.



الأمير لأبوقرجة في أواخر أيامه في عام 1915 وقد هده المرض وتمكن منه



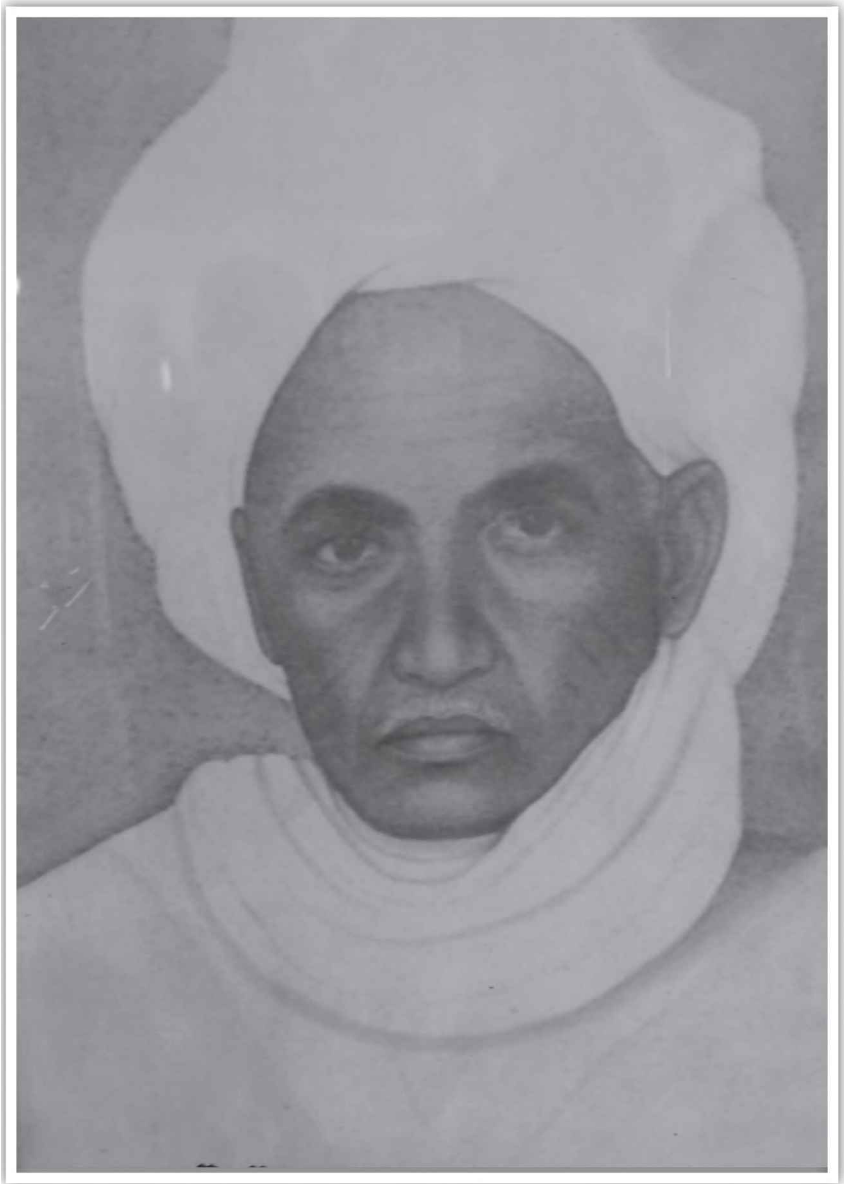








بعض مقتنيات الأمير لأبوقرجة السيف الموجود بمتحف الخليفة والمصحف الشريف بخط يد الشيخ محمد ود عيسى (المسيد) وقد أهداه إليه في حوالي 1294هـ قبل إندلاع الثورة المهدية. ويبدو أحد دروعه التي ظلت محفوظة لدى بعض أفراد الأسرة



الأمير النور عنقرة



الزبير باشا رحمة

وكانت السيدة زينب بنت الإمام المهدي (عم) قد بعثت إليه بكفن من الدمور غزلت خيوطه بيديها الشريفتين. وأوصت إليه بقولها «يكفنوك به قبل قماش الترك[1]» فأرادت أن يكون جسده ملفوفاً بالدمور البلدي ثم من فوقه الدبلان. وقد كان.

وفي الأيام الأخيرة نقلوه إلى المستشفى في حالة خطيرة. إلا أنه كان في تمام وعيه ولياقته النفسية. فتقاطر الناس يزورنه في المستشفى ومن بينهم المؤرخ محمد عبد الرحيم الذي وصف حالته في تلك اللحظات (كما ورد في مقدمة الكتاب). وحين أدركوا قرب منيته أعادوه إلى منزله.. فأسلم الروح وتوقف ذلك القلب الشجاع عن الخفقان.. وانطوت صفحة في غاية الإشراق من تاريخ السودان. ومضى أبو خالد إلى رحاب الخلد.

حملت أسلاك البرق نبأ نعيه إلى مختلف مدن السودان. وأقيمت المآتم في كثير منها كالقطينة والكاملين والهلالية والمسلمية وغيرها. وعندما وصلت البرقية إلى مدينة كوستي إستدعى تجار السوق إثنين من مواليه كانا يعملان حمالين في سوق المحصول فحملا الرسالة وانطلقا ركضاً إلى أم غنيم التي وصلا إليها بعد صلاة العشاء. كان شقيقه زكريا مستلقياً على سريره في فناء داره حينما نقلا إليه الخبر وهما ينتحبان فانحنى واغترف بكفه تراباً ملأ به فمه. وعلا الصراخ في القرية حيث تقيم معظم عائلته وأولاده الذين كان من بينهم صبية أيفاع. وأقيم مأتم كبير جاء إليه الناس من مدينة كوستي الحديثة النشأة ومن جميع القرى والمناطق وإستمر أربعين يوماً، مثلما استغرق المأتم بأمدرمان. وانهمر سيل برقيات التعازي من مختلف أنحاء السودان. عاد أولاده الكبار من الجنوب، كما عاد والدنا تتبعه مئات البرقيات التي ظلت موجودة في محفوظاته في ذلك الصندوق القديم حتى قرأناها في عهد الطفولة.

إنقضت أيام المأتم الأربعون بأم غنيم ولم ينقطع سيل المعزين. إضطر الأهل للإنتظار

1. تعني به قماش الدبلان المستورد من مصر.

فالناس يأتون من شتى البقاع على ظهور الإبل والحمير. فالسيارات لم تكن قد دخلت البلاد والقطار ما زال بعيداً عنهم.. يخشونه ولا يجدونه متاحاً. أهالي المنطقة القريبون كانوا لا يفتأون يجددون زياراتهم وتعازيهم. فالناس متعطلون في غير موسم الزراعة، ومكان المأتم يتوفر فيه الطعام. ذبحوا لهم ما أبقوا شيئاً لا ثاغية ولا راغية. والمطامير نضب مخزونها. مضت أربعة أشهر وفجأة أطل الخريف. تلفت الناس من حولهم فلم يجدوا حتى التقاوي فأصابهم يأس وقنوط. لم تمض أيام والناس على هذه الحالة حتى عثر أحدهم على حبات من الذرة البيضاء. نكث مكانها بأصبعه فتبين له أن هناك كمية من الذرة تحت البروش التي كانوا عليها جلوساً.تنبه الآخرون وجاءوا بالمعاول واستخرجوا من الذرة الشيء الكثير. ما كانت مطمورة منسية فقد كانت الحبوب على وجه الأرض وليست في عمقها. كما أن مكان مطامير العيوش في القرية معروف. ولا أحد ينسى مطمورة ملأى بالذرة.. فذلك ضرب من ضروب المستحيل. وزعوا الذرة على البيوت وتقسم الفلاحون ما تبقى بذوراً للزرع. فكان خريف عام 1916م سخياً مبشراً فزرعوا وحصدوا ما فوق تصورهم وكأنما أراد الله بقدرته أن يكرم ضيوف مأتم الرجل الذي نذر نفسه للجهاد في سبيله ولقرى الضيف وإغاثة الملهوف.

عاش قرناً حافلاً من الزمان

زكريا عثمان العربي

عاش قرناً حافلاً من الزمان
زكـــريا عـــثمان العـربي

بعد أدائه لصلاة الجمعة وخروجه من مسجد الخليفة الجامع بأمدرمان التقى الأمير أبوقرجة فجأة بصديقه زعيم الجعليين الأمير علي ود سعد الخارج لتوه من الجامع أيضاً[1]. سعد كلاهما بهذا اللقاء وطفقا يتحدثان لفترة من الزمن. ولما هما بالفراق كان هناك رجلان شابان يمسك كل منهما بعنان فرس، يقفان غير بعيد. حدق علي ود سعد لبرهة في وجه أحدهما وسأل أبوقرجة عنه. فاجابه بأنه أخوه زكريا. حياه وأمعن النظر في وجهه ثم قال «والله يا حاج أُمحمد أرى أخاك هذا يلم الشمل ويحفظ الدار والعائلة إذا ألَم بك عارض أو جار عليك الزمن لا سمح الله. أما الذي يقف إلى جانبه «الأزيرق أبو وجيها محنوف فهو أخي عبد الله الذي لا أراه إلا سينزل الخراب بدار الجعليين».

افترقا بعد وداع قصير ومن ثم حمل النيل مياهاً كثيرة خلال سنوات شهدت عنفاً خلَّف مرارات قاسية. لا بد أن زعيم الجعليين بحكمته كان يستقريء خطراً ماثلاً يهدد مستقبل الأمير أبوقرجة في خضم الصراعات السياسية والتصفيات التي كانت تواجه الدناقلة والأشراف. كما أنه لا بد أن يكون عالماً بدخيلة أخيه عبد الله وما يبديه من سلوك متعنت ومعاند في مواقف مختلفة. فما كانت رؤيته ناجمة من فراغ وإنما من تأمل واستقراء لواقع ماثل وشيك الوقوع.

كانت عادة الزعماء والأعيان عهدذاك أن يرعى أخو الواحد منهم أو ابنه حصانه في المحافل العامة والتجمعات والزيارات القصيرة. كان في ذلك نوع من العز والشرف وعلو المكانة أن يقوم الأخوان والأبناء بهذه المهمة لا الموالي والأتباع. كان أبوقرجة قد

1. رواية إسماعيل أبوقرجة عن عمه زكريا عثمان.

فقد ولديه الكبيرين خالد وعبد الله واحداً تلو الأخر خلال فترة وجيزة. كما احتسب ابناء سابقين واحداً إثر آخر في طفولتهم في ظاهرة كانت حديث الناس. قال من رأى الغلامين أنهما كان آيتين في الوسامة. كانت أمهما الدُل من قبيلة الدينكا، فتاة جميلة فارعة القوام شجاعة أذهلت أبوقرجة بجرأتها حين عاد بها من الجنوب. فقد ألقت بنفسها على النهر ثلاث مرات. آثرت الموت على الأسر. فشدد عليها الرقابة ومن ثم قرر أن يتخذها أماً لأولاده. حين شبَ الولدان عن الطوق وأيفعا طفقا يصحبان والدهما في مهماته القصيرة وزياراته الإجتماعية. لفتا الأنظار وهما يرتديان العباءة والعقال والملابس الحجازية التي جاء بها والدهما من شرق السودان. كان زياً غريباً ما ألفه الناس. كان فخوراً بهما حتى قضت عليهما الأعين العائنة كما يعتقد أهلنا.

جمعت أحداث المهدية بين الأمير أبوقرجة وعلي ود سعد. فبعيد فتح الخرطوم بعث الإمام المهدي الأميرين أبوقرجة والنجومي بجيشين كبيرين لاستكمال تحرير السودان بمطاردة حملة الإنقاذ البريطانية التي كانت لا تزال تناور في مناطق السودان الشمالية بإنتظار القرار السياسي الذي يصدر في العاصمة البريطانية لتحديد مهمتها بعد أن اسقط في يدها بسقوط الخرطوم وتحريرها.

لم يلبث الإمام المهدي أن بعث برسالة يوجه فيها النجومي بالتقدم وببقاء أبوقرجة بالمتمة وإلى جانبه الأمير علي ود سعد. واستمر الحال بهما فترة قصيرة من الزمان حتى ارتحل الإمام المهدي إلى الدار الباقية واستدعى الخليفة أبوقرجة للتوجه إلى سنار المحاصرة. في تلك الفترة توثقت عرى الصداقة بين الرجلين. وتعرف أهل المتمة على شخصية الأمير أبوقرجة فمحضوه تقديراً وتوقيراً ومحبة. وعندما حلت الكارثة بالمتمة كان أبوقرجة بعيداً بعيداً يرزح في أغلاله في الرجاف ذلك المنفى الرهيب. وقد مضت عليه أكثر من خمس سنوات. ومما يدعو إلى الأسف أن يتنطع كتاب أدعياء بأن أبوقرجة قاد الهجوم على المتمة. وهم لا يفرقون بينه وبين محمود ود أحمد، ولا يعرفون بديهيات تاريخ المهدية.

وقد رأيت رجلاً في طفولتي بمدينة كوستي يدعى عبد الوهاب ود الزينبية. كان يزور والدي بانتظام ويتحدث عن عائلات كثيرة بالمتمة إحتمت باسم الامير أبوقرجة وادعت قرابته أثناء وقوع الكارثة. وقد كف عنهم الجهادية رغم أن نجم الأمير أبوقرجة كان قد أفل منذ سنوات. وبات من الخصوم الذين لا يأبه بهم أهل السلطان. كان الناظر إبراهيم محمد فرح يعرف كثيراً عن تلك التفاصيل. وكان صديقاً للأمير كنتباي أبوقرجة.. عليهما الرحمة.

مثَل أبوقرجة للناس في تلك الأيام الصعبة أملاً وظهراً يستندون إليه. فكانوا يهرعون إليه حين يبطش بذويهم أعوان الخليفة فيجدون العون والسند. فهو الوحيد الذي كان يمتلك الجرأة في مراجعة الخليفة ولو كان موجوداً لما حلت القارعة بالمتمة.

لما طالت غيبة الأمير أبوقرجة وانطوت صفحة الدولة المهدية ترامت إلى أسماع الناس أنباء عن خروجه من جزيرة الرجاف وتوغله داخل غابات الإستوائية. ومن ثم إنقطعت أخباره. إنتاب الناس قلق عظيم على مصيره. وبات الحديث عن ما حدث له شأناً يومياً. فانزعجت العائلة واخذت تفكر بجدية في أمر البحث عنه. توجه زكريا عثمان إلى الشريف يوسف الهندي الذي كان صديقاً للأمير أبوقرجة ولصيقاً بالعائلة. وأخذ يحدثه عن مخاوف الناس على مصير الأمير. وعبر له عن ذلك بقوله «كيف يطيب لكم المقام ويهدأ لكم بال والأمير أبوقرجة غير معروف حياً أو ميتاً». في تلك اللحظات جاء الخادم بصينية الشاي يتوسطها براد جميل يحيط به أكواب من البلور الرائق دقيق الصنعة. وكانت مثل هذه الآنية غير معروفة لدى الناس جميعاً. فقال الشريف الهندي «أنظر يا زكريا لهذه الآنية.. لقد أهداني إياها الأمير أبوقرجة.. والله إنه سيعود وسنحتسي الشاي منها سوياً».

إطمأن بال جدنا زكريا إلا أنه سرعان ما وردت أنباء تفيد بوصول أخيه الأمير إلى الفاشر. فقرر زكريا التوجه إلى هناك. وقيل إنه سافر إلا أني لم أجد معلومات عن رحلته

هذه. وما توفر لنا من معلومات كانت حول رحلة جدنا علي إلى عاصمة دارفور يصطحب وفداً من رجال القطينة.. إلتقى بالأمير ولم يحرز أي نتائج حيث كان السلطان علي دينار لا يزال مصراً على إحتجاز أبوقرجة دون مبررات.

زكريا عثمان هو الشقيق الثاني للأمير أبوقرجة بعد جدنا الحسن.. فأمه جدتنا آمنة بنت سلمان. وقد صحب أخاه منذ فجر شبابه وسافر معه في رحلاته التجارية واكتسب خبرات واسعة أهلته لأن يلعب دوراً بارزاً في الثورة المهدية. وعندما شرع أبوقرجة في استصطلاح أراضي أم غنيم الزراعية وقف إلى جانبه شأن إخوته الآخرين.. والتقى بالإمام المهدي قبل الدعوة وبايعه بيعة السر وأضحى واحداً من أبكاره.

ولما اندلعت الثورة لحق بالإمام المهدي في قدير وشارك في حروبات التحرير منذ حصار الأبيض وحتى ملاحقة حملة هكس وحصار الخرطوم. وعندما تولى الأمير أبوقرجة عمالة الشرق قائداً عسكرياً ثم عاملاً إدارياً صحبه معه هو واخاه حسيناً فابليا بلاء حسنا في العمليات العسكرية وقادا السرايا لتأديب المارقين على سلطة الدولة المهدية. فتجد اسميهما يتكرران في الوثائق والرسائل التي كان يتبادلها الخليفة عبد الله والأمير أبوقرجة. وعندما تم إعتقال أبوقرجة في المناطق الإستوائية وأودعوه في السجن بجزيرة الرجاف بقي زكريا يتردد ما بين أمدرمان والقطينة مشرفاً على العائلة وقائماً على شئونها هو وأخوه علي الذي كلفه أبوقرجة بشئون الأسرة في رسالة إلى الخليفة بين فيها تفاصيل عائلته والممتلكات القليلة التي خلفها وراءه.

وعندما عاد أبوقرجة من المنفى إلى أمدرمان بعد أربعة عشر عاماً قضاها ما بين الإستوائية ودارفور قرر العودة إلى زراعة أراضيه بأم غنيم. كان زكريا على رأس العائدين إلى تلك المزرعة التي هجروها حوالي ستة وعشرين عاماً.. فعادت كما كانت غابات كثيفة. شمروا عن سواعدهم وأخذوا في استصلاحها مجدداً حتى غدت أرضاً خصيبة معطاءة. كان يكثر من الإقامة بأم غنيم ولكنه لا يفتأ يزور القطينة مسقط رأسه

وموطن أهله. كما كان يتردد على أمدرمان حيث إقامة الأسرة إلى أن توفى الأمير أبوقرجة في عام 1916م. وفي ذلك الوقت لم يبق من أولاد عثمان غيره فتولى مسئولية العائلة. تزوج كثيراً ولم يرزقه الله بالولد.ولكن عوضه بأبناء إخوته الذين إتخذوه أباً لا يخرجون عن طاعته. فعاش بينهم ينهى ويأمر ولا يرد له طلب. وقيل إنه صاهر عدداً كبيراً من الأسر الكريمة والعائلات الكبيرة في زمانه ذلك. ومن بينها الساده الركابية آل فكي عربي ومكاوي الذين بالغوا في إكرامه حتى أنهم أهدوه تحفاً كان من بينها دجاجة من الذهب الخالص بكتاكيتها. إمتد به العمر حتى تجاوز المائة وتوفاه الله في عام 1946م بأم غنيم.

كان فطناً ذكياً له إلمام واسع بالتاريخ وأنساب أهل السودان. وكان الناس من مختلف القبائل يشدون إليه الرحال يستفسرون عن أنسابهم التي أضاعوها فيجدون عنده الخبر اليقين. كان يعلم أهمية ما يمتلكه من المعلومات التي تستحق التوثيق. فكان يطلب من طلاب المدارس من أبناء العائلة الجلوس إليه ليكتب ما يرويه لهم. ولكن التقاعس وعدم الوعي بأهمية ذلك الأمر حال دون كتابة تلك المذكرات التي كان من الممكن أن تسد فراغاً في معرفتنا بتاريخ المهدية. وكان كثيراً ما يزور ابن أخيه الأمير كنتباي في المراكز التي عمل فيها مأموراً ويبقى معه الأشهر الطوال.

كتب بابكر بدري في مذكراته أنه كان عائداً من القضارف يصحبه زكريا عثمان فتعطلت السيارة في الطريق وباتوا ليلتهم في ذلك الخلاء، ولكن زئير الأسود أقلق راحتهم وأقض مضجعهم. كان زكريا عائداً من ابن أخيه الأمير كنتباي بعد زيارة له. وكان الشيخ بدري قد إعتاد أن يزور المأمور كنتباي في جميع المراكز التي عمل فيها لجمع التبرعات من الأعيان والتجار لصالح مدارس الأحفاد ولما تقاعد كنتباي أخذ يزوره بأم غنيم لجمع التبرعات من مزارعي المشروع.

وكان زكريا حين يعود إلى أم غنيم يزوره الناس من مختلف المناطق القريبة ويلتفون

حوله. فكان يتحدث إليهم بكثير من الحكمة ويوجه إليهم نصائح غالية تتعلق بشئونهم وأعمالهم. إلا أنه كان صريحاً جارحاً ويبدي زكانة وفراسة في قوله. وقيل إن رجلاً زاره مرة فأمره بالعودة فوراً إلى قريته لأنه سيموت. وتشدد في أمر عودته والرجل تغمره الدهشة ويتملكه الخوف. ولكنه إنصاع وعاد إلى بيته حيث توفاه الله فور عودته. وينسب إليه الناس روايات ومواقف متعددة تبين رؤاه النافذة وتعليقاته الذكية الساخرة.



الحربة (الكِبس) آخر ما تبقى من أسلحة جدنا زكريا ويمسك بها حفيده محمد إسماعيل أبو قرجة

حسن الحسن عثمان العربي

حسن الحسن عثمان العربي [1]

سافروا جبارة الخـــالق

أبّـــان مركوبـــاً غارق

وفي الحوبة يبقوا جرارق

كان الوالد كثيراً ما يردد

هذا المقطع في خـلوته

عادت أرملة الشهيد الحسن عثمان من دنقلا إلى أمدرمان في حوالي منتصف عام 1886م تحمل وليدها – وهو في شهوره الأولى – وعاصمة الدولة المهدية الجديدة تجاوزت العام من عمرها بقليل. حلت ضيفة عزيزة على دار الأمير أبو قرجة الأولى قبل أن ينتقل إلى بيت المال. أحاطها أهل الطفل بالرعاية والإكرام إلا أن حزناً كثيفاً ظل يكسو محياها الوضيء. فقبل عام أو يزيد تيتمت وفقدت عائلتها يوم فتح الخرطوم في مشهد مروَع لا يزال يقض مضجعها. وها هي تعود الآن محمولة على ظهر الفجائع بعد أن فقدت زوجها الذي أنست إليه واطمأنت إلى مروءته وكرمه وعطفه الذي استمده من ورعه وتقواه وأصله الكريم.

ظلت والدتها مدينة إلى جانبها دائماً فلم يكن لديها في الحياة أمل سواها. وبعد أن أمضتا فترة من الزمن في تلك الدار العامرة إنتقلتا إلى حي الموردة حيث سكنت مجموعة من بقايا الأتراك والمصريين الذين ادعوا قرابتها يتوسلون الحماية بأهل الطفل النافذين. أقامتا مخبزاً صغيراً تصنعان فيه الرغيف. كان ذلك النوع من الخبز غريباً على السودانيين،

1. حسن أبو قرجة (والد المؤلف).

إلا أنهما إعتمدتا على زبائن من المصريين والمواليد وبعض الجنسيات الأوروبية الذين إنتقلوا من الخرطوم إلى العاصمة الجديدة – أمدرمان.

كان الصبي موضع عنايتهما و إهتمامهما العميق. تحملانه بين وقت لآخر إلى دار أهله ليطمئنوا عليه. فتجد أعمامه هناك. وما أكثرهم مباشرين وغير مباشرين. وحين يعود الأمير أبو قرجة من إحدى مهماته في مختلف أنحاء البلاد تهرع إليه أم الصبي تحمله ليراه ويطمئن على حاله. ولما شب قليلاً عن الطوق كانت الدار قد إنتقلت إلى بيت المال فعرف الطريق إليها. فكان يقضي الأيام هناك تكلؤه عناية العمات والجدات والأهل الذين كانت تغص بهم الدار. وقد كان قاطنوا بيت المال جميعهم أهله بلا إستثناء في ذلك الوقت. فكانوا يلبون طلباته ويغضون الطرف عن جموحه ونزواته وشقاوة طفولته حتى استوى غلاماً. فكانت تلك الفترة هي التي أثرت في تكوين شخصيته وشحذت عاطفته وأملت عليه الحفاظ على مودة الأهل ومعرفتهم ومعرفة الأنساب القريبة والبعيدة.

أخذوه إلى الخلوة كارهاً. كان يضيق بها ذرعاً ويتمرد، ولكن لا فكاك له في ذلك الزمن التطهري الحازم. فكان يهرب أحياناً فيعود به غلاظ شداد ليجد بإنتظاره قيد الحديد في تلك السن الباكرة. يخضع له أياماً. فلا تنطفئ جذوة التمرد فيه ولا تنكسر له شوكة. كان لا يفتأ يزداد حنقاً وغيظاً وتصميماً على ترك الخلوة التي كان يراها سجناً لا مبرر له. كانت جدته تتسلل إلى الخلوة قبيل الصبح تحمل إليه فطائر القمح المغموسة في اللبن والعسل أملاً في استرضائه والتخفيف من غلوائه.. ولكن هيهات. وحينما يأتي إليه الطعام من دار عمه في بيت المال يكون مستغنياً بما أصاب من فطائر أمه. فيقذف بعيداً بطعام بيت المال ويكيل لهم السباب مبدياً تبرمه وضيقه من قسرهم له وإجباره على المواظبة على الخلوة.

ثم لم يلبث أهل الصبي أن إنتزعوه من والدته وأجبروه على الإقامة الدائمة في منزل عمه ببيت المال. كان عمه زكريا وراء هذا القرار – دون شك – بدعوى حرصه على تربيته. إلا أنه في الواقع كان رد فعل غاضباً على والدته التي رفضت الزواج منه. فأدمى

قلبها بعد أن حرمها حتى من زيارته. فكانت هي ووالدتها تتحينان الفرص وتتسللان لرؤيته في الخلوة – المبنية من القش – والتي اندلعت فيها النيران يوماً.. فأسرعتا ركضاً تولولان لتجدانه قد زحف بقيده بعيداً عن الخطر.

كان يصحبه في تلك الخلوة أخوه – غير الشقيق - محمد الذي كان يكبره بعامين أو ثلاثة. فكان حسن متعلقاً به يتقاسم معه الطعام الذي يأتيه من الموردة. ويطالب جدته بأن تكسوه بجبة الدمور مثلما تفعل معه.

وفي أخريات عام 1892م كان على مشارف سن السابعة وذلك حين توجه عمه الأمير أبو قرجة إلى الجنوب (عاملاً عليها) في تلك الرحلة المشؤومة التي لم يعد منها إلاَ بعد أربعة عشر عاماً. لم يتعلم حسن بتمرده ورفضه للخلوة سوى القليل. حفظ شيئاً من القرآن وتعلم قليلاً من الأبجدية. .

كان السعي وكسب العيش يشكلان هدفاً وضعه نصب عينيه. كان يريد أن يكفي أمه وجدته مؤونة صناعة الرغيف وبيعه. لذا فقد عرف السوق مبكراً قبل أن يبلغ العاشرة. وقد سمعناه كثيراً يردد قوله للناس. «بيع واشتري وما تنكري». أي أعمل بالتجارة ولا تعمل أجيراً.

كان يعبر النيل من الموردة إلى الخرطوم على ظهر قارب أو سباحة وذلك حين تنحسر المياه. يعود محملاً ببعض الخضر والليمون ليبيعها في سوق الموردة. كانت جنينة موسى العقاد – الواقعة على النيل الأزرق في صدر الخرطوم قد آلت إلى الأمير أبو قرجة ضمن الغنائم. فكان أبناء العائلة وحتى بعض الكبار منهم يتوجهون إليها ويقطفون من ثمراتها تمراً وليموناً وخضروات. وذلك حتى بعيد الفتح الإنجليزي – المصري الذي اعتبرها أراضي حكومية فصادرها ثم استبدلها لآل الميرغني بأراضي على شاطئ مدينة الخرطوم بحري.

نضوج مبكر وحياة حافلة مثيرة

في ذلك الزمن كان ختان الصبية يتأخر حتى يبلغ الواحد منهم الرابعة عشرة وربما أكثر من ذلك. وعندما شارف حسن تلك السن أعدت أمه وجدته العدة لختانه وكل ما تتطلبه تلك المناسبة. فما كانتا تدخران شيئاً لسواه. ولما اقترب موعدها رفض أن تقوم والدته بختانه فأعمامه كانوا لا يزالون ملء السمع والبصر في القطينة فتوجه إليهم. وقف أمام عمه زكريا وأفصح له عن رغبته في الختان. فرد عليه عمه «الذي كان لا يخلو من غلظة وفظاظة» طالباً منه أن يبقى عاملاً معهم في زراعة السواقي حتى ينقضي الموسم. فرد عليه بأن خدم وأعوان والده ما زالوا يعملون لديهم أفلا يكتفون بذلك!! فأجابه بخشونة «أبوك لم يكن يحاسبنا في حياته، حتى تأتي أنت فتفعل ذلك يا ود الريف!!. في إشارة لوالدته الغريبة ذات الأصول التركية. إستدار الفتى عائداً من القطينة إلى أم درمان مصمماً على تدبير أموره بالإعتماد على نفسه .

لم يكن أمام الفتى اليتيم سوى أن يسافر إلى الجنوب قبل ختانه. كان ذلك في حوالي عام 1900م – وقد بلغ الرابعة عشرة من عمره – والقرن العشرون لم يفتح مصراعيه بعد. إلاَ أن السفن التجارية أخذت تتوجه إلى تلك الجهات واحدة إثر أخرى. فقد ظلت الملاحة متوقفة بعد إحتلال السودان. فبذل البريطانيون جهوداً جبارة للسيطرة على ذلك الشريان الحيوي. وقد استخدموا أسرى الأنصار المتواجدين في تلك الجهات للقيام بتطهير مجرى النيل وخاصة في منطقة السدود.

كان حسن ناضجاً منذ طفولة باكرة. فقد نشأ في دار زعامة ورئاسة. ورأى أعمامه أولاد عثمان، وكثيراً ما كان يجلس إليهم يستمع إلى أخبار معاركهم ومآثرهم وأخبار

إخوتهم الشهداء. وكان له في ذلك إهتمامات ظلت تلازمه طيلة حياته.

أذكر أنه كان يتحدث في أحيان نادرة لبعض ضيوفه – عن طفولته في المهدية – ونحن صبية صغار. كان يصف الخليفة في موكبه ملثماً راكباً هجينه الذي يقوده رجل طويل على نحو مفرط.. حتى تكاد عمامته أن تلامس أنف البعير. كما كان يتحدث عن معركة كرري التي وقعت في ضحى الثاني من سبتمبر عام 1898م. ذلك اليوم الذي غربت فيه شمس دولة المهدية. قال إنهم تسلقوا سقوف منازلهم في بيت المال.. يتطلعون إلى ميدان القتال المكشوف أمامهم.

وكان يزوره أحياناً في دارنا بمدينة كوستي جارنا رفاي الذي كان قد كبر وأسن وقد حضر تلك الأحداث شاباً. كان يستقبله ببشر وترحاب ويتحدث معه عن ذلك اليوم المشهود. فكان رفاي يروي له لحظة وقوفهم أمام منزل محمد بشير العبادي وحضور أحد الضباط الإنجليز لينصب مدفعاً في سقف الدار. وكيف أن أحد سكان الدار تفلَت غاضباً وأراد أن يفتك بالضابط الإنجليزي الذي سحب مسدسه وأطلق عليه النار على الفور فأرداه قتيلاً. وأمر بسحب جثته إلى داخل البيت.

إقترب الصبي من السفينة الشراعية التي كانت على وشك التحرك من مرسى الموردة بأمدرمان. كان ذلك في ذات صباح من العام الأخير في القرن التاسع عشر. تقدم نحو رئيس البحارة وسلم عليه وطلب منه السفر معهم عاملاً بالسفينة. سأله عن أهله ولما أجابه صاح مرحباً ومعلناً للبحارة، «هذا ولد ناس قورجة.. هذا ابننا» فرحب الجميع وأغرورقت عيونهم بالدموع باذلين العاطفة الحارة لأسلافهم الكوشيين العظام. إستأذن ليعود إلى منزلهم القريب من المرسى ليودع ذويه ويأتي ببعض احتياجاته. جزعت أمه وجدته وحاولتا منعه دون جدوى. صنعتا له زاداً على عجل وقدمتا له كل ما كان لديهما من مال فأخفاه في ثيابه وعاد مسرعاً إلى سفينته التي لم تلبث أن بارحت أمدرمان. كلفه الريس بأعمال خفيفة. وكان عندما يفرغ منها يجلس على حافة السفينة يتطلع

إلى تلك الغابات الكثيفة الخضراء والجموع الهائلة للطيور والحيوانات التي ترد الماء من كل الأنواع. فرأى قطعان الأفيال والجاموس والحمر الوحشية والزراف والغزلان بمختلف أنواعها يروَعها الزئير المتقطع للأسود. أما التماسيح وأفراس البحر والقردة فكانوا رفاق الرحلة الدائمين. ومن وقت لآخر كان يرى أكواخاً متناثرة ورعاة من الصبية العراة يقفون إلى جانب قطعان الأبقار والأغنام. وفي الأماسي كان الدخان ينبعث من مكان لآخر في الغابة تصحبه أصوات بعيدة لدقات الطبول.

كانت السفينة تقل التجار أصحاب البضائع الذين يشحنون على ظهرها جوالات الذرة وملح الطعام والتبغ وبعض المصنوعات كالحراب والفؤوس والسكاكين وأغراض الزينة كالسكسك والسوميت وقطع زجاجية. كانت واسعة تضم كل احتياجات الركاب والبحارة وأماكن نومهم. وهناك امرأتان تستغلان ركناً لصناعة الطعام.

لم تكن المدن والموانئ قد نشأت بعد بالجنوب. فقد كان ذلك الزمن أول الفتوح (كما كان يعبر أهلنا). إستغرقت الرحلة أكثر من ثلاثة أشهر وعادت في حوالي شهرين. كانت تلك هي التجربة الأولى للصبي حسن الحسن. إلا أن ذلك الطريق كان قد سلكه آباؤه منذ منتصف القرن التاسع عشر تجاراً معروفين. وكان يدرك أن عمه الأمير أبو قرجة ظل منفياً في جزيرة الرجاف طيلة سنوات، إلا أن آخر أخباره أفادت بأنه خرج من ذلك المنفى وتوغل في أحراش الجنوب و إنقطعت أخباره.

أبدى الصبي عزماً وحزماً ومروءة وشجاعة واستهانة بالخطر. فأثار إعجاب البحارة والتجار على السواء.. فأخذوا يوقرونه ويعاملونه بإحترام بالغ. خاصة وقد علموا من أي أرومة قد انحدر. فبادلهم إحتراماً بإحترام خلال تلك الرحلة الطويلة وترك انطباعات عميقة في نفوسهم. الأمر الذي أفاده كثيراً في رحلاته التجارية في مقبل أيامه.

إستطاع حسن بما لديه من مال أن يشتري قطعتين جيدتين من سن الفيل. أخفاهما في قعر السفينة بعد أن لفهما بخرق بالية. عاد إلى أمدرمان وقبض مبلغاً لا بأس به من

ربان السفينة عبارة عن أجرته لمدة خمسة أشهر. ثم توجه إلى السوق ذات صباح يحمل سلعته التي حرم الحكم الجديد حيازتها وبيعها. فكان يتم تداولها سراً وبكثير من الحرص والحذر. إستلمها منه تاجر جشع حاول أن يستغل صغر سنه ويستأثر بها. فطلب منه العودة في صباح اليوم التالي لوزنها وتسليمه قيمتها. وفي الميعاد المحدد حضر ولكن التاجر أنكر معرفته به. خرج الفتى مسرعاً إلى أحد أقربائه التجار وأبلغه بالأمر (ويقال أنه كان من آل نبق الذين تقيم سلالتهم حالياً في الكاملين). توجه معه قريبه غاضباً منفعلاً. ولكنه تريث قليلاً ولجأ إلى الحيلة. دخل على التاجر وحده وطلب منه نوعاً جيداً من العاج لأحد الزبائن. ولما أدخله إلى مخزنه ليرى العاج عرفه من الوصف الذي قدمه له حسن فأمسك بالقطعتين وانتهر التاجر واتهمه بخيانة الأمانة وهدده بأنه سيرفع صوته بالصياح لتأتي الحكومة ويجتمع الناس عليه. فخاف وارتجف واعترف بملكية حسن للعاج وقام بوزنه وسداد قيمته كاملة. قبض الفتى الصغير مبلغاً كبيراً من المال وتوجه ليشتري كل ما يلزم لمناسبة ختانه من ملابس جديدة (قفاطين وعراريق وسراويل وعمة ومركوب). واشترى كبشين كبيرين. ومضى يقرع أبواب أهله الدناقلة يدعوهم لوليمة الغداء بمناسبة ختانه. ومنذ ذلك الحين بات في نظرهم رجلاً يمثل إمتداداً لآبائه في الجسارة والأقدام. وكان لا يزال طفلاً يقف على مشارف الصبا.

كان السودانيون قد خرجوا من حقبة المهدية فقراء معوزين. وبعد «الفتوح» عاد معظم سكان أمدرمان إلى مواطنهم الأصلية يبحثون عن الرزق حيث سخاء الطبيعة وسهولة العيش. حكومة الإحتلال نفسها كانت فقيرة تنفق عليها الحكومة المصرية والتي ظلت على هذا المنوال سنين وسنين. كانت البلاد الواسعة الأرجاء تبدو كأراضٍ مهجورة. معظم الناس كانوا يتضورون جوعاً وهاجس السلطة الجديدة كان بسط الأمن والقضاء على جيوب المعارضة. حتى التجار القلائل الذين كانوا ينتقلون من مكان لآخر لم يكونوا يملكون من المال ما يكفي لنشاطهم التجاري. وذلك قبل أن تدخل البلاد الشركات

التجارية والأفراد الأجانب.

بهذه البداية المتواضعة أحرز حسن نجاحاً مالياً جعله قادراً على مد يد العون لأهله المحتاجين وأضحى الإنفاق على ذويه وغيرهم من المعوزين سلوكاً دائماً. كان كثيراً ما يؤثر على رأس ماله فيبدأ من جديد. يستجمع قواه ثم لا يلبث أن يتبدد ما لديه. وكانت استغاثات عمه زكريا تجد منه أذناً صاغية واستجابة عاجلة. «بلغوا حسن المونة خلصت.. الرقيق جعان.. الرقيق عريان!! فتشحن المراكب بجوالات الذرة وقماش الدمورية والزراق[1] وغيرها من ضرورات العيش.

بعد رحلات قليلة للتاجر الفتي بالسفن الشراعية استأنفت البواخر النيلية حركتها. فالجنوب كان موضع إهتمام السلطات الجديدة حيث لم تتوقف المطامع الأوروبية في تلك المناطق. إنتعشت تجارة حسن وأخذ يشحن الذرة والملح من أمدرمان إلى الجنوب يعود بالأبقار وربما بسن الفيل الذي كان يدر ربحاً وفيراً. وقد شهد شاطئ بيت المال كثيراً من مغامراته في نقل العاج ليلاً من حيث ترسو البواخر. فقد كان هو وبعض رفاقه يربطونه بالحبال أسفل الباخرة التي تسحبه تحت الماء وحتى ميناء الوصول. في هدأة الليل يسبحون حيث موضع الباخرة ويفكون وثاق العاج ويدفعون به إلى أمدرمان قرب دارهم الواقعة على الشاطئ وكأنها ميناء صغير. وفي ذات ليلة ليلاء كان هو وقريبه محمد ود الطاهر قد دفعا بكمية من العاج حتى بلغا المكان. وعندما شرعا في نقله برز لهما عسكريان مصريان عملاقان. فلم يضيعا وقتاً وقررا المقاومة وعدم الاستسلام. أخذ ود الطاهر ينقل قطع العاج بسرعة فائقة وحسن يتصدى للعسكريين يدفع بهما بيديه دفعاً ولكنهما كانا من القوة حتى كادا يصرعانه. فاستل سكينه وهاجمهما فأجفلا وأطلقا صافرتهما يستنجدان برفاقهما. وفي تلك اللحظات الحاسمة كان ود الطاهر قد حسم الموقف بنقل العاج من خلال باب آخر للدار وعاد يقاتل مع حسن فوجد العسكريين وقد أطلقا سيقانهما للريح.

1. أثواب نسائية خشنة رخيصة مصبوغة بالنيلة. "ما بتلبس النيلة وتوب الشيفون هيلة"

البنـــدقيـــــة

كان الحصول على بندقية هاجساً ملازماً له. فحياته المليئة بالأسفار والمخاطر في تلك الأزمان كانت تجعله يفكر فيها دائماً. قيَد الإنجليز حيازة الأسلحة النارية ووضعوا العقبات أمام هؤلاء المرتبطين بماضٍ ثوري. تقدم للحصول مرات ومرات على ترخيص لبندقية. وكان طلبه يقابل بالرفض على الرغم من أنه كان يحمل رخصة تجارية تعتبر جوازاً لتسهيل بغيته. وفي إحدى المرات كان عائداً من الجنوب وكانت الباخرة تمر على منطقة السدود. كانوا تجاراً شباباً يجلسون على سطح الباخرة يتسامرون. والنيل ساكن لا حراك فيه. وعشرات بل مئات التماسيح وأفراس البحر تطل برؤوسها. حاول أحد الرجال العاملين في الباخرة أن ينتشل الماء بالدلو فاختل توازنه وسقط بين تلك الحيوانات المفترسة الفاغرة أشداقها. وبمجرد سقوطه صاح «يابو مروءة». كان الحادث واضحاً أمام أعين الجميع. فاندفع الفتى حسن من بين الناس ورمى بنفسه في الماء بكامل ثيابه.

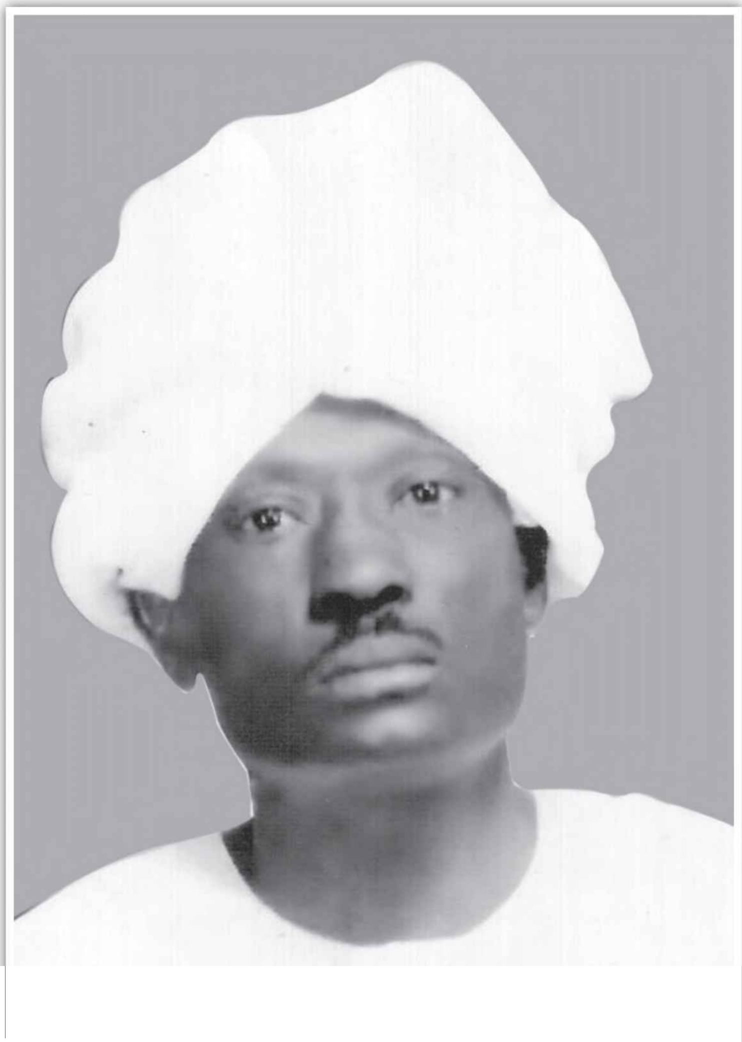
توقفت الباخرة وأحس ركابها الموجودون بالقمرات بأن أمراً خطيراً قد حدث. كان من بينهم مدير مديرية أعالي النيل الإنجليزي. كان عائداً من مهمة في أقصى الجنوب ومتجهاً إلى ملكال. ولم يمض وقت طويل حتى كان حسن قد أنقذ الرجل وخرج به إلى الباخرة. طلب الإداري الإنجليزي رؤيته فذهب إليه وما زال الماء يقطر من ثيابه. سأله عن اسمه وأهله. فعرفه وخاطبه باستفزاز واضح عن السبب الذي دفعه لإنقاذ مثل هذا الرجل. فأجابه بأنه لا فرق لديه بين شخص وآخر بسبب اللون»وحسب الرجل أنه استغاث يطلب مساعدة ذوي المروءة فقمت بهذا الواجب الذي أراه بسيطاً لا قيمة له». كانت شخصية حسن وحضوره الطاغي أمام الإداري البريطاني قد أثارا

إعجابه فعرض عليه على الفور أن يطلب مكافأة على فعله. فرفض وتمسك بذلك. ولما ألح عليه طلب منه الموافقة على منحه ترخيصاً لبندقية. فأبلغه بأن ذلك أمر مستحيل بالنسبة لحالته التي تشدد الحكومة على عدم السماح لها بهذا الإمتياز. فأراد أن يستدير خارجاً من المكان. فطلب منه المدير أن يمنحه فرصة ليعرض المسألة على سلطات أعلى - مكتب السكرتير الإداري - وأن يمر عليه في مكتبه بملكال عند عودته من أمدرمان. وعندما عاد وجد الترخيص لدهشته بإنتظاره في المكتب. ولم يلبث أن تمكن من الحصول على ذلك السلاح الذي أصبح يلازمه في جميع رحلاته.

ومن المفارقات الطريفة المتعلقة بهذه البندقية أن صاحبها كان مسافراً يوماً على سفينة شراعية. استأجرها وشحنها بكميات كبيرة من الذرة. وفي ليلة حالكة الظلام تصادف مرور إحدى البواخر التي أثارت المياه بدواليبها. كانت تمخر عباب النيل غير عابئة. وفي لحظة إقتربت كثيراً من السفينة وأخذ الموج يرتفع وينخفض والسفينة تعلو وتهبط وأحس الجميع بالخطر. فما كان من حسن سوى أن عبأها بالبارود وصوبها إلى الفانوس المعلق في مقدمتها المرتفعة. وأطلق رصاصة فحطمته وتوقفت الباخرة. وأسرعوا بسفينتهم تحت جنح الليل حتى ابتعدوا عنها.

ومن مآثر تلك البندقية أنها أنقذت رجلاً من موت محقق. كان الرجل قد خرج لتوه من السجن لارتكابه جريمة قتل. وفي ضحى ذلك اليوم من عام 1923م كان يتجول في سوق الفشاشويه فصادفه شقيق القتيل الذي اندفع لقتله بمجرد رؤيته. فألقاه أرضاً وهم بذبحه ذبح الشاة. فر الناس وانزوى التجار داخل متاجرهم وأغلقوها. ولحسن حظه برز حسن الحسن في اللحظة المناسبة من دكانه حاملاً بندقيته التي وضع فوهتها على صدغ المعتدي. وهدده بإطلاق النار على رأسه إذا حرك السكين التي تجمدت أصابعه عليها وأخذت يده ترتعش. إنتهره وأمره بإلقاء السكين جانباً ففعل.

ومن مفارقات الزمن أنه بعد أكثر من خمسين عاماً من تلك الحادثة. زارت دارنا



مصطفى ابوقرجة – شقيق المؤلف – أحد المصادر الاساسية
للروايات الشفاهية الخاصة بالعائلة وخاصة سيرة الوالد

بمدينة كوستي إعرابية عجوز أخذت تروي تفاصيلها وتغني أغنية قديمة أنشأتها فتيات القبيلة يمتدحن شجاعة ذلك الرجل الذي أنقذ حياة قريبهن من الموت.. والذي إكتشفت أنها ضيفة على داره لحظتذاك.

كانت لتلك البندقية المباركة فوائد كثيرة. فقد أغاثت كثيراً من الجوعى في سنوات مسنتة. وتروي الوالدة عليها الرحمة أنه كان للوالد تجارة وزراعة في دار الأحامدة القريبة من مدينة كوستي خلال سنوات الثلاثين من القرن الماضي. وقالت إن الناس قد جاعوا فتصدى حسن لمواجهة الموقف. وذلك بصيد طيور الحبارى الضخمة والإوز ودجاج الوادي الذي كان يتواجد في تلك المنطقة بشكل غير مألوف. فقد كانت الغابات كثيفة ملتفة والخيران مليئة بالماء والناس قليلون ولا يمتلكون أسلحة تروَع الطيور. وروت أن الوالد كان لا يحتاج للخروج بعيداً في الخلاء فقد كانت الطيور ترد الماء في خور كبير يواجه دكانه. فكانت البندقية معدة في كل الأوقات. وحين تهبط الطيور يتناولها ويطلق رصاصة واحدة تسقط على إثرها أعداد كبيرة منها. ووصفت كيف أن الوالد أقام راكوبة واسعة وفرشها بالبروش فيأتي الناس إليها كأنها مركز للإيواء. أما النساء الإعرابيات فكن يحضرن لمساعدتها في صناعة الطعام. فعلمتهن كيف ينتفن الريش بالماء المغلي، وكيف يقمن بإعداد المقالي (الصاجات) الكبيرة. ومن ثم ينظفن الطيور جيداً بعد استخراج بطونها ويضعنها على تلك المقالي. فكانت لا تحتاج إلى الزيت لأنها سمينة يتفجر الدهن منها تفجراً. كما علمتهن صناعة الكسرة الرهيفة. فكان الضيوف المقيمون دوماً يلتهمون كميات من لحوم الطيور المحمرة مع الكسرة في صواني النحاس وأطباق السعف.

وكان الوالد في زياراته لأم غنيم يحمل بندقيته ويتجه نحو النهر ويتبعه عدد من الشباب يصيبون شيئاً من الصيد الذي يقسمه بينهم. وفي ذات مرة جلس على عود ملقى في ضحضاح الماء ينتظر سرباً من الإوز كان يراوح للهبوط. وفي تلك اللحظات

شاهد الناس تمساحاً ضخماً فاغراً فاه يتجه نحو الصياد لصيده عبر مكان لم يكن يراه. تصايح الناس يحذرونه من الوحش المفترس. ولكنه لم يكترث للصيحات التي بلغت درجة الصراخ الهستيري.

ولما هبط السرب أطلق رصاصة أصابت مجموعة كبيرة من الطيور وفزع التمساح واختفى هارباً إلى داخل الماء. ولما سأله الناس عن عدم اكتراثه أجابهم بأنه كان على وشك إطلاق النار وهو يعلم أن التمساح يخاف كثيراً من الضجة وفرقعة السلاح. ولن يقدم على الهجوم إذا سمع صوت البندقية.

كانت لتلك البندقية سقطاتها أيضاً فقد شاهدت رجلاً زار والدي في حوالي عام 1960م كان يظلع من جرح قديم ملفوف بضماد متسخ. علمت أن ذلك الإعرابي أصابه طلق ناري انطلق من هذه البندقية حين ضغط أحد أقربائه على الزناد بدافع الفضول في مزرعة الوالد. ولم يبرأ هذا الجرح طيلة ثلاثين عاماً أو تزيد.

كان الوالد صياداً حاذقاً وهو على ظهر هجينه. وله قولة مشهورة «لا أضرب إلا في الرأس». وكان أهل تلك البوادي معجبين بشخصه وبشجاعته وأسلوب حياته. وكانت تروي عنه الحكايات وكأنها أساطير حتى وقت قريب. وكانوا حين يلتقون بواحد من أبنائه أو أقربائه يبدون فرحاً عظيماً ثم يندفعون في الحديث عنه.

هذه البندقية البالغ عمرها الآن حوالي مائة عام ما زالت تسجل حضورها الطاغي لدي وتؤرقني وهي ترقد حالياً في مكان آمن لأحد ورثة العم المرحوم محمد الحسن الدسوقي. فقد روي لي صديقي الراحل يونس محمد الحسن الدسوقي أنه رأى والدي لأول مرة في أوائل سنوات الثلاثين من القرن الماضي. وذلك حين دخلت سوق تندلتي أربعة أو خمسة من الجمال تحمل كميات من الطرائد. حوالي خمسين غزالاً وثلاثة

من النمور الضخمة[1]. وجلس حسن الحسن على عنقريب أمام دكان محمد الحسن الدسوقي وأرسل في طلب الجزارين. وكان الوقت ظهراً حين أقبلوا واتفق معهم على سلخها وتوزيع لحومها على أصدقائه وأهله، وغيرهم من تجار السوق. قال إن والده كان معجباً بصديقه حسن الحسن. وكان سلوكه في الحياة يشابه تصرفاته. وقد كان يجمع بينهما الغلو في التدين والإنضباط الأخلاقي الصارم. قال يونس إنه لم ير ضيفاً لقي من الحفاوة في منزلهم مثلما وجدها حسن الحسن. قال إنهما بعد أن فرغا من العشاء أسدل والده على ضيفه الناموسية وجاء بقارورة عطر نادر كان يحفظها في خزانته ولا يستخرجها إلاَ فجر العيد. فرشَ العطر على الناموسية. وفي فجر اليوم التالي ومع قيامهما للصلاة كان الكبش مذبوحاً. وعندما فرغا من شرب الشاي والقهوة كان الفطور معداً ودخان الشواء يتصاعد.

كان حسن الحسن قادماً من دار الأحامدة في طريقه إلى مدينة كوستي حين جاءت به جماله التي عادت أدراجها تحمل بضائعه إلى ذلك الصقع البعيد. وفي محطة السكة الحديد بتندلتي كان الدسوقي في وداع صديقه الذي لم يكن يملك شيئاً سوى بندقيته فحلف عليه بقسم مغلظ أن يقبلها منه هدية. فلم يجد مناصاً من قبولها فقد كان يجله ويخشاه خشية المحبة والإجلال.

أعاد صديقي الراحل يونس هذه القصة على سمعي مرات ومرات وآلى على نفسه أن يردها إلىَ أضعها في صدر صالون الضيوف. وظل يتحدث عن ذلك حتى النفس الأخير من حياته. أما صديقي وخدني في الدراسة سعد الدسوقي فلا يزال يؤكد إعادتها مهما كلف ذلك. ولكنه بعيد في معظم الأحيان عن البلاد حيث يعيش حالياً في الدنمارك.

1. كانت قطعان الحيوانات الوحشية تسد الآفاق في تلك المناطق عهدذاك، وخاصة الغزلان. ولم ترتفع بعد صيحات أنصار البيئة بالحفاظ عليها. فلم تكن هناك حاجة لمثل هكذا صيحات.

زواجه من بنت عمه
الأمـــير أبوقــرجة

في حوالي عام 1917م تزوج حسن من بنت عمه الأمير أبوقرجة. كانت آمنة كبرى أولاد وبنات الأمير.. الذين بقوا على قيد الحياة. كان أولاده يموتون أطفالاً لفترة طالت من الزمن. كانت تكبر ابن عمها بحوالي العام. فهي قد ولدت قبيل أو بعيد تحرير الخرطوم - في يناير 1885 - بقليل. وقد كانت جنيناً في بطن أمها في أغسطس 1884 يوم معركة الجريف الشرسة التي استشهد فيها عماها نصر ومصطفى، وسرت الشائعات بإستشهاد والدها الذي قتل فرسه تحته. وامتطى حصاناً آخر كان يقوده حتى وصل إلى المعسكر بعد أن بلغه ما حدث لعائلته إثر سقوط دانة عليها. فوجد زوجته الحرم بنت حمزة لم تصب. وكانت له جارية حبشية حبلى هي الأخرى فقتلت وخرج من أحشائها توأم لم يلبثا أن فارقا الحياة. كانت آمنة متوارية في رحم أمها وسط قعقعة السلاح وصهيل الخيل ودوي المدافع. ولا بد أن صوت والدها الجهوري المديد كان يتناهى إلى سمعها – الذي لا يميَز – «شدوا» فتصهل الخيل ويتواثب الأمراء على صهوات الجياد.. يحشدون قواتهم ويرتبون صفوفهم ويبادرون تحركات العدو. وذلك بعد أدائهم لصلاة الفجر وتلاوتهم لراتب الإمام المهدي.

روت الحرم بنت حمزة قصة عجيبة تتعلق بنجاتها من تلك القذيفة. وقالت إنها كانت تستغيث بالسيد الحسن الميرغني دائماً عند إحساسها بالخطر. وفي لحظة كانت مستلقية على عنقريب صغير غفت قليلاً فأحست بيد تربت عليها وتأمرها بالتحول

عن موضعها. كانت تلك هي يد السيد الحسن فيما زعمت. غيرت موضع رقدتها وسقطت القذيفة عليهم فنجت. وظلت طوال حياتها تردد قولها تعرب عن امتنانها ل «أبو جلابية نور» بقولها «يا طاهر الخُلة السلمتني من الجُلة». كانوا أنصاراً يقاتلون تحت رآيات الإمام المهدي ولا يستنكفون الاستغاثة بالسيد الحسن الميرغني.

ولدت آمنة وتفتحت عيناها بأمدرمان طفلة ذات جمال نادر يلفت الأنظار. إلا أنها كانت كثيرة العثرات. فقد تحرشت بها العائنات حتى قضين عليها ولم تبرح الثلاثين.

مرت يوماً ولا تزال في الرابعة أو الخامسة قرب مرابط الخيل الخاصة بوالدها. فحاول جواد شرس أن يقضم عنقها – لولا لطف الله – فحملتها والدتها إلى الشريف يوسف الهندي – الذي كان ضيفاً على الأمير في ذلك اليوم ليرقاها من شرور الأعين. فكتب لها رقية وأسر لوالدها أنه يحب مصاهرته ويرغب في الزواج من كريمته هذه حين تكبر قليلاً. وحين غدت طفلة يافعة أصبحت حديث نساء أمدرمان لفرط جمالها وكمال عقلها. وكن يأتين فرادى ومثنى لرؤيتها حتى بلغ أمرها سمع الخليفة عبد الله الذي بعث من يخطبها له. فجزعت والدتها واستجارت بأعمامها الذين رفضوا الأمر جملة وتفصيلاً. فكيف يستقيم الحال إذا كان سجان والدها هو الذي يطلب يدها. وبالأمس فقط طلق منه إحدى زوجاته – وهو بعيد في منفاه يرسف في القيود – وتزوجها. وحين ألح على الزواج منها عقدوا قرانها على أحد أقربائها الشباب تقيةً. ربما لم تكن قد بلغت العاشرة. ولكن الحاكم كف عنها حين بلغه غضب أهلها وإصرارهم على رفضه. توفى زوجها هذا – عبيد ابن جدنا الفكي عبد الله ود الأمين ولا يزال في غضارة الصبا. وبالطبع لم يدخل على زوجته التي كانت لا تزال في مدارج الطفولة. أما الشريف يوسف الهندي – الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين – فقد إنسحب مبكراً من المنافسة. كان الوالد لا يزال طفلاً حين زوجوها لآخر من أقربائها

أيضاً[1]. لم أعثر على اسمه، ولم أعرف شيئاً عن حياته معها إلا أنهما افترقا. خشيت والدتها الحرم من غضب الشريف الهندي الذي ربما يكون قد تسبب في سوء الطالع الذي لازمها. فقررت زيارته وطلب عفوه ورضاه عنها. وفي ذات صباح باكر أعدوا لها حماراً سريعاً ذلولاً كالبغل. توجهت به إلى بري الشريف. أردفت إحدى الفتيات خلفها وعبروا بهما النيل من أمدرمان إلى شاطئ الخرطوم. واصلت رحلتها حتى منزل الشريف ببري الذي استأذنت في طلب الدخول إليه. أذن لها واستقبلها واقفاً وحياها بأدبه الجم مرحباً بكلمات حارة. كان قد بنى بعروس جديدة تضطجع على سرير ضخم يفوح منها عطر الصندلية الآخاذ. ومغطاة بثوب القرمصيص في الغرفة الداخلية. كان هو يتهيأ للصلاة على سجادة قش (تبروقة) أمام الغرفة. سرعان ما جاءوا لها بالقهوة والتمر وأخذ يصغي إليها. ولما أكملت حديثها طمأنها وأعلن عفوه عن ابنتها وقرأ الفاتحة ودعا لها بالخير. أسرَ إلى أحد ملازميه أمراً فدخل الدار وعاد بكيس كبير ممتلئ بالنقود. قدمه إليها وشيعها إلى بوابة الدار فعادت محبورة يحدوها كثير من الأمل. كان ذلك في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين. وربما كان الشريف الهندي في حوالي الخامسة والأربعين من العمر.

في تلك الفترة كان حسن قد شارف الثلاثين فخطب آمنة من عمه الأمير الذي بارك الخطوة إلا أنه لم يشهد زواجهما حيث توفي في عام 1916م. وبعد مضي سبعة أشهر من رحيله تم الزواج. وذكر المعاصرون أن حسن إحتفى بزواجه من بنت عمه وقدم هدايا باهظة الثمن فالثياب جميعها من الحرير الأصلي (المالنده والشامية والسرتي والحمام طار وزند العبد والقرمصيص وغيرها). أما المصوغات الذهبية فقد كانت كثيرة ومتنوعة كالبندقي والفرجلات وغيرها. والعطور كانت بالقدور والصندل بأحجام كبيرة لم يعهدها الناس من قبل. وقد كانت تلك الشيلة مثار تعليقات النساء

1. قيل إنه من آل كمير الذين تقيم سلالتهم بالهلالية.

لعدد من السنين.

غدا ذلك الزواج ميموناً مباركاً أثمر عن طفل ولد حوالي عام 1917 سموه محمداً. وروى الناس أنها في أثناء ولادتها لطفلها الثاني عام 1919م دخلت عليها إمرأة عائنة وهي تكابد آلام الطلق العنيف فوصفتها وقالت «إن العرق يتصبب من جبين بنت حاج أمحمد وكأنه مثمنات الذهب». فقضت عشرة أيام تعاني من صداع حاد حتى أسلمت الروح. بكاها الناس بكاءً مراً وتأسفوا على رحيلها في تلك السن المبكرة.

تلقى ابن عمها الصدمة التي ظلت تلازمه طيلة حياته وإن لم يكن يتحدث عنها من قريب أو بعيد. إلا أنه حين حضرته الوفاة عام 1961م أوصى بأن يدفن إلى جوار قبرها. رآه الناس طوال سنوات وهو في حالة حداد غير معلن يرتدي الدمور الخشن وحذاء «الشقيانة» المصنوع من الجلد غير المدبوغ. والواضح أنه كان يحبها حباً عظيماً. وقد لبث عازباً طيلة سنوات حتى تزوج من والدتنا عام 1922م. أما ابنها محمد فقد عاش عمراً قصيراً وتوفى ولا يزال طفلاً في حوالي عام 1919م.

كـــوستــــي

حين بدأ حسن رحلاته التجارية إلى الجنوب في أول القرن العشرين لا بد أنه كان يمر بموقع كوستي الحالية، التي كانت قفراً خلاء إلا من رعاة واردين إلى المشرع أو أكواخ متناثرة على الشاطئ. وهذا لا يعني أنها ظلت هكذا على مر الدهور. فالدراسات تشير إلى وجود الناس فيها منذ زمن سحيق وأنها شهدت أحداثاً وارتبطت بحضارات السودان القديم كحضارة كوش ومروي. واستوطنت فيها أجناس ربما اختلطت وشكلت قومية الفونج التي حكمت السودان وأضفت عليه ملامحه الحالية وتكوينه الثقافي الراهن. فهناك مؤرخون أشاروا إلى أن الفونج إنتقلوا من النيل الأبيض إلى جبل موية ثم إلى سنار.

وأذكر مرة صحبت فيها ابن عمي محمد إسماعيل أبوقرجة - ربما في منتصف السبعينات الماضية – لزيارة أحد الشيوخ في مدينة كوستي.. ويدعى الشريف المعمر. وقيل إن العمر إمتد به لأكثر من مائة عام وإنه طاف سائحاً في معظم أرجاء السودان. فتعرف علينا وتحدث عن أهلنا. وروى أنه في عام 1907م ورد مع أهله مشرع كوستي قادمين من قرية مديسيس الواقعة غربي ذلك المكان، فرأوا جمالاً عملاقة ذات ألوان (مبرقعة) كألوان الزراف. وعندما سألوا عنها أجابوهم بأنها جمال فزانية خاصة بالأمير أبوقرجة. جاء بها من الفاشر في نهاية منفاه الذي إمتد ما بين الإستوائية ودارفور. وأنها جاءت إلى هذا المكان لترحيل جماعة من الرقيق تابعين له إلى أم غنيم.

حين توقفت رحلات حسن الحسن إلى الجنوب فتح متجراً في أوائل عشرينات القرن الماضي في بلدة الفشاشوية. كانت ذات سوق نافقة وحيوية تجارية دافقة. فهذه البلدة عرفت منذ التركية السابقة. وربما أبعد من ذلك – وأقام فيها بعض التجار



وثائق تجارية من متروكات الوالد


SUDAN GOVERNMENT TELEGRAPHS. Form T. No. 1
—McCorquodale & Co. Ltd.—35,000 Pads. 7/19.

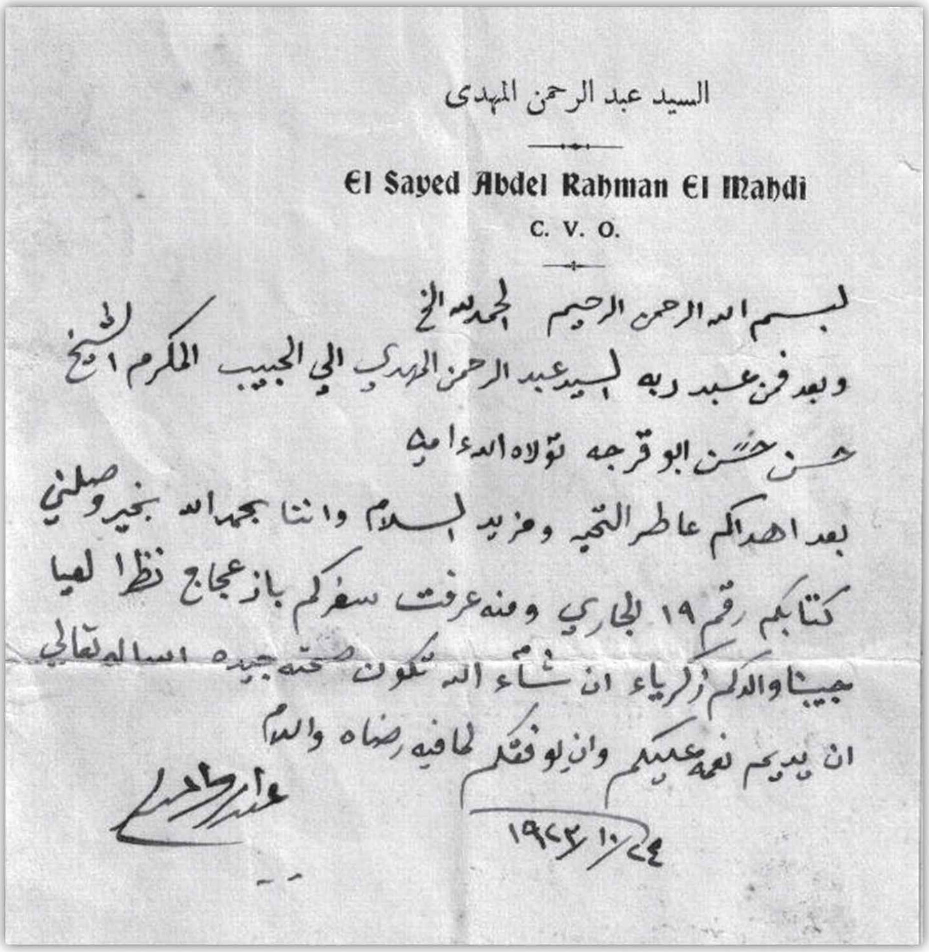
No. of Message
Prefix
Code
Service Instructions

Words | Received At m. From By | Forwarded At m. To By | Charges in mills. Telegram Reply Porterage Redirection Total | Date Stamp.

Handed in at on at m. Received here at m.

TO

وثائق تجارية من متروكات الوالد


السيد عبد الرحمن المهدى

El Sayed Abdel Rahman El Mahdi

C. V. O.

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الخ

وبعد فمن عبد ربه السيد عبد الرحمن المهدي الي الحبيب المكرم الشيخ

حسن ابو قرجه تولاه الله دوامه

بعد اهدائكم عاطر التحيه ومزيد السلام وانا بحمد الله بخير وصلني

كتابكم رقم ١٩ الجاري ومنه عرفت سفركم باذ عجاج نظرا لعيا

حبيبنا والدكم زكرياء ان شاء الله تكون صحته جيده اسال الله تعالي

ان يديم نعمه عليكم وان يوفقكم لمافيه رضاه والسلام

عبد الرحمن

٢٤/١٠/١٩٢٣

رسالة من السيد عبدالرحمن المهدي بخط يده إلى الوالد في عام 1923م من بين عدة رسائل ضاعت ولم نعثر لها على أثر

الشماليين حتى فجر الدعوة المهدية. إلا أن اسمها يدل على أن قاطنيها السابقين كانوا هم الشلك. وهي لا تبعد كثيراً عن أم غنيم وقلي اللتين كانتا مستوطنتين لهذه القبيلة النيلية أيضاً حتى عهد قريب. ولكن ذكرها ظل يتردد كثيراً خلال محاولات الإنجليز تعقب الخليفة عبد الله بعد سقوط دولته. ولكنه من الواضح أنها ازدهرت من جديد في عهد الحكم الثنائي وظلت تنافس مدينة كوستي الجديدة حتى العقدين الثالث والرابع.

والواضح أنها كانت ميناء للمراكب الشراعية والبواخر التي تمر بها تنقل المحاصيل الزراعية. وما زلت أحتفظ ببرقيات الوالد الخاصة بهذا النشاط. ومن المؤكد أن مكتباً للبريد قد أقيم فيها في وقت مبكر من القرن العشرين. وفي أوقات لاحقة ظل التجار ينتقلون منها إلى المدينة الجديدة التي تميزت بمحطة للسكة الحديد والإنفتاح على سائر أنحاء البلاد والتطور السريع الذي صاحب ذلك.

أخذ الوالد يتنقل في تجارته ما بين الفشاشوية وكوستي حيث تجارة الماشية التي ظل يمارسها حتى وفاته. وكانت إقامته الأولى في حي المرابيع. وقد توفى ابنه الأكبر طفلاً ودفن في مقبرة كوستي القديمة الواقعة قرب شاطئ النهر عام 1919م. وفي أوقات لاحقة ظل يمارس الزراعة في المقينص ثم في الدالي والمزموم (زراعة الحريق). وكان قد سافر إلى النهود في أواخر الثلاثينات وأقام فيها لمدة ثلاث سنوات لشراء الأبقار التي كان يقوم بتصديرها كبار تجار الماشية إلى مصر. وقد عاد بصورة نهائية في حوالي عام 1942م. وجد الحلة القديمة قد تم ترحيلها فاشترى داره الواقعة في صدر الحلة الجديدة في مواجهة خط السكة الحديد الذي يفصلها عن زريبة المواشي. فبات مكان عمله قريباً من الدار مما أتاح لنا سانحة التعرف على مختلف قبائل المنطقة التي كانت لا تزال في بداوتها الأولى. وذلك حين تفتحت أعيننا على الحياة أطفالاً في خمسينات القرن الماضي.

[1]كانت مدينة كوستي حديثة النشأة حسنة التكوين تحمل كل مظاهر المدنية. إلا أن سوق الماشية كان قطعة من البداوة التي كانت لا تزال في عنفوان صباها. كان القادمون إليها من مختلف البوادي والقبائل. الجزيرة بنيليها الأبيض والأزرق ومناطق كردفان وربما دارفور. كواهلة وأحامدة وسليم وكنانة ومسلمية وصبحة ونزي وسبيغ وحسنات وشنخاب ومشالقة وبني جرار وجمع وجوامعة ورفاعة وحمدة ودار حامد وحمر وتجار من الجلابة من مختلف القبائل وغيرهم. من الأبيض كان السادة الإسماعيلية مكي أمين ومكي بشير وإسماعيل المرشد والطاهر البدوي تجاراً يزورون المدينة من وقت لآخر وينزلون بتلك الدار. وآخرون كانوا يفدون من جنوب النيل الأزرق ومناطق الفونج. وأحياناً يفد الدينكا من أعالي النيل. يأتون إلى سوق المواشي الذي يجاوره رصيف الصادر إلى مصر. يأتي بائعون ومشترون يسوقون قطعانهم. بعضها أبقار وثيران كالجاموس ضخامة وشراسة وجمال متنوعة الفصائل بعضها كالقباب بياضاً وأخرى حمراء ذات أسنمة متطامنة، وأغنام كأنها قطعان من الغزلان وكباش معقوفة القرون تجر أذيالها الطويلة تقفز قفزاً.. جموحة متوحشة. عاشت في أعماق الأدغال كمراعي «وتيش» وغيرها.. حيث لا حركة للناس ولا صفير للقاطرات وأبواق السيارات. كان أصحابها يرتدون ثياباً يلتفون بها وسراويل واسعة وعراريق وعمائم كبيرة يعتمرونها، ثياباً بعضها جديدة لم تلامس الماء – اشتروها حال وصولهم إلى المدينة – وأخرى متسخة عابقة بروائح اللبن والسمن والحلبة والتراب.. ينتعلون أحذية صنعوها بايديهم من جلود البقر النيئة ومراكيب قديمة إسودت ألوانها مما علاها من طبقات الطين والغبار. حتى الهمباتة وجدوا متسعاً في تلك الدار. زارها ثلاثة منهم بعد أن تابوا وهجروا النهيض. جاءوا من الأبيض تجار إبل كهولاً مرموقي المكانة حسني الهيئة يرتدون قفاطين الشاهية والآلاجة يحملون عصي المحلب الأنيقة ويضوع من

1. مجتزأ من نص سردي للمؤلف بعنوان "الزفاتي".

أردائهم عطر فخيم. كان ثالثهم أحد أقربائنا الذين استوطن آباؤهم في كردفان إنتقلوا إليها من الهلالية. كان يدير متجراً لأبيه في المزروب حين آثر الإنضمام لجماعة أب سريجاً برة. كان حدثاً غراً إستهوته المغامرة والبطولة وحسن الأحدوثة. وحين تقدمت به السن قليلاً تقاعد وأضحي تاجراً للإبل وشيخاً للجزارين في سوق الأبيض.

كان هؤلاء التجار والرعاة يزورون تلك الدار مُسلَمين فصاحبها كان من أقدم تجار الماشية منذ مطالع القرن العشرين. كانوا يأتون إليه مدفوعين بالفضول لرؤيته لما يحمله من اسم وصلات واسعة بتلك البوادي. كانوا أنصاراً قاتل آباؤهم في معارك المهدية. مفعمين بالحب العميق والإحترام الجم. كانوا يجثون على ركبهم يحدقون في وجهه الوضيء. يرمقونه بنظرات التقدير والإجلال. يترقرق الدمع في عيون البعض منهم من فرط التأثر والإنفعال. فمضيفهم بسمته المهيب كان قطعة تسعى من ذلك الماضي المترع بالملاحم الأسطورية. حسبوه قاتل إلى جانب آبائه المجاهدين والشهداء. إلا أنه في الواقع كان صبياً في الثانية عشرة حين اعتلى مع اترابه سقف دارهم في بيت المال. يشاهدون ما جرى في كرري صبيحة الثاني من سبتمبر عام 1898م يوم غربت شمس الدولة المهدية. كان زواره يشدهم الحنين لماضٍ أفل. يجلسون بين يديه أمام ديوانه وفي معظم الأحيان خارج الدار. حيث كان المكان رحيباً. يحدثونه عن أخبار أهلهم الذين كان يعرفهم أباً عن جد ويعرف أنسابهم وزعماءهم عمداً ومشائخ. زارهم في سنوات شبابه وكهولته ونشاطه التجاري وجولاته بالجمال التي كان يحسن إنتقاءها ويألف ركوبها في بواديهم. إلا أن الخاصة كان له معهم أحاديث أخرى جلها يدور حول وقائع الثورة المهدية وأحداثها. كانوا كثيراً ما يتداولون الأحاديث التي تدور همساً عن الخليفة شريف وتنقلاته السرية بين القبائل. حسبوه نجا من مذبحة الشكابة واعتقدوا بوجوده حياً عاقدين الأمل على عودته لتنفجر الثورة من جديد. وكانوا يتحدثون عن السيد عبد الرحمن المهدي بإعتباره القائم بأمر الزمان والذي سوف يخرج للناس كما

خرج أبوه من قبل. ويشيرون أحياناً عن طرف خفي لإستعداداتهم للمعركة الفاصلة بتربية الخيل واقتناء قطع السلاح.

أما الصيد فقد كان يستأثر بكثير من الحديث فقد كانوا يعرفون مضيفهم صياداً حاذقاً شهدوه يجوب بواديهم محتقباً بندقيته راكباً هجينه. تحدث هؤلاء الناس حديثاً لو قدر لك أن تستعيد ذرات الأثير التي حملته لجمعت تاريخاً. ولكنه ضاع وما إليه سبيل.

عندما عاد الأمير أبو قرجة من رحلة "عوليس"[1] التراجيدية الطويلة القاسية التي إمتدت أربعة عشر عاماً، عادت معه عائلته التي تكونت من نسائه وأولاده ومرافقيه وأعوانه في قافلة الجمال الفزانية العملاقة، التي أعدها كما أعد للرحلة بعناية فائقة. كان عدد أولاده العائدين معه خمسة أكبرهم يوسف وهو الوحيد الذي حملته أمه عند مغادرة أم درمان على متن الباخرة "المنصورة" في العاشر من نوفمبر عام 1892. وكان لم يتجاوز الثالثة. وها هو يعود في السابعة عشرة من عمره فتى قسيم المحيا، أخضر اللون، كثير الشبه بوالده. أما أخوه العوض فقد ولد بالمنفى في جزيرة الرجاف في حوالي 1895. الأمر الذي أغضب أمراء التعايشة فضاعفوا القيود على أبو قرجة وأمر عربي دفع الله بإعادة جلده على ظهره حتى انفتقت الجراح الأولى التي لم تكد تندمل. وفي خلال إقامته بالفاشر أنجب أبو قرجة أولاده الذكور الثلاثة الأواخر في عام 1906. وعادوا في صدور أمهاتهم رضعاً. كان بانتظاره أبناؤه الكبار في القطينة والقراصة وأم درمان. كان أكبرهم حسين الذي ولد في كسلا عام 1888، ثم كنتباي الذي ولد أيضاً في كسلا عام 1890. وفي نفس العام ولد أخوه نصر الذي لم أفلح في تحديد مكان ميلاده. كان هؤلاء الثلاثة قد غادروا طفولتهم وباتوا في باكر الصبا.

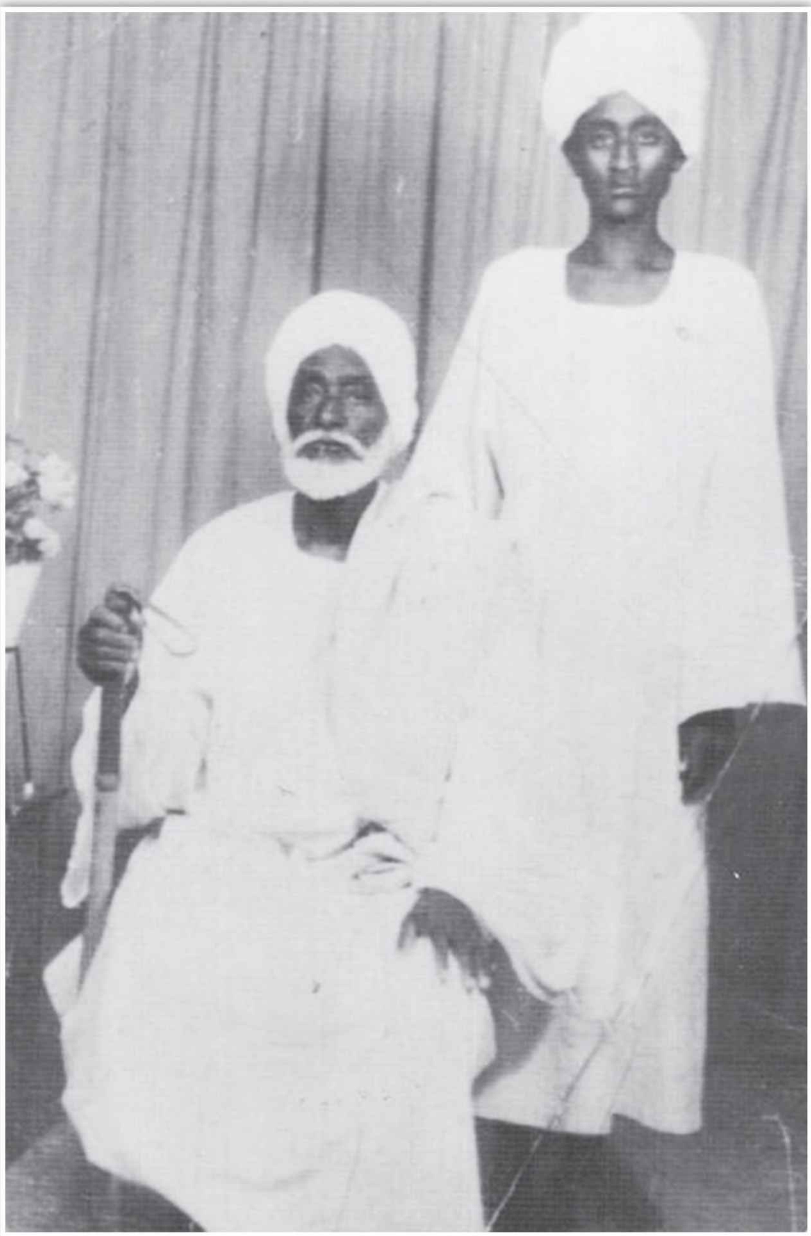
1. عوليس أحد أبطال إلياذة هوميروس الذي أخذت سفينته تجوب البحار تائهة سنين عدداً وزوجته بنيلوب بانتظاره تغزل وتنقض غزلها حتى عاد.

أما ابنه المبارك فكان قد ضاع طفلاً خلال اليوم الأول من دخول القوات الانجليزية الغازية في الثاني من سبتمبر عام 1898. وكان يعيش في كنف أهله الأشراف. كما التقى أبو قرجة ببناته اللائي تركهن في سن الطفولة أيضاً، وهن آمنة ورقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة. أما نور الشام ومصرية ونفيسة فقد ولدن جميعاً بعد عودته من المنفى.

كان الوالد أسن من جميع بني عمه هؤلاء، فقد ولد في عام 1886. يكبر عمنا حسين بعامين. وقيل إنه كان يتعامل معهم بسلوك الأخ الأكبر وما سمح له به ذلك العصر من وصاية. وخاصة الفتيات اللائي ذقن من تعسفه الأخوي النبيل ألواناً. وكّن حين يشكون أمرهن لوالدهن لا يجدن منه أذناً صاغية فقد كان يتربع على قمة المجتمع الذكوري البطريركي. إلاّ أن حسن بعد ذلك التعسف كان يعود فيمحضهن حباً ووداً. وقد تزوج من أحداهن وهي آمنة كبرى بنات الأمير فأنجبت له صبياً مات في طفولته.

حين تفتحت أعيننا في سنوات الخمسين من القرن المنصرم كان الوالد قد شاخ وبلغ السبعين، إلاّ أنه كان لا يزال يتمتع بلياقة نفسية عالية وروح مترعة بالمروءة وقيم الرجولة. رغم مرض السكر الذي لازمه منذ ذلك الحين.. وأكاد أجزم أني ما لاقيت ولا قرأت عن رجل تميز بما كان لديه من صفات. فكان مجرد وجوده يشيع في المكان الثقة في النفس حيث تنتفي روح الخنوع والإبتذال. كان نسيجاً مختلفاً من الرجال لا يتكرر كثيراً.

كانت علاقة الوالد بأبناء عمه هؤلاء بنين وبنات حباً محضاً ومودة صادقة لا تعبر عنها الكلمات تحسها ولا تراها عبر عنها السودانيون بكلمة "المحنة". كانوا حين يزورونه يتألق وجهه وتبدو عليه السعادة واضحة جلية. كانوا يحبونه ويوقرونه وينظرون إليه بإجلال وتقدير، ويتحملون قسوته الحانية حين يعترض على سلوك معين أو أمر يراه غير مقبول. ولقد شهدت مرات ومرات معاملته لهم عند الغضب- وهم كهول



إسماعيل أبوقرجة (1906–1973) ولد بالفاشر.
وإلى جانبه ابنه محمد في حوالي 1960م



العوض أبوقرجة (1895-1982) ولد في جزيرة المنفى بالرجاف

تقدم بهم العمر- إلاّ أني لم ألحظ أحدهم قد تبرم أو امتعض. كانوا يحولون الموقف إلى حالة من الضحك والدعابة.

كان إهتمامه الأكبر بالثلاثة الأصغر سناً والذين تركهم والدهم صغاراً لا يتجاوزون العاشرة، وهم إبراهيم وعثمان وإسماعيل. فكان يتشدد في توصية الوالدة حين يسافر بالعناية بهم وتوفير ما يحتاجونه وبأن تقدم لهم الطعام في أي وقت يزورون بيته.

كان لإسماعيل مع الوالد علاقة خاصة منذ طفولته الباكرة حيث بات أباً له وأخاً وصديقاً. وكان فارق العمر بينهما عشرين عاماً. وقد صحبه في رحلاته التجارية في عشرينيات القرن الماضي. يمتطيان الجمال ويتوغلان في مناطق جنوب الفونج حاملين البضائع. ويروي محمد إسماعيل أبو قرجه كثيراً من القصص والأحداث التي صاحبت تجربتهما تلك. وقال إنه ذات مرة بلغا منطقة بعيدة نائية حوالي – عام -1926 وجدا أهليها بدائيين ما زالوا يقدحون الحجر ويفركون أغصان الشجر للحصول على النار. وعندما قدما إليهم الكبريت أصيبوا بالدهشة وفغروا أفواههم وكأنهم قد رأوا عملاً من أعمال السحر. فاندفعوا في إكرامهما بمزيد من الطعام والحليب. فتركا لهم كمية من علب الكبريت وغادراهم وهم في غاية السرور لهذا الانقلاب الكبير في حياتهم.

ظلت العلاقة بين الوالد وعمنا إسماعيل قوية متطورة حتى توجاها بالمصاهرة حيث تزوج ابن كل منهما بكريمة الآخر. وعندما توفي الوالد إزدادت عناية عمنا إسماعيل بنا فكان لا يمر وقت طويل حتى يزورنا في كوستي قادماً من أم غنيم. كان رجلاً من طراز فريد، شجاعاً، كريماً دائم البشر والبشاشة، يتدفق مروءة ونبلاً. حاد الذكاء، حاضر البديهة، جريئاً، ذا فراسة نافذة وحس صقيل. ولو قدر له أن ينال نصيباً من التعليم لما استطاع أحد أن يفري فريه. ولكن والدهم إختار البعد عن دوائر الحكم الإنجليزي الجديد ومضى بهم إلى أعماق الريف بأم غنيم.

أما الوالد وعمنا حسين فقد كانا قمرين في سماء طفولتنا بمدينة كوستي. وكنا جد محظوظين حين قدر لنا أن نعيش بعضاً من زمانهما. فقد كانا شخصين نادرين مختلفين عن الآخرين في السلوك والمواقف وأسلوب الحياة. فقد ولدا في القرن التاسع عشر وحملا ثقافته وتقاليده معهما إلى القرن العشرين. عملا في التجارة منذ صباهما الباكر في جنوب السودان وغربه والفشاشوية ومناطق أخرى. واستقر بهما الحال أخيراً تاجرين في مدينة كوستي الوالد في سوق المواشي وعمنا حسين لديه متجران أحدهما في السوق الكبير والآخر بالحلة الجديدة – شارع الدوم. كان الناس يعتقدون أنهما توأم " حسن وحسين". لم يكونا متلهفين لجمع المال أو الثراء. كانا يكتفيان بالقليل الذي يفي بنفقات ضيافة الكثيرين الذين يفدون إليهما من كل جنس.

في أثناء الحرب العالمية الثانية أخذت السلطات تعمل بنظام التموين في توزيع السلع الأمر الذي دفع التجار للعمل في السوق الأسود فأصابوا منه ثراء عظيماً. أطلق الناس عليه اسم "الباراشوت". أدرك عمنا حسين أن التورط في هذا النشاط سيقود إلى التهلكة وحرمته بينة وضحاياه المساكين. فأغلق دكانه فوراً وجلس على كرسيه في الفرندة وأمامه أجواز المراكيب مرصوصة على طاولة وطيئة. وعندما يأتي الزبون يطلعه على الثمن الذي اشتراه بها وبالربح الذي يطلبه. "اشترينا المركوب بثلاثة وعشرين قرشاً ونريد فيه قرشين فايدة". ولا مجال للزبون في الأخذ والرد.

ما زلت أذكر أيام طفولتي حين أذهب إلى دكانه خارجاً من خلوة السوق لأغترف من جوالات التمر وأملأ جيبي. كنت أجده شيخاً جليلاً حسن السمت نظيف الثياب بالغ الأناقة، جالساً على كرسيه المنسوج بالحبال يقرأ الصحف "النيل" و "الأمة" وغيرهما. وإلى جانبه على منضدة صغيرة "القرآن الكريم و "راتب الإمام المهدي"، والسيف معلق فوق رأسه على ضلفة الباب. وأحياناً كنت آتيه متظلماً من إخوتي الذين كنت موضع مزاحهم الثقيل ودعاباتهم. يستخفون بي فقد كنت أصغرهم سناً.

فكنت لا أحتمل هذرهم وأرى أن عقوبة الوالد وحدها لا تكفي فأسعى إلى عمي حسين الذي لا يخيِّب لي رجاءً. يغلق دكانه في المساء ويدلف إلى دارنا راكباً حماره فيشبعهم لوماً وتقريعاً وتهديداً وربما هم بضربهم أحياناً فيلوذون بالفرار مرات. ويكفون عني لأيام ثم يعودون لمزاحهم الذي لا أطيقه. وربما يغيرون أساليبهم لتصبح غير مباشرة. يؤلفون الأهازيج في هجائي ويحورون الكلام ويتفننون في إغاظتي. ويجدون في ذلك متعة ليس لها مثيل. وعندما أتذكر تلك الأيام الآن أشعر بحنين جارف ورغبة جامحة في عودتها.

كان الوالد وعمي حسين جزءً أساسياً من أهل القطينة الذين وفدوا وأقاموا بمدينة كوستي طلباً للرزق جزارين وتجارا في السوق الكبير وزريبة المواشي. وكانت هذه الجالية مترابطة تشدها عواطف عميقة وروح جياشة أضافت للمدينة رونقاً وهيبة وجلالاً. قدم أوائلها منذ نشوء المدينة وأم غنيم ليست عنها ببعيد. كان الأمير أبوقرجة لايزال حياً، يقيم في معظم الأحيان في مزارعه الواقعة بأم غنيم. فكان أقاربه هؤلاء يمتطون الحمير فلا وسيلة للمواصلات سواها- فيزورونه. كان معظمهم إن لم يكن جميعهم- من سلالة شيخ منور ود إدريس، قدم أجدادهم أو آباؤهم من حفير مشو. ولجدنا الشيخ أحمد جميل قولة شهيرة حين زار أم غنيم بعد وفاة الأمير أبوقرجة وأحس بغيابه الفادح وقال "أم غنيم بعد أبوقرجة بقت زي عجوز عريانة". ولعل ذلك يذكر قراء التاريخ بقولة القائد السوفيتي الشهير فلادمير إلتش لينين حين رأى نجوع روسيا القيصرية من خلال نافذة القطار- قبيل الثورة – فقال " تباً لروسيا إنها تبدو كعجوز شمطاء عارية". كان عائداً لبلاده بالقطار الذي أعده له الألمان. وكانت تتملكه شهوة عظيمة للثورة وإصلاح الأحوال.

ود اللـــبيـــح

عدلان ود اللبيح كان أحد أصدقاء الوالد الأثيرين. تجمعهما أشياء تؤلف بينهما فيجد كل واحد منهما نفسه في الآخر. الشجاعة وروح المغامرة وثراء التجربة. كان يعبر النهر إلى الضفة الغربية ويزور والدي بانتظام في داره بكوستي. كان يأتي للمحكمة التي تنظر قضايا نزاع في الأطيان مع بعض أقاربه. لعله كان يغشى سوق المدينة أو يلح عليه داع لزيارة المستشفى. كان يأتي متلفعاً بثوبه العشاري ومحتقباً سيفه، عملاقاً ضخم الكراديس. تصحبه زوجته وبنت عمه فزازية بت حمد. قيل إنها كانت لا تزال جميلة رغم تقدم السن.. طويلة كنخلة نجدية، بيضاء كشخب اللبن، ذات وجه كنصل الرمح المصقول. أما ابنتهما ستنا التي صحبتهما مرة فقد كانت تفوق أمها جمالاً وملاحة بسمرتها الفاتحة وقوامها المعتدل.

كان عدلان وفزارية يقيمان أياماً وربما أسابيع. كان ذلك قبل ميلادي وفي طفولتي الباكرة. لم أره ولكنه ألهب خيالي بما كانت ترويه عنهما أمي وأختي. أدهشتني جرأته حين خطف ابنة عمه فزارية هذه في ليلة عرسها. جاء راكباً هجينه وطاف بالحي من بعيد يتنطس أخباره. وقبل أن ينيخ راحلته رأى جمهرة من الناس وسمع أصوات الزغاريد. استفسر فبلغ علمه ما يحدث. لم يضيع وقتاً فدلف إلى دار امرأة عجوز يعرفها. إنحازت فوراً إلى عدلان وإتفقت معه على أمر في غاية الخطورة. توجهت إلى دار العروس ودخلت عليها وأسرت إليها ما كان من أمر عدلان. حزمت العروس أمرها وتسللت خارج الحي بصحبة العجوز. حملها عدلان على بعيره وغاب في فلوات الجزيرة وتزوجها على الفور. عادت العجوز إلى الحي وهي تبكي وتدعي أن عدلان فاجأهما وخطف العروس. كان تصر الريالات التي نفحها بها في ثوبها وتخفيها عن

العيون. كما في الأحاجي بالضبط أو في كتاب المطالعة «العربية المحبوبة» خطفها.. خطفها». لم يكن غريباً على الناس في ذلك الزمان أن يفعل عدلان مثل ذلك. فقد كان فارساً، فاتكاً معروفاً، من الرجال ذوي الجولة والصولة في أوائل القرن الماضي. قيل إن الوالد كان حين يستقبل عدلان يخاطبه بقوله:

ود اللبيح يا جدع

وحيده ما بدور فزع

وكت تحمى ونقع

سيفه يسوي الوجع

فيسره الكلام ويضحك ويقول «هلا هلا يا حسن أخوي دا ما كان زمان.. يا سلام». وقيل إنه كان متجدد الأحزان بفقده لفلذة كبده – الذي كان مثله فارساً نهاضاً – حتى توقف عن ذلك النشاط، ربما في أربعينات القرن الماضي. حاول أن يعيش حياة هانئة سعيدة بعد أن تزوج وأنجب أطفالاً. ولكن رفاقه القدامى لم يتركوه يهنأ بأسلوب حياته الجديد. زاروه وزينوا له المشاركة في عملية كبرى تكون ختاماً لتجاربه. وافق مكرهاً حتى لا يظنون به المظنة ومضى معهم. وحين فصلوا الإبل عن أصحابها لم يلبث أن لحق بهم الفزع. دارت معركة بالسيوف بين الجماعة وأصحاب المال. تحمل ود اللبيح عبئها فسقط صريعاً بعد أن أبلى بلاء الفرسان. أصاب ذلك الحدث المأساوي عدلان في كبده وأحزنه حزناً ظل يلازمه حتى نهاية حياته. كان يراه الناس ساهماً يرنو ببصره إلى بعيد، يضرب كفاً بكف، يهمهم بكلمات وتصدر منه آهات حرى وتطفر دمعات. كأنه كان يتمنى أن يلاقي قتلة ابنه فينازلهم بما تبقى من فتوته الدارسة.

كان عدلان عندما يزور الوالد يحمل معه بعض الهدايا الصغيرة والطرف. وكان من بين تلك الهدايا آنية عجيبة. صنعها فنان حاذق من «مثانة» التمساح. يبدو أنه

نفخها ولا تزال لينة طرية وربط فتحتها العليا وعندما جفت أخذ يحككها ويحيلها إلى ما هو أشبه بقارورة كبيرة ذات عنق جميل. لا أحد يعرف كيف استطاع أن يتعامل مع جوفها الذي غدا كالزجاج لمعاناً ونعومة. ومن ثم صنع لها غطاء محكماً وقاعدة تستقر عليها. أحاطها بجلد غزال رقيق.. زخرفه بالودع والخرز والسكسك. ربما يكون هذا الإبداع من التراث التشكيلي لقبيلة الشلك التي أقامت في نفس منطقتهم. كانت تسع حوالي خمس أو ست زجاجات من السمن الذي تحتفظ به لزمان طويل. والعرب يصنعون مثل هذه الآنية من القرع ويسمونها البطة. ولكنها لا تكون في مثل هذا الجمال والروعة.

عاشت هذه المجموعة من عرب اللحويين على الشاطئ الشرقي للنيل الأبيض ما بين الكوة والجبلين. وكانت حاضرتهم هي قرية المرابيع. حيث كان يقيم زعماؤهم آل اللبيح. وما زالت القبيلة الأم تقيم في المناطق الشمالية الشرقية لسهول البطانة. وربما يكون هذا الفرع قد هاجر إلى منطقة النيل الأبيض في الفترة ما بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر.وذكرت المصادر أن بعضهم كان قد صاهر قبيلة الشلك التي كانت تقيم في منطقة النيل الأبيض. ونتج عن ذلك سلالة تتميز بلونها الأخضر.. بينما احتفظ معظمهم باللون الأسمر الفاتح. وقال هارولد ماكمايكل في كتابه «العرب في السودان» إن في الجزيرة العربية قبيلة معروفة تحمل نفس الاسم.

كان أبرز زعماء فرع المرابيع هو عبد الرحمن ود اللبيح - والد عدلان - الذي عاصر فجر الدعوة المهدية. وقيل إن الحكومة التركية أشركته في وفد أبوالسعود الذي بعثت به لمراجعة الإمام المهدي في دعوته. فقد كان أحد أعيان المنطقة البارزين.

وقد عرف عبد الرحمن ود اللبيح بشجاعته الفذة. ويروي الناس حتى اليوم أطرافاً من الوقائع المدهشة في حياته. فقيل إنه إعتاد على المقيل في ظل شجرة عملاقة، وارفة الظلال. وفي ذات نهار سأل خادمته عما إذا كانت قد وضعت له العنقريب في

ذلك المكان. فأجابته وهي ترتعد بأن لبوة تحمل جروها الوحيد في فمها لجأت للأجمة الواقعة حول جذع الشجرة. فما كان منه إلا أن حمل العنقريب بيد واحدة واتجه نحو اللبوة فألقاه فوقها فانتفضت وحملت جروها وأسرعت تبتعد عن المكان. والذي يعرف طبائع اللبوة ومدى شراستها وخاصة حين تكون قد ولدت حديثاً لا يتصور رجلاً مهما بلغت شجاعته أن يواجهها بيديه العاريتين.

تظل ذكرى حكايات عدلان ود اللبيح في خاطري دائماً. فقد إرتبطت بطفولتي وحكايات الوالدة. وعندما تعلمت القراءة وأدمنت مجلة «الصبيان» ومغامرات حامد شيخ البوشان وقصص ألف ليلة وليلة تضاعف إهتمامي بتلك الروايات. فعدلان وفزارية لا بد أنهما هبطا على القرن العشرين من أزمان موغلة في القدم.. متلفعين بهذا الرداء الأسطوري الذي قد يظنه البعض ضرباً من ضروب الخيال.

يوســـف بــدري

نجم أفل

في اليوم السابع من يونيو عام 1923م شاهد الناس جمالاً تنطلق من كوستي باتجاه الشرق. ربما لم تكن تتجاوز الخمسة جمال. بدت مسرعة وكأنها في مضمار سباق. فقد كانت تقل جماعة من التجار إلى مكوار (سنار الحالية) بعد أن بلغهم أن الشيخ يوسف بدري التاجر المعروف قد أصيب بطلق ناري وتم نقله بقطار خاص فوراً إلى مستشفى مكوار لإجراء عملية جراحية مستعجلة. كان مستشفى كوستي – في ذلك الوقت – أقل إعداداً من رصيفه بمكوار. كان الوالد في مقدمة هذه الجماعة من التجار الذين فاتهم القطار لمرافقة الشيخ يوسف. لم تكن السيارات قد أصبحت شائعة الاستعمال عهد ذاك. ربما تكون قد دخلت البلاد ولكن بأعداد قليلة. كان يلف هؤلاء التجار حزن عميق وقلق بالغ. فالرجل كانت له مكانة كبيرة لما تميز به من خصال. فلما وصلوا إلى مستشفى مكوار كان لا يزال حياً. وجدوه راقداً على ظهره مرفوع الصدر ملفوفاً بالشاش والقطن ولا يزال ينزف دماً. فخاطبه الوالد بكثير من الأسى والحزن «ليه يا يوسف تعمل كده؟!» فرد عليه بإيجاز «قدر ونفذ» ولم يلبث أن لفظ أنفاسه[1].

كنت كلما أزور منزل أستاذي وصديقي الراحل محمد ميرغني بركة بحي المرابيع بكوستي أقف أمام المنزل الذي يجاوره وأشعر بكآبة غامضة. فقد كانت تلك هي دار الشيخ يوسف بدري والتي شهدت مأساة إنتحاره في ذلك اليوم الصائف الكالح البعيد. ولما كان صديقاً أثيراً لوالدي كانت ذكرى ذلك الحادث تتردد في دارنا كثيراً

1. رواية شقيقي مصطفى أبوقرجة عن الوالد.



الشيخ يوسف بدري الكبير

عندما كنت طفلاً. ولما كبرت وأطلعت على أوراق ودفاتر ومستندات والدي عثرت على تفاصيل عن حسابات ودفاتر وبرقيات خاصة بالشراكة التي كانت قائمة بينهما في مشتريات المواشي. ولا تزال بحوزتي.

كان الإفلاس أمراً شائعاً بين التجار عهد ذاك. إلا أنه لم يؤد لوقوع مثل هذا الحادث الأليم. فلماذا أقدم هذا الشيخ الجليل على هذه الخطوة التي تماثل سلوك الشعراء؟!! خاصة وأنه كان يناهز الستين من العمر. فأي قدر من الحساسية والإباء والتعفف كان يتميز به هذا الرجل.

كان الشيخ بابكر بدري – الشقيق الأكبر ليوسف – مفتشاً للتعليم في جولة بمدارس النيل الأبيض حين بلغه نبأ إصابة شقيقه. ثم لم يلبث أن تلقى برقية أخرى تحمل نبأ نعيه فحاول أن يتماسك رغم فجيعته التي عبر عنها بشكل جيد. وكتب تفاصيل هذا الحادث في وقت لاحق في مذكراته[1].

قال إن يوسف تكبد خسارة فادحة في سلعة السكر التي وصلت ناقصة في عبوتها خلال رحلتها الطويلة من أوروبا حتى السودان. ورغم ذلك أصرت الحكومة على تقاضي قيمتها كاملة. كما ذكر أن التاجر الخواجة هنري جيد كان قد قام بتمويل يوسف بقيمة الصفقة مقدماً على أن يتقاضى نصف الأرباح. ولم يتنازل عن ذلك. ولما حاصرت الخسائر يوسف آثر الإنتحار. وكتب وصية جاء فيها «إني أعلم أن الإنتحار جبن وعار. ولكنني أقدمت عليه إتكالاً على عفو ربي ورحمته وغفرانه الذي يعم كل عاصٍ ما لم يشرك به». لم ينس الشيخ يوسف أن يبين ما بخزانته من نقود والديون الواجب سدادها لبعض الأشخاص. وقال الشيخ بابكر إنه عثر على صورة يوسف الوحيدة – بين مجموعة من الناس – وقام بعزلها وتكبيرها بمصر وكتب تحتها الشاعر العباسي. بيتين من الشعر.

1. تاريخ حياتي "الطبعة الأولى" الصفحات 204 – 212 الجزء الثاني.

لو أنصف الناس الكرام لشيدوا تمثال كل مسود سباق
رسموك يوسف في النواظر عوضاً عن التصوير في الأوراق

أصيب الشاعر محمد سعيد العباسي بصدمة بالغة ولازمه حزن عميق للوفاة الفاجعة للشيخ يوسف بدري، فكتب مرثية أودعها ما جاش في نفسه من لوعة الفقد وغياب ذلك النجم الساطع عن سماء حياتهم في حادثة مأساوية عصية الإحتمال. وقال:

فطالما كنت مصطافاً ومرتبعاً لنا وقبلة حاجات وآمال
أغدو مع النفر الأعلين مدرعاً نعمى الشباب وأمسي ناعم البال
وكم شهدنا بجمع الشمل صافية كالصرخدية قد علت بسلسال
إذ منتدى الفضل نادينا وخمرتنا مما يدار بكأس المنطق العالي

ثم ينثني العباسي وكأنه يلتمس المعاذير ليوسف بدري لإقدامه على إختيار هذا المصير؛ فيقول:

أفديه ما عافها جبناً ولا فرقاً حاشا ولا خوف إملاق وإقلال
لكنها نفس حر لا تقر على طعم الأمرين من قهر وإذلال
فاختار ما اختار شرطاً يذود به عن الكرامة لا حرصاً على المال
لا كالذي زعموا يا إفك ما زعموا وما أثاروه من قيل ومن قال

أما الشيخ بابكر فقد ختم مرثية طويلة بهذا البيت:

يا رحمة الله تغشى روحه أبداً فإنه كان كهفاً للمساكين

وفي معرض وصفه لشقيقه يوسف قال بابكر في مذكراته «كان يوسف رحمه الله لا يتصل بالناس بسهولة حتى يظن من لا يعرفه أنه متكبر أو أنه لا يحسن آداب العشرة. لكنه إذا عاشر حفظ عشيره غائباً وحاضراً ووفى له غنياً وفقيراً. إلا أن ميله للمساكين كان أكثر من ميله للأغنياء وللرعية أكثر من الحكام».

خلَّف الشيخ يوسف بدري ولداً واحداً هو إبراهيم بدري الذي عرفته المحافل السياسية والثقافية وغدا نجماً بارزاً في تاريخ السودان المعاصر. وكان أول المؤسسين لجمعية الاتحاد السوداني - قبل عامين أو ثلاثة من وفاة والده. وكان عهدذاك موظفاً بحكومة السودان. وقبيل الإستقلال قام بتأسيس وتزعم الحزب الجمهوري الاشتراكي.

تزوج إبراهيم من ابنة عمه السارة بابكر بدري التي يعتبرها المؤرخون أول خريجة في مؤسسات التعليم الحديث (تخرجت في مدرسة والدها برفاعة). وأنجب منها ولداً وبنتاً ولكنهما افترقا. فتزوجها الأمير كنتباي أبوقرجة فأنجب منها ولداً وبنتين. وقد حدثت مأساة عمها الشيخ يوسف بدري قبل زواجها من الأمير كنتباي بسنوات.

سليمان جريس..
زواج وسـط الأحراش

كان سليمان جريس تاجراً شاباً قبطياً يسافر إلى الجنوب. وقد رافق الوالد في عدة رحلات. وإنعقدت بينهما علاقة واشجة. وفي إحدى المرات وهما في مهمة تجارية بمنطقة بحر الغزال قادتهم خطاهم إلى إحدى قرى الدينكا. كان الوقت أصيلاً حين وقفا غير بعيد من حلقة للرقص. كانت فتيات الدينكا يرقصن ويتقافزن بتناغم وبراعة كطيور الماء. وفي لحظة بدا سليمان جريس منتبهاً ومركزاً بصره بصورة تلفت النظر. كانت هناك فتاة بعينها قد استبته تماماً في مثل لمح البصر. فاقترب منها صباً مستهاماً عاجزاً عن الحركة.

فاندفع نحوه الوالد ومن رافقهما من التجار يستجلون الخبر ويحاولون دفع سليمان بعيداً عن الخطر. ولكنه أقسم عليهم بأنه لن يبتعد قبل أن ينتزع وعداً من أهل الفتاة بتزويجها منه. وإنعقدت مفاوضات فورية أسفرت عن رضا أهل الفتاة بالزواج واشتراطهم على مهرها بالبقر فوافق سليمان وكاد أن يطير من الفرح. وقعت هذه الحادثة في العقد الثاني من القرن العشرين حوالي 1917 – 1919م.

أسفرت هذه الزيجة النادرة عن ثلاثة أبناء.. رزق وفهمي وفيكتوريا سليمان جريس. رأيتهم في طفولتي يزورون مدينة كوستي. سمر الألوان سمرة داكنة ويتميزون بوسامة لافتة. وفي أوقات لاحقة علمت أن فهمي أصبح ناظراً للمدرسة الإنجيلية بامدرمان. ولا أعلم أكثر من ذلك عن مآلات تلك الأسرة. وفي طفولتي رأيت بين أوراق والدي رسالة من سليمان جريس. وما زلت أحتفظ بدفتر قديم يرد اسمه فيه.

محمد محمد عثمان العربي
كنتباي أبوقرجة

محمد محمد عثمان العربي
كنتبـــاي أبوقـــرجة

تمرد الرجل على سلطة المهدية في جهات سواكن وامتنع عن إستخراج الزكاة والعشور. ولما ضيق عليه الأنصار خرج إلى الفلوات يختفي في مغاور الجبال والوديان. يقتات من حليب ناقة له وتصحبه زوجة صغيرة حسناء. وبعد محاولات عديدة عثر عليه الأنصار في أحد الوديان فباغتوه فجراً وألقوا عليه القبض وأوثقوه بثوبه القطني الجديد وجاءوا به إلى الأمير أبوقرجة، ولي الأمر في تلك الجهات. فأمر بتقديمه إلى قضاة الشرع الذين تداولوا أمره فحكموا عليه بالإعدام. ولما جيئ به لتنفيذ الحكم بقطع رأسه بالسيف وجلس على النطع مستقبلاً القبلة رابط الجأش شامخ الرأس طلب إعفاء يديه من القيد فاستجيب له. وعندما أهوى السياف على عنقه أمسك برأسه في لحظة كلمح البصر – بكلتا يديه وضمه بين فخذيه حتى تهاوى الجسد وسكنت خلجاته والرأس مستقر في مكانه مخفياً عن أعين الناس. لم يفت على الأنصار الحاضرين البواسل معنى هذا التصرف النادر فالرجل كان يعرف أن الرأس حين ينفصل عن الجسد تكون فيه بعض حياة فيمتد اللسان خارج الفم ويتحرك كذنب الضب المقطوع. ما أراد الرجل لنفسه مثل هذه الحالة رآها عيباً فأبدى ضرباً من الشجاعة لم يتكرر مثله كثيراً في التاريخ البشري. إلا أنني أذكر على نحو غامض أني قرأت يوماً عن مثل هذا التصرف في التاريخ الخاص بالممالك الإسلامية في أواسط آسيا.

كان إعجاب الحاضرين ببسالة هذا الرجل كبيراً لا تحده حدود. وخاصة الأمير أبوقرجة – الذي كان يعرف قيمة الرجال ويقدرها. فقد أطلق اسم الرجل على ابنه المولود حديثاً .. سماه محمد كنتباي. وكنتباي هو لقب زعماء قبيلة الحباب. كان

ذلك في ذات يوم من عام 1890م.

روت هذه الواقعة والدتنا – عليها الرحمة – عن والدها الذي كان مجاهداً في صفوف الأنصار. وشارك في عملية القبض على ذلك الزعيم الأسطوري. كما لا بد أن تكون الحاجة فاطمة بنت محمد النصري والدة كنتباي أبوقرجة قد روتها أيضاً فاسم ابنها ظل يثير التساؤل في مناطق السودان المختلفة عدا الشرق. وقد عاشت الحاجة فاطمة حتى عام 1950 ورآها الناس جميعاً واستمعوا إلى تجاربها ورواياتها عن شرق السودان وهي بصحبة زوجها الأمير أبوقرجة.

وقالت المصادر إن كلمة كنتباي كنسية غربية. جاءت إلى السودان مع المسيحية. ومعناها الرجل النبيل. وقد أطلقه الحباب على زعيمهم الأكبر. وكانوا قد تأثروا بالمسيحية ولم يعرف لهم تاريخ في الوثنية،[1] كما كانت قبائل الشرق الأخرى.

وقفت قبائل الشرق مع المهدية وأبلت بلاءً مشهوداً وخاصة قبيلة الهدندوة التي حملت عبء الثورة بقيادة الأمير عثمان دقنة حتى نهايتها. ويذكر التاريخ وقفتهم البطولية في معركة كرري. وذاع صيتها في أنحاء الدنيا حتى كتب روديارد كبلنج المعروف بشاعر الإستعمار قصيدة تمجد فرسانها وأطلق عليهم اسم «فزي وزي». إلا أن بعض القبائل تمردت على سلطة الأنصار ومن بينها الأمرأر والحباب.

وجاء في كتاب «دور الأمير أبوقرجة في الثورة المهدية» «ثم لم يكتف أبوقرجة بما جلبه للأنصار من الغذاء بل قاد حملة لمنطقتي رجيب والحباب. وكتب خطاباً إلى الخليفة شرح له أحوال المنطقة بأن الجهات الموالية لسواكن لا طائل من إرسال الغارات إليها حيث لا يرجى منها توسيع دائرة الإسلام ولا عائد مادي يعود منها لبيت المال ما عدا منطقة الحباب فقط التي يمكن توسيع دائرة الدين فيها. كما أن هناك عائداً مادياً يعود إلى بيت المال. ومن أجل هذه الأهداف جرد أبوقرجة بنفسه حملة

1. دور الأمير أبوقرجة في المهدية ص214.

على منطقة الحباب».

وقد جاء في المصدر نفسه «ولقد حذا حذو ثورة الأمرأر ثورات أخرى مثل ثورة الحباب يقودها كنتباي حامد وثورة بني عامر، كما انتظمت الثورة قبيلة الجميلاب فلهذا انقلب ظهر المحبة للمهدية واتسع الخرق على الراتق فلا غرابة أن انتهزت بريطانيا هذه السانحة وبدأت في تسليح القبائل في سخاء ودفعت بها للتمرد وحرب العصابات لاستنزاف قوى المهدية العسكرية والاقتصادية ليذهب ريحها».

كتب محمود بن كنتباي حامد رسالة للأمير أبوقرجة في غرة رجب 1305هـ. يتحدث فيها عن تمرد والده ويطرح نفسه بديلاً عنه في زعامة القبيلة ويؤكد إذعانه لسلطة الدولة جاء فيها».

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم فمن عبد ربه الفقير محمود بن كنتباي حامد إلى حبيبه في الله تعالى حضرة عامل العملاء الحاج محمد عثمان أبوقرجة تولاه الله آمين.

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد:

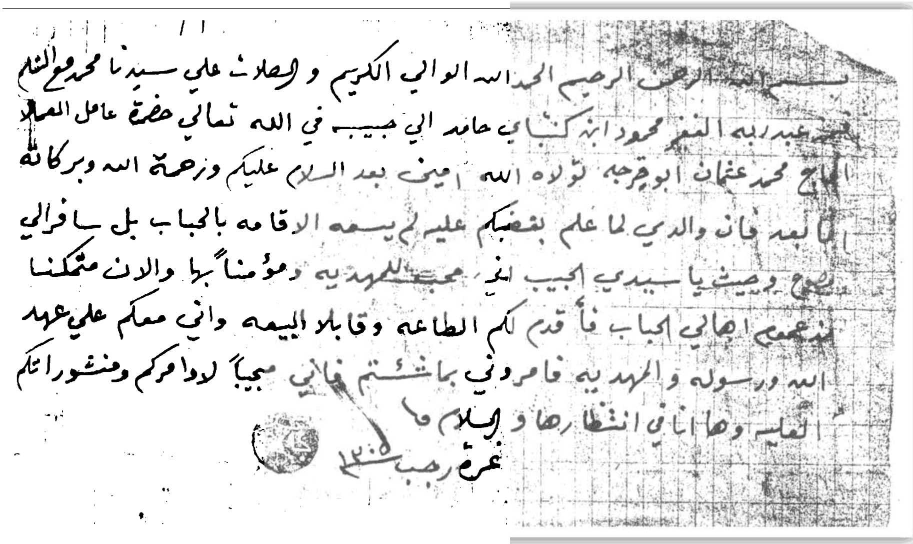
فإن والدي لما علم بغضبكم عليه لم يسعه الإقامة بالحباب بل سافر إلى مصوع وحيث يا سيدي الحبيب إني محب للمهدية ومؤمن بها والآن متمكن من عموم أهالي الحباب فأقدم لكم الطاعة (قابلاً) البيعة وإني معكم على عهد الله ورسوله والمهدية فأمروني بما شئتم فإني (مجيباً) لأوامركم ومنشوراتكم العلية وهأنا في إنتظارها والسلام.

غرة رجب 1305هـ

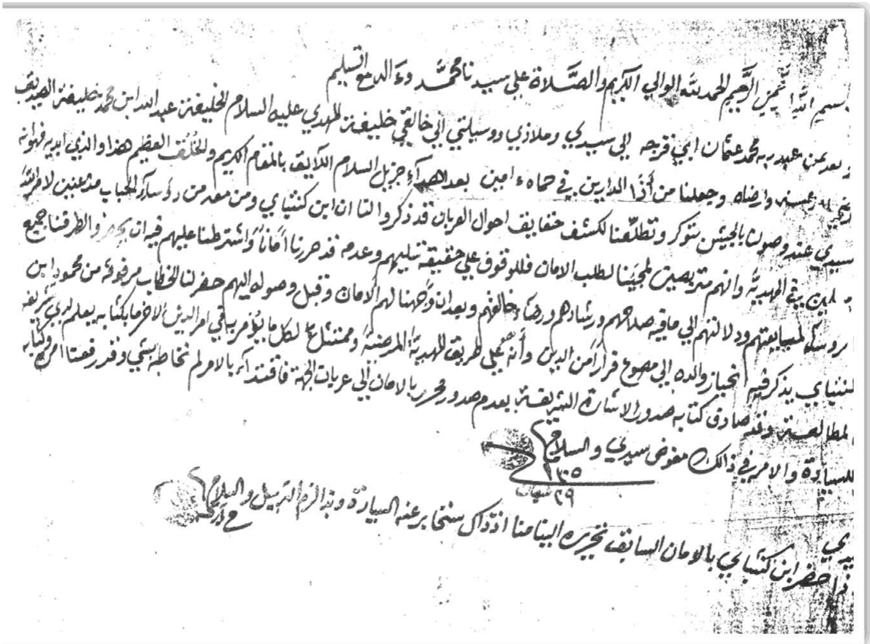
وبعد تسلمه لهذه الرسالة كتب الأمير أبوقرجة للخليفة عبد الله خطاباً بتاريخ 13 شوال (وثيقة مهدية 1/5/م الأول 89) جاء فيه:

«والذي أرفعه للسيادة فهو أنه قد رفعنا لصوبها أمر محمود حامد كنتباي ومن معه من رؤساء الحباب. وبالإشارة الشريفة الصادرة للداعي عن ذلك رقيم 17 رمضان أشير بأنه ما دام إجتمعنا مع المكرم عثمان دقنة فليصير النظر منا في أمرهم. فإن كان اقتضت مصلحة الدين التحرير لهم بالأمان فلا مانع من ذلك وإلا فما تقتضيه مصلحة الدين فخابر عنه السيادة للمعلومية لآخر ما بالأمر الكريم منهم وعلم والحال سيدي أنه قد ورد إلينا خطاب من محمود كنتباي المتقدم ذكره رداً لما تحرر إليه منا سابقاً بالأمان يفيد عدم صدق طويته في التسليم للمهدية. ومن ذالك اتضح لنا أن الخطاب الذي تقدم لنا منه بالتسليم مظاهرة. وقد تذاكرنا مع الأخ عثمان دقنة بالنظر فيما يصير من أمره حسب الإشارة فاقتضت مصلحة الدين تعيين جيش (كافي) من الأنصار توجه إليه وقد تجهز الجيش بما يلزم إليه من الأهبة وفضل تحت الحركة والنية توجهه إلى الحباب ما لم يدعو داعي آخر أو يلجأ ملجأ بحدوث ما يوجب حركة الجيش إليه بخلاف الحباب وما يؤول إليه الأمر من توجه الجيش إلى الحباب أو غيرهم سنعرض عنه لصوب السيادة.»

في مقال بعنوان «الأمير أبوقرجة وكنتباي الحباب» نشرتها صحيفة «أخبار اليوم» السودانية الصادرة بتاريخ 8 أبريل 1996 بقلم كامل يوسف إبراهيم. واقتطف منها علي عمر علي – في مؤلفه «دور الأمير أبوقرجة..»أشار الكاتب إلى أن الأمير أبوقرجة أراد إخضاع الحباب للمهدية وطالب الحباب بالخيرية والخضوع إلا أن زعيم الحباب قابله وطلب إستضافته. وفي صباح اليوم التالي وجد أبوقرجة نفسه محاصراً بالفرسان فقال كنتباي نحن قوم مسلمون على طريق الدين فإذا أردت الحرب نحن لها وإذا أردت الصلح فنحن معك. فأعجب أبوقرجة بصراحة هذا الزعيم وفروسيته ووافق



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم
من عبد ربه الفقير محمود ابن كنباي حامد الى حبيب في الله تعالى حضرة عامل العمالة
الحاج محمد عثمان ابوقرجه تولاه الله امين بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته
اما بعد فان والدي لما علم بتضييقكم عليه لم يسعه الاقامه بالحباب بل سافر الى
مصوع وحيث يا سيدي الحبيب انني محب للمهديه ومؤمناً بها والان متمكننا
من جميع اهالي الحباب فأقدم لكم الطاعه وقابلا البيعه واني معكم على عهد
الله ورسوله والمهديه فامروني بما شئتم فاني مجيباً لاوامركم ومنشوراتكم
العليه وها انا في انتظارها والسلام
غرة رجب ١٣٠٥



بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم
بعد يمين عبد ربه محمد عثمان ابي قرجه الى سيدي وملاذي ووسيلتي الى خالقي خليفة المهدي عليه السلام الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق
[illegible] برحمته ورضاه وجعلنا من الدايرين في حماه امين بعد اهداء اجزل السلام اللايق بالمقام الكريم والخلق العظيم هذا والذي ابديه فهو ان
سيدي عند وصوله بالجيش ستوكر وتطلعنا لكشف حقايق احوال العربان قد ذكروا لنا ان ابن كنباي ومن معه من روسا الحباب مذعنين لامر الله
[illegible] بني المهدية وانهم مترصدين لمجيئنا لطلب الامان فللوقوف على حقيقة تسليمهم وعدمه قد حررنا امانا واشترطنا عليهم فيه ان يحضروا لطرفنا جميع
روسائهم لمبايعتهم ودلالتهم الى ما فيه صلاحهم ورشادهم ورضاء خالقهم وبعد ان وجهنا لهم الامان وقبل وصوله اليهم حضر لنا الخطاب مرفوقا من محمود ابن
كنباي يذكر فيه انحياز والده الى مصوع فرارا من الدين وانه محب للطريقة المهدية المرضية وممتثل لكل ما يؤمر به في امر الدين الا [illegible] يعلم لدى سيدي
المطالعة وقد صادق كتابه صدور الاشارة السابقة بعدم صدور تحرير بالامان الى عربان الجهة فاقتدا امر بالامر لم نخاطبه بشي وقد رفعنا امره وكتابه
للسيادة والامر في ذلك مفوض لسيدي والسلام
٢٩ شعبان ١٣٠٥

ثم احضر ابن كنباي بالامان السابق تحريره الينا منا اذ ذاك سنخابر عنه السيادة ونلتزم الترتيب والسلام

وثيقتان توضحان موقف الأمير أبوقرجة من الحباب وتطورات
العلاقات التي إنتهت بالصلح والصداقة

على الصلح فعاد من أرض الحباب بعد أن أكرمه كنتباي». لا شك أن هذه الرواية ضعيفة حيث أن الوثائق التي وردت تقلل من قيمتها كثيراً. إلا أن المهم فيها أن صفحةً جديدة قد انفتحت بين الجانبين وأن تعاوناً على مستوى السلطة ممثلة في الأمير أبوقرجة وكنتباي الحباب أسفر عن إتفاق حول رسوم الجمارك. وبذلك انفتح عهد من الصداقة على المستوى الشخصي ولم ينته بتعاقب السنين.

والواضح أنه في رسالته إلى الأمير أبوقرجة حاول محمود كنتباي أن يخفي والده بعيداً عن أعين الأنصار حين زعم أنه قد لجأ إلى مصوع. والراجح أنه كان لا يزال في منطقة الحباب مختفياً حتى عثر عليه الأنصار ولاقى مصيره على ذلك النحو البطولي. فعلى الرغم من بحثنا وتنقيبنا عن مصير كنتباي حامد في المؤلفات والوثائق إلا أننا لم نظفر بطائل. وإذا كان كنتباي حامد قد واجه قدره بتلك الصورة البطولية النادرة فلا نملك إلا أن نقف إجلالاً لتلك الشجاعة الفذة والخلق الوعر النبيل.

والآن لا تجد كتاباً عن تاريخ شرق السودان إلا ونوه بشخصية الأمير أبوقرجة وشجاعته وعظمته الإنسانية. كما لا تخلو تلك المؤلفات عن ذكر ابنه الأمير كنتباي الذي شاءت الأقدار أن يعود إلى شرق السودان يشغل وظيفة مأمور المركز في سنكات وطوكر والقضارف وقلع النحل. ولا تزال الألسن رطبة تعدد مآثره ومواقفه الجليلة.

وفي آخر كتاب صدر بعنوان «بورتسودان» عثرت على ما يفيد أن كنتباي أبوقرجة أقام مأتماً مشهوداً في سنكات حين وفاة كنتباي محمود في ثلاثينات القرن العشرين. وقد رد الحباب بالمثل حين وفد عدد من أعيانهم إلى أمدرمان لتقديم واجب العزاء في وفاة الأمير كنتباي في عام 1959م. وما زالت علاقاتنا الحسنة المتميزة تتعزز وتضطرد مع أهلنا الحباب حيث أوفدنا أخانا الكريم البروفيسور خالد حسن إدريس هارون – حفيد الأمير أبوقرجة، ابن كريمته الصغرى الأميرة نفيسة لحضور إحتفالات الحباب بإعادة نظارتهم إليهم.

جلابية دبلان وطربوش أحمر
في الدفعة الأولي لمدرسة
القطينة الأولية 1904م

فاجأني الوقوف على نص نادر عن مدرسة القطينة الأولية – الإبتدائية- لا أدري كيف تم العثور عليه. وذلك في كتاب «القطينة عبر الأجيال» الذي قام بجمع مادته نخبة من أبناء القطينة فأحسنوا الصنيع. لم يفصح النص عن تاريخ إفتتاح المدرسة إلا أنه من المعروف أنه تم في أوائل عام 1904م. تم تأسيسها وإلى جانبها مدارس حلفا وبربر وأمدرمان ورفاعة. كانت القطينة بلدة صغيرة إلا أن تأثيرها في مجريات الثورة المهدية كان كبيراً. كانت محطة رئيسية في تطواف الشيخ محمد أحمد، قبيل الدعوة. كان يزورها باستمرار فيبقى بين أهله وعشيرته. فقد كان له فيها نسب وصهر. وبعد إعلان الدعوة باتت معقلاً أساسياً للثوار الأنصار وقد برز أبناؤها قادة عسكريين عظام ومجاهدين إسترخصوا أرواحهم في سبيل الدين والوطن. عمد البريطانيون إلى إقامة مركز فيها. كان مأموره الأول عبد القادر مختار المصري والرائد الأول للمسرح السوداني.

أراد البريطانيون بإنشاء هذه المدرسة إفراغ تلك الشحنات الثورية من صدور الجيل الثاني ونشر مدنيتهم للقضاء على روح المهدية كما كانوا يزعمون.

أتاح لنا ذلك النص فرصة الوقوف على تفاصيل ذلك اليوم الذي جرى فيه إفتتاح المدرسة. فقال «عندما تم الإعلان عن فتح مدرسة كتاب القطينة عمت الفرحة المواطنين وسعدوا بهذا اليوم سعادة لا توصف. ففي الصباح الباكر تجمع الناس عند سماعهم (النوبة الإسماعيلية) معلنة في ذلك الصباح قبول الدفعة الأولى بالمدرسة.

وقد تم قبول الدفعة الأولى لتلك المدرسة ومن بينهم كنتباي أبوقرجة وإلى جانبه كل من محمد عيسى غالي وعبد الحليم أور موسى وعبد الله الفاضل المهدي وعبد الله بشير سنادة وعثمان على فرح وأحمد العوض باشري وعبد المتعال منور وعوض محمد جنكور وحمد بشير حمد وحمدوبة محمد بهرام وحسن آدم إدريس والناجي عمر وموسى البشير وعثمان النور دقناوي. وإلى جانبهم تلاميذ آخرون.

وبعد أن تمت إجراءات القبول بواسطة مفتش المركز تم صرف زي مدرسي لكل تلميذ عبارة عن جلابية وسروال من الدبلان وطربوش أحمر.

بدأت المدرسة في مباني المركز ومن ثم تم نقلها إلى منزل عثمان عجيب، ريثما تحولت إلى مبان خاصة بها من الطين. وقد تولى نظارتها رجل دنقلاوي يدعي شيخ عثمان الخوجة .كان يحفظ القرآن ويعلمه التلاميذ بالإضافة إلى الدروس الدينية وفقه العبادات. وكان يساعده في التدريس موظفو المركز من المصريين. واستمر الحال لعدة سنوات حتى تم تشييد المدرسة بالطوب الأحمر والحجر. وقد نوه النص بالمجهودات التي بذلها المأمور عبد الخالق مختار في سبيل ذلك. وقد اشتمل النص على أسماء المعلمين السودانيين الذين تعاقبوا على المدرسة منهم عبد الله أبو شامة ومحمد عتيق ومحمد حمزة والأبجر.

وفي عام 1907م عندما اكتمل تشييد المدرسة أقيم حفل كبير بهذه المناسبة حضره مدير مديرية النيل الأبيض وألقى فيه مولانا القاضي أحمد الصاوي عبد الماجد القاضي بمركز القطينة وقتذاك قصيدة عصماء ابتدرها بقوله:

لله مدرسة بوضع نائرة
أضحت تزاحم شمس أفق الدائرة
والسعد قابلها بوجه مشرق
مستبهج جمع النعوت الفاخرة
في رونق أنعم به من رونق

أرويــه عـن ذات الـعـمـاد الفاخـرة

ازدهرت مدرسة القطينة الأولية وتخرج فيها نفر عزيز من أبنائها، الذين واصل بعضهم التعليم في المؤسسات المتاحة عهد ذاك وشغلوا وظائف عديدة في مختلف المجالات. واشتهرت تلك المدينة بالتعليم وباتت منارة في تلك المنطقة.

كنتبــاي.. في مقال بمجــلة الهلال المصــرية عام 1975م

كتب أكثر من كاتب عن الأمير كنتباي. كان دافعهم الإعجاب بشخصه النادر المختلف وبكرمه الفياض وحضوره المتألق وسماحته وفضله. جاب طول البلاد وعرضها منذ أن تعين مأموراً في الإدارة الحكومية. عمل في مدن مختلفة في العاصمة وأقاليم السودان من شرقها إلى غربها. ترك فيها جميعاً أثراً لا ينمحي. كثير من الناس ربطوا بينه وبين والده في الشجاعة والأريحية والمروءة وروح العدل. كتب أحمد حسن علام – أحد الخريجين البارزين - في صحيفة سيارة لا أذكرها الآن يصف مجلس كنتباي حينما كان مأموراً في أم روابة. قال إن مجلسه كان يضم كافة طبقات المجتمع. تجد فيه الأعيان والتجار والموظفين المثقفين – أمثال محمد أحمد محجوب وغيره – والشعراء والفنانين – أمثال محمد أحمد سرور – والمادحين، والفقراء والمعوزين الذين كان يدنيهم منه ويؤثرهم بكرمه ودعاباته.

كان يقصده كثير من الناس المحبين والعافين وأصحاب الحاجات. لا يرد أحداً منهم. يعودون والسنتهم تلهج بالشكر والحمد. روت كريمته السيدة فاطمة كنتباي أن الشاعر محمد سعيد العباسي كان من المولعين بصحبته. فكان يشد إليه الرحال أينما كان. يمضي الأيام في ضيافته. وصفت تلك الأيام بأنها كانت كأيام العيد. فكان يتم الأعداد لها منذ فترة غير قصيرة. ووصف أحدهم حياة كنتباي العامة والعائلية في أم روابة بأنها كانت تجمع بين الكرم الأخرق- الذي لا تحده حدود – والترف التقليدي بكل معايير القرن التاسع عشر.

نقول ذلك ونحن نقدم ما كتبه الدبلوماسي الحاذق والأديب الأريب محمد عثمان ياسين في مجلة «الهلال» المصرية. ما كتبه كان إنطباعات عابرة عن الأمير كنتباي. كان لقاؤه معه لأول مرة في أم روابة بكردفان - يصحبه زميله أحمد حسن الضو- الذي أضحى رئيساً لأول لجنة للانتخابات في وقت لاحق. أما هو فقد غدا وكيلاً لوزارة الخارجية. وقد ساهم هو وخريجو تلك الأيام في وضع الأسس لتلك الوزارة التي باتت درة الخدمة المدنية. تخرجا في كلية غردون قسم الإدارة وتوجها إلى أم روابة في فترة تدريبية على يد مأمور المركز. وبعد مرور سنوات توجه إلى العاصمة البريطانية بصحبة الرئيس إسماعيل الأزهري. وفي أحد المستشفيات إكتشف أن هناك زائراً سودانياً سبقه للإستشفاء فيه، وأن هذا الزائر كان كنتباي أبوقرجة. وفي المرة الأخيرة إلتقاه مصادفة في السوق الافرنجي بالخرطوم. وقد زعم أن ذلك اللقاء كان في أوائل الستينات – من القرن العشرين. ولكن في الواقع أن كنتباي إنتقل إلى رحمة مولاه في عام 1959م. فالكاتب لم يكن يعنيه التوثيق. فقد كان يكتب نصاً إبداعياً.

تضمن عدد «مجلة الهلال» المصرية الصادر في يوليو 1975م. والخاص «بأدب الرحلات» مقالة محمد عثمان ياسين الذي لم يعرف كنتباي إلا كما يعرف السيف في جفيره. ومن الواضح أنه لم يكن عارفاً بتاريخ المهدية كما ينبغي. إلا أن تلك المقالة تشف عن قدرة الكاتب الفنان في استكناه ملامح العظمة وسطوة غير المألوف على الذاكرة.

ظللت أحتفظ بهذا العدد منذ ذلك الزمن البعيد. وقد لاحظت أن الكاتب حين دفع بهذه المقالة للمجلة لم يكن يمتلك الصور الخاصة بتلك المواقف التي كتب عنها. وخاصة تجربة لندن وما جرى فيها. ولما كانت العائلة تحتفظ بمعظم هذه الصور فقد رأيت أنه من اللازم إبرازها في هذا الكتاب. عنوان المقالة:

صور ســـودانية ..
كنتبـاي أبوقرجة

قد لا يوحي هذا الاسم بأنه لعربي ممعن في العروبة، وربما ظن السامع أنه لأحد زعماء شرق أو غرب السودان ولكن الحقيقة هي أن أباه (أبوقرجة) أي صاحب العصا الضخمة الغليظة كان أحد أمراء المهدية من شمال السودان الذين حاربوا الانجليز في شرق السودان مع البطل المشهور عثمان دقنة الذي وصفه تشرشل بأنه أول قائد في تاريخ الحرب يجرؤ على كسر مربع عسكري للجيش الانجليزي.

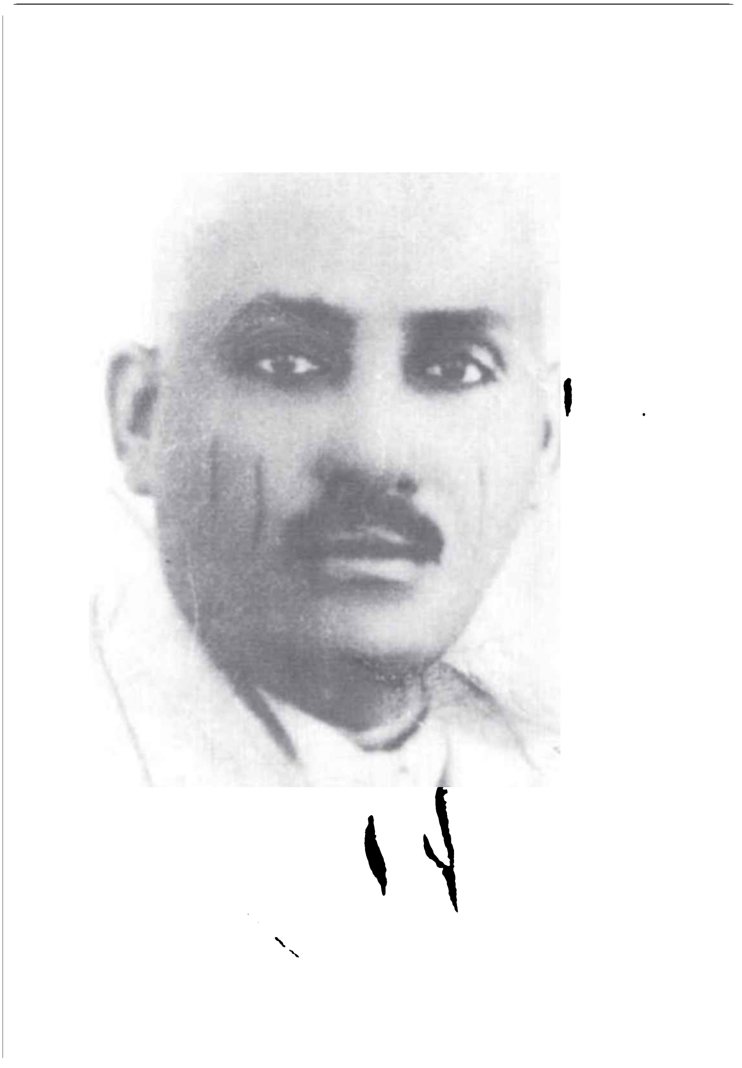
وعندما ولد له ابن سماه كنتباي على أحد أصحابه من فرسان الهدندوة.

تخرج كنتباي أبوقرجة في مدرسة الإدارة كنائب للمأمور في العشرينيات عندما كانت تلك المدرسة ينتخب لها الطالب من أبناء الأسر العريقة...

قالت إحدى النساء اللسنات[1] عندما وقفت أمامه في محكمة أمدرمان ولم تجده يصرخ وينهر خصمها كما كانت تتوقع وتريد وقد نظرت إلى قامته المديدة وحجمه الضخم وهدوئه الشديد: «يا بحر أبيض لا موج.. لا عرق»..

والذين شاهدوا النيل الأبيض أثناء الفيضان عند التقائه بالنيل الأزرق عند المقرن في الخرطوم ورأوا كيف يستهزئ ذلك الشاب الأزرق المندفع الهابط من قمم إثيوبيا بالشيخ الأبيض المتئد القادم من أواسط أفريقيا ويجره جراً للخلف إلى مشارف خزان جبل أولياء جنوب الخرطوم ويجعله ينبسط ويمتد زيادة في إمتداده وإنبساطه المعهود- يدركون مبلغ النكاية التي دلفت إليها هذه المرأة الساخرة اللسنة ولكنها لم تعد الحقيقة، فكنتباي أبوقرجة هادئ منبسط طيب النفس يشبه النيل الأبيض الذي يغدق على مصر طوال العام بأكثر مما يغدق عليها النيل الأزرق رغم فتوته وثورته وهياجه.

1. ست النفر بت الخبير.



كنتبباي أبوقرجة بالزي الأفرنجي حين كان يعمل
مأمور مركز في حكومة السودان

إلتقيت به إذ كان مأموراً في أم روابة في غرب السودان، عندما ذهبت إليها مع زميلي السيد أحمد حسن الضو لنتمرن على يديه على فنون الإدارة أثناء دراستنا لها في أوائل الأربعينيات ونزلنا في الاستراحة التي تجاور أحد بيوته، فغمرنا بعطفه وكرمه زهاء أسبوع ذهب بعده زميلي إليه وطلب منه في أدب جم أن يساعدنا في الحصول على خادم يقوم لنا بالطهي والغسيل، وما إلى ذلك فاستمهله السيد كنتباي وأرسل في طلبي ولما قابلته ضرب كفاً على كف وقال لي «هل سمعت ما قاله زميلك؟ إنه يطلب خادماً ليطبخ لكم.. سبحان الله والله إنكم لن توقدوا ناراً ما دمتم في هذه المدينة وظللنا نطعم في منزله طوال ثلاثة أشهر يتخللها شهر رمضان» فكان يحضر إلى إستراحتنا بنفسه ومعه «السحور» ويوقظنا عند السحور لنتناول الرقاق والخشاف ويصر أن نأكل حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود.. والغريب في الأمر أن دخل السيد كنتباي أبوقرجة لم يكن ليزيد عن جملة راتبينا.. وكانت له زوجتان وأسرة كبيرة وعدد من طلاب الحاجات، ثم أننا بأنوفنا المتحفزة الجديدة كنا نستطيع أن نشتم رائحة الرشوة أو إستغلال النفوذ إن كانت ثمة شيء منها ولكننا غادرنا أم روابة ونحن نعجب لكرم هذا المأمور العفيف اليد واللسان.

وصحبته مرة للتحقيق في حادث قتل في ضواحي المركز فركبنا السيارة لساعات ظل طوالها يتغنى بشعر أحمد شوقي لا سيما قصيدته

سلام من صبـــا بردى أرق   ودمـــع لا يكفكف يا دمشق

ويردد في اضطراب شديد قوله :

وللمستعمـــرين وإن ألانـــوا   قـــلوب كالحجـــارة لا ترق

وقبيل المغيب ظهرت إحدى طيور الحبارة فأخذ بندقيته وصوبها عليها وأطلق الزناد ولكن الحبارة طارت ولم تسقط فالتفت إلى وماج من الضحك وقال: «عارف شنو» عندما صوبت عليها أغمضت عيني الشمال وعندما أطلقت النار أغمضت اليمين أيضاً.

والذين لم تكتحل أعينهم بجمال غرب السودان في الخريف من شباب العروبة وظلوا يستنشقون جمال الطبيعة عبر شاشة السينما والتليفزيون وباتت مرئيات الجمال عندهم عالقة بأصباغ الريف الانجليزي والغابة السوداء ووادي الراين في المانيا، لا يدركون مدى الجمال في كثبان كردفان عندما يطل عليها الخريف ويكسوها بالخضرة وتظل بعضها حمراء أو صفراء أو مزيجاً من ذلك ويخرج الشباب للرقص والغناء عند الأصيل وفي المساء..

كنا نتدحرج من قلب أم روابة إلى النيل القادم من جبال النوبة والذي لا صلة له بنهر النيل (نيل مصر كما يسميه هيرودوت وغيره من قدماء المؤرخين).. فننزل إليه من خلال شجيرات الدخن والذرة مستضيئين بالقمر المطل لنستمع إلى ذلك السلم الموسيقي المرتل العجيب من بنات الجوامعة وهن يطفن حول النيل يحملن برام الماء على رؤوسهن في نسق بديع تتقدمه الصغيرات ثم المتوسطات إلى أعلى السلم الموسيقي وينشدن:

الله لـيَّـــــــــــــا
الليمــون سقايتـــه عليَ
وأحــــــــــــــّـي أنـــا

ولا يسعنا أن نساعدهن في إنشادهن إلا بالإستماع والسير خلفهن في بطء وهدوء إلى أن يقترن بفوجهن الشبان الذين يوقعون اللحن بالتصفيق والرزيم وتردد أمواج النيل الصغير أصداء السيمفونية البسيطة. ونعود إلى أم روابة عندما تنكسر حرارة الرمال وتهب النسمات الباردة المنعشة.

وتمر السنون ويحال كنتباي أبوقرجة إلى المعاش، ويعمل في مشروعه الزراعي الخاص في أم غنيم بالنيل الأبيض، ويزرع القطن وترتفع أسعاره إرتفاعاً جنونياً في أوائل الخمسينات فيصير من الأثرياء.. وأذهب إلى بريطانيا بصحبة الرئيس السابق إسماعيل



الأمير كنتباي في لندن عام 1953م وإلى يمينه من الطلاب
أحمد المهدي وإلى يساره الصادق المهدي. والواقفون من اليمين بدرالدين
هباني وأبراهيم عمر الأمين وعبدالرحمن كنتباي

الأزهري قبيل الإستقلال وعند إنتهاء الزيارة أدخل إحدى مستشفيات لندن للعلاج والبس جلابيتي الفضفاضة وأطالع كتاباً عربياً. فتحوم حول سريري الممرضات وهن يبتسمن وتبدو على خدودهن حمرة الخجل. وتتقدم إحداهن وتسألني إن كنت من السودان إذ أن أحد المرضى من السودان كان يجلس في نفس السرير ويلبس نفس اللباس، ويقرأ كتاباً بنفس الحروف وقد غادره منذ شهر، فتنقبض نفسي. وأخاف أن يكون ذلك السوداني ممن لم يتعودوا الانضباط والدقة، فاسألها في لهفة من هو؟.. صفيه لي فتقول: «ضخم على خديه خطوط ولا يتكلم الانجليزية مثلك: وهو كريم كريم للغاية».

تطوف بخاطري أخيلة وصور للكريم ومن يكون؟ وأردد قول إيليا أبو ماضي:

قالوا ألا تصف الكريم لنا فقلت على البديه
إن الكريم لكالربيع تحبه للحسن فيه
وتهش عند لقائه ويغيب عنك فتشتهيه
لا يبتغي أبداً لصاحبه الذي لا يبتغيه
وإذا الليالي ساعفته لا يدل ولا يتيه
وتراه يبسم هازئاً في غمرة الخطب الكريه
وإذا تحرق حاسدوه بكى ورق لحاسديه
كالورد ينفح بالشذى حتى أنوف السارقيه

وأتخيل أن يكون المريض السوداني الذي سبقني على السرير هو كنتباي أبوقرجة ولكنني لم أكن قد سمعت عن حضوره للندن. وعند المساء تجيء كبيرة الممرضات التي تعتمر طاقية فلورانس نايتنجيل وتلبس البزة السوداء تمييزاً لها وتقف عند سريري وتقول أنت من السودان. فهل تعرف البرنس جرجا؟

ويزورني بعض الطلاب السودانيين وأروي لهم ما قالته الممرضات فينتهزون الفرصة المواتية للتحقيق في شخصية المريض السابق والإختلاط بالممرضات الجميلات وقطف ثمار الكرم السوداني مما أغدق به ذلك الأمير القادم من أفريقيا.



**الأمير كنتباي عند خروجه من المستشفى بالعاصمة البريطانية
ويحيط به مودعاً الطاقم الطبي**

وتظل أطياف كرمه تلاحقني في لندن في أحد المنازل التي يرتادها مرضى السودان فقد زلزل كنتباي أبوقرجة قواعد الكرم فيه وجعلنا نفر منه خجلاً وتواضعاً وضيق ذات يد...

وكان آخر لقائي به في أوائل الستينيات قبل وفاته عند فرندة أحد الدكاكين في الخرطوم وقد بدت عليه آثار المرض والكبر وتضاعفت التجاعيد على وجهه ورقبته فسمرنا بعض الوقت، وإذا به فجأة يحملق بعينيه الثاقبتين عبر النظارة إلى سرب من الفتيات اللاتي عبرن الشارع وهن يتبخترن في خفيف الثياب ويستعرضن سيقانهن الجميلة خلال فجوات الثوب المائج فيقول: (خلي بالك يا ود أخوي.. شوف شوف البنات. يا سلام. يا حسرة. جانا المال بعد أن هجم علينا المرض والكبر ورمينا السلاح..). انتهى مقال محمد عثمان ياسين.

أمســية سعـيدة
في صحبته بالقطار[1]

ظلت مشاهد ذلك اليوم شاخصة في الذاكرة منذ أيام الطفولة. وذلك حين صحبت العم كنتباي أبوقرجة بالقطار من الخرطوم إلى كوستي. كنت لم أتجاوز العاشرة منقولاً من الصف الثالث إلى الرابع الابتدائي. صحبنا الوالد أنا وشقيقي شعيب إلى الخرطوم. زعموا له أن الإمام عبد الرحمن المهدي يرغب في رؤيته. أرادوا إبعاده عن الدار فبوجوده يستحيل إقامة احتفال لزواج شقيقتي كما يفعل الناس. فالغناء والرقص وكثير من المباهج البريئة محرمة في داره. أجرى عقد قرانها علي ابن عمها وطالب والده بترحيلها فوراً. ماطلوا وسوفوا ريثما يجدون مخرجاً. رتب شقيقنا مصطفى وأعمامه الأمور على نحو مغاير. أرادوا لتلك الدار أن تفرح يوماً. فقد ظلت الأحزان تلازمها منذ وفاة شقيقنا الأكبر محمد الحسن وهو في ريعان الشباب. حتى وفاته بعد أربعة أعوام من ذلك الزواج لم يعلم الوالد أن منزله شهد إحتفالاً وطرباً. إلاَ أن تلك الظروف أتاحت لي فرصة مشاهدة مدينة أمدرمان للمرة الأولى، كما أتاحت لي فرصة الاقتراب من العم كنتباي.

وصلنا فألفينا داره تغص بالضيوف في كل الأوقات وصواني الطعام تقدم في كل حين. كان وجود الأطفال يكاد يتلاشى وسط كثرة الناس. فكنت أنطوي على نفسي وأنزوي بعيداً. لاحظت كريمته حفصة – الزوجة الشابة عهدذاك هذه الحالة وأبدت إهتماماً بأمري. ظلت تنفحني بقرشين في كل صباح. أبتاع زجاجة لويزو وحلاوة لبن من دكان اليماني المجاور. إلاَ أن ذلك الإهتمام لم يخفف من غلوائي.

---

1. المؤلف.



السيدة حفصة كنتباي أبو قرجة في حوالي 1957م

ضبطتني حفصة ذات صباح والدموع تتساقط من عيني فأشفقت عليَ وأبلغت والدها الذي كان على وشك السفر إلى كوستي بأن يصحبني معه. كان الوالد سيبقى لأيام مقبلة.

غادرت حي العرضة – أو البوستة بالأحرى – وأنا أحمل ذكريات تلك الأيام. كان يلفت نظري كثرة أعداد ذوي الحاجات الذين يقبلون منذ الصباح الباكر. أفتح الباب الكبير فأراهم جلوساً مصطفين كأنهم صفوف في مركز للتموين أو مكتب للعمل. يخرج الأمير كنتباي ضاحكاً متهلل الموجه. يحمل كيساً في يده ويبدأ في توزيع النقود. لم يكن يبدو على هؤلاء الناس الفقر الذي يدفع للسؤال. كانوا يرتدون ثياباً نظيفة وبعضهم يرتدي العباءة التي تعبر عن الوجاهة أو الثراء في تلك الأيام.

كان الوالد وكنتباي يصحبان شعيب دائماً – أما أنا فأحياناً – ويتوجهان إلى منزل السيد عبد الرحمن بالخرطوم. يعبران الكوبري ويبتدران النيل بالتحية «سلام عليك يابا بحر أبيض». يبقيان معه حتى الظهر ثم يعودان وقت تناول الغداء حيث يكون بإنتظارهما عدد من الناس. كانت السيدة الفضلى السارة بابكر بدري تحتفي بالوالد عند الغدو والرواح. وما زلت أذكر في العشيات أنها كانت تحمل إليه كورة اللبن وتجلس على الأرض بجوار رأسه وهو مستلقِ على السرير فيتبادلان الحديث لفترة قد تطول. ثم لا يلبث الوالد أن يلاحظ الكورة التي تحملها بين كفيها دون أن تضعها على المنضدة الصغيرة الموجودة أمامه. كانت تلك فروض وتقاليد الضيافة والأصول المرعية لدى العائلات العريقة.

في تلك الظهيرة الصيفية البعيدة تحرك عدد من السيارات. كانت إحداها تقل الأمير كنتباي والبقية كانت يستقلها المودعون الذين ما لبثوا أن انصرفوا. ركبنا قمرة في عربة النوم. تفرغ لي العم كنتباي والتفت نحوي يسألني عن ترتيبي في الامتحان الأخير. ولحسن الحظ كان ترتيبي الأول. ولما أخبرته سر سروراً عظيماً وانبسطت

أساريره ودعا لي بالخير. لم يلبث أن اقبل عمال الخدمة (الجرسونات) يسلمون عليه. يشفعون اسمه بلقب الأمير. كانوا يعرفونه جيداً ويذكرون العطايا والهبات فقد كان كثير السفر ما بين الخرطوم وكوستي. كما ظلت صفة الكرم تلازم سمعته في السكة الحديد منذ أن كان مأموراً في الإدارة الحكومية. ملأ أكفهم بالنقود ثم عادوا يحملون شاي المساء. كان سكر المكنة بارزاً بمكعباته والبسكويت الانجليزي الأسمر شاخصاً بكمية كبيرة. صب أحدهم الشاي في كوبي وأذاب مكعبات السكر وكان الوالد كنتباي يستزيده كلما وضع مكعباً. ولما فرغنا من الشاي أمرني بالاحتفاظ بمكعبات السكر والبسكويت الأسمر. ولما حان موعد العشاء هرعوا إلينا فلم يطلب سوى أطباق قليلة وجاء خادمه الذي كان يصحبنا بأكياس الزاد المصنوع في الدار والملفوف بعناية. وكل ما أذكره منه الآن الدجاج المحمر الذي كان يتخير منه الأطايب ويقدمها إلَي. ولما حان موعد نومه قادني جماعة الخدمة إلى قمرة أخرى غير بعيد.

وفي الصباح أرسل يطلب حضوري فحضرت أشرب معه الشاي وطالبني مجدداً بالإحتفاظ بالسكر والبسكويت. وفي حوالي التاسعة صباحاً توقف القطار في محطة كوستي فخفق قلبي لشد ما كنت أحن إلى أهلي وأتمنى أن أشهد طرفاً من العرس المقام. كان الشوق يغالبني كأني قد غبت دهراً. إستقبلنا ابنه الأكبر حسن بسيارتين ترك إحداهما لوالده الذي صحبته إلى دارنا. وقبل أن نصل إلى هناك توقف في البنك العثماني، الذي كان هو البنك الوحيد في المدينة. وعندما أقبل خارجاً منه حاملاً كيساً منتفخاً بالنقود.. إلتفت إلَى السائق، الذي غابت ملامح وجهه عن ذاكرتي الآن وقال «عندما يصل عمك إلى بيتكم هذا الكيس سيفرغ من النقود.» كانت بقايا العرس لا تزال في الدار التي لم يغادرها أهلنا بعد. علموا بوصول الأمير كنتباي قبل دخوله عليهم فتعالت الزغاريد. أقبل عليهم مسلماً يملأ كل كف بالنقود. أما أنا فنصيبي كان قبل الجميع حين كنت قابعاً بالسيارة في إنتظاره فأسقط في حجري ثلاثة

عشر ريالاً ونصف الريال. كانت أعظم ثروة هبطت عليَ حتى ذلك الحين. وعندما غادر الأمير كنتباي دارنا كان الكيس فارغاً كما توقع سائق العربة. ما زالت ذكريات ذلك اليوم تفعم جوانحي رغم مرور أكثر من خمسين عاماً.

«الكــلام كنتبــاي..
فحدثـــونا عـنه»

كان حسن كنتباي أبوقرجة مديراً لأحد المشاريع الزراعية بالنيل الأزرق حين قام بجولة في المناطق الواقعة جنوبي أم روابة. كان بصدد إستقدام عمال للقيط القطن حين توقف هو والمجموعة المرافقة في قرية صغيرة. حلوا ضيوفاً على بيت صغير متواضع. رحب بهم صاحب الدار وأبدى كرماً وبشاشة. وفي أثناء ترحيبه بهم أخذ ينادي «يا كنتباي.. يا كنتباي». ولم يلبث أن أقبلت فتاة في حوالي السابعة عشرة فأخذ يكلمها ماذا تفعل. فعجب الناس وسألوا الرجل ما إذا كان كنتباي هو تلك الفتاة فرد عليهم بالإيجاب، وقال، أعلم أن هذا الاسم لرجل ولكني سميت به ابنتي هذه لأنني آليت على نفسي أن أطلق هذا الاسم على أحد أبنائي. ولما لم يرزقني الله بولد سميت به ابنتي هذه. فأنا لا أنسى الأمير كنتباي الذي أنقذني من حبل المشنقة بعد صدور الحكم. وذلك بعد أن لاحت فرصة لنجاتي. فتابع القضية مجدداً حتى ثبتت براءتي من تهمة القتل. وتولى أمري بنفسه حتى نزع الأغلال عن رجلي وأخرجني من السجن. وكل ذلك دون أن يعرفني بصورة شخصية وكان مأموراً لمركز أم روابة. فعجب الحاضرون وأشاروا إلى مدير المشروع ابن كنتباي أبوقرجة. فتضاعفت فرحة الرجل بالضيوف وبالغ في إكرامهم ما بوسعه وعزم على الرحيل معهم هو وعشيرته لإلتقاط القطن. وهي المهمة التي جاءوا من أجلها. وأصبح في كل عام يأتي هو وأهله للعمل بالمشروع للإقتراب أكثر من آل كنتباي أبوقرجة.

كان كنتباي أبوقرجة في الطريق من أم غنيم إلى كوستى بسيارته الصالون الهمبر الجديدة. أشارت إلى السيارة امرأة وحيدة كانت واقفة في الطريق. أمر السائق

بالتوقف. ركبت المرأة الإعرابية لأول مرة في مثل تلك السيارة. أعجبها الزجاج والمقاعد الوثيرة. كانت مريضة في طريقها إلى المستشفى أوصلها وأوصى عليها من يهتم بأمرها ووضع في كفها مبلغاً من المال. عادت إلى أهلها بعد أيام معافاة صحيحة البدن فأنشأت تقول:

بـــركــــب الــبــضـــــاوي
مـــا هـــــو حـــمــــار بـــلاوي
يـــســـــلـــم كـــنـــتــــبـــاوي
عـقـــــاب الـديــــش هــــواوي

أما بخيت الحساني الذي إلتقيت به مصادفة وعرفت أنه كان قد عمل مع كنتباي في منزله بأم غنيم يقوم بأعمال الصيانة وينسج العناقريب. ويعمل على توفير حطب الوقود فقد أطنب في الحديث عنه. وكنت أصحبه إلى دارنا في كوستي لنتناول طعام الغداء سوياً وأطلب منه أن يتحدث عن الأمير. كان يتحدث ويتحدث ويتحدث بحماس واستفاضة ويختم الكلام بقوله: يا ولدي عمك دا يا كان ولي يا نبي».

روي بخيت أن جماعة من غرب أفريقيا وصلوا إلى أم غنيم ذات يوم. جاءوا مشياً على الأقدام. حفاة عراة يرتدون أطماراً نتنة. جلسوا تحت شجيرات غير بعيدة. كان كنتباي قد وصل إلى القرية ليلاً. علم الناس بوصوله في الصباح فتقاطروا كل واحد يحمل صينية الغداء، وذلك في ساعة تناول الوجبة. قدم هو من هناك خارجاً من داره يستند على عصاه ووراءه أربعة من الشباب يحملون صينيتين كبيرتين فوقهما طبقان مزخرفان في غاية الجمال. حجب كنتباي عينيه من الشمس بكفه اليسرى ونظر إلى بعيد. رأى الغرباء البؤساء المساكين جالسين. فأمر الشباب الأربعة بالتوجه إليهم بالطعام. إنزعج الحاضرون من ذلك الأمر وخافوا من ضياع تلك الوليمة التي يعلمون محتوياتها من اللحوم والدجاج والأسماك وأنواع الطبيخ والمحاشي والسلاطة. صاح

كنتباي في الشبان الأربعة الذين كادوا أن يغيروا اتجاههم «ودوها هناك.. ودوها هناك» مؤكداً رغبته في إطعام الوافدين الفقراء من مائدته العامرة.

يختم بخيت حديثه بقوله «كان يمكن أن يكتفوا ببقايا الطعام أو بأي صينية أخرى ولكن كنتباي أبى إلا أن يأكلوا طعامه، ألم أقل لك أن عمك هذا يا نبي يا ولي».

في أحد الأعياد المشهودة كان كنتباي يقف إلى جانب الإمام عبد الرحمن في مقصورته بحديقة القصر في الجزيرة أبا. يسلمان على الناس ويبادلانهم تهاني العيد. وفجأة تكاثر الناس فأخذ كنتباي يصيح بصوته الجهوري وينادي ابنه حسن وأعوانه «يا حسن يا حاج النور.. يا خابور». يحثهم على إحضار الطعام. كان كأنه في غيبوبة، لا يسمع ولا يرى فأخذ الإمام عبد الرحمن يربت على كتفه ويقول «يا كنتباي أنت لست في أم غنيم أنت في الجزيرة أبا». ثم لم يلبث أن أفاق والإمام يداري ضحكة بكم جلبابه.

وبمناسبة أم غنيم هذه إلتقى كنتباي أبوقرجة بأحد كبار الإداريين الإنجليز في بوفيه القطار. كانا قد عملا سوياً أو إلتقيا من قبل. تناول كل واحد منهما طعامه. ولما قدم الجرسون الفواتير تناولها كنتباي وسدد الحساب. فالتف إليه الإنجليزي محتجاً – فما كانوا هكذا يتصرفون – بقوله – «يا كنتباي هذه ليست أم غنيم» فأجابه «هذا هو السودان».

إجتذب مشروع أم غنيم الزراعي عدداً من الناس. جاءوا يبتغون الرزق. كان من بينهم سرحان النجار الحاذق الذي كان يحسن صنعته إلا أنه كان كسولاً مطولاً بطيء الإنجاز. إتفق معه الأمير كنتباي على أن يصنع قطعاً من الأثاث لإحدى زوجاته. كان يحدد المواعيد ويخلفها. يتذرع بمختلف الذرائع. فأخلف المواعيد التي حددها لكنتباي عدداً من المرات فضاق ذرعاً به. وفي يوم كان فيه كنتباي يتهيأ للسفر لبيت الله الحرام إستدعى سرحان يسأله فحار جواباً. وطأطأ رأسه. فوجه إليه صفعة

قوية فاجأته. فوضع كفه على خده وخرج حزيناً. يبدو أن الأمير قد تأثر كثيراً ورقَ لحاله فأرسل إليه يدعوه في الصباح الباكر. ولما أقبل طلب منه على الفور أن يعد نفسه للسفر معه إلى الحج على نفقته. لم يصدق الرجل وطار قلبه من الفرح حيث كانت كفارة الصفعة حجة لم يكن يتوقعها.

حاج النور كان من مرافقي كنتباي الدائمين وذراعه اليمنى في كل ما يتصل بقضاء حاجيات بيوته وتفقد أحوالها. وكان يذكر دائماً مواقف كنتباي ونوادره. وكان يطيب لي الجلوس معه ليروي. حدثني مرة أن الدار كانت خالية من الضيوف ذات مساء. وهذه حالة إستثنائية نادرة. فرشوا سريراً في الفناء الخارجي لكنتباي فاستلقى عليه. وفجأة نادى حاج النور لأن شخصاً ما يطرق الباب. ولما فتح النور الباب رأى حماراً يحاول إلتقاط حشائش جافة فيصطدم وجهه بالباب. ولما أبلغ كنتباي بالزائر الغريب طلب منه أن يأتي بشيء من حبوب الذرة ويقدمها إليه.

كانت قرية أم غنيم حرماً ممنوعاً دخول الغرباء فيه. فإذا تم ضبط أحد الإعراب وهو يمر من خلال أزقتها متوجهاً إلى النيل أو إلى أحد سكانها فالويل له. وقد حدث أن دخلها إعرابي لم يكن على دراية بالأمر. فأمسكوا به وأخذوه إلى كنتباي الذي أمر بجلده على الفور. فجيء بالعصا وانبطح الرجل على بطنه ونال عقابه. فنهض جالساً والدهشة تعلو وجهه فأمر كنتباي بإحضار طعام الإفطار له وبخدمته حتى أكل وشرب الشاي والقهوة. فأخرج كنتباي كيسه ومنحه خمسة جنيهات كاملة. كانت مبلغاً لا يستهان به. فتقبله شاكراً ومضى.

هذا غيض من فيض فحياة كنتباي كلها ظلت عامرة بالمآثر والمواقف والنوادر. كثير من الناس ما زالوا يحفظون ويرددون بحب وانفعال تلك الحكايات. وأهالي مناطق النيل الأبيض الذين كان يعرفهم ويعرفونه يطيب الأنس لهم بسيرته. يعطرون بها أماسيهم ويعمرون بها وجدانهم. وقد حضرت كثيراً من تلك المجالس التي لا

حديث لها سواه. وقد عبر أحدهم يوماً للذين إجتمع معهم قائلاً «حدثونا عن كنتباي يا جماعة.. الكلام كنتباي.»

تخرج كنتباي في مدرسة القطينة الابتدائية في ديسمبر عام 1907م. وكان والده قد عاد من المنفى في نفس العام. رآه لأول مرة فعندما سافر والده في تلك الرحلة المشؤومة كان عمره ما بين الثانية والثالثة. ولدى عودته ألفاه فتى في حوالي السابعة عشرة من عمره. كانوا الدفعة الأولى في تلك المدرسة فقد قبلوهم بعد أن تقدمت بهم السن قليلاً. والواضح أنهم قد إستفادوا كثيراً من تلك المدرسة وهم في تلك السن. وحذقوا القراءة والكتابة بالإضافة إلى الدروس الدينية الفقهية وشيء من الحساب. واكتسب كنتباي قدرات أهلته لأن يلتحق بمدرسة نواب المآمير ويتخرج فيها دون كبير عناء. وكان الإنجليز قد عرضوا عليه أن يلتحق بالأقسام الفنية في كلية غردون إلا أن والده رفض ذلك واصطحبه على الفور إلى أراضيه الزراعية في أم غنيم. وقد إستفاد من تلك الفترة تحت إشراف والده واكتسب كثيراً من المعارف والخبرات. فقد كان والده مدرسة في الحياة لا تماثلها أخرى. وقد زوجه والده أول أمره من بنت عمه فاطمة بنت الأمير نصر كاشات، التي لم تعش طويلاً فتوفيت في النفاس. وظل أهلنا يذكرون جمالها وكمالها حتى وقت قريب. وقد عاشت بعدها أمها أم الحسن بنت كمبال. وهي من أهالي المسلمية. إلا أن وفاة ابنتها تسببت في اختلالها نفسياً حتى توفاها الله بأم غنيم.

أمضى كنتباي أبوقرجة سنوات قليلة مع والده في الزارعة بأم غنيم. إكتسب خلالها خبرات واسعة وتعرف على المجموعات السكانية التي كانت تجاورهم. كما عمل لفترة قصيرة عمدة على القرية. تلك العمودية التي إنتزعها أبوقرجة حماية لجماعته ولإضفاء نوع من الهيبة على قرية أم غنيم. وكان أهل الشاطئ الغربي للنيل الأبيض يشاهدون ذلك العمدة الصغير راكباً حماره متوجهاً إلى الدويم عاصمة

المديرية. وظلوا يذكرون أريحيته وكرم أخلاقه وهو يلبي مطالب المساكين الصغيرة من سوق المدينة. ثم لم يلبث أن استأذن والده في السفر إلى الجنوب ليجرب حظه في التجارة. وكان قد سبقه إلى هناك والدنا وعمنا حسين أبوقرجة وعمنا مصطفى ود حسين ود عثمان. ويبدو أن كنتباي لم يصادف نجاحاً في التجارة فعاد بعد وفاة والده في عام 1916م ليلتحق بمدرسة نواب المأمير في كلية غردون. وكان يتم الإختيار لهذه المدرسة وفق معايير محددة كان كنتباي مستوفياً لها. وتخرج فيها نائباً للمأمور. ومنذ بداياته الأولى في العمل أبدى تفوقاً ملموساً وشجاعة أدبية ونزوعاً للقيادة والإدارة لفتت أنظار المستعمرين الإنجليز فأخذوا يكنون له إحتراماً وتقديراً ويعملون لشخصه ألف حساب. ويا ليتنا لو عثرنا على ملف خدمته في دار الوثائق لانكشف لنا الكثير من تلك التجربة.

بعد وفاة زوجته ابنة عمه الأمير كاشات تزوج كنتباي من بنت عمدة الشوال الشيخ مصطفى حسن حسين. كان والده أميراً لرآية أولاد الريف في المهدية. وتعود أصوله إلى الجعافرة المصريين. وهي خالة المرحوم الإمام الهادي المهدي الذي ربما يكون قد ولد في نفس ذلك العام الذي شهد زواج كنتباي (1919م). وكان كنتباي في أوائل سنوات عمله بحكومة السودان. وقد أقيم إحتفال كبير بهذه المناسبة التي حضرها كثير من أهله الذين جاءوا من القطينة، يصحبهم فنانها الكبير عهدذاك الجاك ود عبد الوهاب. كان فناناً ذائع الصيت منذ نهايات القرن التاسع عشر. سبق مرحلة الحقيبة وأحيا حفلات أعراس ما بين القطينة وأمدرمان. برع في الغناء والضرب على الدلوكة. يتلفع بالثوب ويعتمر العمامة ويستغرق في ألحانه ذات الطابع الحماسي.

قاد زواج كنتباي إلى زواج أخيه حسين من شقيقة العروس. إلا أن الزيجتين لم تسفرا عن إنجاب الولد فانفضتا في وقت جد قصير. وفي أثناء تطوافه في مراكز شرق السودان توفي أحد أقربائه من آل النصري — وهو علي فونج النصري - الذي كان أحد

كبار تجار القضارف والذي يرد اسمه في أشعار صديقه الحردلو ود أبو سن. خلف علي فونج بنتاً وحيدة فتزوجها كنتباي فانجبت له ولدين وبنتاً. ثم لم يلبث أن تزوج السارة بابكر بدري. وكانت مطلقة لإبراهيم بدري الذي توعده عمه الشيخ بابكر بأن يزوجها بمن هو أفضل منه. ثم أعقبها بإحدى قريباته وهي آمنة بنت عيسى ود غالي. وكانت مطلقة للشريف يوسف الهندي. وقيل إنه طلقها لكنتباي ليتزوجها ورأى أنه سينجب منها بنتاً وولداً (وقد أنجب منها بالفعل عبد الرحمن ومريم). ولكن مصادر أخرى قالت إن الشريف يوسف غضب من كنتباي لزواجه من مطلقته حتى إسترضاه عمه زكريا عثمان. وكانت آخر زوجاته السيدة آمنة بنت السيد علي المهدي. تزوجها بناءً على رغبة عمها الإمام عبد الرحمن ولم تنجب له.

تنقل كنتباي بين مدن كثيرة يسبقه الصيت المدوي لشخصية والده ودوره ومآثره في الثورة المهدية. فيجدون فيه ما رأوه أو ما سمعوه عن ذلك القائد الفذ. وفي كل المدن التي عمل فيها حافظ على تراث آبائه و إهتمامهم بالناس فكانت داره مفتوحة يقضي الحوائج ويغيث الملهوفين ويستقبل الضيوف بمختلف مشاربهم وقبائلهم وأوضاعهم الإجتماعية. وكان أكثر ميلاً للضعفاء والمعوزين.

كانت حوادث القتل فاشية في أيامه تلك تتبعها عمليات الثأر المستمرة ثم الحروبات القبلية التي كان يروح ضحيتها العشرات. وكثيراً ما كان كنتباي يتدخل بصفته الشخصية ليصلح ما بين القبائل بما يرضي جميع الأطراف. وكان مجرد تدخله يبث في النفوس طمأنينة وإحساساً بالعدل وروح التسامح.

حدث مرة أن زارنا في كوستي رجل صالح من كسلا كان قد حل ضيفاً على جار لنا من ذوي الفضل والمروءة. فأبلغه بأنه إعتاد أن يتناول طعام الغداء مع جيرانه الذين هم نحن. فسأل عنا فأجابه. فأردف السؤال عن علاقتنا بكنتباي أبوقرجة. ولما أجابه سر سروراً عظيماً وانبسطت أساريره وتهلل وجهه. كان ذلك الرجل الصوفي خليفة

من خلفاء الميرغنية. جلس معنا يتناول الطعام متسماً بكل مظاهر المتصوفة وسلوكهم الراقي.

وبعد أن فرغنا من الطعام أخذ يتحدث عن كنتباي. قال إنه كان شاباً حين ارتكب جنحة لم يفصح لنا عنها. ومثل أمام المأمور كنتباي أبوقرجة بمكتبه في مركز خشم القربة. فأدانه وحكم عليه بالسجن وطلب منه الإنتظار خارج المكتب بعد أن علم أنه غريب في البلدة. ولما فرغ من النظر في القضايا المطروحة أمامه استدعاه وحرر له ضمانة واستدعى الشرطي ليأخذه إلى منزله الحكومي يقيم مع المضامين في حديقة الدار بمثابة ضيف له حتى انقضت مدة العقوبة وعاد إلى أهله يلهج بالشكر. وحينما كبر واتسعت تجاربه أدرك حجم المعروف الذي أسداه إليه ذلك الرجل وما يتحلى به من سمات العظمة وسمو الروح.

شذرات من حياته
الزاخرة العريضة

كانت داره في جميع المدن التي عمل فيها مفتوحة تغص بالضيوف وخاصة في المساء حيث يؤمها الشعراء والمادحون والأدباء. ويهرع إليها الناس يستمعون إلى الشعر والمدائح والأحاديث الطلية. وكان هو نفسه محدثاً بارعاً، فكهاً ذا دعابة يحفظ كثيراً من الشعر والأمثال والمأثورات. كان قارئاً نهماً تغص مكتبته بأمهات الكتب في الدين والسياسة والأدب. وقد رأيت مجموعة من كتبه – ونحن بعد إيفاع – لدى ابنه الأصغر صديق من بينها «ديوان المتنبي» «ورباعيات الخيام». كانت مجلدة بجلد فاخر وعلى ظهر الكتاب كان اسمه مكتوباً بأحرف مذهبة.

أما في سنكات فقد وجد الأمير كنتباي حفاوة ورعاية وتكريماً من جانب المرأة الصالحة الشريفة السيدة مريم الميرغنية ابنة السيد محمد هاشم بن السيد محمد عثمان الميرغني الختم (الكبير)، التي اشتهرت بالورع والتقوى والزهد والتصدق وإكرام الضيف وأعمال البر والإحسان. وقد أفاضت في إكرام كنتباي طيلة فترة عمله في مركز سنكات. وكانت تصر على أن يستخدم سيارتها لا سيارات الحكومة. وتدعوه لحضور مجالس العلم والأدب في دارها. وقد سمى كنتباي إحدى كريماته باسمها تقديراً لفضلها وجميل صنيعها (كما ورد في موضع آخر من الكتاب).

ويذكر الناس أن السيد عبد الرحمن المهدي كان حين يقصد الأصطياف في أركويت تحتفي الشريفة مريم بقدومه وتقوم بواجبات الضيافة والتكريم. لم تكن نفسها الزكية لتنطوي على مرارات تاريخية. وتلك هي أخلاق آل البيت بلا ريب.

بعد تقاعده من الخدمة كان كنتباي كثيراً ما يصحب الإمام عبد الرحمن المهدي



الشريفة مريم بنت السيد محمد هاشم الميرغني

للاصطياف في أركويت. وقد روى محمد خير البدوي الإعلامي المعروف – الذي كان موظفاً بمصلحة الفنادق والمرطبات – تجربة مثيرة في لقائه مع الإمام عبد الرحمن في ذلك المصيف عام 1946م. وقال إن الأمير كنتباي والشيخ بابكر بدري ودفع الله شبيكة كانوا في صحبة الإمام.. يشكلون العصب الرئيسي لمجموعته ومجالسه التي تتناول الأدب والتاريخ الإسلامي والتطورات السياسية في السودان. وأشار إلى أن مولانا القاضي عبد الرحمن النور كان مصدر الفكاهة والإيناس لإلمامه بكثير من الملح والطرائف[1].

ولما تم نقل المأمور كنتباي من سنكات إلى قلع النحل شق الأمر على أهل المدينة بلا إستثناء وأسفوا غاية الأسف حتى فتيات الخدمة في دار الشريفة الرحيبة، بلغ بهن الحزن مبلغاً جعلهن يرتجلن أغنية مرحة مترعة باللوعة والحنين في وداعه.

يا شولقـــــــــي النـــــاير[2]

أرجـــــــــــع تعـــــال

قلـــــع النحـــــل طـــــــاير

ولهن العذر في ذلك فقد كن يتابعن بشغف ومن طرف خفي روحاته وغدواته في زيه الرسمي وسمته الأنيق وقوامه الفارع وشبابه اليانع. أصبحت الأغنية جزءاً من تراث أغاني البنات في بلدة سنكات.

عندما إنتقل كنتباي أبوقرجة مأموراً لمركز خرطوم الثلاثينات من القرن الماضي بدأت تلوح مظاهر مجتمع ثقافي جديد. فقد تراخت قبضة السلطة التي فرضتها أحداث العشرينات. وأخذ المثقفون يتلمسون مواقع خطى جديدة تقودهم إلى نهاية النفق. صدرت مجلة «الفجر» بعد أن عاد عرفات من الخارج وتلتها «النهضة» وبرز

1. صحيفة السوداني عدد الجمعة 2013/1/18م.
2. عقد له فصوص من الذهب كانت تضعه الفتيات على نحورهن.

كتَاب ومفكرون. وبات للشعر سوق زاخرة وصعد الخليل بالغناء إلى مراقٍ عبقرية ليخلفه حسن عطية فيطرق أبواباً جديدة تمثل قفزةً كبرى في فن الغناء.

كان كنتباي مرتبطاً بالسيد عبد الرحمن المهدي ومجالسه بأمدرمان. بل كان أقرب الناس إليه على المستويين العام والخاص. تلك العلاقة التي إمتدت منذ عشرات السنين وما فتئت تزداد عمقاً وثباتاً. أما مجلسه الخاص بداره في الخرطوم فكان يغص بالموظفين المثقفين ويزينه الشاعر الضخم محمد سعيد العباسي.. صديق عمره. أما حامد العربي فقد كان المنشد الصيدح الحاضر في كل الليالي. وكان الأمير كنتباي لا يفتأ يستزيده من رائعة العباسي «عهد جيرون». ثم لا يلبث أن ينثني طالباً المزيد من الخرائد وعيون الشعر والمدائح الصاهلة. وحامد العربي - الذي تسيد عرش الإنشاد في السودان طويلاً كان لا يبرح الدار إلا قليلاً ثم يعود ليصحبه الأمير في حله وترحاله. وفي الأحوال النادرة كان العباسي يترنم ثم يشدو بإحدى قصائده فتنحبس الأنفاس وتخشع القلوب، وخاصة في قصيدته «مليط» التي كان لها وقع خاص في نفوس الزوار الذين إعتادوا على حضوره في دار الأمير. كان العباسي يومذاك يتسنم ذروة الشعر وإمارته في السودان. وقيل إن طريقة العباسي في الإنشاد تلقاها من الشاعر إبراهيم التليب. وقد إستفاد منها خليل فرح واستخدمها في قصيدة «عبدة» للشاعر عمر بن أبي ربيعة. وهي إحدى قصيدتين يتيمتين مسجلتين للخليل.

بعد طوافه في كثير من المدن السودانية مخلفاً السيرة العطرة وحسن الأحدوثة تقاعد كنتباي أبوقرجة خلال النصف الأول من سنوات الأربعين. وكان قد إعتزم إقامة مشروع زراعي بأم غنيم. ويبدو أنه بحث الأمر مع الإمام عبد الرحمن الذي قال في مذكراته إن الحكومة رفضت فكرة المشروع في أول الأمر لأسباب واهية لا مبرر لها. إلا أنها عادت ووافقت على التصديق بإقامته. فنجح نجاحاً كبيراً وأسفر عن تغيير أحوال أسرته وأهله الذين من حولهم. وذلك في شراكة مع صهره السيد حسن



كنتباي مع الإمام الهادي والمحجوب يتقدمون بالتهنئة للرئيس المصري
محمد نجيب بمناسبة نجاح ثورة يوليو



كنتباي يهز بسيفه في مجلس للسيد عبدالرحمن المهدي بينما ينشدهم
عكير الدامر إحدى قصائده

إدريس هارون. وفي النصف الأول من خمسينات القرن العشرين بلغ النجاح ذروته حين ارتفعت أسعار القطن نتيجة للحرب الكورية. وغدا الناس أثرياء بمقاييس تلك الأيام. وتطورت الحياة الإجتماعية في القرية وباتت قبلةً للكثيرين. وقد وصف بعض الناس كنتباي ب(عوج الدرب) لأنه ما من مسافر إلا ودلف نحو القرية ليجد الرعاية والإكرام وحسن الضيافة. وقد زارها كثير من الحكام وكبار الموظفين وفي مقدمتهم مدير مديرية النيل الأزرق – غداة الإستقلال – وذلك بدعوة من الأمير كنتباي. أما الإمام عبد الرحمن فكانت زياراته لأم غنيم تتكرر كلما زار الجزيرة أبا. وكان كنتباي يحتفي بمقدمه ويدعو على شرفه أعيان مدينة كوستي وتجارها وشعراءها (إبراهيم العبادي وحسن خلف الله) فتذبح الذبائح وتقام الولائم ويحتفل القاصي والداني في أيام لا تزال ذكراها تتردد على ألسنة الناس. وكان للمادحين مواسمهم أيضاً. يقبلون فيعطرون أماسي القرية بمدح الرسول (ص) والإمام المهدي والإمام عبد الرحمن.

خلق الأمير كنتباي مجتمعاً فاضلاً متماسكاً متكافلاً في القرية مع إخوته أبناء الأمير أبوقرجة. وقد مارس قدراته ومعارفه الإدارية والقانونية لضبط الأمور. فكان يعقد مجلساً لمناقشة كل ما يطرأ على الناس من أحوال أو ما يشتجر بينهم من خلاف. ويشركهم بصورة واسعة في النقاش وإبداء النصح والرأي ويعلن حكمه على رؤوس الأشهاد فيتقبله الناس راضين. وكثيراً ما كان يعود فيسترضي من أحس بظلم أو بضيم حاق به. كان واضحاً، صريحاً، عادلاً في أحكامه.

وكانت العشائر العربية المقيمة في ضهاري قرية أم غنيم كثيراً ما تقصد الأمير كنتباي لحل مشاكلها والتدخل في نزاعاتها بالإستماع إلى نصائحه وتلقي نواله في السنين الماحلة. وقد أدخل أراضيهم في المشروع الزراعي وقسَم بينهم الحواشات فتحسنت أحوالهم المادية والإجتماعية.

كنـــتباي ومـــشهد
من حـــوادث مـــــارس

في يوم الأول من مارس عام 1954م حوالي الرابعة أو الخامسة مساء جلس الشيخ بابكر بدري يتناول طعام الغداء في داره بأمدرمان. كان شيخاً طاعناً في السن في حوالي الثالثة والتسعين.. إلا أنه كان محتفظاً بحيويته وتوقد ذهنه.. متابعاً للتطورات السياسية التي كانت تعصف بأجواء الخرطوم عقب الانتخابات التي فاز بها التيار الاتحادي. كان الغضب يتملك الأنصار لأن الانتخابات لم تكن عادلة من حيث توزيع الدوائر والتدخل المصري السافر إلى جانب الإتحاديين. في ذلك اليوم وقعت أحداث دامية بالعاصمة. أخذ الشيخ بابكر بدري يتابعها بالهاتف. دخل عليه ابنه يوسف العائد من الخرطوم لتوه والذي شاهد الأحداث ومصرع حكمدار البوليس مصطفى المهدي – صهر الأمير كنتباي – أصغى الشيخ بابكر بدري للتقرير الشفهي الذي قدمه ابنه يوسف. لم يقاطعه حتى أكمل حديثه ثم التفت إليه وقال «الآن السودان يتجه نحو استقلاله التام[1]».

كانت الرسالة واضحة في محتواها. وقد وصلت إلى المعنيين. فحزب الأمة الذي يعتقد بصورة جازمة أنه يمثل الأغلبية مستعد لبذل الدماء رخيصة من أجل حرية الوطن ف»السودان للسودانيين».

في مذكرات الإمام عبد الرحمن المهدي ورد تقرير واف مقتضب حول تلك الأحداث، وقال (لقد كانت الفترة ما بين نهاية الإنتخابات وأول مارس فترة مشحونة بأسباب الضيق والتبرم لحزب الأمة والإستقلاليين. فقد بالغ الحزب الوطني الإتحادي

1. رواية أبوقرجة كنتباي.

بفرحته بالإنتصار الذي عده إنتصاراً للدعوة الاتحادية. وفي خلال هذه الفترة زار السودان المرحوم الصاغ صلاح سالم وتنقل بين جهات البلاد المختلفة مدعماً تفسير نتائج الانتخابات بأنها تأييد الشعب السوداني للاتحاد مع مصر فاحتج حزب الأمة على تلك الزيارة وأبلغ احتجاجه للحاكم العام ودولتي الحكم الثنائي ورمى الزيارة بأنها خرق واضح للإتفاقية. وفي هذه الفترة أعلنت الحكومة أنها سوف تحتفل إحتفالاً رسمياً بإفتتاح البرلمان في أول مارس وأن الدعوة قد وجهت إلى رؤساء وممثلي بعض الدول بحضور الإحتفال وفي مقدمتهم اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية المصرية. وأخذت الحكومة تعد العدة لهذا اليوم وحدها ولم تشأ أن تشرك المعارضة في شيء. ثم أعلنت عن برنامج الاحتفال وكان عبارة عن حفلات رسمية وأخرى شعبية في مناطق نفوذ حزب الحكومة.

أما المعارضة وفي مقدمتها حزب الأمة فقد رأت فكرة الإستقلال ستضار كثيراً إذا اختفت المعارضة في هذا الموقف. واستناداً إلى منهاجها في إبراز الدعوة الإستقلالية خارج البرلمان وداخله قررت أن ترتفع أعلام الإستقلال عالية في يوم الإفتتاح. وقرر حزب الأمة تسيير موكب شعبي كبير يستقبل اللواء محمد نجيب في مطار الخرطوم يحمل المئات من أعلام ولافتات الإستقلال ويهتف بشعارات محددة تمجد الإستقلال وتعبر عن إنعقاد العزم لتحقيقه.

كانت الحكومة على علم بإستعداد حزب الأمة لتسيير هذا الموكب. بل إن موكباً عظيماً قد سار قبل أول مارس بيوم واستقبل بعض وزراء مصر الذين سبقوا اللواء نجيب إلى السودان. وكان موكباً منظماً مسالماً أكمل سيره المحدد وأدى غرضه بسلام. وفي صبيحة أول مارس تدفقت إلى مطار الخرطوم آلاف عديدة من المواطنين من كل حزب. واصطف موكب حزب الأمة في المكان الذي حددته له الحكومة وبقي في موضعه ذلك يحمل الأعلام ويهتف بالإستقلال حتى اتصل بقادة الموكب من

قال لهم إن اللواء نجيب قد أخذ إلى قصر الحاكم العام بطريق آخر وليس في وسع الإستقلاليين إسماعه صوتهم.

وهنا تقرر أن يسير موكب حزب الأمة إلى قصر الحاكم العام بأعلامه وشعاراته وهتافاته في النظام الذي إعتادت عليه مواكبه ليسمع اللواء نجيب صوت الإستقلال. لم يدر بخلد أحد من قادة الحزب أن الحكومة ستدفع بالبوليس على مقربة من القصر ليفرق الموكب بالقوة. فاصطدم البوليس بالموكب مفجراً في مجموعاته القنابل المسيلة للدموع والعصي الغليظة ثم بالرصاص. كانت المفاجأة محزنة فتراجع عندها بعض المواطنين من أعضاء الموكب عن مكان الخطر والتفت الصفوف الأولى التي لحق بها الأذى بأفراد البوليس دفاعاً عن النفس. وحدثت معركة قصيرة إستشهد فيها عدد من أعضاء حزب الأمة والبوليس. ومن أعلى منبر للقضاء في الخرطوم أصدرت محكمة الإستئناف العليا برئاسة رئيس القضاء حكمها في قضية أول مارس بحبس أربعة من رجال الحزب لمدد طويلة وكان في مقدمتهم نائب سكرتير حزب الأمة الأستاذ عبد الله عبد الرحمن نقد الله متهمين بالإستمرار في قيادة الموكب في حالته النفسية الثائرة إلى جهة القصر . كما حكمت على أحد كبار أصحاب الإمام عبدالرحمن - الشيخ عوض صالح - بالإعدام وبرأت المحكمة العليا حزب الأمة من تدبير الحادث ثم لامت الحكومة وانتقدت مسلكها مع جماهير الموكب).

كان الإنجليز لا يزالون قابضين على السلطة مع وجود الحكومة التي ترأسها إسماعيل الأزهري في إطار الحكم الذاتي. وقد كتب الحاكم العام سير روبرت هاو تقريراً موسعاً لوزارة الخارجية البريطانية حول تلك الأحداث[1] جاء فيه أن المخاوف من المهدية قد تجددت ومن المحتمل أن يكون حزب الأمة قد أضعف فرصه في الحصول على السلطة عبر الوسائل الدستورية العادية. وأن سلاحهم الأكثر فاعلية

1. مجموعة الوثائق البريطانية — مركز عبد الكريم ميرغني، ترجمة الدكتور فيصل عبد الرحمن علي طه.

الآن هو إثارة الإضطرابات. وقد حققوا هدفهم أثناء زيارة محمد نجيب إلا أن العلاقات بينهم وبين جهاز البوليس أصبحت مريرة للغاية. وأن ما حدث يوم الإثنين الرابع من مارس كان من الممكن أن تتصاعد خطورته حيث كان الأنصار أقوياء وشجعان وثبتوا أمام إطلاق النار من جانب البوليس. وفي فترة معينة أثناء وقوع الإضطرابات وبعد مقتل القومندان البريطاني فقد رجال الشرطة الثقة بأنفسهم تماماً. وإذا قدر للأنصار أن يندفعوا بقوة أكبر كان من الممكن أن يقتحموا القصر. وقد وصل بالفعل جماعة منهم إلى الحدائق القريبة من المنزل. إنهم هادئون الآن ويلعقون جراحهم. ولكن لا يمكن إستبعاد وقوع حوادث أخرى أكثر خطورة أو حتى مذبحة إذا ما قرر حزب الأمة القيام بعمل ولو أن ذلك غير منظور في المستقبل القريب. وأشار التقرير إلى أن المعتدلين أمثال المفكر إبراهيم أحمد هددوا بحمامات الدم. بينما أبلغ ميرغني حمزة زواراً أجانب بأن الإضطرابات كانت بسبب عدم ولاء الخدمة المدنية في السودان- وهو يعني بذلك البريطانيين. ويعزو التقرير الذي تم إرساله كبرقية الإضطرابات للتدخل المصري.. حيث أن مؤيدي حزب الأمة تستفزهم رؤية مجموعات من السياسيين المصريين تروح وتجيئ بالإضافة إلى خطب صلاح سالم والإختراق الذي يتخذ أعمال الإحسان وتقديم السلاح وتسهيلات التدريب).

وهناك باحثون يعتقدون بصورة جازمة أن قيادة حزب الأمة أعدت لهذه المعركة المحدودة بذكاء ومهارة. ولم تكن تلك الأحداث مجرد صدفة. ورأت أن الحزب حشد لها مؤيديه بصورة غير مسبوقة وأجرى إتصالات مع كبار رجال الشرطة وفي مقدمتهم مستر ماكوين قومندان البوليس والحكمدار السوداني مصطفى المهدي. وكلاهما لقي مصرعه وراح ضحية تلك الأحداث الدموية. وأشار الباحثون إلى إجتماعات سرية أجرتها قيادة الحزب على أعلى مستوى مع مستر ماكوين ومصطفى المهدي في منزل الأخير. وقالوا إن هذه الإتصالات أفضت إلى إتفاق سري يقضي



صورة نادرة يبدو فيها السيد الصديق المهدي في حديث ساخن مع حكمدار البوليس مصطفى المهدي الذي لقي مصرعه في الأحداث

بعدم حمل رجال الشرطة للأسلحة النارية في أثناء متابعتهم للموكب.. الأمر الذي مكَن شباب الأنصار من التصدي لقوات الشرطة بأيديهم العارية وأوقعوا في صفوفهم قتلى وجرحى. وذلك قبل أن يتمكن رجال الشرطة من أخذ السلاح من مخزن مجاور ويطلقون النيران عليهم ويقتلون ويجرحون منهم مجموعة لا يستهان بها. إلا أن شباب الأنصار إستطاعوا أن يفجروا انتفاضة محدودة في قلب الخرطوم كان لها ما بعدها.

رأت الإدارة البريطانية في تقريرها الذي أوردنا ملخصاً له أن حزب الأمة حقق إنتصاراً كبيراً. ولكن في الواقع أن النجاح كان أكبر من ذلك كثيراً. فقد أخذت القضية بعداً في غاية الأهمية والجدية رغم الهجوم الذي تعرض له الحزب من الصحف الموالية للتيار الاتحادي.

كانت عائشة والدة المرحوم مصطفى المهدي وثيقة الصلة بالأمير كنتباي. فقد كانت ابنة خاله عثمان النصري وحفيدة عمه الأمير شيخ فضلو أحمد. وكان يمحضها مودة خالصة وعطفاً سابغاً. وأولى أبناءها كثيراً من الرعاية والإهتمام. فكان بعضهم يتنقل معه أثناء خدمته في الحكومة.. مشاركاً في تربيتهم وتعليمهم. وكان لمصطفى منزلة خاصة لديه حيث صحبه في جميع مراحل تعليمه حتى حصل على وظيفة ضابط شرطة. ومن ثم زوجه من ابنته فاطمة التي عاشت معه حتى واقعة مصرعه الأليم. وقد تزوجها في وقت لاحق السيد محمد خليل بتيك محافظ الخرطوم عهدذاك وأنجب منها ولداً واحداً.

وفي اليوم التالي لتلك الأحداث قرر السيد الصديق المهدي التوجه إلى القطينة للقيام بواجب العزاء لأسرة الفقيد. فصحب معه كنتباي وعدداً من رجال الأنصار. وعندما وصلوا وعلم الناس بذلك إشتد العويل والنواح باعتبار أن الأنصار مسؤولون عما حدث. ورفضت أم الفقيد ونساء العائلة الخروج إلى الديوان الخارجي لمقابلة

السيد الصديق. فما كان من الأمير كنتباي إلا أن دخل عليهن مشرعاً عصاه الغليظة «الشعبة» وانهال عليهن بالضرب الشديد الموجع فركضن حافيات مرغمات ليتلقين العزاء من السيد الصديق. كان هذا السلوك جزءاً من شخصية كنتباي في حسم الأمور. فقد كان كثيراً ما يلجأ للعصا في المواقف التي تتطلب ذلك.

كان كنتباي أبوقرجة أحد أبرز شيوخ الأنصار وقيادات حزب الأمة.. إلا أنه لم يكن ميالاً للأضواء. وكان قريباً من الإمام عبد الرحمن المهدي. ربما كان أقرب الناس إليه. فكان الإمام يؤكد دائماً في مجالسه الخاصة أن الصديق - إبنه - وكنتباي هما الشخصان الأقرب إلى نفسه. وكان كنتباي يشارك كثيراً في وفود حزب الأمة المحلية والخارجية. يصطحب معه السيد الهادي في كثير من المهمات بتوجيه من السيد عبد الرحمن لاكتساب التجارب المتنوعة والخصبة من الأمير كنتباي. وشاهد الناس كنتباي كثيراً وهو يخطب في جموع الأنصار في فصاحة وإبانة مرتجلاً الحديث. فقد كان زعيماً منقطع النظير.

كان يقضي معظم ساعات النهار يومياً مع الإمام عبد الرحمن في سرايا الخرطوم أو في أمدرمان. كانا متلازمين كتوأمين حتى توفاهما الله – عليهما الرحمة – في ميقاتين الفارق بينهما أربعة أشهر.

مأســــــــاة آل ســــــــنادة

مأســــاة آل ســـنادة

ترجل العبيد من فرسه وهو يلهث. كانت قد تلقته كوكبة من فرسان الأنصار خارج المعسكر بجبال قدير. قدموا له ماء، خلطوه بالطين خوفاً من الأذى. فقد بلغ به الظمأ مبلغاً دونه الهلاك. إلا أنه كان يردد والدموع تتساقط من عينيه "أنا مظلوم.." "ودوني لأولاد عتمان.. ودوني لأب قرجة" "أهلهم كتلوا، سنادة ومحمد كتلوا والبنات ساقوهن.. أنا مظلوم".

بعد الإستماع لهذه الاستغاثة عرف فرسان الأنصار هوية الرجل. ركض أحدهم بفرسه نحو المعسكر مسرعاً. توجه إلى مكان الأمير أبوقرجة. ألفاه جالساً وإخوته يحيطون به وعدد آخر من الأنصار. أوجز الرجل رسالة العبيد فنهض الرجال في حالة من الغضب. سرت جلبة في المعسكر وبلغ الخبر الإمام المهدي الذي أذن لأبوقرجة بالتوجه إلى مسرح الأحداث. صحب أبوقرجة إخوته وثلة من الفرسان. كان العبيد دليلهم في الطريق الذي قادهم إلى تلك المنطقة. لم يلبث أبوقرجة وإخوته أن عثروا على الجناة فأوقعوا بهم وانتزعوا منهم النساء السبايا والأموال التي استولوا عليها. وتأكد لهم مقتل سنادة وابنه محمد وشيخ جودة زوج ابنته آمنة وأفراداً آخرين من العائلة. لم يضيعوا وقتاً فأخذوا النساء في الحال والتو واسبغوا عليهن الحماية وحفظوا لهن أموالهن.

قدم نعوم شقير رواية مختصرة لما حدث في أبوحراز – الواقعة على بعد 45 كيلومتراً جنوب غربي الأبيض - فكتب يقول (كان أول من ثار على الحكومة في كردفان المكي ود إبراهيم – من مشايخ حمر – هاجر إلى المهدي في قدير فبايعه ورجع منه أميراً على قومه في 10/جمادى الأولى سنة 1299هـ - 30/مارس 1882م. وجد البكباشي

نظيم أفندي مع نفر من العساكر المنظمة والباشبوزق يجمع الضرائب في دار حمر.. فحرض قومه على عدم دفعها وطرد نظيم أفندي من الدار. فلجأ إلى أبي حراز حيث كان محمد أغا رحمة الشايقي محافظاً مع نفر من العساكر. وجد البديرية أهل تلك الجهة قد تجمعوا على شيخهم حامد ود السنجق في منهل المشقة حوالي ساعتين من أبي حراز. حاصروا البلدة فخرج إليهم العساكر والأهالي في 9/أبريل 1882م.. فردوهم على أعقابهم وتبعوهم إلى أبي حراز. اعتصم العساكر في ديوان الحكومة والأهالي في الجامع. فحصروهم في المكانين المذكورين. فلما أرخى الليل سدوله فرّ العساكر إلى الأبيض فدخلوها في 10/أبريل. بقي أهل البلدة محاصرين في الجامع ثلاثة أيام حتى اشتد بهم العطش والجوع فسلموا).

أما يوسف ميخائيل فقد رسم في أوراقه صورة مأساوية ومشهداً كاملاً لما حدث لبلدة أبوحراز حين إقتحمها رجال القبائل، وذلك بعيد أن بعث الإمام المهدي برسله إلى قبائل كردفان بأن ينتفضوا ضد الحكومة (وليس ضد الأهالي). وكان ذلك بداية للمخطط العسكري الثوري للإمام المهدي بإشعال الحرائق في مختلف المناطق وإرباك قوات الحكومة.

لما كانت لغة يوسف ميخائيل ممعنة في محليتها الكردفانية المحببة التي ربما تصعب على بعض القراء رأيت ضرورة تعديلها شيئاً ما. وهو يقول (عند طلوع الفجر هجمت العربان على بلدة أبوحراز. وتعالت أصواتهم ووقع حوافر خيولهم. فدخلوا البيوت في حالة من الهياج وأخذوا يقتلون الرجال والنساء. والذين أفلتوا من الموت فروا رجالاً ونساء ولم يتمكنوا حتى من أخذ قليل من الماء. تركوا وراءهم كل ما يملكون من أموال ومقتنيات. وانشغل العربان بنهب الأموال والرقيق والمواشي وكل الموجودات من جميع الأنواع. وفي الوقت نفسه كانوا يمعنون في الفتك بالناس ويمارسون ذلك عشوائياً. لم يفرقوا بين الرجال والنساء. أخذ الناس يهربون إلى خارج البلدة بلا ماء ولا زاد..

في حالة لم تشهدها منطقة كردفان من قبل. كانت أبوحراز مركزاً كبيراً وبندراً عامراً بالسكان. كان أغلبهم من الدناقلة. قليل من الناس تمكنوا من حمل ماء على أكتافهم أو على ظهور الحمير. أما أغلب الناس فقد هربوا بأيدٍ خالية من الماء والزاد. وقال يوسف ميخائيل إن الشيخ عبد الرحيم أبو دقل – وهو أحد زعماء قبيلة حمر كان موجوداً بتلك الجهات حين بلغته أخبار تلك الحوادث. فتوقف بانتظار هؤلاء الأهالي الهاربين من الموت. رآه الناس فعرفوه وأخذوا يتصايحون يطلبون نجدته.

صحب أبو دقل كنبال الشايقي[1] ورجاله من (العبيد الفرسان الذين يعتمد عليهم في القتال). وعاد إلى أبوحراز يحاول رفع يد العربان عن الناس وتخليصهم منهم. ثم وجه أبو دقل نظيم أفندي بأن يمضي أمام الناس الهاربين حتى يصل إلى مركز الحكومة لتخف لنجدتهم وحمل الماء إليهم حتى لا يموتون من الظمأ. وعند وصولهم – إلى الأبيض – علم أهل البلد بالأخبار فخرجوا جميعهم كباراً وصغاراً يحملون الماء بالقرب ويقدمونها لهؤلاء المساكين في موقع أبعد من قوز الفكي ود البرد. ووصف ميخائيل الحالة بأنها كانت «هولاً من الأهوال» ليس لها مثيل حيث انطرح الناس على الأرض وبلغ بهم التعب مبلغاً عظيماً من الركض المستمر والمشي على الأقدام لمدة يومين كاملين.

وقال يوسف ميخائيل إن الشيخ عبد الرحيم أبو دقل حضر مع جماعته وفرسانه أمام سعادة مدير مديرية كردفان. وحضر معه نظيم أفندي الصراف. وأبلغوا المدير بتلك الأحداث من بدايتها إلى نهايتها. وكيف تم تخريب أبوحراز وقتل رجالها ونساؤها وأطفالها ونهبت الأموال والرقيق والمواشي. وأشاد نظيم أفندي بالشيخ عبد الرحيم أبو دقل. ونسب إليه الفضل في إنقاذ الأهالي من يد العربان ووصفه بالبطل سيد الفرسان وصاحب النخوة العربية. ومن جانبه شكر المدير الشيخ عبد الرحيم وقال له (إنني

1. ربما كان يقصد بشير كمبال.

أشكرك من صميم الفؤاد وإن هذه الوظيفة صغيرة في حقك[1]!! لما ظهر لنا منك هذا الصنيع. (وأنزله أحسن منزلة وزاد في إكرامه). وتقدم أهالي أبوحراز من مختلف القبائل بالشكر إلى الشيخ عبد الرحيم أبودقل.

لم ينس يوسف ميخائيل سخرية العربان من ضحايا الأحداث فقال إنهم كانوا يرددون:

الدنقلاوي لما العطـش ضبـاه

لحــــم الجــــداد صـــباه

والمـــوت مـــــــــن وراه

الواضح من هذه الكلمات الشامتة أنهم كانوا يضمرون حقداً على التجار الدناقلة وحياتهم التي اتسمت بالترف وحياة الدعة باعتبارهم تجاراً أغنياء. وما أورده يوسف ميخائيل جزء من ملاحظاته حول جشع التجار في منطقة كردفان وإستغلالهم للأهالي البسطاء.. في تلك الأيام التي لم تلبث أن شهدت الانفجار الثوري الكبير الذي كان من أهم أسبابه ظلم الحكام وجورهم. لم يكن هذا الهجوم على أبوحراز سوى تنفيس عن ذلك الظلم الذي رزحوا تحت وطأته.. وخاصة جباية ضرائب القطعان التي أثقلت كواهلهم وكانوا يرون فيها تعدياً على أموالهم ما له من مبرر.

هاجر الشيخ سنادة ود بلال في هجرته الثانية من ود شلعي إلى أبوحراز[2] يطرق أبواب الرزق بممارسة التجارة في منطقة كردفان الغنية وبات واحداً من كبار الأثرياء. إلا أننا لا نعرف على وجه التحديد متى كانت هذه الهجرة؟!. والواضح من استغاثة العبيد – مولى سنادة – بأولاد عثمان في معسكر المهدي في قدير أن هؤلاء الأقارب كانوا على إتصال دائم ببعضهم البعض. وما الزواج الذي جرى على وجه السرعة إلا

1. ربما كان يتقاضى مرتباً من الحكومة نظير خدماته بجمع الضرائب وغيرها.
2. الأولى كانت من حفير مشو.

تعبير عن أن أولاد عثمان كانوا أقرب الأولياء لبنات سنادة. فقد تزوج أبوقرجة من آمنة بنت سنادة وزكريا من شقيقتها بتول. أما الحسن فقد تزوج أرملة محمد ود سنادة وهي ستونة بنت حاج إبراهيم. وذلك بعد إنتهاء عدتهن. وقد ظلت هؤلاء النسوة جزءاً من نسيج العائلة وتاريخها على الرغم من أنهن لم ينجبن من أولاد عثمان الثلاثة الأشقاء.

عاشت الحاجة بتول بت سنادة في أم غنيم حتى سنوات الثلاثين من القرن العشرين. وقد كانت وثيقة الصلة بوالدنا باعتبارها أماً له.. حتى سمى إحدى كريمتيه على اسمها. أما آمنة بنت سنادة فقد ذهبت إلى الهلالية حيث تزوجت مرة أخرى وأنجبت. ويبدو أن أبوقرجة قد طلقها حين بات أسيراً في المنفى. أما ستونة التي كانت زوجة لمحمد ود سنادة فقد ترملت مرة أخرى بإستشهاد جدنا الحسن في دنقلا. وعاشت أيامها الأخيرة في القراصة إلى أن توفاها الله.. عليها الرحمة.

ما زالت علاقاتنا حية متجددة مع أهلنا آل سنادة. والأستاذ مكي حريص عليها شديد الحفاوة. وقد التقيت به لأول مرة – وما زلنا طلاباً - بمدينة الدلنج حيث كنت أزور شقيقي الراحل مصطفى. وذلك خلال عطلاتي المدرسية.. في أيام لا تنمحي من الذاكرة. وكنت ألقى هناك أخي محمد السيد محمد سنادة والد مكي وإسماعيل وبكري وملكة. كان يعمل بالتجارة في تلك المدينة. وكنت أجد منه ترحيباً حاراً وعاطفة صادقة. فقد كان يحفظ تاريخ العائلة وتنطوي جوانحه على محبة غامرة لأجداده أولاد عثمان. كما كنت التقي بأهلنا سلالة جدنا الفكي عبد الله ود الأمين ود شمت – أولاد عمتينا رقية وأم كلثوم وعمنا عثمان زين العابدين وبقية أهلنا من القراصة. وفي أحد أعوام الستينات نقل إلى مدينة كوستي سر الختم مكي شيخ جودة – حفيد آمنة بنت سنادة – مديراً للمساحة فاحتفى والدنا بقدومه وسر سروراً عظيماً ما زلت أذكره.

والتقي الآن بأفراد من سلالة آمنة بنت سنادة بأمدرمان الذين ما زالت بقيتهم تعيش في مدينة الهلالية.

ابن كاشـــــــات

محمد نصر عثمان العربي

ابن كاشـــات

محمد نصر عثمان العربي

باغتهم حين أخذ يدفع بسيقانهم الصلبة النحيلة. أخذوا يتصايحون «هاي الول... هاي الول» وهو يمرق من بينهم مسرعاً. كان ينزع يده كلما أمسك بها أحدهم بقوة فتى مفتول الساعد. بلغ المنطقة التي يريد دون أن يدركوه. وجد نفسه مواجهاً ذلك الرجل المهيب الجالس على سرير صغير يحيط به عدد من الرجال. إنتبه الرجل المهيب لظهور ذلك الصبي الأشعث زريء الهيئة. إنتهر حراسه حين حاولوا أخذه بعيداً عنه. ناداه فاقترب منه. سأله ابن من أنت؟ أجابه ابن نصر كاشات.إعتدل الرجل في جلسته وبانت على وجهه علامات الدهشة والفضول. «ابن نصر الشهيد أنت؟» أجاب نعم. أين تقيم الآن. رد عليه بأنه يقيم مع والدته بأم درمان. لم يمض الرجل في الأسئلة والإستفسار. اكتفى بما بدر عنه. فقد كان يعلم كل كبيرة وصغيرة عن تلك العائلة التي كان كبيرها يرزح في الأغلال في سجنه البعيد بجزيرة الرجاف.

أمر الرجل على الفور بإستدعاء حلاقه الخاص. فانهمك في حلاقة شعر رأس الصبي الكثيف على مرأى من الناس. أمر بإعداد راحلة تحمل شيئاً من الذرة والسمن واللحم المقدد والويكة والبهارات. كما أمر بإحضار صرتين إحداهما تحتوي على ملابس للصبي والأخرى على ملابس لوالدته وصرفه إلى منزله.

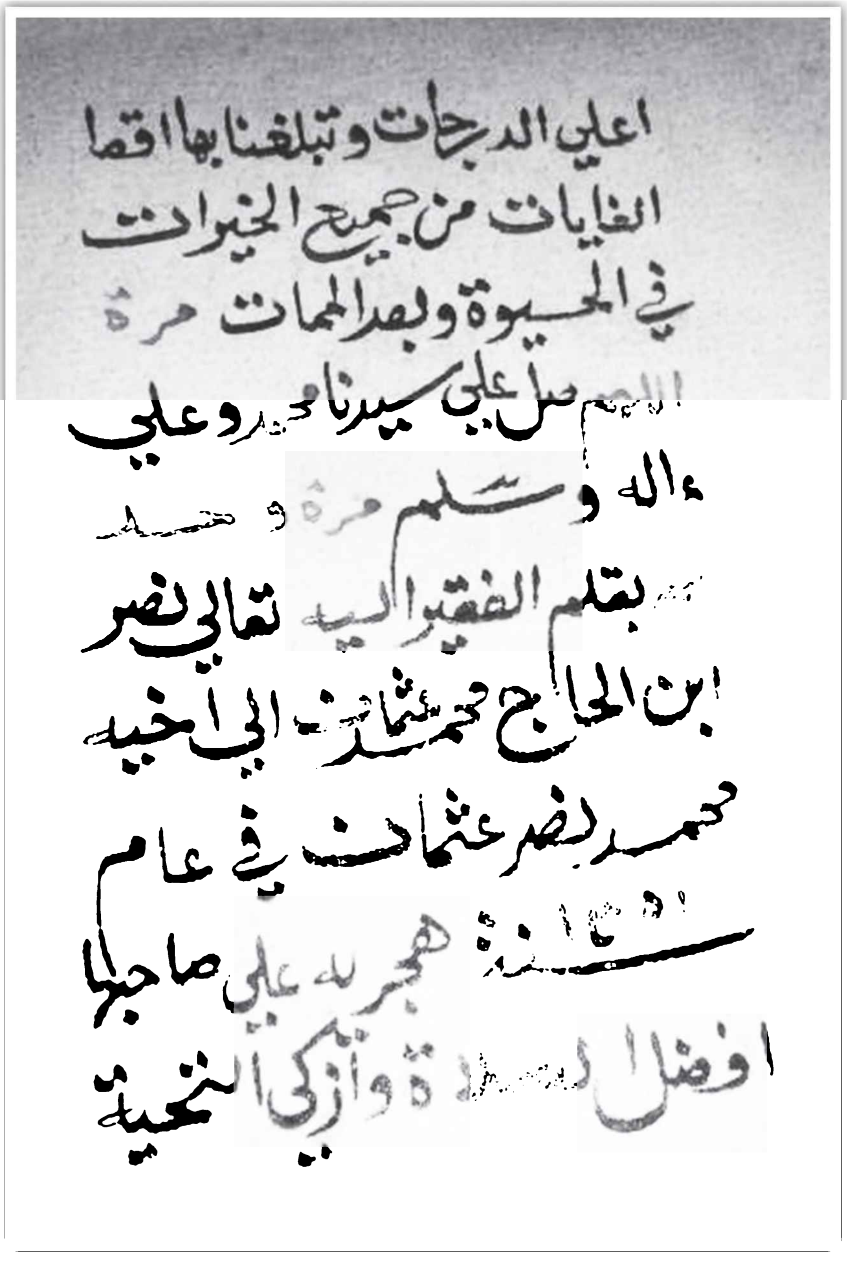
كانت أمامة بنت الفكي النضيف امرأة تقية ورعة. تكثر من الصلوات وقراءة القرآن. عاشت حتى سنوات الأربعين من القرن العشرين. رآها أهلنا شيخة يلازمها الوقار. تضع مسبحتها على عنقها دائماً. قيل إن أصلها من قبيلة الفولاني.

صبرت أمامة وترددت كثيراً قبل أن تبعث بابنها الصبي إلى بلاط الخليفة. فقد كانت

عفيفة أبية. ولما خشيت على حياتها وحياة صبيها من الهلاك جوعاً إتخذت ذلك القرار. كانت المجاعة تفتك بالناس من حولها وهي غريبة عن أهل صبيها الذين تبعثروا ولم يبق بأمدرمان إلاَ القليل منهم. ومعظمهم من النساء. كان إبنها قد تيتم مبكراً حيث إستشهد والده في معركة الجريف وقد إستشهد إلى جانبه شقيقه مصطفى في ذات اليوم. كما إستشهد عم الصبي حسن بن عثمان في دنقلا. كان عمه الأمير أبوقرجة لا يزال في منفاه وأعمامه الثلاثة الآخرون الذين كانوا على قيد الحياة وهم الحسين وزكريا وعلي قد أقاموا في القطينة نهائياً بعد بلائهم المشهود في معارك الثورة المهدية. فقد فتر حماسهم للدولة التي أقاموها بأسنة الرماح وظبا السيوف. وعادت فالتهمت بنيها بعد أن تنكرت لهم وألقت بكبيرهم "مدبر المهدية" بعيدا في منافي الإستوائية في قلب الأحراش.

نشأ ابن كاشات الذي ولد في النصف الأول من ثمانينات القرن التاسع عشر بأمدرمان. وكان يتردد في فترة صباه في أواخر أيام المهدية وأوائل القرن العشرين على منزل عمه الأمير أبوقرجة في بيت المال. لم تكن تلك الدار الرحيبة رغم غياب صاحبها خالية. كانت تغص بضيوف إعتادوا النزول فيها. يأتون من مناطق مختلفة، عشائر بأكملها وجماعات من غرب أفريقيا بعضهم يأتي للتبرك ببقعة المهدي وربما الإنضواء تحت ألوية جيوش المهدية. والبعض الآخر كان يحاول التوجه نحو الحجاز لأداء الفريضة إذا تمكن من ذلك. وقد كان ذلك عسيراً نتيجة للظروف السياسية التي كانت تسود البلاد. كانت الدار بسورها العالي المبني من طين أمدرمان الأحمر المتماسك تضم سبعة أفنية معزولة عن بعضها بالجدران. وكانت جماعات الضيوف تشيد أكواخاً من البروش داخل تلك الأفنية – وغالباً ما يكونون من قبائل الهوسا والبرنو والبرقو وغيرهم. يعيشون حياة كاملة مستقلة، يصنعون طعامهم ويغسلون ثيابهم في شاطئ النهر أمام الدار.

أما الجزء المخصص للأسرة فقد كان يضم أربعين غرفة، معظمها كان خالياً. وكان من أبرز الذين سكنوا في تلك الدار من الأهل جدنا الفكي عبد الله ود الأمين ود شمت


اعلي الدرجات وتبلغنا بها اقصا
الغايات من جميع الخيرات
في الحيوة وبعد الممات مرة
اللهم صل على سيدنا محمد وعلي
اله وسلم مرة
بقلم الفقير الي تعالي نصر
ابن الحاج محمد عثمان الي اخيه
محمد نصر عثمان في عام
[illegible] هجرية على صاحبها
افضل الصلاة وازكى التحية

صورة لصفحة من مختصر الراتب بخط يد الفكي نصر أبوقرجه الذي أهداه لابن عمه محمد نصر (كاشات)

ود إدريس وعائلته. وهو عم الأمير أبوقرجة، وجده شمت ود إدريس هو شقيق جدتنا الكبرى مصرية بنت إدريس والدة عثمان العربي وجدة الأمير أبوقرجة. وكانت الجده ختمة والدة نصر أبوقرجة مسؤولة عن شؤون الدار وتدبير المعيشة أثناء غياب الأمير أبو قرجه. وفي حضوره كانت هي القهرمانة التي تمسك بمفاتيح الأمور. وقد كانت امرأة قوية الشخصية مرهوبة الجانب. زوجها الأول كان حمد بك التلب الذي قتل في معركة شيكان. وكانت قد عاشت حياتها الأولى في المسلمية. فاكتسبت في تلك البلدة التجارية الزاهرة وفي ذلك البيت المرموق تجارب وخبرات في الحياة. وقد إنتفع بها الأمير أبوقرجة في تدبير شؤون العائلة والدار. كما كانت مصدراً أساسياً للروايات الشفاهية الخاصة بتاريخ العائلة.

لم يكن ابن كاشات شخصية عادية تروح وتجيء فكان كثيراً ما يلفت الأنظار بقدرات مدهشة لم يجد أحد تفسيراً لها. ولربما كانت ضرباً من السحر الأسود. وتروي والدتي عليها الرحمة أنهم كانوا أطفالاً حين يزورهم ابن كاشات. فيركضون نحوه طالبين قليلاً من المال شأن الصغار. فيسأل عما إذا كان الدجاج قد باض ويطلب بيضة واحدة يقذف بها في العمود الذي يسند الغرفة فتختفي وتسقط قطعة صغيرة من العملة وغالباً ما تكون تعريفة (نصف قرش). ويحثهم على التوجه فوراً إلى سوق «أم سويقو» القريب من الدار لشراء ما يحلو لهم قبل إختفائها. وأحياناً يزورهم صبحاً فلا يجد أثراً لنار الصباح حيث إعداد الشاي والقهوة فيبدو عليه التأثر فيطلب قراطيس من الورق فيلفها ويملؤها بالرمل ويدخلها في كمه فيخرجها فإذا هي معبأة بالسكر والبن والشاي.

لا أحد يعلم كيف تعلم ابن كاشات ذلك السحر ولا أين تلقاه. وقد اتضح أيضاً أنه بارع في علم الكيمياء حين وعد السلطان علي دينار بصناعة البارود فقد كان في حاجة ملحة للذخائر. وصف معاصروا إبن كاشات بأنه كان شجاعاً مقداماً لا يبالي.

حين إستمر إحتجاز الأمير أبوقرجة في الفاشر ولم تجد المراسلات من مختلف

الجهات مطالبة بعودة الأمير إلى أمدرمان قرر نفر من أهل القطينة التوجه إلى دارفور. وكان على رأس ذلك الوفد علي بن عثمان العربي أخو الأمير وابنا أخويه محمد بن الحسن ومحمد بن كاشات. وأقاموا في الفاشر ردحاً من الزمن حيث توفى جدنا علي هناك. ثم عادوا في صحبة الأمير في عام 1907م.

كان السلطان علي دينار كثيراً ما يدعو الأمير أبوقرجة لزيارته. فيستقبله إستقبالاً حسناً ويتجاذب معه أطراف الحديث. وفي إحدى المرات دخل على السلطان فألفى ابن أخيه جالساً إلى جانبه في سرير الملك. مقرباً على نحو غير معتاد. ويبدو أن السلطان كان يبحث معه ما يمكن أن يفعله بشأن الذخائر أو أي أمور أخرى تتصل بملكات ابن كاشات. لم يبد أبوقرجة ارتياحاً لذلك الموقف وأضمر غضباً شديداً. إلا أنه لم يفصح عما كان يختلج في نفسه. ولما عاد إلى أمدرمان طرده من الدار وأغلظ في أن لا يراه مرة أخرى. ولربما تكون هناك أسباب أخرى لا نعلم عنها شيئاً. إلاَ أن ابن عمنا صبير طه روى لنا الأيام الأخيرة في حياة الأمير أبوقرجة حين اشتدت عليه العلة. وقال إن ابن كاشات كان يزور عمه الأمير كل صباح ليطمئن على صحته. إلا أنه لم يصفح عنه ولم يرد له إعتباره. وقد روى أن أبوقرجة حين دنت وفاته طلب حضور ابن كاشات فقط دون غيره للإشراف على غسل جثمانه وستره. وقد كان.

في سنواته الأخيرة تزوج ابن كاشات من زينب بنت البدوي وأنجب منها أربع فتيات كن ما زلن يافعات حين حضرته الوفاة. وكان قد إتخذ سكناً له بقعة تقع شرق مدينة كوستي – على الضفة اليمنى للنيل - مليئة بأشجار الهجليج فأطلق الأهالي عليها «هجاليج ود نصر».

وصل خبر تردي صحته واحتضاره إلى والدي وعمي حسين أبوقرجة فتوجها من مدينة كوستي إلى ذلك المكان. كانا يمتطيان حمارين. ولما عبرا كوبري كوستي إختلفا حول الطريق المؤدي إلى قرية ابن عمهما وافترقا. وصل والدي قبل عمي وأشرف على

غسل الجثمان وتكفينه ودفنه. وبعد ساعات وصل عمنا حسين. ولما فرغا من واجب تلقي العزاء أخذا يبحثان أمر عائلة ابن عمهما. فاتفقا على أن يتزوج عمي حسين أرملة الفقيد ويقوم بتربية البنات. وكان يأمل في أن ينجب منها ذرية حرم منها طويلاً، إلاَ أن ذلك لم يحدث. ولكن عمي حسين قام بكامل واجبه نحو الفتيات اليتيمات وزوجهن الأربع، إثنتين لأخويه العوض وعثمان وأخرى لأحد أبناء عمومتها والرابعة تزوجها شاب من القراصة يمت بصلة القربى لزوجته الكبرى زينب بنت أحمد الشيخ .

عودة المبارك

عودة المــــبارك

بعد تحرير الخرطوم بأيام قليلة والإنتقال إلى أمدرمان عاصمة للدولة الثورية الوليدة قام الإمام المهدي (عليه السلام) بعقد قرآن كريمة شقيقه الشهيد السيد حامد بن السيد عبد الله على الأمير أبوقرجة. كانت نشوة النصر تبدو على وجوه الناس والبشر طاغ عليها. وكان كثير منهم يرددون أهازيج النصر وأغاني الحرب. ثم ينثنون فيهللون ويكبرون. حضر خلفاء المهدي والأمراء والقادة وجمع غفير من الأنصار.فذبحت الذبائح وأولمت الولائم وانصرف الناس. بقى الأمير أبوقرجة وعدد قليل من ملازميه. ولم يمض وقت طويل حتى جاء خادم يدعوه إلى الدخول في المنازل الجوانية. كان هناك جمع من النساء يضربن الدفوف ويرددن الأغاني بلا ضجة ولا ضوضاء. فما كان الأنصار يخالفون دعوتهم الداعية لنبذ تلك المظاهر التي كان يشهدها مجتمع التركية الآفل. فلقد أشرق صبح جديد وبدأت السيادة لثقافة جديدة . تأخر الملازمون وتقدم الأمير أبوقرجة وحده فوجد نفسه وسط مهرجان من النساء والجواري . وعندما بلغ منتصف المكان قادته بعض النساء المسنات إلى حيث تجلس العروس . وعندما بلغنها أزاحت الجواري الغطاء عن وجهها الذي سفر كالبدر في ليلة تمامه . إرتبك الأمير أبوقرجة حتى لاحظت الجواري إرتباكه فارتجلن أغنية مرحة رددنها على الفور :

يا سيدي ما تخسِّر بيعة المهدي

كانت أغنية ملؤها الدعابة والعبث بددت حالة الصمت والوقار وأضفت على المكان شيئاً من الحبور.

إنتهى ذلك الفرح بنهاية ذلك المساء الإستثنائي البديع. وانتقلت العروس إلى مكان إقامة زوجها بأمدرمان حيث انزوت ضرائرها أمام تلك الطلعة البهية. والباحث في وثائق

المهدية يجد أن السيدة آمنة بنت الشهيد السيد حامد صحبت زوجها أثناء عمالته في كسلا. ففي إحدى تلك الوثائق يستبطئ وصولها ويبعث رسالة للخليفة عبد الله طالباً منه التدخل للاستعجال بسفرها. ويذكره بقوله "أنه لما كانت المصاهرة بين المؤمنين سنة حسنة فإنه لا يخفاكم أول أمر زواجنا بكريمتكم بنت السيد حامد بن عبدالله. فإنه كان بخيرة الله ورسوله ومهديّه.ولقد إختارها لنا المهدي عليه السلام بوجوده وأنعقدت عصمتها بيده وحضرته الشريفة، وباركها لنا. وبذلك إتصل النسب مع السادة الأشراف آل بيت المهدي عليه السلام (طالع الوثيقة)" وفي وثيقة أخرى يأتي ذكرها في رسالة كتبها الأمير حامد ود علي للخليفة من كسلا يصف فيها إكرامه للأمير أبوقرجة (وست بيته الشريفية).

إستمر هذا الزواج منذ حوالي مارس 1885 وحتى مغادرة أبوقرجة لأمدرمان نوفمبر 1893 إلى المناطق الإستوائية أميراً عليها. ولم يكن ذلك الزواج قد أثمر غير ولد ذكر واحد سموه المبارك. وللأسف لم أتوصل إلى التاريخ الذي ولد فيه ولكن في أغلب الإحتمالات يكون والده قد تركه مولوداً لتوه أو لا يزال جنيناً في رحم أمه.

لم يضيع الخليفة وقتاً بعد خلعه الأمير أبوقرجة وسجنه في الرجاف فعقد مجلساً على الفور ليقضي بطلاق السيدة آمنة من زوجها الأمير ويزوجها لنفسه بعد الفتوى المطلوبة في مثل هذه الأحوال.

بعد ظهيرة الثاني من سبتمبر 1892م كان طريق السردار أمسى سالكاً إلى أمدرمان بعد هزيمة جيوش المهدية. وكان المبارك لا يزال طفلاً تحمله مربيته بحر النيل. إضطربت المدينة وماجت حين دخل الجنود الغزاة. وخاصة سكان منازل أهل السلطة والحكم. أما الفقراء فقد خرجوا يبحثون عن الطعام وعن مغانم يجدونها في البيوت الكبيرة. فرح المعارضون لحكم الخليفة وغنت الجواري:

وكت الإنجليز جــونـــــا

وبالمـكنة شتـتونــــــــا

والمسـاكين غرفوا الشـونة[1]

وغنين أيضاً:

الجـــانبنه تربايـة العـــــز

وقـــرنك بالخُـمَـر بـــنز

مـا قلنـا الخـليفة بفـــز

أوقـــف الحدود يا سعـــادة الوز[2]

إتخذ الخليفة قراره بالخروج من أمدرمان والهجرة بعد صراع مع النفس إستغرق ساعات. بعدها خرج يصحبه بعض المقربين منه ولم يكن معه من النساء سوى زوجته الأولى السارة وإحدى الراهبات، التي بقيت بعد وفاة واحدة وهروب الأخرى مع أور هولدر. ولا أدري حتى الآن سبب إصطحاب الخليفة لها. وقد رسم فنان مجهول لوحة رائعة معبرة للخليفة أثناء خروجه والمرأتان ترتديان السواد وتمتطيان هجينين. يبدو أن جزءاً من أسرة التعايشي قد بقيت بأمدرمان وقد حدث لها ما حدث من إعتقال ونفي في الأيام اللاحقة. أما أسرة المهدي فقد خرجت في مجموعة الخليفة شريف التي إتخذت طريقاً آخر صوب الجنوب بمحاذاة النيل الأبيض. وقد بقيت السيدة آمنة بنت السيد حامد بأمدرمان.

أضاعت المربية بحر النيل الطفل أثناء الهرج والمرج وبداية استباحة المدينة الذي صاحب دخول الجنود الغزاة وهربت لتنجو بنفسها ولم تلتفت إليه. وهكذا فقده أهله لأكثر من عشرين عاماً.

عاد أبوقرجة من سجنه ومنفاه بعد أربعة عشر عاماً. فكان شغله الشاغل البحث عن

1. شونة حبيب، وهي عبارة عن مستودعات للغلال كانت بأم درمان

2. تعني قائد الجيش الغازي كتشنر.

ابنه. وكان يبعث برسله إلى أي مكان يشتبه بأنه موجود فيه. وظل على هذه الحالة منذ عودته في عام 1907م حتى وفاته في عام 1916م. ولكن جميع محاولاته باءت بالفشل.

في عام 1920م عندما كان السيد عبد الكريم محمد عبد الكريم. وهو من آل المهدي- بأحد مكاتب الدولة بالخرطوم رأى شاباً يقف غير بعيد. حدق فيه ملياً كأنما قد رآه من قبل. وأحس بدافع يدعوه للحديث معه. فطلب منه أن يدنو وأخذ يسأله عن أهله، كعادة الناس في ذلك الزمن. أنس إليه الشاب واقترب منه أكثر. فقد توسم فيه خيراً وأراد أن يستودعه سره وأخذ يروي قصته: أذكر في طفولتي الباكرة أن فوضى عارمة قد حدثت وإطلاق نار عنيف ودخان والناس يهربون في كل الاتجاهات. كانت هناك امرأة تحملني على جنبها، ولكنها وضعتني على الأرض فجأة واختفت. ركضت خلفها فلم استطع اللحاق بها ولم أجدها. إستوقفني أحد الجنود السودانيين واقتادني إلى مكان قابلني فيه ضابط أبيض. ومنذ ذلك الحين أصبحت ابناً له. وإنتقلت معه إلى سواكن ثم بعد ذلك إلى بورتسودان. كان اسمه مستر ماكي وأطلق عليَ اسم حسن. فأصبح اسمي حسن ماكي. ولكن في المدرسة كان الجميع يطلق عليَ اسم حسن مكي. نلت قدراً من التعليم مما جعلني اتأهل لأحصل على هذه الوظيفة بتوصية من مستر ماكي.

وتقول مصادر الأسرة إنه تعلم في السودان في المراحل الأولى وتم ابتعاثه للدراسة بالخارج. ولا تأكيد لذلك ولكن الواضح أنه تلقى تعليماً مقبولاً وبات موظفاً مرموقاً في الدولة.

وفي طفولتي أذكر أني وجدت في صندوق الأوراق الخاص بوالدي رسالة من المبارك إليه. كان يطلب من ابن عمه أن يعمل على إرسال مربيته في الطفولة بحر النيل إليه في الخرطوم. كما رأيت رسالة مماثلة كتبها إلى أخيه حسين. والغريب أنها كانت تحمل نفس المضمون. كان خطه جميلاً ودقيقاً منمقاً بالريشة والحبر الأسود.

ويروي ابن عمتي المرحوم حسن دياب محمد علي - وأمه فاطمة بنت الأمير أبوقرجة-

أنه صحب خالتيه زينب ورقية ذات صباح إلى الخرطوم، حيث كان أخوهما المبارك يقيم. كان عازباً إلاَ أن منزله الحكومي كان فيه بعض الخدم. وروي حسن أن السفرجي أعد طعام الإفطار في المائدة التي جلس عليها المبارك على الطريقة الأوربية. كان حسن يبحلق في الخبز الأبيض فقد إعتاد على خبز القمح الأسمر الذي تنتجه الطابونة في حي أبوروف. قال إن خاله لم يدعه للطعام. وظل حانقاً على تلك المعاملة حتى اكتمل وعيه وصار يغرق في الضحك كلما تذكر تلك الحادثة.إحتفظ حسن دياب بتلك الصورة النادرة لخاله المبارك وأهداني نسخة منها يراها القارئ في موضعها بالكتاب.

وفي روايته تلك العجيبة روي المبارك أنه عندما بلغ والده بالتبني سن المعاش وهم بمغادرة السودان جلس معه موضحاً حقيقة علاقته به. وأنه تبناه لأنه هو وزوجته كانا بحاجة إلى ولد. وطلب منه أن يبحث عن عائلته التي أعرب عن اعتقاده بأنها عائلة معروفة. وأخرج له من بين حاجياته جبيرة من الذهب (سواراً كان يلبسه بعض أطفال ذلك الزمن) وجبة صغيرة من الجوخ. ثم لم يلبث أن غادر السودان.

عرف المبارك الحقيقة التي لم يتوصل إليها أبداً طيلة فترة حياته السابقة بشأن هويته. وأدرك أنه سوداني أماً وأباً وليس ابناً للإنجليزي الأبيض. وروي لمحدثه كيف كان الحرج يلجم لسانه عند سؤال الناس عن والده الحقيقي. وذكر إنه عندما رأى فتاة من كرائم الأسر في بورتسودان وأراد أن يخطبها جاءه الرد سريعاً وحاسماً بالرفض.

كان السيد عبد الكريم محمد يحدق في الشاب طيلة فترة حديثه وأخذت تنتابه الشكوك ويأخذه التفكير مذاهب شتى. ويتفرس في تلك الملامح التي أخذت تبدو بوضوح أنها ملامح أولاد السيد حامد وربما ملامح الأمير أبوقرجة. ظل صامتاً كأنما أصابه شلل مفاجئ مبحلقاً عينيه حتى خرجت من فمه بعض كلمات بصعوبة، «ربما تكون ابن الأمير أبوقرجة الضائع بل هو أنت الخالق الناطق».

لم يضيع السيد عبد الكريم محمد وقتاً فاتصل من فوره تلغرافياً بعم الشاب، زكريا بن



المبارك يقف إلى جانب أخيه كنتباي نائب المأمور
في الخرطوم في حوالي عام 1922م

عثمان العربي وبأخيه كنتباي الذي أصبح نائباً للمأمور في حكومة السودان وخاله السيد حامد بن السيد حامد الذين خفوا مسرعين وتعرفوا على الشاب وأعلنوا الحقيقة لجميع أهله.فاحتفلوا به إحتفالات لم يسبق لها مثيل في أمدرمان. واستمرت الدعوات وإقامة الولائم حتى تم زواجه من إحدى كريمات السادة الأشراف آل المهدي إلا أنه لم يعش طويلاً فتوفى بعد عامين. وكان بعض أهلنا قد زعموا أن الخواجة سقاه «سم سنتين» أي يفتك به بصورة بطيئة حتى يقضي عليه نهائياً بعد تلك الفترة.

لم يخلف المبارك ولداً إلاَ أن حديثاً كان يتردد بأنه سبق أن تزوج من فتاة صومالية بعد أن أوصدت أمامه أبواب الزواج باعتباره لقيطاً يتبناه خواجة. وقيل إن الفتاة الصومالية أنجبت له ابناً ذكراً. وعندما علمت بأن أهله عثروا عليه وزوجوه إنتابها غضب عظيم فقررت مغادرة السودان والعودة إلى الصومال.

وفي سبعينات القرن الماضي أو أواخر ستيناته شهدت جامعة الخرطوم طالبة صومالية مبعوثة ذات حسن وجمال وخلق كريم حتى أحبها جميع الطلاب والطالبات. كانت تدعي أسمهان عبد السلام. وقد إتفق أن عاصرتها الدكتورة منى كنتباي أبوقرجة في الجامعة. وانعقدت أواصر صلة عميقة بينهما حتى أكملت تعليمها وعادت إلى بلادها.

روي زملاؤها إن أسمهان عبد السلام كانت تردد دائماً بأنها متأكدة من أن جدها كان سودانياً يدعي حسن مكي وأن والدها عبد السلام كان طفلاً حين عادت به أمه من السودان بعد أن هجرها زوجها. كنا نتحدث جادين بأنه لا بد من الإستفسار عن هذا الأمر والتوصل إلى حقيقته. وكانت الحاجة السارة بدري (رحمة الله عليها) تحاول أن تثنينا عن تلك التجربة. "حيث لا نفع من هؤلاء الذين تنقطع جذورهم عن أهلهم ثم يعودون". وكانت تضرب المثل بأحد أفراد عائلة بدري الذي عاش في فرنسا. ولما مرت الأيام وتبعثرنا في شعاب الأرض وغاضت فورة الشباب نسينا الموضوع برمته ولم نعد نذكره على الإطلاق.

سواقي عثمان تطل
في القرن الثالث

سواقي عتمان العربي
تطل في القرن الثالث ١

أشق دابي القطيـــــنة
وكت السنة جاتني شينة
قال لي لزمـــــك علينا
ودا ســـندك يا تبينــــة

مغنية مجهولة

ظل طيف عثمان العربي واقفاً بقامته المديدة وسمته الملوكي المهيب مستنداً على عصاه مولياً وجهه- صارم القسمات- صوب النهر.. كما سليمان الحكيم في أيامه الأخيرة أو كنخلة كوشية عتيقة عملاقة تجلل هامتها الخضرة والثمار، ملتحفاً بثوبه كالشراع الملتف على السارية والريح تحرك أطرافه فيرف رفيفاً. كان يقف ثابت القدمين على أراضي سواقيه بشاطئ بلدة القطينة. فمنذ وفاته في عام 1881م- قبيل إعلان الدعوة المهدية بقليل- منذ ثلاثة وثلاثين ومائة عام (قرن وثلث القرن) حجب عثمان العربي تلك الأراضي عن كل طامع أو دخيل. وهي أراض مسجلة منذ التركية السابقة- لتؤول في عام 2014 لأحفاده الذين فوجئوا بتلك الإضافة المعنوية التي تجدد الذكرى وتسري في شرايين التاريخ وتثري تجربة الفتي عثمان التي اتسمت بالتصميم والمثابرة.

كان هذا المؤلف قيد الإعداد حين فاجأتنا أوراق قديمة تم العثور عليها من بين محفوظات العائلة. إحتوت على ملكية بعض الأراضي الواقعة ما بين بلدة القطينة الحالية وشاطئ النهر. ويبدو من مواقعها ومساحاتها أنها كانت أراضي السواقي التي كان يزرعها جدنا عثمان. ومنذ زمان- ونحن بعد إيفاع- علمنا أن هناك كثيراً من

أراضيه بمنطقة القطينه قد تم استبدالها بأراضٍ بمنطقة أم غنيم للتوسع في مشروعها الزراعي الذي أقيم في النصف الأول من أربعينات القرن العشرين. ونعتقد أن هناك أراضي أخرى ربما نجّدُ في أثرها إذا أذن الله. وكشفت الأوراق أن تلك المساحات الزراعية الموضحة في شهادة تسجيل مركز الدويم- مربوع القطينة- قد تم توزيعها لورثة عثمان العربي وتقسيمها على الشيوع في حوالي عام 1910 حسب اعتقادنا والله أعلم- أي منذ أكثر من قرن- إلاّ أنه لم يتقدم أحد مطالباً بنصيبه طيلة هذا الزمن.

ومما يدعوني لتقدير هذا التاريخ هو أني وجدت اسم الأمير أبو قرجة يتصدر قائمة الورثة. فبعد أن عاد أبو قرجة من منفاه في عام 1907 لم يقم بالقطينة بل أقام ما بين أم درمان وقرية أم غنيم التي أعاد إستصلاح أراضيها فباتت واسعة خصيبة معطاءة إستغنى بها عن أراضي القطينة. فكان يستقل سفينته الشراعية «شق النص» من أمام بوابة منزله بشاطئ النيل في بيت المال حتى يصل إلى أم غنيم- متجاوزاً موطنه القديم- ويعود على نفس المنوال، حتى توفاه الله في عام 1916.

وبحلول عام 1908 كان خمسة من بني عثمان العربي قد لقوا وجه ربهم. ثلاثة منهم قتلوا شهداء برصاص الغزاة المحتلين.. نصر ومصطفى في معركة الجريف في أغسطس عام 1884 والحسن في معركة جنس بدنقلا في ديسمبر عام 1885. وتوفي علي شهيداً في غربته في عام 1905 بالفاشر حين لحق بأخيه أبو قرجة بعد وصوله إلى هناك قادماً من منفاه بالإستوائية. أما حسين عثمان فقد إعتقله الانجليز في عام 1908 إثر إنتفاضة عبد القادر محمد إمام «ود حبوبة» وسجنوه في غرفة ضيقة شديدة الحرارة سيئة التهوية. ولما أفرجوا عنه كف بصره وتدهورت صحته حتى توفي بعد وقت قصير، فاستحق الشهادة التي لم ينلها بين صليل السيوف ودوي المدافع.

أقام سابعهم جدنا زكريا الذي إمتد به العمر حتى عام 1946 بأم غنيم. وكان هو هو الابن الثاني لعثمان العربي الذي تضمنته قائمة الورثة. فإخوته الخمسة قد ورثهم

أبناؤهم القليلون الذين تركوهم أطفالاً ورحلوا شهداء في شرخ الشباب. ضمت القائمة اسم الوالد وأخاه محمد الحسن عثمان وابني عميهما محمد بن نصر عثمان (كاشات) ومصطفى بن حسين عثمان وبنات عميهما مصطفى عثمان وعلي عثمان. وقد ورد اسم مدينة عثمان العربي وغاب اسم اختها مصرية التي كانت قد توفيت وورثها ثلاثة من أبنائها (ولد وبنتان) وهم إبراهيم وآمنة وفاطمة فضل. ذلك بالإضافة إلى زوجات هؤلاء الشهداء.

كان الأمر بالنسبة لي يحمل طابع الإثارة والإنفعال مثلما كانت تجربة جدنا عثمان الذي هاجر من موطنه في أقصى الشمال قبل حوالي مائة وتسعين عاماً (1823) يبحث عن الثراء والتوسع في الأراضي له ولسلالته فأضحت مهمته أعظم من ذلك وأجل فأنجب أبناء دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وشاركوا في تحرير الوطن وتحديد قسماته وهويته وإعادته إلى قلب التاريخ مجدداً بين الأمم الحرة الأبية .

وها نحن في أبريل عام 2014 نعثر على هذه المستندات التي لا تعني لنا شيئاً سوى التوثيق. فهذه الأفدنة القليلة لا تكفي ولا تعين كثيراً هذه العائلة التي عاشت في ظل الكفاف متسربلة بالستر والعفاف. لم تساوم ولم تبحث عن ثمن.

بتاريخ 29 مايو 2014 كنت محظوظاً حين تسلمت قرار محكمة التسجيلات بالقطينة والذي يقضي بأيلولة السواقي الزراعية التي يعود تاريخها إلى مئة وسبعين عاماً إلى ورثة عثمان العربي فجددت ذكرى مرابعه المخضلة الزاهرة وأيامه الغر الذاهبات الباقيات .